

دكتور الطاهر أحمد مكي

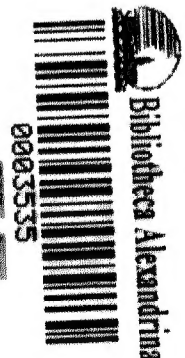
دراسات أندلسية

في الأدب والتاريخ والفلسفة

الطبعة الثالثة



دار المعارف



دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة

حرر بعضها ، وترجم البعض الآخر

دكتور الطاهر أحمد مكي

أستاذ الأدب

كلية دار العلوم بجامعة القاهرة

الطبعة الثالثة

١٩٨٧



دار المعارف

- الطبعة الأولى:
جمادى الآخرة ١٤٠٠ هـ
مايو ١٩٨٠ م
- الطبعة الثانية:
صفر ١٤٠٤ هـ
ديسمبر ١٩٨٣ م
- الطبعة الثالثة:
جمادى الأولى ١٤٠٧ هـ
يناير ١٩٨٧ م

الإهداء

إلى طالباى وطلابى فى كلية دار العلوم ،
وإلهم فى قسمى اللغة العربىة فى كلتئى الآداب والترىة فى جامعة
الزقازىق ،

إلى الذىن تخرجوا منهم ومن لا يزالون على الطرىق ،
وإلى أهلى ورفاقى وأصدقائى وزملائى ...
عرفاناً باقىاً بما غمرونى من مشاعرهم الدافئة ، وعواطفهم الكرىمة
الصادقة ، إبان وحدتى مصاباً ، فكانوا العزاء والسلوى ، والأنىس
والسمىر ، والعضد والساعدا ، ومع نبلى مواساتهم اجتزت المحنة إلى بر
السلامة والأمان .

إلهم جمىعاً ... شاكراً ومقدراً وممنوناً

○ كلمة :

يضم هذا الكتاب مجموعة متفرقة من الدراسات ، ولكنها تتلاقى في موضوعها ، فهي تدور حول الأندلس ، حضارته وأدبه وفكره وتاريخه ، بعضها حرره المؤلف ، والبعض الآخر ، وهو الأقل ، ترجمه لعدد من كبار المستشرقين الإسبان ، وهم شركاؤنا في هذا التراث ، ويكتبون - في جملتهم - بروح موضوعي حين يعرضون له ، قدر ما تسمح لهم به ظروفهم .

بعض الدراسات التي قمت بها نشر في عدد من المجلات المتخصصة ، في مصر أو في بقية العالم العربي ، وآثرت جمعها في كتاب لأن المجلات بحكم طبيعتها ، ونتيجة ما انتهى إليه العالم العربي من فرقة محزنة ، وقطعية مدمرة ، إذا بلغت قطراً منه لا تبلغ الآخر ، وينتهي وجودها بعد صدورها بأيام ، ولكن الكتاب أفضل قدراً ، فهو ينتظر الراغب لسنوات ، ومن يطلبه يجده ، وإذا نفذ يعاد طبعه ، ورغم كل المصائب لا تزال العلاقة بين الشعوب العربية بعامة ، وبين المثقفين منهم بخاصة ، تسير في طريقها نحو الوحدة ولا صلة لها بالسياسات الرسمية ، وهي قصيرة النظر ، وتقوم على الأناية المفرطة ، إنهم يتلاقون ويتفاهمون ، يحاورون ويتناقشون ، يتفقون ويختلفون ، ولكنهم في نهاية المطاف أبناء أمة واحدة ، وأخوة متحابون ، رغم كل الضواغط الظاهرة والخفية ، لأن الغاية واحدة والهدف مشترك ، وإن اختلفت الوسائل وتباينت وجهات النظر .

قد تختلف المناهج في دراسة عنها في أخرى ، تبعاً لاختلاف اللحظة ، وتباين النظرة ، وقد يعرض للفكرة الواحدة ، بحملة أو مفصلة ، كاتبان أو أكثر ، وقد ترد في دراستين ، فيصبح معنا أكثر من وجهة نظر ، في انتظار من يرجح إحداهما ، أو يضيف إليها جديداً ، في ضوء ما يجد كل يوم ، من مخطوطات لم تنشر من قبل ، ووثائق اكتشفت حديثاً ، وقد تتكامل الدراسات فيما بينها ، فتمس إحداهما جانباً من الموضوع ، وتمس الثانية

جانباً آخر ، وبالجمله فإن هذه الدراسات تقدم في مجموعها صورة متكاملة لبعض جوانب الحياة الفكرية في إسبانيا ، أيام كانت تتحدث العربية وتدين بالإسلام .
أما المستشرقون الذين اخترت لهم بعض دراساتهم فأربعة :

خوليان ريبيرا : Julian Ribera (١٨٥٨ - ١٩٣٤) ، وكان أمة وحده في عالم الأندلسيات ، لم يكن مجرد مستشرق فحسب ، وإنما كان باحثاً عظيماً ، ومؤرخاً قديراً للثقافة الإسلامية ، ومفكراً أصيلاً ، وأستاذاً بكل ما تحمل الكلمة من جلال ، رغم الظروف القاسية التي عمل فيها ، فجل مصادر الأندلس على أيامه كانت مخطوطة ، والمطبوع منها أسوأ من المخطوط ، وقليل جداً منها كان يبلغ إسبانيا . وقد اخترت له دراستين ، أولاهما دراسة موازنة بين كتابي : **تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية** ، وكتاب **أخبار مجموعة لمؤلف مجهول** ، وفيها يقدم المثل واضحاً للباحث المقتدر في تحليل النصوص واستنطاقها ، والوصول إلى هوية المؤلف المجهول ، ملاحظه وصفاته وأصوله ومعتقداته وموطنه ، وإن جهلنا اسمه ، ولا أهمية لهذا في تقويم محتوى الكتاب . وكانت دراسته الثانية عن « **الأصول العربية لفلسفة رايغوند لوليو** » وهي الأولى فيما أعلم ، وحسبك به رائداً في هذا المجال .

وأما الثاني فهو **ميجيل أسين بلاثيوس** Miguel Asin Palacios (١٨٧١ - ١٩٤٣) ، وهو تلميذ خوليان ريبيرا ، ومنه تسلم الراهية ، ووقف حياته على دراسة الفلسفة الإسلامية بعامة ، وفي الأندلس بخاصة ، وكان دوره فيها عظيماً ورائعاً : ترجم روائعها إلى الإسبانية ، ونشر عدداً من مخطوطاتها المجهولة ، وتتبع روافد العطاء والأخذ بينها وبين الفلسفة الأوروبية ، ولا يدانيه في عمق تمكنه منها أحد من المستشرقين . غير أننا يجب أن نضع في الاعتبار دائماً أنه كان راهباً من رجال الكنيسة الكاثوليكية في إسبانيا ، وفي أظلم أيامها ، يخضع نشاطه ودراساته وكل ما ينشر لرقابة الكنيسة مسبقاً ، وموافقتها بدءاً ، وهو بحكم وضعه ملزم بخدمة أهدافها ، كما يتلقاها من رؤسائه ، ولا حرية له في رفض ما يطلب منه أو تركه أو انتقاده ، ومن ثم فحين نجد بين تعابيره ، وهو قليل ، مالا ترتاح إليه نفوسنا دينياً ، أو علمياً ، فلنعذره ، فلغيرنا كان يكتب ، وربما من أجل هذا القليل سمحوا له

بالنشر ، والجليل الذى أبدعه فى هذا المجال يشفع له ، ويجعله دائماً موضع الإحترام والتقدير منا . وقد اخترت له دراسة قيمة عن زاهد ألمرية « أبو العباس بن العريف وكتابه محاسن المجالس » وهو صوفى مجهول بيننا ، رغم أن كتابه سبق أن طبع فى القاهرة منذ خمسة وثمانين عاماً ، وقام بلاثيوس نفسه بطبع الكتاب بالعربية ، وترجمه إلى اللغة الإسبانية فى مدريد عام ١٩٣١ م . وهو لا يقف عند الزاهد وحده ، وإنما يلتقى بعض الضوء على الحياة الثقافية فى مدينة ألمرية ، وازدهرت حيناً وتنوعت ، ولو أن التاريخ جار عليها ، فلم يعطها من العناية ما أعطى قرطبة أو إشبيلية أو غرناطة أو حتى طليطلة . وكانت الدراسة الثالثة للعالم الجليل أنخل جونثالث بالثيا Angel Gonzalez Palencia (١٨٨٩ - ١٩٤٩) ، صاحب الكتاب الرائع عن الأدب الأندلسى ، والدراسات المهمة عن المستعربين فى طليطلة ، فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين ، ودراسات أخرى كثيرة ، تتميز بالدقة والعمق ، والأصالة والموضوعية ، واخترت له دراسة عن « الشعر العربى وتأثيره فى الشعر الأوربى » ، وهو بحث مركز ، وملهم ومستنير ، ويفتح أمام الراغب فى هذا المجال احتمالات كثيرة ، ويضىء له ، فى طريقه ، جوانب عديدة .

ولكى تكون صورة الحياة الفكرية فى مدينة ألمرية واضحة لدينا ، بعض الشيء على الأقل ، اخترت دراسة عن شاعرها ابن خاتمة ، للمستشرقة الإسبانية الفاضلة الدكتورة سوليداد خيبيرت Soledad Gibert ، وهى أستاذة الأدب العربى فى كلية الآداب بجامعة مدريد المركزية ، وفيها تخرجت ، ومنها حصلت على الدكتوراه ، ثم عملت حتى أعوام قليلة خلت أستاذة بكلية الآداب فى جامعة برشلونه ، وتخصصت فى دراسة الحياة الفكرية والأدبية فى مدينة ألمرية ، ووقفت جهدها على تتبع النشاطات الثقافية المختلفة فى هذا الثغر الأندلسى الهام ، خلال القرون الثلاثة الأخيرة من حياة الإسلام الإشباني . وقد حققت ديوان ابن خاتمة ، وترجمته إلى اللغة الإسبانية ، وقدمت للترجمة بدراسة ممتازة عنه ، وعربت هذه المقدمة لما تتسم به من عمق التناول ، ومنهجية البحث ، وأناة فى حل مشكلاته ، وصبر دءوب على تتبع قضاياها ، وصدق وإخلاص جديرين بكل تقدير

وإجلال . ولها إلى جانب هذا أبحاث أخرى عن ابن خاتمة نفسه ، وعن غيره من العلماء الذين ارتبطوا به بسبب أو بآخر .

أما منهجى فى التعريب فعرضت له أكثر من مرة فيما نشرت من أعمال أخرى ، وحسبى أن أشير هنا إلى أننى التزمت الأمانة فى النقل ، وحرصت على الأصل نصاً وروحاً ، ولم أتدخل معلقاً أو معقّباً إلا فى حالات قليلة حين تستدعى الضرورة العلمية هذا ، وجل هذه التعليقات جاءت فى الهامش تعريفاً بأعلام أوربية لا يعرف القارئ العربى المتوسط الثقافة عنها شيئاً ، ومهما يكن فقد أشرت إلى ما أضفته فى كل الحالات صراحة ، أو وضعته بين معقوفتين .

وبعد ، فأدع هذه الدراسات تواجه القارئ بنفسها ، ليقول فيها رأيه ، وغاية أملى أن يرضى عنها ، وأن يحس معها أنه عرف جديداً ، وتعلم شيئاً ، وتذوق جمالاً ، ولم يضع وقته عبثاً .

وإن جاءت دون ما يمتنى فبحسبى أننى ما أبقيت من جهدى شيئاً . وعند الله المثوبة ، وبه التوفيق ، ومنه الهداية .

الظاهر أحمد مكى

٣٩ شارع المراشى - العجوزة

القاهرة الكبرى

١٠ من ذى الحجة ١٣٩٩ هـ

٣١ من أكتوبر ١٩٧٩ م

الأندلس

تاريخ اسم وتطوره

مع أول جماعة من المسلمين وطئت أرض إسبانيا تها التاريخ لمرحلة جديدة في سيره : العرب يفتحون أوروبا . وفي جانب منها ، لاتيني وكاثوليكي ، يستقر الإسلام ، وتعلو كلمة الله ، وتصبح العربية لسانا ، وعلى بطحاء شبه الجزيرة تتعايش أجناس من البشر واللغات والعقائد ، وفي ظل الإسلام يتنفس الناس جميعاً جواً سمحاً جميلاً ، من اليسر والإخاء والمساواة ، لم يعد الملوك مردة جبارين ، متعتهم القهر ، ولعبتهم الإذلال ، ولم يعد المستضعفون في الأرض رقيقاً يصنع الرفاهية دون أن يشارك فيها ، ويذل صعاب الحياة دون أن يأخذ بحظه منها . لقد أدار المجتمع مع الإسلام ويعون منه ظهره للأمس ، وما هو غير صالح من عاداته وتقاليده ونظمه ، ليواجه غداً متفائلاً ، أخف أثقالاً ، وأطيب عيشاً ، وكان من بين الجديد الذي جاء به الإسلام اسم لشبه الجزيرة لم تعرفه من قبل : الأندلس .

كان الفاتحون المسلمون أول من أطلق اسم الأندلس على هذا الجانب من الأرض ، أما قبلهم فعرف اسمين مختلفين . أطلق عليه الإغريق لفظ إيبيريا Iberia ، وكان يقصد به في البدء منطقة ولبه Huelva ^(١) ثم أصبح يطلق على كل المنطقة الممتدة شرقاً على شاطئ البحر الأبيض المتوسط ، واتسع مدلولها حتى أصبحت تطلق على كل شبه

(١) تطلق ولبه الآن على مقاطعة كبيرة تتأخم مقاطعتي أشيلية وقادس من الشرق ، والبرتغال من الغرب ، وشمالاً مقاطعة بعلبوس . ويمر فيها نهر صغير يسمى النهر الأحمر Rio Tinto ، ونهر آخر يسمى أوديل Odiel ويصبان متقاربين في خليج واسع ، تتأثر فيه عدة جزر صغيرة ، أكبرها جزيرة شلطيش ، وبين المصين ، على رأس يفصل بينها ، تقع ولبه الحالية . وهي ميناء كبير ، ومركز هام لصيد الأسماك ، وقاعدة المقاطعة التي تحمل اسمها ، وهي موطن أسرة ابن حزم العالم الأندلسي العظيم ، وخرجت من دار الإسلام نهائياً عام ٦٤٦ هـ - ١٢٤٨ م ، على يد فرناندو الثالث المعروف بالقدس .

الجزيرة^(٢) ، ونجد اللفظ مستخدماً لأول مرة في مؤلفات Hecartee de Milet وهو مؤرخ وجغرافي لإغريق عاش في القرن السادس قبل الميلاد^(٣) ، وملتقى باللفظ أيضاً عند المؤرخ اليوناني هيرودوت ، وعاش في القرن الخامس قبل الميلاد ، ويأتى المؤرخ الإغريق بوليبيوس ، وكان في شبه الجزيرة نفسها خلال الثلث الأخير من القرن الثاني قبل الميلاد ، فيلق على مفهوم اللفظ مزيداً من الوضوح : « يطلق اسم إيبيريا Iberia على الجزء الواقع على البحر الأبيض ، ابتداء من أعمدة هرقلوس (مضيق جبل طارق الآن) ، أما الجزء الواقع على الأطلنطي فليس له اسم يعرف به ، لأنه اكتشف منذ قريب » . وجاء بعده المؤرخ استرابون ، وعاش في نهاية القرن الأول الميلادي ، فاستخدم اللفظ يريد به كل شبه الجزيرة . وقد ظل الكتاب الإغريق يستخدمون هذا اللفظ ومشتقاته ، حتى أولئك الذين كانوا يعيشون في بيئات لاتينية خالصة^(٤) .

وهي حقيقة لم يغفل عنها الجغرافيون العرب القدامى ، يقول أبو عبيد البكري ، المتوفى عام ٤٨٧هـ = ١٠٩٤م ، وهو أعظم جغرافي عرفه الأندلس ، في كتابه : « المسالك والممالك » ، ويتميز بالدقة والوضوح والبعد عن الأساطير ووصلنا في جانب منه وضاع الباقي^(٥) : « يذكر أن اسمها في القديم إبارية Iberia ، من وادي إبرة »^(٦) . وجاء من بعده مواطنه الحميري ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم ، المتوفى عام

(٢) Antonio Garcia Y Bellido : Vienticinco Estampas de la Espana Antigua, P. 208, Madrid, 1967.

(٣) دائرة المعارف الأسبانية ، مادة Iberia

Antonio Garcia: Op. cit, P. 206 ss.

(٤)

(٥) وصلنا من كتاب أبي عبيد البكري : « المسالك والممالك » الجزء الخاص بأفريقيا ، وبدأ المشرق الفرنسي كترير ، المتوفى عام ١٨٥٧م بترجمته إلى اللغة الفرنسية وأتم الترجمة أستاذة ومواطنه البارون دي ساسي ، المتوفى عام ١٨٣٨م ، وبشر الأصل العربي في سنة ١٩١١ ، والترجمة الفرنسية في سنة ١٩١٣ ، وعثر لي بروفنسال على الجانب المتصل بإسبانيا ، وقد نشره الدكتور عبد الرحمن على الحجي أخيراً بعنوان : « جغرافية الأندلس وأوروبا » ، عام ١٣٨٧هـ = ١٩٦٨م .
(٦) أبو عبيدة البكري : المسالك والممالك ، ص ٥٨ ، طبعة عبد الرحمن حجي .

٨٦٦هـ - ١٤٦١م ، فنقل عنه هذا النص دون زيادة ، في كتابه : «الروض المعطار في خبر الأقطار» (٧) .

والاسم الثاني إسبانيا Hispania ، وأطلقه عليها الإغريق أيضا ، أو على الأقل أول ما نلتقى به في كتاباتهم ، ولو أن أصل الكلمة يجب أن نبحت عنه في لغة قوم أقدم من اليونان . ويرى الكاتب بوتشارت Bochart في كتابه «الجغرافية المقلصة» وصدر في مدريد عام ١٧١٢م ، أن الاسم مشتق من الكلمة الفينيقية سبان Span بمعنى بلاد الأرانب ، لأن شبه الجزيرة كان غنياً بهذا النوع من الحيوان . وإحدى العملات القديمة التي وصلتنا من عصر الإمبراطور أدريانو Adriano (٧٦ - ١٣٨م) تمثل إسبانيا في شكل أم جالسة بين قدميها أرانب (٨) ، وهو تفسير يرفضه الباحثون المعاصرون دون أن يقدموا له بديلاً . نعم ، هناك من يرى أن الكلمة ربما كانت من أصل سلتى ، وأن أصلها في هذه اللغة هو نفس أصل الكلمة الألمانية Spann ، ومعناها الوادى أو المدخل أو المفتاح ، ولكنه افتراض أبعد عن التصور من افتراض الأصل الفينيقي . وقد استخدم الإغريق شكلاً ثانياً للكلمة هو Spania (٩) ، وكان الكاتب اليوناني Artemodoro أول من استخدمها (١٠) . ويشير الحميرى أيضاً إلى هذه الحقيقة فيقول : « اسم الأندلس في اللغة اليونانية إسبانيا » (١١)

وقد استخدم الرومان الكلمة اليونانية Spania بعد أن زادوا عليها حرف H في البدء فأصبحت Hispania وفي واحد من ثلاثة كتب افتتح بها تاريخ الأدب

(٧) ص ٢ ، من طبعة القاهرة .

Antonio Garcia: Op. cit., p. 214 ss.

(٨)

Antonio Ramos-Oliveira: Historia de Espana, tomo I, P. 261, México, 1952.

(٩)

Dozy: Recherches, Epsana 2 edi., Vol. I, p. 310. - Epsana (١٠) دائرة المعارف الإسبانية . مادة

(١١) الحميرى ، الروض المعطار . ص ١ .

● عثر على هذا الكتاب المشرق الفرنسى لى بروفنسال . وانتخب منه المادة الخاصة بالأندلس . وترجمه إلى الفرنسية مع تعليقات ضافية وفهارس وافية . ونشر القسم العربى بعنوان : « صفة جزيرة الأندلس » متخية من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار ، وصدر عن لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة عام ١٩٣٧ . وما يذكر أن الكتاب وقع في يد المقرئ ، المؤرخ المصرى الشهير . فاختصره في مجلد صغير .

اللاتيني ، أى فى اللحظة التى بدأت فيها اللاتينية تصبح لغة أدبية ومكتوبة ، نلتقى بهذا الاسم الذى سوف يحمله شبه الجزيرة بين العالم الغربى ، إلى أن يهبطها طارق بن زياد وجنده الفاتحون ، فى قصائد الشاعر اللاتيني أنيوس Ennius (٢٣٩ - ١٦٩ ق . م) ، ولا نغضى غير قليل حتى نلتقى باللفظ شائعاً فى كتابات كل المؤرخين والشعراء الرومانيين ، وترد كثيراً فى قصائد الشاعر الرومانى تيتو ليفيو ، وعاش من عام ٥٩ قبل الميلاد إلى عام ١٧ الميلادى . وإلى جانب هذا اللفظ استخدم الرومان شكلاً آخر له على نحو قليل وهو Spania ، ومنه اشتقت كلمة إسبانيا Espana الحديثة .

أما هيسبيريا Hesperia وترد أحياناً فى بعض المصادر الإغريقية مرادفاً بها شبه الجزيرة نفسها ، فلا يقف مفهومها عند شبه جزيرة إيبيريا فحسب ، وإنما تعنى فى اللغة الشاعرية كل الأراضى التى تقع غرباً على شاطئ البحر الأبيض المتوسط . تلك هى أسماء شبه الجزيرة قبل الفتح الإسلامى ، وتبقى معنا كلمة الأندلس ومعها سوف تدخل التاريخ بعده .

* * *

لم يعرف العرب قبل الفتح كلمة الأندلس ، وبتعبير ياقوت فى معجم البلدان : « هى كلمة أعجمية لم تستعملها العرب فى القديم ، وإنما عرفتها العرب فى الإسلام » . وباستثناء الإشارات العارضة والنادرة الواردة فى كتب الرحالة والمؤرخين والجغرافيين الأندلسيين ، فإن المصادر العربية القديمة لاتعرف أيضاً كلمة « إسبانيا » ولا تتحدث عنها ، والمؤلفون العرب عدا قلة يقولون بلاد الأندلس . فمن أين أخذ العرب هذا الاسم ؟

كان المستشرق الهولندى رينهارت دوزى ، المتوفى عام ١٨٨٣ ، أول من طرح المشكلة ، وحاول أن يجد لها تفسيراً علمياً ، وهو التفسير نفسه الذى قبله سيولد محرر مادة أندلس فى دائرة المعارف الإسلامية ، وتوسع فيه شيئاً . كلاهما يرى أن « أندلس » أخذت من لفظ Wandalucia ، وهى صيغة ربما أطلقت على إقليم باطقة Bética الذى احتله الوندال على امتداد عشرين عاماً تقريباً ، من ٤٠٩ م . ويشمل منطقة واسعة فى الجنوب الشرقى لشبه الجزيرة يخترقها نهر الوادى الكبير ، وربما أطلق أيضاً على ثغر Traducta

الذى عبر منه الوندال فى طريقهم إلى أفريقيا ، ويظن أن موقعه حاليًا مدينة الجزيرة الخضراء Algeciras ، ويفهم من الروايات العربية أن موقعه نفس المكان الذى حط فيه أبو زرعة طريف رحاله مستطلعًا ، وهو المكان الذى حمل اسمه إلى الأبد ، فعرف باسم جزيرة طريف Tarifa (١٢) ، غير أن تحديد المكان بالدقة : هل هو مدينة الجزيرة الخضراء ، أو جزيرة طريف ، أو الصخرة التى حملت اسم طارق ، مازال موضع خلاف شديد ، ولكنه خلاف لا ترتب عليه أية نتائج عملية ، لأن المواضع الثلاثة تكاد تكون متصلة .

ووفقًا لهذه النظرية فإن الفاتحين المسلمين من العرب والبربر أطلقوا اسم الإقليم أو المدينة التى هبطوا فيها لأول مرة على شبه الجزيرة كلها ، بل وعلى مادان لهم من ولايات فى جنوب فرنسا ، مثل سبتانية ونربون ، وهذا التدرج فى التسمية تدعمه رواية للحميرى يقول فيها : « إن شبه الجزيرة فى القديم كان يسمى ايبيريا ، ثم سميت بعد ذلك باطقة ، ثم سميت لإشبانيا ، اسم رجل ملكها فى القديم ، أو الإشبان الذين ملكوها فى الأول من الزمان ، ثم أطلق عليها الأندلس ، أخذًا من اسم الأندليش الذين سكنوها » (١٣) . لكن الرواية العربية ، وهى متأخرة بالنسبة إلى الفتح ، وبإزاء تسمية غامضة تحاول أن تجد لها تفسيرًا ، لاتقف عند التاريخ الخالص وحده ، وإنما تضرب فى يداء الأسطورة على غير هدى ، والحق أن أكثر ما نجد ذلك فى كتب التاريخ ، وأقل ما نجده عند الجغرافيين . فهى سميت بالأندلس لأن الأندلس بن طوبال بن يافث ابن نوح أول من سكنها ، أو أنه الأندلس بن يافث مباشرة دون عبور بطوبال ، ولتصبح القصة أكثر ثقلًا ، وتجد لها من قلوب الناس مكانًا ، وإن لم يكن لها من فكر العقلاء نصيب ، فإن سبت بن يافث ، أخو الأندلس بن يافث ، عبر المضيق إلى أفريقيا ، ونزل بالعدوة المقابلة للأندلس ، وحط رحاله فى مكان نُسب إليه ، وحملت المدينة التى نزلها اسمه ، فكانت مدينة سبتة Ceuta ، ولا تزال قائمة عامرة حتى يومنا هذا .

(١٢) دائرة المعارف الإسلامية - مادة أندلس .

(١٣) الحميرى : الروض المغطر - ص ٢ .

وتضطرب الأسطورة فتجعل من الأندلس اسماً سابقاً لاسم إسبانيا ، وتجعل من هذا اسم ملك اجتاح شبه الجزيرة وملكها وعمرها ، هو : إشبان بن طيطش ، ولا يجد القاص معنى يفهمه لكلمة إشبانيا ، فيوشها بشيء من التوابل تجعل من القصة شيئاً ذا نكهة ومذاق : « وذكر بعضهم أن اسمه أصبهان ، لأن مولده كان بها ، وأنه استحال في لسان العجم فأصبح إشبان »^(١٤) ، وهو استنتاج ذكي تدعمه قوانين اللغات ، فالهاء حرف غير منطوق في اللاتينية والسين والشين والصاد متقاربة المخارج ، ويحل أحدهما مكان الآخر ، ولما كانت اللاتينية ، والإسبانية تبعاً ، لاتعرف صوت الصاد ، فلما تستعيز عنه عند نقل كلمة أجنبية إليها بأقرب الأصوات إليه مخرجا ، وهو الشين أو السين ، غير أن هذه الإشارة وإن اتسمت بالذكاء ، يقف التاريخ منها في الجانب المقابل ، ذلك أن المؤرخين العرب اعتمدوا في هذه القضية ، وتطورها قديم موغل في القدم ، على الرواية الشفهية وحدها ، يلتقطونها قصصاً من أفواه خيرة العامة ، أو حكايات من رجال الدين ، في بلد كان غداة الفتح متواضع الثقافة ، لا يعرف التدوين كتابة في الورق ، أو حفراً على الصخر ، إلا نادراً ، فاختلطت عليهم الأمور ، ووقعوا في الخطأ حين أسرفوا على انفسهم في الاستنتاج . لأن كلمة أصبهان Saphan ، التي يشيرون إليها ، فينيقية الأصل ، ويظن فعلاً أن كلمة إسبانيا مشتقة منها^(١٥) ولكن لاصلة لها بكلمة « أصبهان » اسم المدينة الفارسية ، ولقد اختلط عليهم الأمر ، فمضوا مع القصة إلى نهايتها : الملك اسمه أصبهان ، لأنه ولد في هذه المدينة ، وباسمه سمي شبه الجزيرة لأنه ملكها ، واستحال في لغة العجم إلى إشبان . إن اسم إسبانيا أقدم بكثير من مجيء أصبهان إلى الحياة .

ومضى المقرئ في « نفع الطيب » ، نقلاً عن ابن حيان في « المقتبس » : « ذكر رواية العجم أن الخضر عليه السلام وقف على إشبان المذكور ، وهو يحرق الأرض بفدن له أيام

(١٤) انظر :

• الحميري : الروض المطار ، ص ٢ .
• أبو عبيد البكري : المسالك والممالك ، ص ٥٨ .
• المقرئ ، نفع الطيب ، ج ١ ص ١٤٢ ، طبعة مجي الدين .

(١٥)

حراثته ، فقال له : يا إشبان ، إنك لذو شان ، وسوف يخطيك زمان ، ويعليك سلطان ..» (١٦) ، ويمضى الحوار بينهما فى حديث مسجوع مصنوع أشبه بسجع الكهان . ثم دعا له الخضر بالخير ، وبشره بالملك . ولئن كان الخضر فى عالم الأساطير يتحدث بكل اللغات ، إلا أن الراوى لم يقل لنا هنا بأيها تحدث إلى هذا الشيخ إشبان .

ومع إشبان هذا تستطيع أن تمضى لحظات ممتعة ، رفقة خيال خصيب ، فهو أحد الذين ملكوا الدنيا- فيما زعموا- (والاحتراز من المقرئ!) ، استوت له الأندلس بأسرها ، ودانت له بكاملها ، واتخذ إشبيلية دار ملكه ، واستغلظ سلطانه فى الأرض ، وكثرت جموعه فعظم عتوه ، وغزا إيليا ، وهى بيت المقدس الشريف ، بعد ستين من ملكه ، خرج إليها من إشبيلية فى السفن فغنمها وهدمها ، وقتل فيها من اليهود مائة ألف ، واسترق مائة ألف ، ونقل رخام إيليا وآلاتها إلى الأندلس .

لقد أورد المقرئ فى الجزء الأول من تاريخه فيضاً من هذه الروايات وليست كلها صنعة قاص ، وإنما فيها تاريخ حقيقى كثير ، مضطرب نعم ، ومتداخل دون شك ، ولكنه مادة خصبة وأساسية لفترة تفتقد المؤرخ والتاريخ .

ويحتاط ابن حيان المؤرخ الأندلسى الجليل لنفسه ، فذكر أنه ينقلها عن رواة العجم ، وكانوا يتداولونها شفاها ، وهذا التداول الشفوى هو مصدر الخلط والاضطراب ، وحين كانت تصطدم مع موازينه فى الرواية ، ومنهجه فى التمهيص ، ويراه سبيله الوحيد لمعرفة شىء عن تاريخ الأندلس القديم ، يوردها ويعتذر لنفسه ، والحق أن هذه الأساطير لا تختص بها المؤلفات العربية وحدها ، وإن أوهم بعض المستشرقين بذلك ، إذ نلتقى بها ، كثيرة وتثير الضحك ، فى المؤلفات الإسبانية المسيحية التى كتبت فى اللغة اللاتينية ، أو فى اللغة القشتالية القديمة ، فنجدها فى : « مدونة تاريخ إسبانيا العام » ، والتى أمر الفونسو العاشر ، الملقب بالحكيم ، بكتابتها ، تأليفاً فى جانب منها ، ونقلًا عن العربية فى جوانب أخرى ، فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى ، ونجدها فى مؤلفات رودريجو خمينث

مطران طليطلة ، وعاش في النصف الأول من القرن الثالث عشر أيضًا . وفي مؤلفات أخرى كتبت في هذا القرن أو بعده ، وتعكس قصة غزو بيت المقدس وقتل اليهود وأسرههم طابع الصراع العنيف الذي كان قائما بين اليهود والكاثوليك في الأندلس ، قبل مجيء المسلمين ، وخلال حكمهم ، وبعد دولة المسلمين هناك .

* * *

ومهما يكن من أمر فقد انتشر اسم الأندلس سريعا بعد الفتح الإسلامي ، وشاع استخدامه في كتب التاريخ والجغرافية والرحلات والوثائق ، ومحا من المدونات وذواكر الناس كلمة إسبانيا تماما ، وحين كانت دولة الإسلام تشمل كل شبه جزيرة إيبيريا تقريبا ، وقسما من جنوب فرنسا ، كان لفظ الأندلس يطلق عليها جميعا ، غير أن الأمر لم يستمر على هذا النحو وبدأت حركة المقاومة الكاثوليكية تشتد في الشمال من الأندلس ، منذ القرن العاشر الميلادي ، وتجدد من البابا في روما ، ومن بقية الكاثوليك في العالم ، عونًا وتشجيعًا ، وأخذت الدولة الإسلامية تتآكل شيئا فشيئا ، حتى انحسرت في القرن الثالث عشر الميلادي داخل إقليم ضيق ممتد على الساحل ، من جبل طارق حتى مدينة ألمرية ، ويمتد داخلا في العمق حتى سلسلة جبال رندة وجبال البيرة ، ويرى معظم الباحثين من المحدثين ، وجلهم من المستشرقين والإسبان ، أن اسم الأندلس كان مرتبطا بالدولة الإسلامية وحدها ، مهما كان امتدادها ، يتسع معها ويضيق ، ويحد هذا الرأي سنده في أن المدونات الإسلامية درجت على أن تطلق على الدويلات الكاثوليكية المختلفة التي قامت في الشمال من شبه الجزيرة أسماء مختلفة ، غالبا ما تكون المقاطعة التي يملكها الحاكم مثل : نبرة وأرجون وقشتالة وأشتورياس والبرتقال ، وتسميهم النصاري أحيانا والروم أحيانا أخرى .

ولكنني لا أقبل هذا الرأي على إطلاقه ، ذلك أننا نجد على بن موسى من بني سعيد ، المتوفى عام ٦٧٣هـ = ١٢٧٤م . ومكمل تصنيف كتاب : «المغرب في حلى المغرب» يضمن كتابه جزءا خص به الأندلس المسيحية ، سماه : «كتاب لحظظة المريب فيما بقى من جزيرة الأندلس لعباد الصليب» أى أنه يمتد بالتسمية فيجعلها تشمل تلك الدويلات المسيحية

التي تكونت على حساب الدولة الإسلامية ، وانتزعت منها عددا من المدن الكبرى والهامة .

وفيما أرى ، يجب التفرقة بين المصادر العربية الأولى حين تشير إلى هذه الدويلات ، أو الشبيهة بها ، التي قامت في الشمال ، وتكونت في وقت مبكر على الطرف الثاني من شبه الجزيرة ، على أرض لم تتأصل فيها الحضارة الإسلامية يوماً ، وإن مر بها المسلمون من حين لآخر غازين أو عابرين أو ملاحقين لجيوش المسيحيين ، ومن ثم لم يرها المؤرخون الأول جزءاً من الأندلس الإسلامي ، وبين المصادر المتأخرة حين اتسعت هذه الدول ، وقوى شأنها ، على حساب الأندلس الإسلامي ، فضمت إليها مدناً ازدهرت فيها الحضارة الإسلامية ، ونفقت سوق الأدب ، وعمرت بالمعاهد والمساجد وشغلت عقول الناس واحتلت من قلوبهم مكاناً غالباً مثل طليطلة وشنترين وبلنسية وسرقسطة ، ثم إشبيلية وقرطبة ومرسية أخيراً ، فاعتبروها أندلساً وإن كانت في قبضة الكاثوليك .

يقول ابن سعيد : « وأعظم الملوك الذين توارثوا المملكة عند النصارى بالأندلس وقسموا بلادها أربعة : أذفونش ، وهو مالك قشتالة ، وهي أعمال في جهة طليطلة إلى البحر المحيط ، كانت قاعدتها قبل أن تصير لهم طليطلة مدينة غليسية ، وهي على البحر المحيط . ثم البرجلوني (نسبة إلى برشلونة) وهو ملك شرق الأندلس ، ويقال لمملكته أرغون ، لأنه كان في مدينة أرغون حتى ملك طرطوشة وبرجلونة (= برشلونة) وغيرها ، ثم الببوج وهو في بلاد الشمال مجاور لبطليوس ، وقاعدته ليون ، ثم ابن الريق ، وهو ملك جليقية ، وهي في الشمال والغرب من الأندلس ، كانت قاعدته مدينة شانت ياقوه ، وهي عظيمة إلى نهاية ، فيها معدن الذهب ، وقد صارت له أشبونة وغيرها من بلاد الإسلام ^(١٧) » .

وتقسيمات ابن سعيد دقيقة وصحيحة في مجملها ، ولكنها تحتاج إلى فضل بيان في بعض الألفاظ ، فعاصمة قشتالة قبل أن يستولى أذفونش Alfonso على طليطلة كانت

(١٧) بنو سعيد : المغرب في حل المغرب ، ج ٢ ص ٤٧٣ ، الطبعة الثانية ، تحقيق الدكتور شوق صيف ، دار المعارف ، القاهرة بلا تاريخ .

مدينة برغش Burgos ولم تكن غاليسية Galicia وفي وسط المملكة وليست على البحر المحيط ، وغاليسية وتكتب في المصادر العربية الأولى جليقية اسم مقاطعة في الشمال الغربي من شبه الجزيرة وليست اسم مدينة ^(١٨) . وأرغون ليست مدينة ، وإنما اسم إقطاعية سوف تصبح دويلة ، ثم مقاطعة من مملكة ، ثم محافظة في إسبانيا الحديثة ، والاسم مأخوذ من نهر كان يمر بها ^(١٩) .

بقى أن أشير إلى أن المؤرخين المسلمين ، فيما قرأت ، لم يطلقوا أبداً اسم إسبانيا على الأندلس الإسلامي ، أو على ما تبقى منه في يد الكاثوليك ، أو استولوا عليه عنوة فيما بعد من المسلمين . كذلك فإن المدونات الكاثوليكية وهي متأخرة وقليلة ، وكتب جلها رجال الدين في اللغة اللاتينية ، لا تطلق على الجانب الإسلامي اسم الأندلس إلا قليلاً ، وإنما تتحدث فقط عن العرب والمسلمين ، ويرى سيبولد في دائرة المعارف الإسلامية ، مادة أندلس : « أن نصارى إسبانيا الشمالية كانوا يجهلون اسم الأندلس جهلاً تاماً ، وكانوا يطلقون على الجزء العربي الجنوبي الاسم القديم إسبانيا Hispania أو Spania أما موطنهم الشمالى فأطلقوا عليه أسماء خاصة مثل : أستورياس وليون وقشتالة وأرجون » وهي فكرة تحتاج إلى إعادة تحرير ، فالحق أن المسلمين هم الذين أطلقوا أولاً هذه الأسماء على الدويلات المسيحية التي قامت في الشمال ، وهي تسمى في نشأتها دويلات تجوزا ، لأنها كانت مجرد إقطاعيات يقوم عليها إقطاعي حاكم ومالك ، يسمى نفسه أميراً أو ملكاً أو نبيلاً ، وقد سبقت المدونات العربية في ذلك أية مدونة مسيحية .

أما القول بأن نصارى الشمال كانوا يجهلون اسم الأندلس جهلاً تاماً ، فدعوى كبيرة تحتاج إلى بيان . ينبغي أولاً أن نفرق بين المعرفة والتدوين ، فلا أظن أن ملوك الشمال حين كانوا يهبطون قرطبة الإسلامية إلتباساً للعلاج عند كبار أطبائها ، أو الطلاب المسيحيين حين كانوا يتزلونها طلباً للعلم عند شيوخها ، وفي معاهدها ، كانوا يجهلون أنهم في عاصمة دولة تسمى الأندلس . ولا أعتقد أن المسيحيين الذين كانوا يعايشون المسلمين في دولتهم وعرفوا

Antonio Cavanilles: Historia de Espana, tomo II, p. 79 ss., Madrid, 1861.
Antonio Ramos: Op. cit., P. 386

(١٨)

(١٩)

باسم المستعربين Los Mozarabes لأنهم اتخذوا العربية لساناً ، يتحدثون بها ، ويقولون الشعر فيها ، ثم هاجروا إلى الممالك المسيحية في الشمال يعملون خبراء أو مترجمين ينقلون أفضل ما عرفوا ، كانوا يجهلون هم ، أو الذين يستخدمونهم ، أنهم قادمون من عند الأندلسيين ، وهم - رغم كاثوليكيتهم - يتكلمون لغتهم ، ويحدثون عاداتهم ، ثقايلهم وملبساً وأنماط حياة . ونتجاهل الواقع حين نتصور أن المترجمين الذين عكفوا في مدينة طليطلة ، على امتداد القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلادى ، ينقلون التراث الإسلامى من العربية إلى اللاتينية ، ثم إلى القشتالية فيما بعد ، وقد أصبحت المدينة عاصمة قشتالة بعد أن استولى عليها ألفونسو السادس من المسلمين عام ١٠٨٥ م ، كانوا يجهلون أن شبه الجزيرة يسمى بلاد الأندلس ، أو الأندلس فحسب ، في مؤلفات المسلمين . وأما أن المسيحيين كانوا يسمونها إسبانيا فذلك مقصور على الكتب المدونة ، وكتابتها دون استثناء لغتهم اللاتينية ، وجلهم من رجال الدين ، وهم بحكم ثقافتهم الدينية واللغوية المحافظة ، إن لم نقل المتعصبة والجامدة ، يتمسكون بالقديم ويقفون عند مفردات اللغة اللاتينية لا يتجاوزونها إلى لفظ آخر لم تعرفه . وكانت اللاتينية تعرف لفظى Spania, Hispania وتجهل لفظ الأندلس لأنه جديد مستحدث . وهم عندما كانوا يستخدمون التسمية اللاتينية كانوا يعنون بها شبه الجزيرة كله ، سواء في ذلك الأراضى الإسلامية أو التي في حوزة الكاثوليك . فإذا اتصل الأمر بالمسلمين وحدهم سموها : المسلمين Los Moros أو المحمديين أو الأفريقيين أو العرب في القليل .

* * *

يوجد اسم « الأندلس » في أقدم المصادر الجغرافية والتاريخية التي لدينا ، وأقدمها يعود إلى مطلع القرن التاسع ، أى أن بين الفتح الإسلامى وتدوين وقائعه فترة تبلغ المائة عام ، أزيد أو أنقص قليلا ، فهل جاء هذا الاسم مع التدوين أم عرفه المسلمون قبله ، وفي أى عام ؟

لا توجد وثائق أو نصوص تعيننا على هذا التحديد ، غير أننا إذا لجأنا إلى المسكوكات لانجد الاسم في العملة التي ضربت أيام الفتح نفسه ، ويظن أن موسى بن نصير أمر بسكها

أيام أن كان محاصراً لمدينة ماردة Mérida ، وصنعت من ذهب متوسط الجودة ، وأقدم مايوجد منها دينار مثير يوجد في مكتبة باريس الوطنية ، ويعود إلى عام ٩٣ للهجرة ، الموافق لعام ٧١١ ميلادية وعلى وجهه كتابة باللغة اللاتينية ، ويستخدم التاريخين الهجرى والميلادى ، وهما يتطابقان أحياناً ويختلفان أحياناً أخرى ، وفي هذا الدينار نجدهما متوافقين ، وصورة الكتابة على الوجه الذى يحمل التاريخ جاءت على هذا النحو : ANN XCIII He INDCXI وفى العام التالى ، ٩٤ هـ - ٧١٢ م ، ضربت دنانير أخرى وصلنا عدد كبير منها ، وفى سنة ٩٥ هـ - ٧١٢ م ضرب نوعان آخران من الدنانير ، وهى أندر وجوداً الآن من دنانير العام الذى سبقه ، وفى هذه الدنانير كلها استخدم العرب الاسم اللاتينى لشبه الجزيرة ، وهو كلمة إسبانيا (٢٠) .

ويلحظ الدارس لهذه المسكوكات أن المسلمين نهجوا فى كتابتهم اللاتينية نفس الطريقة التى يتبعونها فى اللغة العربية ، فكتبوا الحروف الساكنة فحسب وأسقطوا حروف اللين ، مما يعنى أن كاتبها كان مسلماً يعرف العربية وشيئاً محدوداً من اللغة اللاتينية .

ونفتقد بعد ذلك عملات جديدة ، إلى أن يجئ الحروب بن عبد الرحمن الثقفى وآلياً على الأندلس ، فبأمر فى عام ٩٨ هـ - ٧١٦ م بضرب عملة جديدة تحمل لأول مرة لغة مزدوجة ، النص اللاتينى على وجه ، وترجمته العربية على الوجه الآخر ، وجاءت كلمات النص اللاتينى على الصورة التالية : Feritus Solidus in Spania anno XCVII ويقول النص العربى المقابل له : « ضرب هذا الدينار بالأندلس سنة ثمان وتسعين » . وهذا الدينار أقدم وثيقة بين أيدينا نجد فيها الاسم اللاتينى إسبانيا Spania مترجماً إلى اللفظ العربى « الأندلس » (٢١) . ويثير هذا الدينار إلى جانب ذلك ، عددًا من الملاحظات . فنحن نجده على غير ما تعودنا فى العملات السابقة يحمل الكتابة اللاتينية كاملة ، بحروفها الساكنة واللين ، وأنهم رسموا الكلمات اللاتينية على نحو ما سمعوها ، وليس كما تقتضيه قواعد اللغة ، واقتصرت فى الكتابة على التاريخ الهجرى وحده ، سواء فى ذلك الوجه الذى

Catalogue de la Voix. No. 128. Saavedra: Invasion arabe en Espagne, P. 108.

(٢٠)

Custo M. del Rivero: La Moneda Arabigo-espanola, P. 4 ss., Madrid, 1933.

(٢١)

كتب في اللغة العربية أو الوجه الآخر الذي كتب في اللغة اللاتينية ، وأن ثمة فارقا بين التاريخين في النص العربي والنص اللاتيني ، فالنص الأول يحمل تاريخ ٩٨ هـ ، بينما يحمل النص الثاني تاريخ ٩٧ هـ وإذا كان الفارق في هذا الدينار لا يتجاوز العام ، فهو يتسع في دنائير أخرى حتى يبلغ ، أحيانا ، ثلاث سنوات ، وفي عدد منها أخطاء في النص العربي ، مثلا نجد الجملة مكتوبة على النحو التالي : « سنة مان وتسعين » بدلا من ثمان ، و « ضرب هذا الدينار بالأند ثمان وسنة تسعين » وذلك يعني أن القائمين على هذه الصناعة لم يكونوا متمكنين لا من اللغة اللاتينية ولا من اللغة العربية ، أو بتعبير أدق لم يكونوا عربا من المشرق ، ولم يكونوا إسبانيا من أهل شبه الجزيرة ، وفيما يبدو لي كانوا بربرا من الذين دخلوا الإسلام حديثا ، وحظهم من كلتا اللغتين محدود .

إذن أول استخدام رسمي لاسم « الأندلس » يعود إلى عام ٩٨ هـ ، أى بعد ستة أعوام من بدء الفتح ، لكن ذلك لا يعنى بأية حال أن استخدام المسلمين لهذا الاسم بدأ في العام نفسه . لأن استخدام اسم ما في عمله رسمية يعنى أن يكون الاسم المستخدم شائعا ومعروفا بين الناس ، إن لم يكن عند الجميع فبين الكثرة الغالبة التي ضرب لها على الأقل ، وأنا أرجح أن اسم « بلاد الأندلس » كان معروفا للكثرة الغالبة من المسلمين الوافدين من المغرب ، ممن ينحدرون من أصول بربرية ، ليس بعد الفتح فحسب ، وإنما عشيته أيضا ، وحتى قبله بزمان طويل على ما سنعرض بعد قليل ، ولم يستخدم في الدنانير التي ضربها موسى بن نصير لأنها لم تستخدم العربية إطلاقا ، وجاءت تقليداً أميناً لدنانير لقيها في أفريقية - تونس الحالية - جرى الناس على التعامل بها منذ أيام هرقل ، إبان احتلال الرومان لقرطاجنة .

ليس ثمة شك في أن اسم الأندلس يرتبط بالوندال على نحو ما ، تتفق في ذلك المصادر العربية والأجنبية ، وهى قبائل جرمانية غازية هبطت جنوب إسبانيا الشرق لفترة قصيرة ، فعاثوا في الأرض فسادا ، ودمروا في طريقهم كل شيء ، ثم عبروا المضيق إلى شمال أفريقية فاستقروا فيه زمنا ، ولم يكونوا هنا بأحسن حالا مما كانوا عليه هناك ، فتركوا في

حياة الناس وذواكرهم أسوأ الأثر . فالذين اشتق منهم الاسم إذن معروفون للإسبان الذين في شبه الجزيرة ، ومعروفون أكثر لسكان شمال أفريقيا ، ولم يكن هؤلاء يعرفون عن الغزاة الجدد إلا أنهم قادمون من وراء المضيق ، وأن الأرض التي قدموا منها هي بلاد الوندال . والباحثون المحدثون من العرب يرون أن اسم الأندلس قد أخذته العرب من كلمة فندلس Vandalos أما كيف تم ذلك دون أن يخضع لأى قانون صوتى أو لغوى عربى معروف فلم يقف عنده أحد . وإذا بحثناه علمياً ، وتأملناه ملياً ، وجدنا أن كلمة الوندال لها صورتان : واحدة جرمانية والأخرى لاتينية . أما الجرمانية فهي Wandalos والحرف الأول منها ينطق فيما يشبه الواو في اللغة العربية ومن ثم يجب أن ينطق جمعها وندلس ، وانقلاب الواو همزة لاتعرفه العربية في مثل كلمة أندلس . وإذا قيل أن العرب أخذوها عن اللغة المتكلمة في الأندلس ، فإن هذه الكلمة الجرمانية يجب أن تكون قد انتقلت إلى لاتينية إسبانيا العامة طبقاً لقوانينها الصوتية ، فتصبح Guandaluz لأن الإسبانية درجت على أن تحول حرف W الأجنبى إلى Gu هكذا صنعت مع المفردات الألمانية ، فكلمة Wilhem أصبحت في الإسبانية Guillem ، ومع المفردات العربية فكلمة وادى الرمل أصبحت Guadarrama وإذا قلنا إن العرب عرفوا اللفظ في صورته اللاتينية Vandalos فيجب أن ينتقل إلى العربية في صورة بندلس ، ولم يحدث كذلك أن انقلبت الباء همزة في اللغة العربية ، إن تصور أن يكون لفظ Wandalos قد أخذ طريقه إلى اللغة العربية مباشرة أمر بعيد الاحتمال .

لكن الذى أراه أن شمال أفريقيا كان يعرف إسبانيا تماماً ، وهى منهم على مرأى البصر ، في الفترة التى سبقت الفتح باسم « بلاد الأندلس » ، أى البلاد التى جاء منها الوندال ، وقد ارتبط هؤلاء في مخيلة الناس بقسوتهم وجبروتهم ، وعاشوا في أذهانهم شيئاً مربعاً . وأن التسمية شاعت في كل شمال إفريقيا ، وأصبحت تطلق على الجانب الآخر المقابل لطنجة من شبه جزيرة إيبيريا ، حتى بعد أن آل حكم شبه الجزيرة إلى القوط ، وحين جاء الإسلام إلى شمال أفريقيا فاتحاً عرف العرب ، أو سمعوا على الأقل ، اسم الأندلس يقصد به إسبانيا ، قبل أن يعبروا إليها المضيق فاتحين . عرفوا ذلك الاسم عن

طريق البربر أولا ، وهو افتراض يدعمه أن المدونات العربية الأولى التي عرضت لأحداث الفتح كثيرا ما تتحدث عن « بلاد الأندلس » ، ولا تذكر كلمة الأندلس مفردة إلا في القليل .

صحيح أن المصادر القديمة ، عربية ولاينية وإسبانية ، سكنت عن العلاقات الجارية بين البلاد القائمة على جانبي مضيق جبل طارق تحت أى اسم وجدت ، حتى وقع في الوهم أنهما لم يكونا على صلة ، رغم أن جانباً من شمال أفريقيا ، يشمل منطقة سبتة وما حولها ، كان يتبع إسبانيا سياسيا ، مباشرة أو في شكل حماية ، وشجع المسلمين على فتح شبه الجزيرة . وكان ابن الرقيق القيرواني أبو اسحاق إبراهيم بن القاسم ، الوحيد الذي ألمح في كتابه : « تاريخ أفريقية والمغرب » إلى شيء من هذا ، يقول : « فعزم طارق على غزو الأندلس واستنقهم البربر ، فجعل إليان يحمل البربر في مراكب التجار التي تختلف إلى الأندلس ، ولا يشعر بهم أهل الأندلس ، ولا يظنون إلا أنها تختلف بمثل ما كانت تختلف به من منافعهم ومعاشهم ومتاجرهم » (٢٢)

ويرى المؤرخ الإسباني المعاصر أنتونيو غوسية أن المعرفة بين الضفتين موعلة في القدم ، وأن تبادل الحكم بينهما يمثل دورة تاريخية : « نحن نعرف منذ المدرسة الابتدائية أن العرب اقتحموا الجزيرة عام ٧١١ م ، ولكن أحداً لم يؤكد لنا أن هذا الغزو ليس إلا تكراراً لظاهرة تأخذ طابع عامل يتكرر في تاريخنا . فقبل العرب جاء الإيرون ، ربما أواسط الألف الثاني قبل الميلاد ، وفي القرن الثاني الميلادي كان ثمة غزو آخر ، ودارس مرحلة ما قبل التاريخ يمكن أن يضيف إلى هذين المثالين أمثلة كثيرة معتمدا على بقايا الأشياء الصناعية المتخلفة في إسبانيا وشمال أفريقيا ، وبالقطع يمكن القول بأن مضيق جبل طارق لم يكن أبداً ، ولن يكون يوماً مضيقاً يفصل ، ويجرى ماء يباعده ، بل على النقيض هو طريق

(٢٢) كان هذا الكتاب ضائعا . وعثر على مخطوطته غير كاملة العالم المغربي الجليل الأستاذ محمد التوي في خزنة الرباط . لا تحمل أية نسبة أو إشارة إلى مؤلفها ، وكان هو الذي اهتم بالمقارنة إلى أنها لابن الرقيق ، وقدم وصفا لها في مجلة المغرب . العدد ٦ و ٧ . لعام ١٩٦٥ . ولدى نصها مكتوبا بالآلة الكاتبة ، وقد نشر النص الأستاذ التونسي المنجي الكعبي . في مدينة تونس . ولا يقع في يدي .

يوحّد ويقارب . ولقد عبر الوندال إسبانيا إلى أفريقيا خلال هذا المضيق ، ومنه أيضًا جاءنا العرب عبر شمال أفريقيا ، وسلك المرابطون والموحدون نفس الطريق ، ولست أدري ما إذا كنا سنحكم من جديد برجال يأتون من شمال أفريقيا ، وإذا اعتقدنا أن ما هو حادث الآن سيستمر دائمًا نكون كمن يرى التاريخ بعين الثملة ، ويقيسه بمقياس حياتها الخادع » (٢٣) أضف إلى هذا أن تطور الاسم إلى الصيغة التي عرف بها في اللغة العربية يتفق ، على نحو ما ، مع اتجاهات اللغة البربرية ، فنحن نجد في هذه اللغة عددا من الأسماء تضاف إليها الواو بدءا في حالة الجر ، وتجرد منها في الحالات الأخرى فثلا كلمة Adu ، وتعني عاصفة ، تصبح في حالة الجر Wadu وكلمة Aman بمعنى ماء ، تصبح Waman وكلمة Ass بمعنى اليوم تصبح Wass و ayyur بمعنى القمر تصبح wayyur . وهم يقولون مثلا : Fkid Aman أعطني ماء ، فإذا قالوا أعطني قليلا من الماء أصبحت Fkid imik waman ألا يمكن الافتراض إذن بأن البربر تصوروا أن كلمة Wandalus الجرمانية جاءتهم في صورة الجر ، فاشتقوا منها اسما في حالة الرفع ، هو على قواعد لغتهم ، ودون أي استثناء ، يصبح أندلس Andalus ، أي أن كلمة Andalus تكون بالنسبة لكلمة Wandalus في البربرية ، ما تكونه كلمة "n مرفوعة بالنسبة لكلمة Waman مجرورة (٢٤) . وجاء العرب من المشرق فالتقطوها من أفواه البربر ، فهي إذن دخلت اللغة العربية عن طريق اللغة البربرية ، وليس من اللاتينية أو الجرمانية أو اللاتينية المتكلمة في إسبانيا مباشرة ، وبذلك يمكن حل المشكلة صوتيا وتاريخيا ، إن غياب حرف W أو V من كلمة أندلس لا يمكن تفسيره إلا في ضوء هذا الفهم .

« " »

لم يذهب الاسم بستوط دولة الإسلام في الأندلس وإنما بقي في إسبانيا الحديثة بعد أن أخذ صورة أندلسيا Andalusia . ويطلق تقريبا على ما يسميه أبناء سعيد بن

(٢٣)

Antonio Garcia op. cit. P. 184.

Wychil Werner. Sobre la historia de un nombre.

(٢٤)

كتابهم «المغرب في حلى المغرب» موسطة الأندلس، أى على المنطقة التى تشمل محافظات :
 ألمرية وغرناطة ومالقة وجيان وقرطبة وإشبيلية وقادس وولبة . وقبل ذلك عبرت التسمية
 مضيق جبل طارق مع ثلاثمائة أسرة قرطبية نفاها الحكم الأول . خلال ثورة الربض
 الشهيرة ، فأتجهوا نحو فاس واستقروا فيها ، وأطلقوا على حبيهم اسم الاندلس ، وعرفوا هم
 بالأندلسيين ، وما زالوا به يعرفون . وكذلك أدت كثرة الوافدين من الأندلسيين على
 القاهرة فى طريقهم إلى الحج ، أو طلبا للعلم ، أو بحثا عن الرزق ، إلى أن تكون لهم
 بالفسطاط محلة يطلق عليها اسم الأندلس ، تضم رجة ومسجدا ومصلى ، وضم إليها مع
 الزمن رباط للعجائز المنقطعات الصالحات ، وآخر للأرامل العابدات ، وبستان مثمر .
 ومنذ نهاية القرن الخامس عشر حمله معهم المسلمون الذين أكرهوا على الخروج من
 الأندلس بعد انتصار الكاثوليك هناك إلى الأمكنة الإسلامية التى لاذوا بها ، فى تونس أو
 الجزائر أو المغرب .

وقبل ذلك وبعده ، بقى اسم « الأندلس » فى أعماق كافة المسلمين جوهرًا مشعًا ،
 يبعث التأمل والإعجاب ، ويحرك الشجى والندم ، ويثير الأسى والحسرة على الدوام !

○ تعقيبات أدبية ولغوية

الأندلس : تاريخ اسم وتطوره

للعالم الجليل الأستاذ محمود محمد شاكر

كتب الدكتور الطاهر أحمد مكي في عدد الثقافة (٢٢ - يولية ١٩٧٥) ، كلمة جيدة عن « الأندلس : تاريخ اسمه وتطوره » ذكر فيها أن الباحثين المحدثين من العرب ، يرون أن اسم « الأندلس » ، أخذ به العرب من كلمة Vandalos وهم « الوندال » وأن كتابتها بالجرمانية Wandal وجمعها Wandalos وأن الحرف الأول منها وهو W وينطق بما يشبه الواو في اللغة العربية ، فيكون نطق هذا الجمع بالعربية « وندلس » ، ثم قال :

« وانقلاب الواو همزة لاتعرفه اللغة العربية أبداً » ثم عقب على ذلك بقوله : « إن تصور أن يكون لفظ Wandalos قد أخذ طريقه إلى اللغة العربية مباشرة ، أمر بعيد الاحتمال » . فمن أجل ذلك ، بحث لها عن مدخل فانتهى إلى أن هذا اللفظ قد انتقل إلى العربية عن طريق اللغة البربرية ، ثم أفاض في توجيه دخول هذا اللفظ إلى البربرية وعن اقتراض تحوله في اللسان البربرى من الواو إلى الهمزة طبقاً للقواعد الصوتية في اللغة البربرية ، ثم ختم ذلك بقوله : « فهى إذن دخلت اللغة العربية عن طريق اللغة البربرية ، وليس من اللاتينية ، أو الجرمانية ، أو اللاتينية المتكلمة في إسبانية مباشرة . وبذلك يمكن حل المشكلة صوتياً وتاريخياً ، فإن غياب حرف V أو W من كلمة أندلس ، لا يمكن تفسيره إلا في ضوء هذا الفهم » .

كان الدكتور الطاهر في غنى عن كل ما كتبه عن اللغة البربرية ، وعن اتجاهاتها الصوتية ، وعن اقتراض ما افترضه في تحول الواو في اللغة البربرية ، بيد أن الذى حمله

على ارتكاب هذا الطريق البعيد ، هو ما اعتقده اعتقاداً جازماً ، من أن « انقلاب الواو همزة لاتعرفه اللغة العربية أبداً » . والأمر في الحقيقة على خلاف ما اعتقد ، وذلك أن قلب الواو همزة قياس مطرد في العربية بلا شك .

وتلخيص القول في ذلك : أن « الواو » إذا كانت في أول الكلمة ، فلها ثلاثة وجوه : أما مضمومة وإما مكسورة وإما مفتوحة ، فإذا كانت الواو مضمومة ، فيكاد يكون قياساً مطرداً في العربية أن تقلب الواو همزة ، فمن ذلك في القرآن العظيم ، في سورة المرسلات : « وإذا الرسل أقتت » وهي من « الوقت » وقرأ أبو عمرو وابن ورداك : « وإذا الرسل وقتت » بواو مضمومة الأصل ، وقالوا في « وجوه » جمع « وجه » « أوجوه » وغيرها كثير .

وإذا كانت الواو الأولى مكسورة ، فقياس مطرد أيضاً أن تقلب همزة ، نحو قولهم في « وسادة » « أسادة » وفي « وشاح » « أشاح » وغيرهما كثير أيضاً .

وأما إذا كانت الواو الأولى مفتوحة ، وهو الذي عندنا هنا في « وندلس » و« أندلس » ، فقلب الواو المفتوحة قليل في العربية ، وليس قياساً مطرداً ومع ذلك فهو كثير أيضاً على الوجهين أي أن تقلب الواو الأولى المفتوحة همزة ، وأن تقلب همزة المفتوحة واوا . وذلك نحو قولنا « وحد » فتقول « أحد » بفتحتين ، وهو من « الوحدة » بلا ريب ، وقولهم أيضاً : « امرأة وناة » ، أي كسول ، بطيئة القيام فيها فتور من طول النعمة ، فقالوا : « امرأة أناة » ، وقالوا للجبل الصغير « وجم » بالواو ، فقالوا فيه « أجم » وقالوا : « وسن الرجل » و« أسن » ، إذا غشى عليه من نتن ريح البئر ، وقالوا : « وكدت العهد » و« أكدته » ، وقالوا « ولته حقه » و« ألته حقه » أي نقصه حقه ، وقالوا : « ورخت الكتاب » ، و« أرخته » ، وقالوا « ورشت بين القوم » وأرشت بينهم » ، أي أفسدت ما بينهم وحرشت بعضهم على بعض ، وقالوا : « ماويت له » ، وما أبهت له « أي ما فطنت له ، أو ما باليت به لقلته وتفاهته ، وقالوا « وج » وهو اسم بلدة الطائف بالحجاز و« أج » بفتح الهمزة ، وقالوا « وجه » ، أجه « لوجه الإنسان ، وغير هذا كثير ، فضلاً عن قلب الواو همزة إذا كانت في وسط الكلمة أو في طرفها .

وإذن فالأمر على خلاف ما يعتقد الدكتور الطاهر ، من إنكاره قلب الواو همزة ، وأن العربية لا تعرف هذا القلب أبداً .

وإذن فأقرب شيء إلى الاحتمال ، هو ما رآه الدكتور الطاهر بعيد الاحتمال ، أن يكون لفظ « وندلس » قد دخل إلى العربية دخولا مباشراً بقلب الواو الأولى المفتوحة همزة . والذي ألبأ سلفنا الفاتحين من العرب أصحاب اللسان العربي إلى إبدال الواو الأولى المفتوحة همزة ، أنها جاءت بعدها نون ساكنة ، ومخرج الواو من طرف الشفتين ، ومخرج النون الساكنة من الخياشيم ، فنقل ذلك على ألسنتهم لقرب المخرجين ، ولا رتداد النفس من الشفتين عكسا إلى الخياشيم ، ولأن الواو المفتوحة أخفى من الواو المضمومة والمكسورة في النطق ، ولأن الهواء المندفع من الحلق عند نطق الواو المفتوحة آت من عند مخرج الهمزة في أقصى الحلق ، فمن أجل ذلك كله آثروا أن يقلبوها همزة صريحة من أقصى الحلق ، ليندفع هواؤها إلى مخرج النون الساكنة من الخياشيم سهلا بلا مؤونة على أداة النطق . ولهذا الأسباب نفسها ، رأيت أصحاب اللسان العربي فيما استظهرته وتتبعته قد كرهوا أن يجمع الواو والنون متجاورتين في أول الكلمة الواحدة من عرييتهم ، وتكون الواو أصلا في الكلمة ، والنون التي تليها أصلا أيضا في الكلمة .

وإذن ، فالذي لاشك فيه ، هو أن لفظ « وندلس » ، قد دخل للسان العربي مباشرة ، بعد إخضاعه للقانون الصوتي العربي ، ليدخل بعد أن يصقله الذوق العربي دخولا سهلا ساريا على أصول لغته .

وللأخ الدكتور الطاهر أجزل الشكر على الفوائد الكثيرة التي تضمنها مقاله عن « الأندلس » .

○ ولي تعليق قصير :

كتبته مقالى عن لفظ الأندلس وتطوره وتاريخه وأنا بعيد عن القاهرة ، وجاء تعليق العالم الجليل الأستاذ محمود شاكر عليه في العدد التالى من الثقافة (العدد ٢٣ ، السنة

الثانية ، أغسطس ١٩٧٥) ، وأنا بعيد عنها أيضا . كنت في الأندلس نفسه لبعض المراجعات التاريخية والأدبية ، أقوم بها هناك في موقع الأحداث نفسها ، أطلالا ومهابط وبشرا ، ولم أقرأ التعليق إلا بعد شهور طالت من نشره ، ففأنتنى فرصة أن أزجى إليه الشكر صادقا وعميقا على ماصوب وصحح وأفاد . ولما حاولت ذلك بشخصى ، وما أكثر ما حاولت ، كنت أجده حين يتاح لى الوقت ، وما أقل ما يتاح ، خارج القاهرة على سفر أيضا ، ولعل تعليقى هذا يقوم بالسفارة عنى ، فى أن يحمل للأستاذ الفاضل الذى تعلمنا منه الكثير المفيد ، فنية نقراً له ، وشباباً نتابع ذوده عن الإسلام والعروبة فى حزم وصلابة واستنارة ، طالما ذكرتنى بعالم الأندلس العظيم ابن حزم القرطبى ، لإجلال من عرفه على البعد وتقديره ، وأكبره عن طريق الحرف .

إن الحياة فى تطورها تميل إلى الأسهل دوماً ، ويؤثر الإنسان فى مواقفه مايتطلب جهداً أقل ، ويقوى أو يضعف ، ويشند أو يسهل ، من قواه ما يقتضيه هذا التطور ، والشئ نفسه يقال عن الكلمات أيضا ، وهو ما ندرسه تحت قواعد الإعلال والإبدال والإدغام وغيرها ، وإذا استثنينا الكلمات التى ضاعت عبر الزمن ، وأدلتنا عليها ظنية ، مستمدة من استنطاق ماوصلنا ، كسقوط ضمير المثنى المتكلم وميل العربية المعاصرة إلى تجاوزها فى حالى الغائب والمخاطب ، فإن حالات الإبدال ، إذا لم تكن من صنع الجدل الصرفى المجرد ، وصلتنا فيها الكلمة على صورتها ، أو صورها ، الحرف فيها مبدلاً وقبل أن يبدل ، وهو ما نفتقده فى لفظ أندلس تماماً ، لأن الأصل وهو « وندلس » ، لم يصلنا بهذه الصورة فى أية وثيقة ، هذا إذا لم تكن صورته الأخرى ، وهى « بندلس Vandalos » ، هى التى كانت مستعملة وشائعة فى إسبانيا لأنها صورته اللاتينية ، وكان الأندلس لحظة الفتح لاتينيا كله ، فى لغته على الأقل .

وعملية الإبدال ، كما أشار أستاذنا بحق ، ليست فى واقعها إلا ظاهرة صوتية من الميل إلى الأسهل ، وهو أمر لايم بين عشية وضحاها ، وإنما يحتاج إلى وقت تستخدم فيه الصورة الأولى ، ثم تثقل مع الزمن ، أو حتى اللوهلة الأولى ، فنجد من يبدل من حروفها ما ثقل عليه ، فطرة لا صناعة ، مستخدماً بدلاً منها ماخف فى لفظه ، ولطف على أذنه ،

وتتجاوز الصيغتان زمنا يقصر أو بطول ، واحدة على لسانه وآخرين ، والأخرى في أفواه الكثيرين من معاصريه ، هو يتكلم بما أحب ، وهم يتحدثون بما تلقوا ، ثم تبدأ الصورة الثانية في الذبوع والانتشار ، وترسل بالأولى إلى زوايا النسيان ، لتصبح تاريخا يدرسه اللغويون .

ومثل هذا الأمر لا يجده في لفظ « الأندلس » ، لأننا نلتقي بها مدونة على هذه الصورة بعد ست سنوات من الفتح فحسب ، وهي سنوات جد قليلة ، ولا تقدم مناخا ملائما لمثل هذا التطور على أرض الأندلس نفسها ، ولا حتى في المغرب ، لأن حركة التعريب في كليهما ، كانت في خطاها الأولى ، لقد رافقت اللغة العربية الإسلام في مده ، ولكنها كانت تجيء في مؤخرته ، وراءه وعلى خطوات منه .

لهذا قلت : لما يزل في نفسى من الأمر شيء ، وكم وددت أن تكون كلمة أستاذنا الجليل هي الفاصلة ، إذن لقرت بها عيني راضيا وشاكرا ، وإلى أن نبليغ هذا القول الفصل ، أو الأرجح ، سأظل عند فرضي في أن لفظ الأندلس ، دخل إلى اللغة البربرية أولا ، وعنها أخذته العرب وتلقوه .

تاريخ افتتاح الأندلس

لابن القوطية

وكتاب أخبار مجموعة

لمؤلف مجهول

دراسة موازنة

● نشر للمستشرق الأسباني الكبير خوليان ريبيرا هذه الدراسة مقدمة لكتاب « افتتاح الأندلس » عندما ترجمه إلى الأسبانية ، ونشره بجمع التاريخ الملكي ، في سلسلة الكتب التاريخية والجغرافية التي تولى نشرها ، وكان ترتيب هذا الكتاب الثاني بينها ، ونشر في مدريد عام ١٩٢٦ . ثم أعيد نشر هذه الدراسة وحدها مرة أخرى في كتاب « نبذ ومقالات » ويتضمن أهم دراسات هذا المستشرق الأسباني العظيم ، في الجزء الأول منه ، الصفحات ٤٣٥ ، ٤٥٦ ، مدريد ، ١٩٢٨ . وعنوانها فيه : « ابن القوطية وكتابه » ، واختيرت لها العنوان الوارد أعلاه ، لأني رأيته أكثر دلالة على المحتوى .

لو استطعنا الآن أن نتقل تصوراً إلى المكان والزمان الذي عاش فيه ابن القوطية ، وتعرفنا إلى الصفات الخارجية لشخصه فحسب ، وأدركنا الجو الاجتماعي الذي أحاط به ، ربما كونا عنه ، وعن المجتمع الذي عاش فيه ، فكرة خادعة إلى حد ما . يمكن أن تزور هذه الشخصية المسلمة التي حملت اسم محمد ، في منتصف القرن الرابع الهجري ، العاشر الميلادي ، في ضيعته الجميلة التي كان يملكها في واد مورف ، تتناثر على بساطه بيوت ريفية مطمئنة ، تحت سفح جبل العروس الحالم ، وحوله تتشجر قصور ضخمة فخيمة ، فقد أصبح من المظاهر الأرستقراطية ، منذ أسس عبدالرحمن

الناصر الحى الملكى الرائع ، الذى حمل اسم الزهراء ، أن يملك الشخص ضيعة فى هذه النواحي .

ذات أصيل هبط صاحبنا محمد ، فى ملابسه الشرقية الفضفاضة المهيبة ، من ضيعته إلى المدينة ، ممتطياً صهوة جواده ، فصادفه أبو بكر ابن هذيل ، متوجها إلى ضيعة له بسفح جبل قرطبة أيضا فحياه ببيت من الشعر :

من أين أقبلتَ يا من لا شبيه له ومن هو الشمسُ والدنيا له فلكُ
فتبسم صاحبنا ، وأجاب على البديهة :

من منزلٍ تُعجب النسكُ خلوته وفيه سترٌ على الفتاك إن فتكوا
ولم يتالك ابن هذيل نفسه ، فقبل يد ابن القوطية إعجابا ، ودعا له ، فقد كان تلميذه ، واحتفظ لشيخه بإجلال وقور .

وفى الحق كان صاحبنا محمد واحدا من كبار علماء المسلمين فى قوطية ، واسع المعرفة مهابا ، « عالما بالنحو ، حافظا للغة ، متقدما فيها على أهل عصره لا يشق غباره ، ولا يلحق شأوه » ، ولا يبلغون حتى موطىء نعله بتعبير النقاد فى عصره . وفيما يتصل بهذه العلوم ألف كتباً كانت مادة الدرس فى كثير من معاهد العلم لقرون طويلة ، ونشرت فى وقتنا هذا بين أمهات كتب التراث ^(١) .

« وكان جيد الشعر ، صحيح الألفاظ ، حسن المطالع والمقاطع ، إلا إنه تركه ورفضه » وكان فقيهاً متمكناً ، واسع العلم بالحديث والسنة ، ولكنه تربوياً لم يسر فى تدريسها على مناهج الفقهاء فى عصره ، فاتهموه بأنه « لم يكن بالضابط لرواية فى الحديث

(١) الترجمة الموسعة والدقيقة لأبى بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز بن ابراهيم بن عيسى بن مزاحم ، المعروف بابن القوطية ، توجد عند : ابن الفرضى ، تاريخ علماء الأندلس ، الترجمة رقم ١٣١٦ ، طبعة كوديرا ، (١٣١٨) ، فى طبعة الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة (١٩٦٦) .

وانظر ترجمته ، وأخبارا عنه ، وعن مؤلفاته فى : المؤرخون والجغرافيون الأندلسيون ، تأليف بونس «بييسر» ، ص ٨٣ . وللوقوف على استمرار تدريس كتبه انظر : ابن خير ، فهرسة ما رواه عن شيخه ، المجلد العاشر من المكتبة العربية الأسبانية ، نشر كوديرا وريبيرا ، ص ٣٣٤ .

وقد نشر كتاب الأفعال لابن القوطية اجناسيو جويدي فى ليدن ، مكتبة بريل عام ١٨٩٤ . (ونشره فى القاهرة أستاذى المرحوم الدكتور قواد حسين) .

والفقه ، ولا كانت له أصول يرجع فيها ، وكان ما يسمع عليه من ذلك إنما يحمل على المعنى لا على اللفظ ، وكثيرا ما كان يقرأ عليه مالا رواية له فيه ، على جهة التصحيح ، ولكنهم مع ذلك يعدونه من العباد النساك . وقد « طال عمره ، فسمع منه الناس طبقة بعد طبقة ، وروى عنه جماعة من الشيوخ ، والكهول ، ممن ولى القضاء ، وقدم إلى الشورى ، وتصرف في الخطط ، من أبناء الملوك وغيرهم » .

إذا حكمنا على هذا الفقيه الوقور من خلال الظاهر فحسب ، دراسة ودينا ، ولغة وملبسا ، مال بنا الظن إلى أنه ينتمى إلى أسرة ذات أصول عربية خالصة ، وحيث نقع في الخطأ : إن هذا الفقيه الوقور الذى يتردد على المسجد الجامع يوميا ، يصلى خاشعاً ، ويلقى دروسه فى اللغة العربية متمكناً ويدرس الفقه فى زمن عبد الرحمن الناصر العظيم ، ينحدر مباشرة من أسرة غيطشة الملكية القوطية ، وهو طراز يقدم لنا المثل ، ونستطيع من خلاله أن نوجز ملامح الحضارة الأندلسية ، أو الإسبانية ، سمها كيف شئت . يمكن أن نقول عنه أنه مؤرخ عربى ، فقد كتب مؤلفاته فى اللغة العربية ، ولكن الكنية التى يحملها : ابن القوطية ، تعنى أن الجانب الإشباني من شخصه لم يذهب تماما . فهو وآخرون كثيرون على شاكلته ، يمثلون قمة الثقافة العربية فى شبه الجزيرة الأيبيرية ، يمكن أن ندعوهم عربا ، كما نطلق لفظ لاتينى على كثيرين من المؤلفين الإشباني الذين يكتبون فى اللغة اللاتينية ، دون أن يعنى ذلك أنهم تخلوا عن إشبانيتهم ، لا لأنهم ولدوا على أرض إسبانيا فحسب ، ولكن لأن الدم الإشباني يتدفق عبر عروقهم .

والشئ نفسه كان يجرى فى عروق ابن القوطية وأسهم فى تكوين فكره ، ومن الضرورى أن نضع هذا العنصر فى حسابنا عند تفسيرنا لجانب كبير من محتوى مدونته التاريخية ، التى وصلت إلينا تحمل اسمه .

فى هذه الفترة ، من ذلك العصر ، وصلتنا مدونتان رئيسيتان : أخبار مجموعة وكتاب ابن القوطية ، وإحدهما تؤكد ما فى الآخر ، تكملها على نحو ما ، وقد خبر المستشرق الهولندى رينهارت دوزى كلتا المدونتين جيدا ، وأفاد منها كثيرا ، ومع ذلك يبدو لى أنه لم

يستطع تحديد العصر الذى ألفت فيه المدونة الأولى^(١) وقد ذكر لفونى القنطرة فى الصفحة السادسة من مقدمته للطبعة التى نشرها من أخبار مجموعة ، محتدياً فى ذلك خطى دوزى ، أن مؤلف هذا الكتاب يجب أن يكون قد عاش فى القرن الحادى عشر الميلادى .

وهذا رأى يعتمد أساساً فيما يبدو ، على الفقرة التالية من أخبار مجموعة : « وكان رأيه (أى عمر بن عبد العزيز) انتقال أهلها منها ، لانقطاعهم عن المسلمين ، وليت الله كان أبقاه حتى يفعل ، فإن مصيرهم إلى بوار إلا أن يرحمهم الله » . ويرى دوزى أن هذه العبارة لا يمكن أن يتفوه بها إلا مسلم عاش فى القرن الحادى عشر .

ليس من السهل على المؤرخ دائماً أن يتخلى عن وجهة نظره الذاتية عندما يدرس الشخصيات التاريخية التى يعرض لها . وفى الحالة التى نحن بصدددها لا يجب أن ننسى أن إمكانيات كاتب مسلم ، عاش فى الأندلس فى تلك الأيام البعيدة ، ليست نفس إمكانيات مؤرخ للأحداث يعيش فى شمال أوروبا بعد ذلك بعشرة قرون .

فى كل العصور ، وحتى فى أفضل الأيام بالنسبة لأية جماعة اجتماعية ، ثمة أفراد يمكن للمؤرخ أن يصفهم بأنهم أشرار إذا لم يكونوا على وفاق معه ، أو مع أسرته ، أو مع طبقة ، وأعتقد أن المؤرخ الذى فاض بتلك المشاعر الحزينة ، كان يعيش فيما نعتبره الآن أفضل أيام الخلافة الأموية فى الأندلس ، أى فى عصر عبدالرحمن الناصر .

لكى نلترك على نحو أوضح المنظور التاريخى الذى كان أمام مؤلف مدونة « أخبار مجموعة » ، وكتب تلك الفقرة المتشائمة ، علينا أن نبحث عن المؤلف الذى حرر هذه المدونة .

إذا توقفنا قليلاً فى أخبار مجموعة وجدنا أنها مجموعة من المذكرات والفقرات التاريخية ، سجلها صاحبها شيئاً فشيئاً دون أن يقصد إلى ربط الحوادث ربطاً منهجياً أو يرتبها تاريخياً ، وهو فى روايته يتجاوز أحداثاً وقعت ثم يعود إليها ، مثلاً بعد أن يذكر

(٢) البيان المغرب ، ج ١ ، ص ١٠ ، طبعة دوزى .

مغامرة عبد الرحمن الداخل ، والنهاية التعسة لبنى أمية في المشرق يعود إلى ولاية أبي الخطار في إسبانيا ، وثمة فقرات يبدو أنها أضيفت إلى النص الأصلي فيما بعد ، دون أن تكون لها صلة بما كان يهتم به الكاتب الأول .

ولست أشك في أن أشخاصاً عديدين أسهموا في تأليف أخبار مجموعة ، يختلفون ثقافة وفكرًا وزمنًا وذوقًا ، ويمكن أن نتعرف إليهم من خلال المواد المتباينة التي يوردونها ، والأفكار ووجهات النظر التي يعبرون عنها ، وحتى من خلال الأسلوب الشخصى لكل واحد منهم : أحياناً نجد الرواية مطولة مفككة ، حافلة بالتفاصيل ، كذلك التي كتبها أولئك الذين بدأوا تحرير هذه الأخبار ، وأحياناً أخرى مركزة موجزة مقتضبة . وبعض الذين أسهموا في الكتاب يميلون إلى أخبار الحروب وأحداث السياسة ، دون غيرها ، ويعتبرون ماعداها تافها . والبعض الآخر يميلون إلى شئون الدين ، وقضايا الفقه والأخلاق ، لا يهمهم أو يستلفت انتباههم ماعداها . ومن الواجب أن نشير إلى أنهم جميعاً يصدر عن اتجاه متشابه ، من عصبية قبلية ، أو وحدة طبقية ، كما لو كانوا كلهم ينتمون إلى أسرة واحدة ، أو قبيلة بعينها .

أول هؤلاء الذين أسهموا في تحرير الكتاب لابد أن يكون رجل حرب لأنه لا يقف باهتمامه عند الحملات الحربية خاصة فحسب ، وإنما يعرض لما يستخدم فيها من ذكاء وحيلة ، والحاجة إلى الأدلاء الذين يقودون الجيش إلى مواطن الضعف في جبهة العدو ، واستخدام الجواسيس الذين يعرفون عورات البلد ، ويدرك مواقف الفتح الخطرة ، ووسائل الوقاية والأمن التي تتخذ في المدن المفتوحة ، وأن من الضروري أن يتبين الفاتحون الصديق من العدو ، بل ويتوقف طويلاً عند أعداد الجنود ، والوضع الذي يأخذونه في المعارك ، ويصف ذلك كله دون أن يلجأ إلى الأساطير والمبالغات ، ويشرح التحركات الفنية في القتال ، من المفاجآت والأحداث الحربية الأخرى ، كما لو كان خبيراً واسع التجربة والدربة ، ويعتمد في معرفته على العلم والتقاليد العسكرية ، وليس على كلام العامة وشائعاتهم .

وهو سياسى أيضاً . يردّ الأحداث إلى أسبابها الحقيقية ، ويستخف بأقاويل العامة ،

ويحتقر الناس المرفهين ، ويدير ظهره للعسكريين الذين يجهلون واقع الأشياء ، ويورد
مفاوضات عبدالرحمن الداخل السياسية في تفصيل حافل ، يشئ بأنه شهد بشخصه
بعض تلك الأحداث .

وهو قرطبي ، يتحدث عن الأمكنة في قرطبة ، كمن شهد لها رأى العين . ويعرف
ماطراً عليها من تغيير في البناء ، أو المآل ، أو الاسم ، كالمساجد والمقابر ، ويقدم لنا تفسيراً
لما أصابها من التغيير .

وهو عرقي ، شريف النسب ، من قبيلة قريش ، يحفظ من الذاكرة أسماء القبائل
العربية الكثيرة ، وروابط الصداقة التي تجمع بين كل قبيلة وأخرى ، وعلى علم تام
بالمخالفات أو العداوات القائمة بين الأسر المختلفة يهتم كثيراً بالأنساب والأسر الشريفة ،
والمناصب التي تتولاها ، ويعجبه من رجال الطبقة الدنيا تقديرهم الموالي ، رغم أنه
لا تجرى في عروقهم دماء عربية ، وحين يسمى أحداً ينتسب في قبيلة قريش يلزم نفسه بأن
يشير إلى البطن أو الفخذ الذي ينتمى إليه . وإذا جهل بعض تفصيلات النسب ، وهو
قليلاً ما يحدث ، يعترف به كعيب فيه ويعتذر عنه . ويحلو له أن يسجل الاحترام الذي عليه
أن يحتفظ به إزاء قبيلة قريش ومواليها ، ويدعو غيره إلى توقير الأشراف ، ويبقى على كل
واحد في مستوى طبقته ، وينصحه ألا يدعى لنفسه من الشرف أكثر مما يستحق ، ويحتفظ
بالرتب ، ويعين المناصب العليا لكبار القوم ، ويرى أن الانتماء في قبيلة قريش يفتح
الطريق أمام امتيازات كثيرة ، بما فيها ألا تتعرض حياتهم للاعتداء عليها أبداً .

وأخيراً ، وهو من البيت الأموي ، يشير إلى الأمويين كلهم تقريباً ، قبل أن ينبئ
العباسيون إلى الحكم في المشرق ، ويهتم بذكر الأحداث التي قام بها أفراد يرتبطون بأسرته .
وفي الحملات الحربية يشير بوضوح إلى الأمكنة التي شغلها أمويون ، ويسجل حتى أنفه
الأعمال التي قام بها بعضهم ، ويورد نماذج من الأدب والاحترام التي يحتفظ بها صغارهم
لكبارهم ، ويطلب في ذكر أفراد الأسرة الأموية الذين دخلوا إسبانيا بعد مجيء عبدالرحمن
الداخل ، ويأتى على أخبارهم تفصيلاً .

وكتب في مثل هذه الحال ، لا يستبعد منه ، في ضوء خبرته المباشرة ، وثقافته الحربية

والسياسية ، أن يقدم لنا مدونة مفصلة ودقيقة إلى حد بعيد ، تبدأ من الفتح وتمتد حتى ارتقاء هشام الأول عرش الإمارة .

وبعد هذا القسم ، فيما يليه من المدونة ، سوف تتغير الصورة تمامًا ، سوف تختلف طريقة الكتابة كلية واختيار المادة التاريخية أيضا ، ولم تعد الحملات الحربية ، ولا الموضوعات العسكرية ، تعنى الذين كتبوا هذا الجانب من المدونة . وإذا عرضوا لها مرة ، جاء حديثهم عنها خالياً من التفاصيل التقنية ، كما يفعل غير المختصين من الكتاب ، وحتى الموضوعات السياسية لا تسترعى انتباههم ، وإنما تركز اهتمامهم ، على نحو واضح بالموضوعات الدينية إذا تحدثوا عن الأمراء لا تعينهم البطولات ، وإنما يعرضون لهم بطريقة تجريدية ، يذكرون مميزاتهم الثقافية ، وفضائلهم الخلقية ، ويشيرون إلى ما هم عليه من خشوع وتقوى ، ويتحدثون عن أدبهم وحبهم للفقهاء ، ويضمنون حديثهم عن الحكومة الصالحة المواعظ الخلقية وأبيات الشعر . مما يوحى بأن كاتب هذا الجانب من المدونة فقيه أديب ينسب في قبيلة قريش ، يحتفظ بين أوراق أسرته بخطابات قديمة ، كوثائق عائلية ، عليه كفقيه أن يواصلها . ونعرف بعضاً من أمثال هؤلاء الفقهاء القرشيين ، ويرد في الحاضر فقيه منهم ، كان يتمتع بشعبية واسعة ، وشهرة علمية فباضة ، ودرج القرطبيون على أن ينادوه في لقبه الرومانى : ابن الشبسية Sepancia^(٣)

في أى عصر عاش ، أو كتب ، الفقيه الذى حرر الجزء الأخير من مجموعة الأخبار التاريخية هذه ، والتي حملت اسم « أخبار مجموعة » ؟

أنا أعتقد أنه عاش في عصر عبد الرحمن الناصر ، حيث تتوقف الرواية ، وتلك الأيام التى تحدث عنها المؤرخ كأيام محيفة ، بل وتعيصة يُرثى لها ، وشهدت احتضار القوة العربية ، ليست عقبة تحول دون هذا الرأى .

كل فرد ، كما سبق أن قلنا ، تيدوله الأيام سيئة وحتى تعسة ، حين تقع لشخصه أو أسرته أو قومه أحداث غير مرضية ، ومن ثم هناك من يتحدث بسوء حتى عن أفضل الأيام

(٣) ابن الأبار ، الترجمة رقم ٢٦٩٥ ، في الجزء الذى نشره مركز الدراسات التاريخية ، من تكملة الصلة ، مدريد ١٩٦٥ .

التي تمر بها أمته ، وأذكر بهذه المناسبة أن الحشني ^(٤) يتحدثنا عن قاض من قرطبة في عهد عبد الرحمن الناصر عرض لتلك الأيام فوصفها « بفساد الزمان ، واختيال الفجار ، وما يحدث من الأمور المشبهة التي لاتبين له حقيقتها ، ولا يُكشف له وجهها » . وعندما تحدث الحشني نفسه عن هذا القاضي ، وصفه بأن « مذهبهم محمودة ، وسيرته حسنة ، وهديه جميلا ، وكان له من الوقار والاختبات ما بدَّ به أهل زمانه ، وفات فيه أهل عصره » . ثم يضيف : إن هذه الصفات الأندلسية تلاشت في أيام عبد الرحمن الناصر . وفيها نجد كثيراً من السادة الذين احتفظوا بطابعهم اللاتيني ، ومن ثم فهم ليسوا عرباً ، واصلوا ثوراتهم حتى ذلك الوقت ، ثم استنزوا من حصونهم ، وأصبحوا معاهدين ، وأصحاب نفوذ في قرطبة ، وأباحوا لأنفسهم رخصاً لا يرتضيها قانون الدولة الإسلامي ، وبلغ الأمر حد أن اسم شخص إسباني ، ينحدر من أب وأم لاتينيين ، رنَّ في عاصمة الخلافة الإسلامية ، كمرشح لمنصب قاضى الجماعة فأثار استنكار المسلمين الطيبين بعنف . أى فقيه تقي من قبيلة قريش الشريفة لا يفعل فكراً بالأحداث السياسية في عهد عبد الرحمن الناصر ، حين يرى اللاتينيين أصبحوا سادة ، ويدفعون الأشراف العرب الأضلاء ، وكانوا حتى هذه اللحظة يسيرون السياسة القرطبية ، إلى مكان ثانوى مغمور ، خامل الذكر؟ ويرى الأسر الإسبانية الحديثة العراقية ، وليس في عروقتها نقطة من دم عربى ، تخلف القرشيين في المناصب السياسية والحرية في إمبراطورية بنى أمية ؟

مثل هذه الأيام ، فيما يرى أى قرشى ، بالغة الخطر على مستقبل الجماعة الإسلامية ، وينبئُ بنهاية حكمها في شبه الجزيرة إنها أسوأ ما يمكن أن يتصور من الأيام ! والحق أن الفقيه الشريف الذى كتب هذا الجانب من المدونة كان واقعاً تحت هذا التأثير ، ودليلنا عليه موقفه من عبد الرحمن الناصر فيما يتصل بهذه القضية ، فبعد أن أتى على الانتصارات الشخصية العظيمة التى حققها الخليفة أضاف ، وأصاب في ذلك كبد الحقيقة : « ولكنه - عفا الله عنه - مال إلى اللهو ، واستولى عليه العجب ، فولى للهوى لا للغاء واستمد بغير الكفاءة ، وأغاظ الأحرار بإقامة الأنذال ، كنجدة الحيرى وأصحابه

(٤) تاريخ قضاة قرطبة ، ونصه العربى وترجمته إلى الإسبانية ، وقام بها غولييان ريبيرا نشره في مدريد عام ١٩١٤

الأوغاد . فقلده عسكره ، وفوض إليه جليل أموره ، وألجا أكابر الأجناد ، ووجوه القواد ، والوزراء من العرب وغيرهم ، إلى الخضوع له ، والوقوف عند أمره ونهيه ، وحال نجدة حال مثله في غيه واستخفافه ، وركاكة عقله »^(٥) ألا يبدو لنا الآن من الوضوح بمكان ، أن قرشياً من أيام عبدالرحمن الناصر ، يتحدث عن ذلك العهد في تشاؤم ؟!

ولأن الذين حرروا أخبار مجموعة : ينحدرون من أسرة عربية قرشية شريفة ، ليس لنا أن نعجب من احتقارهم للطبقة الدنيا من عامة الناس ، وبخاصة السكان الأصليين الذين ينحدرون من أصول إسبانية ، ولقد انصرفت عنايتهم كلها إلى أخبار عرب الأندلس وحدهم . ووجهوا جل اهتمامهم إلى القرشيين من بينهم ، وإلى البيت الأموي من بين القرشيين بخاصة . أما العناصر الاجتماعية الأخرى فلا تحتل من الكتاب إلا مكاناً منزوياً حقيراً ، ويحیی الحديث عنها في إشارات عابرة وذلك أكبر نقص يؤخذ على الكتاب .

* * *

أما كتاب ابن القوطية ، على نحو ما وصلنا ، فعلى العكس من ذلك ، ونشك فيما إذا كان ابن القوطية نفسه مؤلفه المباشر ، وكتبه قاصداً . فهو ليس كتاباً انتظمت أقسامه ، وارتبطت منهجياً ، كعمل أدبي لمؤلف واسع العلم ، غزير الثقافة ، وهو ما كان عليه ابن القوطية فيما يقول المؤرخون . ولكنه مجموعة من الأخبار القصار ، دونها بعض من كان يحضر دروسه من المولعين بالأخبار ، فجاء لوحات جزئية ، لا رابط بينها أحياناً ، وأروايات منفصلة لأحداث تاريخية ، ليست من إنشاء ابن القوطية نفسه ، وإنما حررها أحد سامعيه ، فهو يقول مثلاً : « قال لي ابن القوطية » . وتتخلل الروايات أساطير شعبية دات روح شاعري ، وتقوم على أساس من التاريخ ، ولا يؤلف بينها رابط قوى ، ولا يجمعها تناسق خاص ، ويورد أحياناً ، كما يحدث في آخر الكتاب ، روايات ملفقة تماماً ، أقرب إلى أن تكون ثرثرة .

هذه الإشارات تجعلنا نعتقد أن ابن القوطية لم يحرر هذا الكتاب شخصياً ، وإنما هي

(٥) أخبار مجموعة ، ص ١٣٥ من الترجمة ، وص ١٥٥ في النص العربي .

نقاط نقلها أحد تلاميذه من دروس عديدة له ، حاول فيها أن يعرض ما يعرف من تاريخ إسبانيا ، أو مجموعة من الأخبار التاريخية كان يحتفظ بها بعض أبنائه أو أحفاده ، ثم تولوا ترتيبها على النحو الذى وصلتنا عليه .

وثمة إشارات أخرى تومئ إلى أن ابن القوطية لم يؤلف هذا الكتاب بهدف أن يكتب عملاً أدبياً ينسب إليه .

فابن الفرضى المؤرخ ، صاحب التراجم المعروف ، وتلميذ شخصياً على ابن القوطية ، يتحدثنا عن نفسه أنه اختلف عدة أعوام إلى الدروس الأدبية التى كان يلقيها ابن القوطية في مدينة قرطبة ، وقد أعجب به ، وأثنى عليه كأستاذ عظيم ، وعاش ابن الفرضى بعد ابن القوطية ستة وثلاثين عاماً^(٦) ، فلو كان ابن الفرضى يعرف أن لابن القوطية هذا الكتاب محرراً ، أما كان يغتنم الفرصة ليفيد منه في كتابه « تاريخ علماء الأندلس » ، أو على الأقل أن يشير إليه ولو مرة واحدة ، كما ذكر مؤلفات : عبد الملك بن حبيب ، والرازى ، والحشى ، وآخرين ؟ ، إنه لم يذكر كتاب ابن القوطية هذا ولا مرة واحدة إذا شئت ، والترجمة التى خصه بها ، وهى أكمل ترجمة له وصلتنا ، تتحدث عن مؤلفاته في النحو واللغة فحسب ، وإلى جانب ذلك ، كان ابن الفرضى على علم تام بأن ابن القوطية ينتطوى على حب عميق لمادة التاريخ ، فهو يتحدثنا عنه قائلاً : « وكان حافظاً لأخبار الأندلس ، ملياً برواية سير أمرائها ، وأحوال فقهاءها وشعرائها ، يملئ ذلك عن ظهر قلب » . ولكنه لا يذكر لنا صراحة أنه كتب أية مدونة ، أو ألف أى كتاب خاص عن تاريخ الأندلس . وذلك فيما أرى ، دليل على أنه في حياة ابن القوطية ، وحتى سنوات بعد وفاته ، لم يكن الكتاب الذى يحمل اسمه قد عرف طريقه إلى الجمهور .

غير أن الاهتمام بالعلم والأدب ظل قوياً في نطاق أسرة ابن القوطية . فقد سار ابنه المسمى عمر ، ويكنى أبا حفص ، في الطريق نفسه ، فكان أدبياً شاعراً ، وروى عن أبيه وغيره^(٧) وكان من سلالة عبد الملك ، ويكنى أبا الوليد ، ويعرف بابن القوطية أيضاً .

(٦) توفى ابن القوطية عام ٣٦٧ هـ - ٩٧٧ م .

(٧) ابن بشكوال ، الصلة ، الترجمة ٨٤٩ ، طبعة مدريد (والترجمة رقم ٨٥٤ من طبعة القاهرة) .

« متصرفاً في العلوم من الفقه والعربية والحساب ، محسناً لعقد الوثائق ، بصيراً بعلمها ، راوية للأخبار ، حافظاً للآداب ، ورواية للعلوم واسعة ، وشيوخه كثيرون بقرطبة وإشبيلية ، وروى عن عمه أبي بكر^(٨) ، أى ابن القوطية صاحبنا ، وأحد هذين ، أو أى تلميذ آخر ، يجب أن يكون قد حرر تاريخ افتتاح الأندلس ، على النحو الذى وصلنا عليه .

ومع ذلك ، ورغم أن ابن القوطية لم يكن هو الذى حرر الكتاب شخصياً ، فإن المادة التى تضمنها وتنسب إليه ، تتفق تماماً مع كل مانعرف عن شخصه وجنسه وأسرته وتربيته وثقافته ، وما إلى ذلك ، وليس ثمة شك على الإطلاق فيما يتصل بها .
فالمرخون ، حتى دون قصد منهم ، ينقلون إلينا وجهة نظرهم الشخصية ، يروون ما يهمهم أكثر ، ويضعون عليه ظلالاً تعكس حالتهم النفسية ، ومحتوى تاريخ افتتاح الأندلس يتفق تماماً مع نفسية ابن القوطية .

هو فقيه من قرطبة ، ولكنه واسع الأفق ، أديب عميق ، واسع الثقافة ، يجرى فيه جانب من الدم العربى ، فهو مولى بنى أميه ، ولكنه من جانب آخر ، يتحرك فى أعماقه إنساناً ويغلى روح إسباني ، وشرف أسرة نبيلة ، تنتمى إلى الأسرة القوطية المالكة .
هو مسلم مخلص ، تروى فى وسط دينى شديد المحافظة ، ودرس مبادئ أشد المذاهب الإسلامية سنية ، ودافع عن اتجاه تاريخى خلقى تستشفه خلال كتابه ، ومؤداه أن الذين يعملون الطيب ، والصالحين والأتقياء ، يتلقون الثواب فى الدنيا ، وأن الأشرار والسيئين ينالهم العقاب فى الدنيا أيضاً ، فضلاً عما ينتظرهم فى الآخرة .

والملوك الصالحون هم الذين يقربون الفقهاء والعلماء من رجال الدين ، وبهذا يصبحون سعداء ويسعدون رعاياهم ، ولكنه مع ذلك لم يكن متشددًا ولا متعصبًا ، ويورد أخبار زرياب فى ود ، رغم أنه كان موسيقياً ، ولا يتردد فى رواية السنة على نحو قد لا يرتضيه منهج المحافظين على أيامه .

ولأنه كان مسلماً صادق الإيمان لم يكن لديه ما ينجل منه فيما يتصل بموقف أفراد

(٨) المصدر السابق ، الترجمة رقم ٧٦٥ ، طبعة مدريد (والترجمة رقم ٧٧٠ ، طبعة القاهرة) .

أسرته الذين ساعدوا حملة الفتح الإسلامى ، بل ويمكن القول إنه غالى فى الخدمات التى قدمها أسلافه إلى العرب ، فى تواطئهم الخائن ضد الشعب الإسبانى ، وإنه كمؤمن صادق الإيمان يعتبر أن الفتح الإسلامى هبة إلهية لإنقاذ البشرية .

وقد ارتبطت أسرته بالولاء لبني أمية ، لأن جدته سارة القوطية ، حفيدة غيطشة ، ذهبت إلى دمشق ، تشكو إلى الخليفة سليمان بن عبد الملك ظلامه أصابها من أحد موالها المسلمين ، فأنصفها (وزوجها من عيسى بن مزاحم ، الذى قدم الأندلس معها ، وسكنها إشبيلية) ، ومن ثم كان صاحبنا ابن القوطية يعتبر ملوك الأندلس الأمويين موالى له ، ولهذا السبب أيضا ، فإن اهتماماته وآراءه التاريخية تتفق فى هذا الجانب مع آراء وأفكار مؤلفي أخبار مجموعة وكانوا أمويين أيضا . فهم وابن القوطية ، يتفقون فى كتابتهما على احتقار موسى ابن نصير وللدريق ، ويعتبران هذا الأخير غاصبا ومتكبرا وفارغا ، ومستحقا بالتقاليد الدينية ، ومغتصبا للنساء ، ومرتكبا لردائل وآثام أخرى كثيرة . وفيما يرون جميعا فإن موسى ابن نصير ، وعزله الأمويون السوريون ظلما وبطريقة مخجلة ، مثل واضح للطموح المتبذل ، وقد حقد على طارق القائد المحظوظ الذى عهد إليه بفتح إسبانيا ، ضربه كعبد حقير ، اختصم معه حول رجل المائدة ، وما أن موسى وابنه انسجما مع أسرة للدريق . وحتى ارتبطا عائليا ، فإن الأمويين أتباع غيطشة كرهوا موسى ومواليه . والدريق وأتباعه وعاقبهم وفى هذا يتفق أخبار مجموعة وكتاب ابن القوطية .

ولكن هناك ، كما أشرنا من قبل ، اختلافا جوهريا بين محتوى الكتابين . مصدره اختلاف سلالة مؤلفيهما . فالقرشيون الذين ألفوا أخبار مجموعة يظهرون احتقارا كبيرا نحو العنصر الأصلي من السكان ، قلما يعرضون لهم ، ولا يكادون يهتمون تقريبا بغير البطولات العربية ، والقرشيون من بين هؤلاء بخاصة ، والأمويون من بين القرشيين على نحو أخص . فى حين أن ابن القوطية ، ومحس بالدم الإسبانى يتدفق عبر عروقه ، احتفظ فى أعماقه بشرف جنسه حيا ، فأدخل فى كتابه العديد من الروايات التى تعرض لموقف العنصر الإسبانى ، من سكان البلد الأصليين .

ومسألة الشرف هذه تفاقمت للغاية فى الأيام التى سبقت ابن القوطية . وبخاصة فى

عهد الأمير عبد الله ، حين كانت كل العناصر الاجتماعية في إسبانيا الإسلامية تضطرب بعنف ، لغياب القوة المركزية التي تسيطر عليها .

وفي بلد ، كشه الجزيرة يومها ، يتعايش الناس من أجناس مختلفة ، وأديان متباينة : مسلمون ومسيحيون ويهود ، وعرب وقوط ورومانيون وغيرهم ، وقبائل وأسر ظلت حتى ذلك الوقت تحتفظ في قوة بخلافاتها القبلية والعائلية ، من عرب وجرمان ، ليس من الغريب في النضال الاجتماعي ، أن يشتد الزهو بالانتماء إلى هذه القبيلة أو تلك ، وإلى هذه الأسرة أو الأخرى ، وإلى هذا الدين بعينه . فالمسلمون يحترقون اليهود والمسيحيين ، يتجنبون الاتصال بهم أو الاحتكاك بهم ، والذين ينحدرون من أسر شريفة يحترقون العامة والذين في أدنى سُلَم الحياة ، وينفرون من التعامل معهم .

غير أن التعايش أمر لا مفر منه ، وضرورات الحياة في أحيان كثيرة تضطر الجميع إلى التسامح ، وفي بعض الحالات إلى التلاقي والتعاون ، ومن ثم انتقلت مسألة الشرف إلى أوساط أخرى ، وأخذت طابعا مختلفا ، طابعا معنويا لا صلة له بالجنس أو الأسرة .

نعم ، أصبح الإحساس بالكرامة الشخصية شديدا ، وأصبح الشخص الذي حقق شيئا من الهيبة الاجتماعية يعتقد أنه أهين إذا وجد نفسه مضطرا إلى أن يتعاون مع شخصية أخرى من طبقة أدنى ، وصار السلوك الخلقى المحمود يُكسب صاحبه قيمة وثقة . وإذا ميز أناس موقرون شخصًا ، أو نعتوه بأنه كريم ارتفع بهذا العمل وحده في التقدير الاجتماعي . وإذا ارتكب شخص من أشراف قريش فاحشة ، فإن قاضي قرطبة يمكن أن يعزره ويذله ، ولا يتوقف تقدير المرء على سلوكه الشخصي فحسب ، وإنما يتأثر أيضا بموقف الأسرة نفسها فهو ينعكس على مكانة أفرادها ، فالموقف السيء لابن يؤدي إلى تعزيز الأب أحيانا . وقد اضطر قاض في قرطبة إلى أن يستعفى من منصبه بسبب مجون ابنه . وعندما بلغ ابن أحد القضاة سنا متقدمة ، أدى ذلك إلى الشك بأن الأب لم يعد كامل الأهلية ، ومن يطلب ، أو يرجو لنفسه منصبا عاما ، يوصف مسلكه هذا ، أحيانا ، بأنه غير كريم . هذا الإحساس الخلقى ، الموسوس والقوى ، في الشعب الأندلسي ، أدى إلى تكوين

جلاعات سياسية مختارة ، تقود الشعب بآرائها ، وتحفظ في الوقت نفسه باحترام كامل لأمرائه .

إنه إحساس مدني راق ، هيا إلى جانب ظروف أخرى سياسية واجتماعية لإمبراطورية الأمويين في الأندلس أن تبلغ أوج عظمتها على يد عبدالرحمن الناصر .
وليس ثمة شك في أن ابن القوطية تأثر بهذا الجو المعنوي ، وأحس بكل هذه الدوافع التي تجعل مواطنيه يرتفعون به مرتبة عالية متميزة في درسه ، واعتدال سلوكه ، وسلامة تدينه ، واحترام نسبه العربي والقوطي ، وقد روى لنا الأحداث التي أسهمت فيها أسرته ودورها في القضايا العامة ، ولأن دم عنصرين يجري في عروقه ، فقد نعدم الاثنين في مدونته .

نجد في كتاب ابن القوطية عددا من الأساطير ذات الطابع القومي كانت تتداول شفاهها بين المسلمين القوميين الإسبان^(٩) ، وتعكس في تضاعفها دون قصد ، وعلى نحو واضح ، غلبة العنصر الأصلي من السكان على أيامه ، وهو يروي الوقائع دون أن يمويه أو يشوه قاصداً .

وقد وجد ابن القوطية نفسه ، دون أن يقع ذلك في خاطره ، مرتبطاً بقومية بعض الفرق التي شاعت في الأندلس ، ولكن في اعتدال ، مدفوعاً إليها بثقافته المالكية ، وعلاقاته بالأسرة الأموية ، وروايته لأرطباس مع الصميل بن حاتم ، وميمون العابد ، وهي رواية زهاد قوميين ربما تفرعت عن اتجاهات شيعية تظهر لنا العرب في صور الجهمية المبطلين ، وتصور لنا أرطباس القوطي رجلاً عظيم المواهب ، حميد الأخلاق ، وحقى ممتازاً في صلاته الاجتماعية .

ويورد مؤلفنا في كتابه عدة روايات ذات طابع ملحمي ، تتميز بأنها قصيرة ، عن أزهى أيام إسبانيا الإقطاعية فروسية ، وتشمل الفترة التي تمتد من عصر الأمير محمد إلى عصر الأمير عبدالله ، وفيها ازدهر الشعر الملحمي على يد الشاعر تميم بن علقمة ، وكان

(٩) جانب كبير من روايات ابن القوطية يعتمد على الرواية الشفوية ، سمعها من أساتذته الأسان ، إلى جانب بعض آخر سمعها من كتاب عبد الملك بن حبيب ، والمنظومة التاريخية للشاعر تميم بن علقمة . وضاعت ولم تصلنا .

متزوجاً من ابنة كونت مسيحي في الأندلس ، وفي هذا الوفد نفسه كان بنو قسي في أرجون ، وهم إسبان اعتنقوا الإسلام ، وتعودوا أن يلهبوا روحهم المقاتل حماسة بإنشاد أشعار عنتره بن شداد .

ولم يكن ابن القوطية سعيداً بسلوك المتمردين على البيت الأموي ، ومع ذلك كان يُسر برواية أخبار قصصية ، كأخبار الشاعر غريب ، الداهية المتعصب لقومه من أهل طليطلة ، وعن وقائع مروان الجليقي بناحية بطليوس وأعمال إزراق في وادي الحجارة ، وأخبار عمر بن حفصون وغيرها . ويبدو السخط الشعبي في بعضها واضحاً ، دون قناع ولا تخفف ، ويحدد من خلال الأساطير العقاب الذي سيوقعه الله بالعاصين ، فبعد مذبحه وجوه طليطلة الغادرة ، « حين أتى القتل منهم إلى خمسة آلاف وثلاثة مائة ونيف ، وأثبت عبد الرحمن بصره في السيف ، فلم تزل به غمزة في عينه إلى أن مات » .

الاتجاه القومي المعتدل طابع كتاب ابن القوطية ، ويجعل له قيمة كبيرة ، فقد ضمنه أخبار بقية عناصر السكان المسلمين من غير العرب ، الذين أهملهم المؤرخون الآخرون تماماً ، وبذلك جعل محتوى كتب التاريخ العربي أشمل مادة وأدق تسجيلاً .

ومع ذلك ، وبالرغم من كل شيء ، فإن بعض العناصر ، وبهم تكمل الصورة التاريخية لإسبانيا الإسلامية ، تبقى أخبارهم غامضة ، أو تنجئ على استحياء بين الوضوح والإبهام وهي صورة القوميين المناهضين للحكم الأموي والذين وقفوا في وجه العرب ، متأثرين بمبادئ الشيعة الوافدة من فارس^(١٠) ، وأثبتت التمرد ، وظلت مبادئها نابضة حية في مؤلفات الصوفية أحياناً ، وأهمل كذلك الجماعات المسيحية واليهودية ، والحق أن كل المدونات التاريخية احتقرت أخبارهم ، فصمت عنهم تماماً .

وقد وفق بشكوال جيايجوس في أن يلحق بنهاية كتاب ابن القوطية عدة نصوص

(١٠) وصلتنا أساطير كثيرة نلاحظ فيها التأثير الفارسي ، وتأثير الشرق الأقصى ، مثل حادث تيودير ، والبيت المعلق في طليطلة

وغیرها .

تاريخية^(١١) ذات أهمية ، وبخاصة ما نقله عن ابن قتيبة^(١٢) ، ولو أنها في الحقيقة تتضمن حوادث لم تقع في إسبانيا ، وإنما حدثت في المشرق وتتصل بموسى بن نصير بعد أن غادر شبه جزيرة إيبيريا ، وعلى الرغم من أنها أساطير ترد فيها الوقائع التاريخية مشوهة ، إلا أنها تبين لنا إلى حد ما نظرة المشاركة إلى الأندلس لحظة الفتح ، ونحتاج معها إلى أن ننعم النظر في بعض الشخصيات وفي بعض الأحداث ، وحاول مؤرخو البيت الأموي وأتباع غيطة غمط تاريخهم كل ما كان ذلك ممكنا .

ينعكس الانطباع الذي أحدثته فتوحات موسى الكبرى في المشرق ، بطريقة جيدة للغاية ، في الأساطير التي أوردها ابن القوطية ، ومن المؤكد أن المسلمين هناك قد اعترضهم الدهشة ، واجتاحتهم الحماسة ، عندما عرفوا السرعة التي اتسعت بها الإمبراطورية الإسلامية . فلم تمض اثنتان وتسعون عامًا على الهجرة حتى بلغ الإسلام شواطئ بحر الظلمات ، نهاية الأرض المعروفة في ذلك الحين ، ثم عبر المضيق ، وانتشر في جانب لا بأس به من أوروبا ، وفي فورة الحماسة صيغت أروع الأقاصيص خيالًا وأطرفها . وأشدها مبالغة ، غالوا في تقدير الثروات والكنوز التي وجدها المسلمون في إسبانيا ، كما لو كانت دورادو El Dorado^(١٣) المسلمين .

هذه المبالغات المفرطة لابد أنها أثارت الشكوك حول سلوك موسى بن نصير قائد الحملة ، وشاع الظن بأنه احتفظ لنفسه بالجانب الأكبر من هذه الكنوز ، لأنه لم يدخل في خزائن الدولة القدر المناسب ، والذي تستحقه شرعًا من هذه الثروات الأسطورية ، وتبريرا لهذا الشك اخترعوا أساطير تقول إن كنوز ملوك كثيرين أصبحت في حوزته ، وتيجانهم وأحزمهم الذهبية ، وأقدار لا تحصى من الجواهر والياقيت . والطنافس

(١١) وقد ترجمتها أيضا مع الكتاب ، والذي كتبت هذه الدراسة مقدمة له .

(١٢) ترجمها في كتابه « تاريخ الدول الإسلامية » ، أسابيا The History of The Mohammedani in Spain ، ج ١ ص ٥٠ وما بعدها من الملحق والجزء الثاني ص ٣ وما بعدها .

(١٣) الدورادو : بلد بالغ الثراء على نحو لا يقدر ، ولا وجود له إلا في غيلة أصحابه ، وتصور المراء الأوروبيون لأمرينكا انطلاقا منه أنه يوجد في أمريكا الوسطى فأخذوا يبحثون عنه عبثا .

المنسوجة بالذهب والفضة والجواهر ، والأثاث المصنوع من أغلى المواد ، وإلى غير ذلك كثير .

وفضلاً عن ذلك ، أصبح هذا القائد المسلم وأسرته يحكمون مساحات شاسعة جداً من الإمبراطورية الإسلامية ، من تونس إلى المغرب وإسبانيا ، وشاعت الأخبار عن معاملته الحسنة ، وإنسجامه مع الملوك الغرباء الذين خضعوا له ، حتى أن أحد أبنائه تزوج من أرملة ملك إسبانيا ، فأثار ذلك كله شكوك الخليفة الأموي بأن موسى يمكن أن يستقل بالأمر لنفسه .

حينئذ قرر الخليفة قلقاً ومتوجساً ومنذفعاً ، أن يدعوّه إلى المشرق وأن يعزله ، على حين اعتقد موسى ، وقد أصبح هرمًا تقدمت به السن ، أن ماضيه في خدمة المسلمين ، وولائه للخليفة ، يجعله يحظى بالاحترام ، ويتيح له أن يمضى في وطنه شيخوخة هادئة ، فأذعن للأمر ، ترك إسبانيا ، وعرض نفسه في بلاط الخليفة .

وقد برهن استقبال موسى ، ومسلك الخليفة لإزائه ، والتدبير المرعب والنجس باغتيال ابنه عبد العزيز ، المتزوج من أرملة للدريق ، على ما كان ينتظر هذا القائد العظيم ، ولا يطاوله في عظمتها الحرية غير هرمان كورتس Hernan Cortés ^(١٤) من جحود وقلة عرفان من خلافة دمشق ، جزاء قيادته الماهرة ووطنية الصادقة ، وولائه لخليفته وأمته . وكل هذه الأشياء التي يروها لنا ابن القوطية ، مختلطة بالأساطير ، تجعل من النظرة التاريخية عند أخبار مجموعة ، وعند ابن القوطية ، أكثر اتساعاً ، وتساعدنا على أن نفهم بوضوح أشد خفايا الأحداث الكبرى في التاريخ .

ورغم تعدد الروايات التي أوردها فثمة شك فيما يتصل بالتفاصيل التي تضمنتها ، والتي يمكن مناقشتها وبيان جانب الضعف فيها ، مثل التفاهة التي تقص كيف أن طارق بن زياد احتفظ بأحد أرجل المائدة التي عثر عليها في طليطلة ، وأن ذلك لم يحدث ، وعن حقيقة خوليان ، وغير ذلك من التفاصيل ، والذين يهتمون بدراسة تركيب الظواهر

(١٤) من قواد أسبانيا العظام في غزوها لأمريكا اللاتينية لحظة اكتشافها ، وعلى يده تم اكتشاف المكسيك وفتحها ، توفي عام

(المترجم)

الاجتماعية والسياسية فحسب ، سوف يجدون في هذه المدونات التي ينشرها المجمع الملكي التاريخي ، تفسيرات واضحة عن العناصر التي كانت تتكون منها إمبراطورية بني أمية في إسبانيا الإسلامية ، والتي استمرت زمناً طويلاً .

ويمكن القول بأن خروج موسى إلى المشرق ، واغتيال ابنه المتزوج من أرملة للذريق ، أدى بالضرورة إلى تغييرات عظيمة في العلاقات السياسية الإسبانية ، لقد استعاض عن موالى موسى ، والأسبان من أتباع للذريق ، بأناس من العرب أكثر ولاء لبني أمية ، مثل جند الشام ، وبأسبان من أنصار غيطشة ، وكان هؤلاء قد انسجموا سريعاً مع أمويي المشرق ، وبهم ربطوا مصيرهم .

ولقد حانت لحظة عابرة ، عندما أصبح يوسف الفهري والياً على إسبانيا ، وبدأ قدرها متأرجحاً غير مؤكد ، حيث بدأت الأساطير التاريخية تقدم لنا أرتطباس ، من أتباع غيطشة ، يجلس على كرسي أشبه بعرش ، يحيط به الرؤساء العرب في شبه جزيرة إيبيريا ، يحضرون عنده ، ويسألونه شيئاً من سخائه الملكي .

وعندما أزاح العباسيون في المشرق بني أمية عن الخلافة ، لم يمكن لأولئك في شبه الجزيرة من يعتمدون على ولائه غير القليل ، فإسبانيا بعيدة عن الكفاح المجيد الذي اضطلعت به الأسرة الجديدة التي تولت الخلافة وأثار إعجاب الكثير من المسلمين ، فاهتبل الفرصة أحد أبناء الأسرة الأموية ووجد الظرف مواتياً لكي ينشئ هنا في الأندلس مملكة مستقلة ، واستطاع أن يحظى بمساعدة موالى أسرته ، والعنصر الإسباني من السكان الأصليين ، وكان يتمتع ساعتها بنفوذ وهيبة كبيرين ، وتقدم لنا الروايات التاريخية عبد الرحمن الداخل في نزهاته عبر شبه الجزيرة يصحبه أرتطباس ، قفة حزب غيطشة ، ولقد حدثت دون شك خلافات خطيرة بين الاثنين . ونجراً عبد الرحمن الداخل فقبض إقطاعيات أرتطباس ، ولكنها انسجما أخيراً ، واسترد أرتطباس كرامته كاملة كرئيس للنصارى في الأندلس ، واغتتم أتباع غيطشة الظرف تماماً ليحصل كل واحد منهم على ما يستطيع من المراتب .

وقد بقي أحفاد غيطشة ، من ناحية الأب ، على عقيدتهم الدينية المسيحية ، دون أدنى

شك ، واحتفظوا بمكانتهم الاجتماعية في نطاق التنظيم المسيحي ، وأمكنهم أن يحتفظوا بها بعد الفتح العربي ، وتولوا مراكز دينية سامية ، فأصبح أحد أبناء سارة - مثلاً - مطران إشبيلية ، وشغلوا مناصب قضائية وسياسية هامة فكان منهم قاضي العجم في طليطلة ، وقومس الأندلس ، أما الأحفاد الذين انحدروا من ناحية الأم ، أى أبناء سارة القوطية وأحفادهم ، فقد أصبحوا مسلمين ضرورة ، بحكم الشريعة الإسلامية ، وذلك أن سارة القوطية عندما أحست بالمعاملة السيئة التى يلقاها عمها أوطباس ولما فى المرأة من ضعف ، ذهبت إلى الخليفة الأموى فى دمشق ، فبحث لها هذا عن زوج مسلم أوصى به عبد الرحمن بن معاوية ، أمير الأندلس فيما بعد . وقد آثرت السلالة التى انحدرت من سارة أن تتخذ مسرورة من اسم أمهم المسيحية لقباً لهم ، وفضلته على أسماء آبائهم المسلمين ، ويقول ابن القوطية إن أحفاد سارة كانوا ، فى نطاق المجموعة الإسلامية ، يتمتعون بمكانة ممتازة وبهبة يئنة ، لم يتمتع بها أولاد أزواجها من نساء أخريات . إن اتباع غيطشة يستطيعون أن يفخروا بأنهم ساعدوا على سقوط إسبانيا فى عهد موسى ، وبأنهم اسهموا أيضاً ، لصالحهم الشخصى ، فى تدعيم الإمبراطورة الإسلامية فى العصور التالية . وفى عصر عبد الرحمن الناصر ، وعاش ابن القوطية أيامه ، وكتب مدونته ، كان دم غيطشة لما يزل يتدفق حاراً فى صدور المسلمين .

القصيدة التي فجّرت ثورة

مع أول القرن الثامن الميلادي جاء العرب إلى الأندلس ، ومع نهاية القرن العاشر أصبح بهم دولة مرهوبة الجانب ، مركزية السلطة ، يسودها الأمن ، وتفيض بالخير : الحقول خضراء زاهية ، والبيوت أنيقة مريحة ، والحمامات كثيرة ونظيفة ، وأنظمة الري دقيقة ومحكمة والأقوات موفرة بأرخص الأسعار ، ويتحرك الناس في صحة بادية وملابس نظيفة ، وانكش الفقر أو تلاكش .

وقد صنع هذا المجد عريان عظيم ، كان الأول خليفة ، وهو عبد الرحمن الناصر ، وكان الثاني حاجبا أو رئيسا للوزارة في لغتنا المعاصرة ، وهو المنصور بن أبي عامر . وكما تكون إنجازات العباقرة عظيمة تجيء أخطاؤهم من نفس المستوى . وكان الخطأ الذي وقع فيه الاثنان ، والتبعة على الأول أكثر ، لأنه الذي بدأ والثاني سار على طريقه ، أنهما لينفردا بالأمر ، ويتمكنا من السلطة ، أتيا على النفوذ العربي تماما ، استغنيا عن أبناء البيوتات ، وأذلا كبار الرجال فيها ، واستعاضا عنهم بولاء الرقيق من الصقالية ، والنازحين من الأفارقة ، وأولئك ولاؤهم مأجور ، وهؤلاء إحساسهم بالوطن واهن ، ولم يكن للقاعدة العريضة من الجاهل دور طليعي على أيامهم ، ولا قبلها ، لافي الأندلس ولا في غيره ، نعم كانوا مادة مهياة للثورة ، حين يبلغ السوء مبلغه ، وتنحدر الحال إلى قدر لا يحتمل ، ويجيء الزعيم المنتظر ليقودها ، في الحال تلبى نداءه ، وتصطف وراءه ، ونمضى معه بلا تردد إلى نهاية الطريق .

حين توفي المنصور بن أبي عامر خلفه ابنه من بعده ، وكان دون أبيه قدرة وموهبة . ولم يبق غير سنوات قليلة ثم لحق به ، وكانت هذه السنوات القليلة كافية لكي يتجمع كل أولئك الذين يريدون أن ينقضوا على السلطة ، يريدونها لهم ، أو لأناس يرضون عنهم ، ونحول الأمر إلى فوضى ، وكل الذين في الأندلس بدأوا يتقاتلون لغير سبب ، أو لسبب

أنانى مفرط فى الأنانية ، يهجمون ويرتدون ، وخلال التقدم والانسحاب يدمرون وينهبون ، حتى عاد كل شىء أسود قائما فى العين وفى الأمل ، وخرائب وانقاصا فى الواقع وفى الحياة ، وماتت الضمائر فى النفوس ، وانحلت عقدة الولاء للجماعة ، واستبيحت كل الحرمات ، وانقض كل خوّان على جانب من الدولة ، وأعلن نفسه أميراً ، ووسط هذه المصائب تميزت طائفتان - إن كان مثل هذا يعد تميزاً - هما : الفقهاء يقدمون لكل حادث فتوى ، ولكل جريمة مبرراً ، وفى خدمة الأقوى دائماً ، والشعراء يتغنون بمن يدفع أكثر ، ولمن يقدم رفاهية أعظم ، وتحول الفن الجميل والنبيل على أيديهم إلى سلعة تباع وتشترى ، وغرقوا فى الأنانية فأخذوا يدورون حول أنفسهم غزلاً وخمراً ومديحاً ! وفى جو كهذا أمسك الخيّرون بأنفسهم ، وتواروا خجلاً ، أو هاجروا إلى أرض بعيدة ، أو دفعوا الثمن معاناة وسجناً وقتلاً .

واهتزت السلطة المركزية ، وتهاوت الخلافة ، وسطا على أبحاثها مجموعة من السفهاء ، وقام على أنقاضها قرابة ثلاثين من الأمراء ، يتقاتلون طمعاً ، ويتدافعون حول أشبار ، ويعلنون الحرب من أجل أمتار ، ويدفعون كلهم الجزية للعدو الرابض على الحدود وهم صغار ، ولم يكن بأقوى منهم لو اتحدوا .

وقد ورثوا فى كل مكان ذهبوا إليه أبحاث الأمس الباذخة ، ولم يضيفوا إليها جديداً ، ومضوا يبعثون فيها بلا حساب ، شأن السفه حين يتلقى ثروة لم يبذل فيها جهداً ، ولا كلفته مشقة ، وتحول الأندلس على امتداده العريض إلى مجتمع مستهلك ، ينفق فى بذخ دون أن ينتج شيئاً أو شيئاً قليلاً لا أهمية له ، ونفق المجتمع بأولئك الذين يستطيعون أن يدغدغوا عواطف المستهلكين ببيت رقيق من الشعر ، أو بوصلة جميلة من الغناء ، أو بلحن موسيقى آسر ، أو بحركة راقصة فاتنة ، « وفاضت رغبات الناس الجنسية ، وتجاوزت ماهو مقبول عرفاً وعادة ، ولم يعد حب المرأة رغم شيوعه ويسره كافياً ليوقف اندفاعهم ، من أى وسط كانوا ، وإلى أية طبقة انتموا ، نحو اتجاه آخر تنحرف فيه العاطفة عن مسارها الطبيعى » (١)

(١) الدكتور الطاهر أحمد مكي : دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة ، ص ٥٠ ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٢ .

كان هؤلاء الأمراء ، أو الملوك الصغار ، على عهد الطوائف ، كما يسمون تاريخاً ، ينتمون إلى شتى العناصر التي استوطنت الأندلس ، وتميز كل أمير منهم بمزاج خاص ، « فامتاز المتوكل صاحب بطليوس بالعلم الغزير ، وابن ذى النون صاحب طليطلة بالبذخ البالغ ، وفاق ابن رزين صاحب السهلة أنداده في الموسيقى ، واختص المقتدر بن هود صاحب سرقسطة بالعلوم ، وبز ابن طاهر صاحب مرسية أقرانه بالنثر الجميل المسجوع . أما الشعر فكان أمراً مشتركاً بينهم جميعاً ، يلقي منهم كل رعاية ، ولكن عناية بني عباد أصحاب إشبيلية الجميلة به كانت أعظم وأشمل ، وفي أثناء ذلك كله كانت قرطبة النبيلة تحتضر ، وكان البربر أصحاب السلطان في جنوبي الأندلس قد عقدوا الخناصر مع اليهود ، وقل وفود العناصر المشرقية على الأندلس ، وانصرف نفر من أهل الأدب إلى تأليف مجموعات في جيد الكلام من نظم ونثر ، ومضى الناس في نظم الموشحات ، ولكن أكثر ما انصرفت إليه الملكات هو قرض شعر حديث على طريقة القدماء ، ولدينا من ثمار قرائحهم آلاف من الأبيات ، لقد أصبح أهل الأندلس كلهم شعراء ! ، حتى قال القزويني : إن أي فلاح يحرث بأثوار في شلب يرتجل ماشئت من الأشعار فيما شئت من الموضوعات . ومضى الشعراء يقطعون الأندلس طولاً وعرضاً ، يتجمعون قصور الأمراء حيث يظفرون بالمأوى والصلوات ، ومحضرون مجالس أصحاب الأمر ، وتدرج أسماءهم في سجلات الدواوين ، وتُخلع عليهم وظائف التدريس » (٢) .

ومن بين هؤلاء جميعاً يهمننا أن نقف عند بني زيوى الصنهاجيين ، وكانت غرناطة من نصيبهم ، وكانوا فيها الأمراء والقادة .

* * *

جاء الصنهاجيون إلى الأندلس بعد خلاف وقتن ومعارك جرت بينهم في أفريقية ، فكتبوا إلى المنصور بن أبي عامر يستأذنونهم في الجواز إلى الأندلس للجهاد في سبيل الله ، فأذن لهم . وعبروا بزعامة زاوى بن زيوى . فأكرمهم المنصور وأنزلهم منزلاً حسناً .

(٢) Emilio Garcia Gomez: Poemas arabigo andaluces, P. 32, 4 ed. madrid 1959 - Angel Gonzalez Palencia: Historia de la Literatura arabigo-espanola, 2ed., P. 66, Barcelona 1945.

واتخذهم جندا له وعونا ، ونظمهم مع زفاته وسائر بطون البربر الأخرى ، وقويت شوكتهم في أواخر أيامه ، وفي أيام ولديه عبد الملك وعبد الرحمن ، ورجحت كفتهم في الجيش ، وحين سقطت الدولة العامرية شاركوا في الفتن التي تلتها غنا وغرما ، ولعبوا دورا بارزا في تدمير قرطبة ، خلال ما عرف بفتنة البربر عام ٤٠٣هـ - ١٠١٣م ، فقد اقتحموها في مناظر مروعة من العبث والسفك والنهب وأتوا على مدينة الزهراء الرائعة الجمال بأكملها ، وقد رأى الخليفة المستعين أن يفرق البربر في الكور والثغور ، تخفيفا لضغطهم على العاصمة ، فأقطع قبيلة صنهاجة وزعماءها من بنى زيوى ولاية البيرة .

ولما رأت صنهاجة تفكك الدولة ، واستقلال كل أمير ببلده ، عزموا على الرحيل عن الأندلس ، والجواز إلى العدو ، ولكن أهل البيرة ، وكانوا في بسطة من الرزق والثروة ، وسعة من الأرض وخصبها ونماثها ، دعوهم إلى البقاء معهم ، ومشاركتهم بما يملكون ، على أن يتولوا الدفاع عنهم ، وقبل زيوى وقومه دعوتهم ، وطابت لهم الإقامة فيها ، وتعلقوا بها ، وقر رأيهم على الدفاع عنها ، ثم رأوها لا تصلح للدفاع ، فابتنوا في البسيط الواقع على مقربة منها مدينة جديدة ينزلون بها ، وتكون معقلهم ، وهكذا قامت مدينة غرناطة ، على حين خربت البيرة ، وعفت ربوعها ولفها النسيان ، ونمت المدينة الجديدة سريعا ، وأصبحت العاصمة ، وسوف تكون آخر مدينة تسقط في يد الأعداء (٣)

على أن زاوى قرر العودة إلى أفريقية ، على الرغم من معارضة ولده ووجوه قومه ، وخرج عن غرناطة في أهله وأمواله مستخلفا عليها بعض شيوخ قبيلته ، ثم سعى ابن أبي زهين قاضي غرناطة في أن يعين حبوس بن ماكسن ابن أختى زيرى ، واليا على غرناطة ، ويشيد ابن حيان ، وعاصر هذا العهد ، بخلال حبوس ، وأنه على قسوته «يصغى إلى الأدب» ويتنمى في العرب ، للأثر المفقو في قومه صنهاجة ، وكان وقورا حليما ، فظا مهيا ، نزر الكلام قليل الضحك ، كثير الفكر ، شديد الغضب ، شجاعا حسن

(٣) عبد الله آخر ملوك بنى زيرى : كتاب التيان ، ونشره لبنى بروفنسال بعنوان : مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٨ وما بعدها ، دار المعارف ، سلسلة ذخائر العرب ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٥٥ .

الفروسية ، جباراً متكبراً ، واسع الحيلة ، كامل الرجولة ، له في كل ذلك أنخبار ماثورة ^(٤) .

أصعب ما واجه أمير غرناطة أن يجد وزيراً أول صالحاً ، في مستوى وزراء جيرانه من الأمراء ، أدبياً قادراً على تحرير الرسائل التي يبعث بها الأمير في لغة عربية راقية ، مسجوعة وذات أسلوب بليغ ، ولم يكن يثق في قومه البربر ، فهم يعرفون جيداً كيف يقاتلون ، ويستولون على المدن ، وينهبونها أو يحرقونها عند الضرورة ، ولكنهم عاجزون عن الكتابة في لغة عربية فصيحة . وهو يخاف العرب ، وقد تكون لهم مصلحة في بيعه وخداعه ، فبدأ يبحث عن بغيته في مكان آخر ، حتى لو كان من خارج غرناطة .

وقد تذكر أن الرسائل التي يرفعها إليه وزيره أبو القاسم بن العريف نقية اللغة ، عالية الأسلوب ، مصيبة الأفكار ، لا يدانيها شيء فيما يأتيه من رسائل أخرى ، وكاتبها خير من يصلح لهذه المهمة ، وحين باح بإعجابه بها للوزير صارحه هذا : إنما من عمل كاتبى ، يهودى يدعى صمويل .

ولما توفي ابن العريف أقام حبوس أكبر أبنائه مقامه ، وكان في الابن صبوة لا يحسن معها تحمل المسؤولية ، ففكر به صمويل ، ولزم خدمة الأمير وصار متى غاب ولد أبي القاسم يحضر صمويل ، فإذا سأل عنه حبوس يقول اليهودى معتذراً في الظاهر ، ومطالباً في لحن من القول : « ولد أبي القاسم ، كما ترى ، صبي يؤثر الراحة ، وأنت جدير بالإفضاء عليه ، وإقامة عذر ، وأنا عبده أنوب منابه ، فرفى بما شئت يتبها لك ذلك ، فلم يزل على هذا أبداً ، حتى ظهرت خدمته ، وتمكن منه » .

* * *

اسمه صمويل هالفي ، وينادونه ابن النغلة ويسمى في المصادر الأندلسية اسماعيل ، أو إشموا ، ويكنى إبراهيم ، وأهله من ماردة وولد في قرطبة ، وتخصص صغيراً في الدراسات التلمودية على يد أبي حنوك بن موسى الرئيس الروحي للطائفة اليهودية في عاصمة الخلافة ، ثم توجه راغباً إلى دراسة الأدب العربي وكل ألوان الثقافة الأخرى التي

(٤) ابن بسام : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، القسم الأول ، المجلد الأول ، ص ١٠٤ .

كانت شائعة في أيامه ، فدرس الفلسفة مع أبي زكريا يحيى بن داود ، وشمل الأستاذ تلميذه برعاية ملحوظة تجاوزت الدرس والتحصيل إلى المعاونة على مواجهة الحياة ، وتعلم من اللغات العبرية والكلمدية واللاتينية إلى جانب العربية لغته الأولى ، وفي ماعدا ذلك لم يكن في حياته العادية غير مجرد عطار في قرطبة ، فلما اقتحمها البربر مع المستعين عام ١٠١٣م ، وأتوا على المدينة ، غادرها إلى مالقة ليمارس المهنة نفسها .

جاء حانوت ابن النغولة إلى جانب قلعة يمتلكها أبو القاسم بن العريف وزير حبوس ، ومالبث أن اشتهر بين زبائنه بأنه أديب وشاعر ، وبدأ الناس ، غير المثقفين ، يترددون عليه ليكتب شكواهم ، ويحمر لهم رسائلهم إلى الوزير أو الأمير ومع المران والاستمرار اكتسب خبرة فائقة ، فجاءت رسائله آية في البلاغة العربية بمقاييس ذلك العصر . ولما ذهب ابن العريف إلى مالقة سأل عن الرجل الذي يكتب لمواطنيه هذه الرسائل الجميلة ، ولما عرف أنه يهودى يبيع العطارة في حانوت متواضع ، عرض عليه أن يستخدمه كاتباً له ، وتنبأ له بمكانة مرموقة إلى جانب الأمير نفسه ، في مستقبل غير بعيد ، ثم صاحبه معه إلى غرناطة ، ولما حانت الفرصة تحدث عنه إلى الأمير على نحو ما أشرنا .

ومن المؤكد أن أمير غرناطة وجد فيه إلى جانب مواهبه الأدبية ، وقلة خطره على مستقبله الشخصى والسياسى ، أشياء أخرى ليس بأقلها قيمة مهارة اليهود في جمع المال ، وتنظيم الضرائب ، وكثرتهم في غرناطة ، والإفادة من المكانة الممتازة التى تتمتع بها الجالية اليهودية الكبيرة في عالم التجارة والاقتصاد والسفارات . صحيح أن الرجل يهودى ، ولم يحدث في أية مملكة إسلامية أخرى ، أوحى غير إسلامية ، أن حكمها يهودى بدرجة رئيس للوزراء ، رغم أن يهودا كثيرون بلغوا مكانة اجتماعية عالية في الدولة الإسلامية ، ونالوا حظوة أثرية لدى حكامها ، وأصبحوا لهم بطانة ومقررين ، رغم ما طبع عليه المسلمون من تسامح على امتداد كل العصور الوسطى ، وشهت بالتعصب الدينى . وربما يسر هذا الأمر أن جالية يهودية قوية النفوذ ، كثيرة العدد ، كانت تسكن غرناطة ، حتى أن بعض المصادر القديمة تنسبها إليهم فيقال « غرناطة اليهود » ، وفي ظل الجو السامح الذى ساد الحياة في الأندلس لم يعيشوا بمعزل عن أهلها في الحياة العامة ، وإن اتخذوا لهم أحياء

خاصة بهم أحياناً، وإن شئت الدقة كانت خاصة بالفقراء منهم، فخلق ذلك لونا من الود بينهم وبين بقية العناصر الأخرى، من عرب وبربر وأندلسيين من أصل أسباني، دون أن يهبط هذا بالعرب عما اختاروا لأنفسهم من قمة اجتماعية، ودون أن يرتفع باليهود إلى حيث اختار العرب أن يكونوا، وهي منزلة ارتضتها لهم بقية العناصر الأخرى طواعية لسابقتهم في الإسلام، أو لدورهم في الفتح، أو وجدت نفسها مكرهة عليها بحكم ضواغظ الحياة الاجتماعية.

كان صمويل رجل دولة ممتازا، ذكيا وداهية، معارفه واسعة، وتجاربه متعددة، عاقلا وهادئا، يتحدث قليلا، ويفكر كثيرا، وهي صفة رائعة لدبلوماسي مقتدر، نهّاز للفرص، يتسرب إلى هدفه كالميكروب، ويندس إلى أعماق الرجال خفية، ليتعرف إلى أهوائهم ونزواتهم ويتحكم فيهم من خلالها، مزهو بنفسه، يظنه من يراه يتجول في قاعات الحمراء الواسعة أنه ولد وفي فمه ملعقة من ذهب، يتكلم في أناقة وبراعة ومداهنة ويملك قدرة فائقة على أن يكون ودودا وآسرا، ملهم في اللحظات الحرجة، ومقنع بأفكاره دائما، ليست له غطرسة الدخيل، ولا عجرفة الغني، طيب ولطيف مع كل العالم، ومحترم نفسه في غير ادعاء، ولا ينجبل من أصله المتواضع، ولا يحاول أن يخفيه، بل كان يفخر به، ويواجه بسيطا ومعطيا المثل لمن يحاول أن يذكره به، وكل ذلك شيء نادر بين من رفعهم الحظ، ووضع بين أياديهم مقادير البشر^(٥)

منذ اللحظة الأولى بدأ صمويل يتحرك على محاور متعددة: أن يكسب ثقة الأمير، وأن يعزله عن بقية مواطنيه، وأن ينال رضا جمهرة الناس من عرب وبربر، جنودا ومتقنين، وأخيرا، وأولا إذا شئت، أن يمكن لليهود في الدولة الجديدة.

ولكى يحقق غايته مع عامة المواطنين لم يكن يبادر أحدا بشر، ويلقي السوء ببسمة، ويمثل دور العطوف في مقابل قسوة الأمير، يحكي المؤرخون - مثلا - أنه تعود ان يمر صجبة الأمير أمام صاحب حانوت قريب من القصر، فكان العطار يشبع صمويل شتايم

(٥) Jose Amador de los Rios: Historia Social, Política y religiosa de los Judios de Espana y Portugal, P 117 ss. Madrid 1960.

وسبابا ، فغضب الأمير من هذه الجرأة ، وأمر صمويل أن يعاقبه بقطع لسانه ، ولكن الوزير اليهودى لم ينفذ أمر الأمير ، ولا فكر فى ذلك ، وطلب من رجاله أن يوافوه بتقرير عن حالة العطار ، فلما جاءه تبين له أن التاجر يتعثر فى حياته الاقتصادية ، تطوقه الديون وعلى وشك الإفلاس ، فأرسل له مبلغاً كبيراً من المال ليواجه مشكلاته ، ويتخلص من ديونه ، ويعاود تجارتها مطمئناً ، وبعد قليل مر الأمير . وبصحبته صمويل كالعادة ، يباب العطار ، فأغرقه هذا بالدعوات الطيبات وعجب الأمير ، وغضب من وزيره : ألم أقل لك اقطع لسانه ، فلماذا لم تنفذ أمرى ؟ ! . وأجاب صمويل : لقد نفذته يامولاى ، لقد قطعت لسانه الشرير ، ووضعت له مكانه لساناً طيباً .

غير أن أوضح ما فى حياته السياسية والأدبية إعلان صراحة أنه حامى اليهود ، وعلى نحو ما اتجه اليهود قديماً إلى مصر ، ليجدوا الأمن والرعاية فى ظل يوسف وزير فرعون بدأت قوافل يهود الأندلس تتجه نحو غرناطة ، وبخاصة بعد هجوم البربر على قرطبة وتخريبها عام ١٠١٣ م ، فأحسن استقبالهم ولم يقف بجهد عند تيسير ضروريات الحياة لهم ، وإنما يتعهد أبناءهم ، وبخاصة الفقراء منهم ، تعليمًا وتربية ، وبدأ بهم نهضة ثقافية عبرية واسعة ، « وكان عنده من العلم بشريعة اليهود والمعرفة بالانتصار لها والذب عنها ما لم يكن عند أحد من أهل الأندلس » ^(٦) وقد حرر أكثر من عشرين مؤلفاً تتصل بنحو اللغة العبرية فحسب ، وله رسالة رد فيها على أبى مروان بن جناح اليهودى فى كتابه نحو اللغة العبرية ، وكان شاعرا فى العبرية يتكىء فى معانى قصائده على « نشيد الأنشاد » والمزامير ، والأمثال ، والجامعة . وغيرها من أسفار التوراة ^(٧) . ومتأثراً بطريقة الحكم الثانى فى قرطبة كان فى خلمته نساخ كثيرون ينسخون له التلمود والمشنا ، ويهديها إلى تلاميذه الذين لا يستطيعون شراءها ، بل ويرسلها إلى الراغبين من اليهود فى بقية مدن الأندلس ، أو خارجها فى شمال أفريقيا وصقلية وبيت المقدس وبغداد والقاهرة . وأدى هذا بداية إلى تأصيل الدراسات العبرية فى الأندلس ، ورفع المستوى الثقافى ليهود غرناطة ، وبالتالي

(٦) مساعد القاضى الطليل : طبقات الأمم ، ص ١٠٠ ، طبعة القاهرة .

Alegandro Diez Macho: Mose Ibn Ezra, P. 143 Barcelona 1953.

(٧)

جعلهم أكثر إعداداً لتولى الوظائف العامة بكفاءة . واستخدم سلطانه الواسع فعلا في التمكين لهم في كثير من الشئون الإدارية والمالية ، فاكسبوا الجاه في أيامه واستطالوا على المسلمين^(٨) ، وبلغ الأمر أن عين الشاعر موسى بن عذرا على خطة الشرطة ، أو المسئول عن الأمن بلغتنا المعاصرة ، وهى أهم الخطط وأخطرها في الأندلس ، ومن ثم فإن يهود غرناطة أرادوا أن يبرهنوا على امتنانهم وعرفانهم ، فقلدوه عام ١٠٢٧م رتبة الناجد Ha - Nagid ، أى رئيس اليهود أو أميرهم في غرناطة^(٩)

توفي جوبس عام ١٠٣٨م ، بعد أن سار بين قومه بأجمل سيرة ، وأعدل طريقة ، وصرف أحكامه أجمع إلى قضاة البلاد ، وتعفف عن كل شيء ، وجمدت يده عن الحرام والأموال ، فأحبه الناس ، وأمنت معه السبل ، وقل الفساد ، وارتفع الجور^(١٠) . مات جوبس وترك ولدين ، أكبرهما باديس ، والأصغر يدعى بلقين ، وقد مال بعض البربر وجانب كبير من اليهود إلى هذا الأخير ، على حين آثر العرب ، وجانب من اليهود بينهم صمويل ، الأبن الأكبر ، وأوشكت غرناطة أن تواجه حرباً أهلية ، فاستخدم صمويل كل ذكائه ومواهبه لكي يجعل بلقين يتنازل عن المطالبة بالعرش راضيا ، وعلانية ، وتقدم فعلف يمين الولاء لأخيه ، وسار أتباعه على خطاه . وفتح هذا النصر طريقه إلى قلب باديس منذ اللحظة الأولى ، واحتل منه مكانة ونفوذاً أكبر مما كان له إلى جوار أبيه .

كانت بداية باديس في أعوامه الأولى مشجعة ، عدلا ورفقا ونحيباً إلى المواطنين ، ثم أخذ يزداد مع الأيام قساوة وغدراً وحباً للدماء ، وإسرافاً في السكر ، لا يكاد يفيق منه ، وبدأ الناس يشكون ويتهمسون ، وأخيرا بدأوا يتآمرون ، وكلما اكتشف مؤامرة وأطاح برؤوس أصحابها ازداد ضعفا أمام صمويل . واختلت أعصابه ، فأصبح يبيع بلاسبب .

(٨) ابن الخطيب ، الإحاطة في أخبار غرناطة ج ١ ص ٤٤٦ ، الطبعة الأولى ، تحقيق محمد عبد الله حبان . القاهرة ١٩٥٥ .

(٩) دوزى ، تاريخ مسلمي الأندلس ، المجلد الثانى ، الجزء الرابع ، الصفحة ٣٠٥ ، الترجمة الأسبانية ، الطبعة الأولى .

بونس ايرس ١٩٤٦ .

(١٠) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ٢٥ .

يشق أثوابه ، ويهجر شرابه ، ويحفو ملاذه ، ويتصور الرعية توشك أن تنقض عليه ، فيقرر أن يفتك بها أولاً ، واختار أن يكون ذلك في يوم جمعة ، وأسر بالأمر إلى وزيره صمويل ، فنهاء عن ذلك وخطأ رأيه ، « وسأله الأناة ومحض الروية ، وقال له : هبك وصلت إلى إرادتك ممن بحضرتك ، على ما في استباحتهم من الخطر ، فأني تقدر على الإحاطة بجميعهم من أهل حضرتك ويسائط أعمالك ؟ أترامهم يطمثون إلى الذهول عن مصائبهم ، والاستقرار في موضعهم ؟ ما أراهم إلا سيوفاً ينتظمون عليك في جموع ، يفرقونك في لججها أنت وجندك » (١١)

ولكن هذه الكلمات بكل ما فيها من فطنة لم تؤد إلى أية نتيجة في تفكير باديس ، وطلب من الوزير أن يحتفظ بالأمر سرا ، وأعطى الأوامر بتنفيذ الخطة في يوم الجمعة ، وفي ذلك اليوم كان على الجنود أن يجتمعوا بكل أسلحتهم ، بحجة القيام بعرض عسكري . ولكن صمويل لم يسكت أمام هول المأساة ، كان يعرف أنها ستعصف بباديس ، وستنهى نفوذه ، إن لم تطح برأسه ، على أقل تقدير ، فدرس « نسواناً إلى معارفهن من زعماء المسلمين بغرناطة ، ينهاهم عن حضور المسجد يومهم ويأمرهم بإخفاء أنفسهم ، وفشا الخبر فتخلف الناس عن شهود الجمعة ، ولم يأت إلا نفر من عامتهم ، اقتدوا بمن أتاه من مشيخة البربر وأغفال القادمين . وجاء الخبر إلى باديس ، والجيش في السلاح حول قصره ، فساءه وقت في عضده ، ولم يداخله شك في أن سره قد ظهر ، وأنكر صمويل التهمة ورد : من ينكر على الناس الحذر ، وأنت عبأت كل جيشك ، ولست على سفر ، ولاعدو وثب إليك ، ومن هنا حدس القوم أنك تريد لهم . فأعد نظرك ياسيدي وأشكر الله بدل أن تغضب ، لأنهم عرفوا نيتك ولم يثوروا . فخذ الأمر بنفس هادئة ، وسيجيء اليوم الذي تعرف فيه أن الحق كان معي ، فتحمد رأيي ، وعاقبة نصحي ، ولم يقتنع باديس بما قال وزيره ، ثم طابت نفسه بعد لأي حين سمع الرأي نفسه من شيخ بربري (١٢) .

وحدث ما جعل باديس يصبح أسير إرادة صمويل . فقد اتفق جماعة على قتل باديس

(١١) الإحاطة ، ج ١ ص ٤٤٥ .

(١٢) المصدر السابق ص ٤٤٦ .

وإقامه يدير بن حباسة مكانه ، وأشركوا صمويل معهم في الأمر ، فقبل فكرتهم ، واجتمعوا في منزله ، « وتقدم إلى باديس وأخبره الخبر ، وأتى معه إلى المنزل ، وقال له : « ليس الخبر كالعيان ، اسمع بأذنك ، وع بقلبك ؟ » ، وهو بموضع مرتفع على البيت الذي يرومون عملهم فيه ، وأبو إبراهيم في ذلك كله يقول عند محاورتهم كالمخاطب للبارئ : « يامن يرى ولا يرى ! » ، وهو يعنى بذلك باديس الذي يراهم ولا يرونه » (١٣) .

رأى باديس في صمويل عوضاً عن بنى عمه ، ذمياً لا تشره نفسه إلى ولاية ، ولا يتداخل مع أمراء آخرين حوله ، ثم استغنى به في طلب الأموال ، فأحكم جمعها من الجباة ، وقسا في حسابهم ، وكان يرى أن بيت المال ، وإقامة أود الدولة أولى بها منهم .

وحين مات صمويل عام ١٠٥٥ كانت غرناطة من كبريات دول الطوائف وأقواها . وقد حزنت عليه الجالية اليهودية حزناً عميقاً ، ورأت في ذهابه بداية متاعب تبرق في قادم حياتهم . كان صمويل شيئاً كبيراً بالنسبة لهم جميعاً ، على غير خلاف بينهم . وكان للآخرين إنساناً يمكن التفاهم معه في لحظات الشدة ، وما كان أكثرها في دول تلك الأيام ! ، ويصفه المؤرخ الجليل ابن حيان ، وكان معاصراً له : « وكان هذا اللعين في ذاته ، على ما زوى الله عنه من هدايته ، من أكمل الرجال علماً وحلماً وفهماً ، وذكاءً ودمائه وركانة ودهاءاً ، ومكرّاً وملئاً لنفسه ، وبسطاً من خلقه ، ومعرفة بزمانه ، ومداواة لعدوه ، وإسلا لا لحقوقهم بحلمه ، ناهيك من رجل كتب بالقلمين ، واعتنى بالعلمين وشغف باللسان العربي ، ونظر فيه ، وقرأ كتبه ، وطالع أصوله ، فانطلقت يده ولسانه ، وصار يكتب عنه وعن صاحبه بالعربي ، فيما احتاج إليه من فصول التحميد لله تعالى ، والصلاة على رسوله صلى الله عليه وسلم ، والتزكية لدين الإسلام ، وذكر فضائله ما يريده ، ولا يقصر فيما ينشئه عن أوسط كتاب الإسلام » (١٤) .

« * * »

خلف صمويل ابنه يوسف ، وأعدّه ليكون وزيراً من بعده ، لباديس أو لمن يخلفه ،

(١٣) مذكرات الأمير عبد الله : ص ٣١ .

(١٤) الإحاطة ، ج ١ ، ص ٤٤٦ .

فأحسن تربيته ، وحمله على مطالعة الكتب وجمع إليه المعلمين والأدباء ، يعلمونه ويدارسونه . وأعلقه بصناعة الكتابة ، وشغل في حياة والده مكانه في المدرسة العبرية التي أنشأها يدرّس التلمود ، وكان إلى جانب ذلك جميل الوجه ، حاد الذهن ، « لم يعرف ذل اليهودية ولا قدر الذمة »^(١٥) ، ويزيد ابن ابسام ، في كتابه الذخيرة وشهد أحداث العصر ، ما يمس أخلاقه الخاصة فيقول عنه : إنه كان « غلاماً وضياً ، ومركباً - زعموا - وطياً ، وكان لمن اعتنى يومئذ بالغلان فتنة . حتى كان يقال إنه وإنه » ، ويصفه في مكان آخر صراحة بأنه كان « مأبونا »^(١٦) ، ولم يرد الخبر في مصادر أخرى . فيما أعرف ، غير أن ابن حزم وشهر بالموضوعية ، وبالشجاعة العقلية في إيراد الأخبار ، ولعله نقله عن ابن حيان المؤرخ ، ولم يكن يتردد في ذكر أية معائب ، يذكرها صراحة دون مواربة ، وفي جرأة دون تردد^(١٧) .

وقد اصطنع لنفسه ولم يعرف ذل اليهود ولا قدر الذمة^(١٨) ، كل ما عرف من الترف على أبيامه ، فكشف أهبة الأمير وأخمل أنجاد صنهاجة ، فإذا مضى إلى جانب باديس لم يفرق الناس بين الرئيس والمرءوس ولم يعرفوا الأمير من الوزير^(١٩) .
والحق أن باديس مال في البدء إلى علي بن القروي ، وقال له : التزم خدمة مملكتنا فأنت أحق بها . فأبى ذلك علي ، وأكد عليه يوسف بن صمويل فأطباه بالأموال الجسيمة ، واسترضاه بالكلام المعسول ، يقول له : « ليس أرغب إلا أن أكون عبدك وتربيتك ، ولك الأمر ، وأنا كاتب بين يديك ، وأقوم بنفقتك كلها ، ولو كان أهلك عدد الحصى » ، فطمع علي في قوله ، وكلم السلطان في ذلك ، وقال له : « إن أبقيت علي ولد أبي إبراهيم ناصحك ، فأرجو ذلك لولدي من بعدى ، وأنا المشرف عليه » ففعل

(١٥) المرجع السابق ، ص ٤٤٧ .

(١٦) ابن بسام ، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، القسم الأول ، المجلد الثاني ، ص ٢٦٩ .

(١٧) لمعرفة قيمة كتاب الذخيرة ومصادره ، انظر . د . الطاهر أحمد مكي ، دراسة في مصادر الأدب ، الطبعة السادسة ،

القاهرة ، دار المعارف ١٩٨٣ .

(١٨) الإحاطة ، ج ١ ص ٤٤٧ .

(١٩) الذخيرة ، ص ٢٧٠ .

السلطان ما قال ، وقدمه على العمال والجبايات .

وأظهر يوسف للسلطان نصائح كثيرة حظى بها عنده . وتبرمك على على وغيره ، واستوثق من جانب الرئيس ما لم يسأل به عن على ولا عن أحد من خلق الله . وكان فيما قال للأمير : « إن الذى يأخذ على أنت أولى به . والرجل كثير الأولاد والضعف ، ويذهب مالك إن لم تحمى وتعصدى ، وهو متى تملأ طمع فى ملكك . وأنا رجل ذمى لاهمة لى إلا خدمتك ، وجمع الدراهم لبيت مالك » . فوثق الرئيس بقوله ، وقاس عليه بعقله ، ومنع منه علياً وجميع الناس (٢٠) .

وشيثاً فشيئاً تمكن يوسف من باديس تماماً ، وأعانه عليه أن السن تقدمت به ، واشتغل بالشرب أكثر الوقت ، لا يكاد يصحو من سكر ، ودس عليه يوسف عيونته فى قصره ، من نساء وفتيان ، غمرهم بإحسانه ، فهم يحصون على الأمير حركاته ، وخفقات قلبه ، ينقلونها إليه (٢١) .

كان يوسف يفتقد ، رغم ذكائه ، الكثير من صفات أبيه ، لا يعرف كيف يصطنع الناس حوله ، متغطرس مزهو ، أساء إلى مواطنيه جميعاً من العرب والبربر ، وحتى إلى عقلاء اليهود أنفسهم ، وأغرى بهم الأمير بصادر أموالهم أو يشتريها بثمن بخس ، ووضع اليهود فى كل المراكز الاقتصادية الكبرى والهامية ، من الأشراف على جباية الضرائب ، والتصدير والاستيراد ، وتنمية ثروات الأمير ، وفى البلاط ، ووجد لها هؤلاء فرصة سبحت لكى يجمعوا الأموال ، ويبنتوا العقار ، دون أن يراعوا فى صنعها عدلاً ولا ذمة ، فلما رأى وزراء الدولة ، وابنا القروى تمكن اليهودى عند السلطان ، وعند الابن ، أغاظهم ذلك وأقلقهم ، وبلغ منهم كل مبلغ ، وأجمع رأيهم على الحيلولة بين الأمير واليهودى ، فتحدثوا إلى بلقين بن باديس وكانوا ندماء لا يفارقونه ، وقالوا له : إن الأموال التى ينفق اليهودى ويستأثر بها ، أنت أحق بها وأولى وقد أخملك وأخمل الدولة أجمع . ولو أنك قتلت لم يقل لك أبوك شيئاً فى ذلك وما عسى أن يصنع بابنه ؟ وسعوا بالوشاية بين بلقين بن

(٢٠) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ٣٧ و ٣٨ .

(٢١) الإحاطة ، ج ١ ، ص ٤٤٨ .

باديس وبين يوسف ، وكان بلقين غرا قليل التجارب ، فقرر أن يقتل يوسف ، وتحدث بذلك لمن حوله ، دون أن يسارع بالأمر ولا تكتم بغيته ، وأدرك اليهودى تغير بلقين عليه ، رغم ما كان يظهر من المودة ومن تردده على داره ومشاطرته الشراب ، فقرر أن يتخلص منه ، وذات يوم دعاه مع خاصته وصعبه إلى مجلس شراب حافل ودس له السم في الكأس ، ولم يخرج عنه حتى قذف كل ما في جوفه ، واستلقى على الأرض ، ولم يستطع المشى إلى منزله إلا عن مشقة ، ولبت يومين يحجود بنفسه حتى مات (٢٢) . وفزع باديس لمهلك ولده . ولكن يوسف أقنعه باتهام بعض فتيان ولده وجواريه وقرابته ، فقتل باديس منهم عدة وفر الباقيون (٢٣) .

وبينا خاصة المجتمع يتحملون من سيطرة اليهود على مرافق الدولة ، وأعيان الناس ، أو الطبقة الوسطى في لغتنا الحديثة ، ضائقون بالضرائب ومن وجود يهودى على رأس الحكومة ، وعامة الناس يتعرضون لأقسى المظالم من كل جانب ، طمحت آمال يوسف إلى ما هو أكثر من قدرته ، فقرر أن يتخلى عن باديس ، وأن يسلم الإمارة لجاره ابن صمادح أمير المرية ، ثم تكون له مع هذا جولة يخلص فيها منه ، لتخلص له غرناطة مملكة مستقلة خالصة لليهود وحدهم . وبدأ الناس يتهايمسون سرا وفي صوت خفيض بأحلام الوزير ، خوفاً من بطشة ، وطلباً للسلامة ، وأخيرا وقع يوسف في الخطأ القاتل الذى أدناه من نهايته ، حين اقتحم على عامة المسلمين مشاعرهم الدينية ، فبدأ أولا يطعن في كل الملل والأديان ، يمس اليهودية في رفق ، ويتجاوزها عجلا ليركز مطاعنه في الإسلام ، يسخر من مبادئه ، ويزعم أنه قادر على أن يحيى بقرآن مثله ، وقد تصدى له ابن حزم العظيم في رسالة أتى فيها على كل ترهاته (٢٤)

(٢٢) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ٤١ .

(٢٣) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٣ ص ٢٦٥ .

(٢٤) انظر : الدكتور الطاهر أحمد مكى ، دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة ، ص ٩٨ ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٢ .

ومع هذه الواقعة كان الألم والغیظ والرغبة في والثأر تضطرم في نفوس الناس كافة .
وفي انتظار من يشعل الثقاب .
وجاء من يشعله !

يمكن القول أن غرناطة تحت حكم بني زيري كانت أفريقية أكثر منها أندلسية ، تشبه أن تكون جزيرة بربرية تطوقها بحار من الإمارات العربية . مدينة جافية لمّا تنفج ، أبعد ماتكون عما ستصبح عليه حين ينتهى بها المآل أخيراً إلى أيدي العرب ، ولقد برهن العالم الإسباني المتخصص في الآثار طريس بلباس Torrès Balbás على غيبة الفن التشكيلي والمعمار في المدينة لأن صغار ملوك البربر وهم جناء وبخلاء ، لم يشيدوا غير سور متين باق حتى أيامنا هذه ، كهيكل عظمى للمدينة ، وآثروا أن يكسوا الأموال التي استولى عليها المرابطون فيما بعد .

وامتد الجذب إلى الحياة الأدبية نفسها ، فعلى امتداد نصف قرن ، وفي بلد يرتوى بالشعر ، ويتغذى بالغناء ، بقيت غرناطة على امتداد القرن الحادى عشر خارج المهابط التي يتردد عليها الشعراء ، ولم يحدث أبداً أن أيا من كبار الشعراء خارجها فكر أن يرحل إليها ، لمدح عبثاً أمراءها البربر ، أو وزراءها اليهود ، وأما الشعراء الذين فيها فكان عليهم أما أن يخضعوا أو يرحلوا .

كان المنفقل ، أبو أحمد عبد العزيز بن خيرة ، رأس الاتجاه الأول ، فوقف شعره على مدح صمويل ، وابنه من بعده . وغالى في مدحيه . فارتفع بها إلى مرتبة الأنبياء . وفضل بها موسى نفسه ، وجعلها أكرم الناس شرقاً وغرباً . وأنه بينهم على دينهم . فإذا التقى مع قومه آمن به سراً :

ومن يك موسى منهم ثم صنوه	فقل فيهم ماشئت لم تبلغ العشرا
فكم لهم في الأرض من آية ترى	وكم لهم في الناس من نعمة ترى
أجامع شمل المجيد وهو مشئت	ومطلق شخص الجود وهو من الأسرى
فضلت كرام الناس شرقاً ومغرباً	كما فضل العقيان بالخطر القطرا

فَصَلَّتْ كَرَامَ النَّاسِ شَرْقًا وَمَغْرِبًا كَمَا فَضَّلَ الْعَقِيَانِ بِالْخَطَرِ الْقَطْرَا
وَقَدْ فَرَّتْ بِالدُّنْيَا وَتَلَّتْ بِكَ الْمَنَى وَأَطْمَعُ أَنْ أَلْقَى بِكَ الْفَوْزَ فِي الْأُخْرَى
أَدِينُ بِدِينِ السَّبْتِ جَهْرًا لَدَيْكُمْ وَإِنْ كُنْتُ فِي قَوْمِي أَدِينُ بِهِ سِرًّا
وَقَدْ كَانَ مُوسَى خَائِفًا مَرْتَقِبًا فَقِيرًا وَأَمْنَتَ الْخَافَةَ وَالْفَقْرَا

والقليل من شعره الذي أورده ابن بسام . في كتابه « الذخيرة » . في غير مدح صمويل وابنه . يومئذ إلى شاعرية جيدة مقتدرة ، متفتنة . ذات جوانب متعددة . ولكن المؤرخين عقاباً له . واستصغاراً لشأنه . أحملوا الإشارة إليه إلا عرضاً . واكتفوا من شعره بالقليل . يقول ابن بسام ، معلقاً على بعض شعره : « وهذا القصيد اندرج له من الغلو فيه . مالا أثبتته ولا أرويه . وأبعد الله المنفلت . فيما نظم فيه وفصل . وقبحه وقبح ما أمل » (٢٥)

وكان السمسير خلف بن فرج الإلبيري . يمثل الاتجاه الثاني خير تمثيل . والحق أن هذا الشاعر « كان باقعة عصره ، وأعجوبة دهره » ، وله من زمنه موقف رافض . حين رأى اختلال القيم ، وزهوة الباطل . وغلبة الصغار . وعجزه عن التغيير ، فأدار ظهره لكل ماحوله ، وجاء شعره رافضاً بكل ماتعنيه الكلمة في عصرنا الحديث . سخر مما يعظم الناس ، وهجا من يمدحون . واحتقروا يكبرون ، وجاء هجوه لهم مفحشاً ونقده قاسياً . فأهمله المؤرخون خوفاً ممن هجأهم . يقول ابن بسام مشيراً إلى مذهبه هذا « وله مذهب استفرغ فيه مجهود شعره . من القدح في أهل عصره . صنت الكتاب عن ذكره » (٢٦) . كان داعية ثورة حين استطاب الناس المتع واللذذة . وخلدوا إلى الدعة والراحة . وآثروا الأمن والسلامة . غيره يمدح الملوك وهو يصرخ بأعلى صوته :

نَادِ الْمُلُوكَ وَقُلْ لَهُمْ مَاذَا الَّذِي أَحْدَثْتُمْ
أَسْلَسْتُمْ الْإِسْلَامَ فِي أَسْرِ الْعِدَا وَقَعْدْتُمْ
وَجِبَ الْقِيَامُ عَلَيْكُمْ إِذْ بِالنِّصَارَى قَتَمْتُمْ

(٢٥) الذخيرة ، القسم الأول ، المجلد الثاني ، ص ٢٦٦

(٢٦) للرجع السابق ، ص ٣٧٢ .

لا تنكروا شق العصا فعصا النبى شققتم
وبقى فى غرناطة موزع القلب والعقل ، بين ما يؤمن به وما يرى تحت بصره ، بين
ما يريد أن يفعل وبين قلة حيلته ، وتخيل كل من يعرفونه يسألون عن السبب :
قالوا أتسكن بلدة نفس العزيز بها تهون !
فأجبنهم بتأوه كيف الخلاص بما يكون !
غرناطة مثوى الجنين يدك ظلمتة الجنين
ثم استجمع أمره ، وقال كلمته فى حكام غرناطة ، ساخرة قاسية ، بسيطة موجعة :
رأيت آدم فى نومى فقلت له : أبا البرية إن الناس قد حكموا
أن البرابر نسل منك قال : إذا حواء طالقة إن صح ما زعموا
قالها ، وخلف غرناطة وراءه ، هاجر إلى حيث لا يرى وزيراً يهودياً يتحكم فى مصائر
قومه .

الشاعر الوحيد ذو الأهمية فى غرناطة بنى زيرى لم يكن بالطبيعة شاعراً يتغنى بالحب ،
أو الخمر ، أو بالترف المصقول ، كما عند بقية ملوك الطوائف ، بل ولا شاعر بلاط
مدايحاً ، وإنما كان صدق لواقع المدينة ، كان شاعر المعارضة والزهد والسياسة ومناهضة
نفوذ اليهود ، ذلك الشاعر هو : أبو إسحاق الإلبيرى (٢٧) .
اسمه كاملاً : إبراهيم بن مسعود بن سعيد التجيبى ، ولقبه الإلبيرى ، وكنيته
أبو إسحاق

صمت المؤرخون بعامة ، لسبب غير واضح ، عن أبى إسحاق ، ولا نجد له ذكراً
إلا فى أربعة مصادر ، رغم أنه أحدث ثورة بالغة الأثر على ما سنعرف . ترجم له القاضى
عياض ، المتوفى عام ٥٤٤ هـ - ١١٤٩ م ، فى نهاية كتابه « ترتيب المدارك ، وتقريب
المسالك ، لمعرفة أعلام مذهب مالك » . ونخصه الضمى ، المتوفى عام ٥٩٩ - ١٢٠٢ م ،
بأقل من سطرين . فى كتابه « بغية المتتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس » ، ذكر فيها

(٢٧) اميليو غرسية غوث : مع شعراء الأندلس والمتن ، ترجمة الدكتور الطاهر أحمد مكى ، ص ٩٢ ، الطبعة الثالثة . دار
المعارف ، القاهرة ١٩٨٣ .

اسمه ، وأنه : « فقيه فاضل زاهد عارف كثير الشعر في ذم الدنيا ، مجيد في ذلك » . وترجم له ابن الأبار ، المتوفى عام ٦٥٨ هـ - ١٢٦٠ م ، في كتابه « تكملة الصلة » . ونعرف أن ابن الزبير ، المتوفى عام ٧٠٨ هـ - ١٣٠٨ م ، ترجم له في مؤلفه « صلة الصلة » ، ولكن المخطوطة الوحيدة التي نعرفها لهذا الكتاب ، والتي نشرها ليلى بروفنسال في الرباط عام ١٩٣٨ م ، مبتورة من الأول ، ولا يضم محتواها الترجمة المتصلة بشاعرنا ، والتي يجب أن تكون في بدء الكتاب . أما المقرئ التلمساني ، المتوفى عام ١٠٤١ هـ = ١٦٣٢ م ، فأشار إليه ، في موسوعته الكبيرة « نفع الطيب » ، في ستة مواطن ، أورد له فيها أبياتاً منقولة عن ديوانه ، وبعض منها لم يرد في مخطوطة الديوان الوحيد التي بين أيدينا ، والتي توجد في مكتبة الإسكوريال ، وقد نشرها إميليو غوصية غومث في مدريد عام ١٩٤٤ م ، وجاء المقرئ بنجر وحيد قصير حول قصيدة أبي إسحاق المتصلة باليهود ، ثم أورد أبياتاً منها .

لا نعرف تاريخ مولد أبي إسحاق ، ولكننا نعرف أنه توفي قريباً من نهاية عام ٤٥٩ هـ - ١٠٦٧ م ، وأنه عاش باعترافه حياة تجاوزت الستين عاماً بكثير : فقد وقَّيْتُهَا ستين حَوْلًا ونادتنى ورائى هل أمَامُ وفي ضوء ذلك نستطيع أن نفترض أنه جاء إلى الحياة مع نهاية القرن العاشر الميلادي ، في أسرة عربية عريقة تنتمي إلى قبيلة تجيب المشهورة ، ومن الواضح أن نسبته إلى البيرة تعني أنه ولد فيها .

ويقص علينا مترجموه أن له شيوخاً كثيرين ، ولكنهم لا يذكرون من بينهم إلا واحداً : ابن أبي زمنين ، أبو عبد الله بن محمد ، قاضي غرناطة الشهير ، المتوفى ٣٩٨ هـ - ١٠٠٧ م ، ونبغ في دراسة الفقه ، وألف مدونته وعرف بتصانيفه في الوعظ والزهد وأخبار الصالحين ، وكان يقول شعراً يغلب عليه طابع التدين وشيء من التشاؤم^(٢٨) . وسنرى فيما بعد أن الطالب كان معجباً بأستاذه فروى عنه كتبه ، واحتذى منهجه في أشعاره .

ويغلب على الظن أن أبا إسحاق ترك البيرة إلى غرناطة عاصمة بني زيري الجديدة ، بعد أن تهدمت الأولى ٤٠١ هـ = ١٠١٠ م ، خلال القتال الذي دار بين الصنهاجيين وأعدائهم ، وأنه شهد انسحاب زاوى بن زيوى إلى أفريقية ، ورأى شيخه ابن أبي زمنين ، زعيم البلدة وكبير فقهاءها يلعب دوراً هاماً في هذه الأحداث ، فكان في وداع زاوى حين ركب البحر من ثغر المنكب في طريقه إلى القيروان ، وبمبادرة منه وضغط تولى حبوس الإمارة مكانه (٢٩) .

وعمل أبو إسحاق فيما بعد كاتباً لأبي الحسن بن توبة قاضى غرناطة ، وكان قد عينه في هذا المنصب باديس بن حبوس ، بعد أن تولى العرش في عام ٤٢٩ هـ - ١٠٣٨ م ، ونال بوصفه قاضياً ومصلحاً ومعمراً شهرة واسعة في غرناطة ، فأنشأ منبر المسجد الجامع في المدينة ، والمسجد المتصل بالقبلة ، وجسراً على نهر الدارو لا تزال أطلاله باقية حتى اليوم ، ويحمل اسم قنطرة القاضى ، وأمر بضرب شاعر يدعى أبا بكر بن الحاج ، والعلوف به في الأسواق لأنه اجترأ على هجاء ابن توبة ، وجماعة من الفقهاء . ونعرف من مقطوعة في الديوان أن أبا إسحاق رافق ابن توبة في مهمة إلى المرية ، لدى أبي جعفر ، أحمد بن عباس بن أبي زكريا الأنصارى ، وزير زهير العامرى ، وتمت الرحلة في نفس العام الذى تولى فيه باديس العرش ، لأنه سوف يقتل جعفرًا هذا بيده ، بعد شهور من توليه (٣٠) . وقد مدح أبو إسحاق رئيسه بقصيدتين ، إحداهما أكيدا ، والأخرى ظنا راجحاً ، ولم يمدح أحداً غيره (٣١)

كان أبو إسحاق يعمل كاتباً للقاضى ، ولا ينبغي أن نفهم من كلمة كاتب ما يفهم منها في عالم الإدارة اليوم ، لأنها تتسع لما هو أكثر من تسجيل أحكام القاضى ، فهو - إذا شئت - شريكه في رأى ، وأمينه ومساعدته . ونائبه إذا تغلب أو غاب . ويقوم في الوقت ذاته بتدريس مؤلفات شيخه ابن أبي زمنين - ورواية شعره نفسه - وكان حريصاً

(٢٩) الإحاطة ، ج ١ ص ٤٨٤ .

(٣٠) الإحاطة ، ج ١ ص ٢٦٨ .

(٣١) جماعت الأولى تحت رقم ٢٢ ، والثانية تحت رقم ٢٨ . في ديوانه المعنى نشره غربية موبت .

على التدريس لأنه المجال الوحيد الذى يستطيع فيه أن يلتقى بباشئة غرناطة ، وأن يتحدث إليهم عن المظالم حولهم ، وعن طغيان اليهود فى كل ناحية ، دون هجوم مباشر يثير حفيظتهم ، أو يغرى به الوزير . وكان بحكم مهنته فقيهاً ، ولانتمائه إلى أسرة عبرية عريقة غير راض عن سيطرتهم على الحياة السياسية والاقتصادية ، وهى مشاعر من المؤكد أنها اجتاحت أعماقه شاباً ، وأخفاها زمنًا ، دون أن يتوقف عن إثارة الذين حوله ، والإعداد للثورة ، وتغيير الأوضاع الجائرة . ووجد فى رئيسه ابن توبة القاضى حماية وكبحاً ، وفى صمويل الوزير إغضاء وحلماً ، فلما توفى الأول فى ٤٥٠ هـ = ١٠٥٨ م ، والثانى فى ٤٤٨ هـ = ١٠٥٦ م ، واجه جاحاً ووحيداً الوزير اليهودى الجديد ، ولم يكن على شئ من مداراة أبيه ، وفاضت بأبى إسحاق مشاعره فنفاه باديس بضغظ من وزيره اليهودى خارج غرناطة ، فتركها واستقر فى ضواحي مدينة البيرة الحربة ، فى زاوية تسمى رابطة العقاب ، وهناك نظم قصيدتين ، مطلع الأولى :

ألفتُ العقاب حذارِ العقابِ وعفتُ المواردِ خوفاً الذئابِ
ومطلع القصيدة الثانية :

ألا حىَّ العقابِ وقاطنيه وقلَّ أهلاً به وبزائريه
ويبدو أنه أمل فى رفاقه من الفقهاء خيراً ، من الانتصار له ، ورفع الغبن عنه ، والسعى لعودته ، ولكن أمله فيهم لم يصدق . ونفهم من شعره أن موقفهم منه لم يكن سلبياً فحسب . وإنما بينهم - ولعلهم الأكثرية - من تقرب بإيذائه ، وجارى أعداءه . ودس عليه عند الحاكمين . ويعبر أبو إسحاق عن ألمه من هذا الموقف ، فى بيت من الشعر ينضح مرارة :

وكمْ ذئبٍ يجاوره ولكنْ رأيتُ الذئبَ أسلم من فقيه
وتوالت الأحداث سراعاً ، وفارق أبو إسحاق البيرة إلى غرناطة العاصمة فى تاريخ نجعله : ووجدها فى قمة الغليان والاضطراب ، فالعرب والبربر فى استياء بالغ من يوسف ابن صمويل ، وينسبون إليه أقسى النوايا رعباً ، وهو بحماقاته يدفعهم إلى المزيد من الكراهية والتطرف وكان وقد التزرة معداً ، وفى حاجة إلى من يشعل النار فحسب ،

وأشعلها أبو إسحاق بقصيدة عظيمة ، دخلت ، ودخل معها ، التاريخ من أوسع الأبواب ! .

لا يعرف العالم العربي أبا إسحاق إلا قليلا ، والقللة التي تعرفه تراه شاعرا زاهدا فحسب ، ولكن شهرته العالمية تعود في المقام الأول إلى قصيدته التي توجه بها إلى بربر صنهاجة ، يحرضهم على يوسف بن صمويل ، وزير باديس بن حبوس . « والحق أن القصيدة تستحق ما حظيت به من شهرة ، ولا نعرف إلا في القليل النادر أن آياتا من الشعر لعبت دورا سياسيا مباشرا في التاريخ السياسي لأمة من الأمم ، فكهربت العزائم ، ودفعت بها في سرعة خاطفة إلى إشعال الحرائق ، وشحذت السيوف إلى القتل ، كالدور الذي لعبته هذه القصيدة » (٣٢) .

توجه أبو إسحاق بقصيدته إلى كل القوى التي يتكون منها المجتمع الغرناطي: بربر صنهاجة ، والأمير وهو منهم ، ورئيسهم كقبيلة في الوقت نفسه ، وجنود الجيش وهم من بربر أفريقية ، ثم عامة المسلمين من بقية الأجناس الأخرى ، وقد أثر في البدء أن يتحدث إلى القبيلة ، فالبربر حانقون على اليهود فعلا ، وبقليل من المديح لهم ، وبسط ما كان عليه اليهود وما انتهى إليه حالهم ، سوف يصبحون من الثائرين .

وهو يتحدث إليهم من القلب ، في لغة متواضعة ، ونغم هادئ ، وإرادة مغلصة ، ويشهدهم جميعا ، وهم الأجواد الشجعان ، على أن سيدهم ، أمير غرناطة ، ارتكب خطأ فادحا : تخير وزيره كافرا ، ولم يكرهه أحد على ذلك ، وفي المسلمين أكفاء لهذا المنصب ، ويمكن أن يركن إلى واحد منهم ، وقد أدى موقفه هذا إلى اعتزاز اليهود وزهوهم ، ومعه حققوا كل مآربهم ، وأكثر مما أملوا ، ولم يكن ذلك لمهارة فيهم ، وإنما لغفلة من المسلمين :

ألا قُلْ لصنهاجة أجمعين بدور الندى وأسدي العرين
لقد زل سيدكم زلة تقرر بها أعين الشامتين

(٣٢) غرسة غوث : مع شعراء الأندلس والتنبي ، ص ١٣٤ ، الطبعة الثالثة ترجمة الدكتور الطاهر أحمد مني ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٢ .

تَحْيَرَ كَاتِبَهُ كَافِرًا وَلَوْ شَاءَ كَانَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ
 فَعَزَّ الْيَهُودُ بِهِ وَانْتَحَوْا وَتَاهُوا وَكَانُوا مِنَ الْأَرْذَلِينَ
 وَنَالُوا مِنْهُمْ وَجَازُوا الْمَدَى فَحَانَ الْهَلَكَ وَمَا يَشْعُرُونَ
 فِكْمَ مُسْلِمٍ فَاضِلٍ قَانَتْ لِأَرْذَلٍ قَرِيٍّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ
 وَمَا كَانَ ذَلِكَ مِنْ سَعِيهِمْ وَلَكِنْ مَتَا يَقُومُ الْمَعِينُ
 وَيَسْأَلُ عَامَةَ الْبَرِّبِ مَنْكَرًا : أَمَا كَانَ خَيْرًا لَهُ أَنْ يَعَامِلَهُمْ عَلَى نَحْوِ مَا كَانَ يَعَامِلُهُمْ خَيْرَةُ
 الْأُمَرَاءِ قَبْلَهُ ، فَيَعُودُ بِهِمْ حَيْثُ يَسْتَأْهِلُونَ أَنْ يَكُونُوا : بَاعَةَ جَوَالِينَ ، عَلَيْهِمْ صَغَارٌ وَذُلٌّ ،
 وَحَوْلَ الْمَزَابِلِ يَبْحَثُونَ عَنْ بَقَايَا خَرَقٍ يَصْنَعُونَ مِنْهَا أَكْفَانًا لِمَوَاتِهِمْ ، سَاعَتَهَا لَنْ يَسْتَخْفُوا
 بِالصَّالِحِينَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَلَنْ يَطَاوُلُوا أَعْيَانَ الْقَوْمِ رَاجِلِينَ أَوْ جَالِسِينَ :
 فَهَلَّا اقْتَدَى فِيهِمْ بِالْأُلَى مِنْ الْقَادَةِ الْخَيْرِ الْمُتَّقِينَ
 وَأَنْزَلَهُمْ حَيْثُ يَسْتَأْهِلُونَ وَرَدَّهُمْ أَسْفَلَ السَّافِلِينَ
 وَطَافُوا لَدَيْنَا بِأَخْرَاجِهِمْ عَلَيْهِمْ صَغَارٌ وَذُلٌّ وَهُونٌ
 وَقَمَّوْا الْمَزَابِلَ عَنْ خَرَقَةٍ مَلَوْنَةٍ لِدَارِ الدَّفِينِ
 وَلَمْ يَسْتَخْفُوا بِأَعْلَامِنَا : وَلَمْ يَسْتَطِيلُوا عَلَى الصَّالِحِينَ
 وَلَا جَالِسُوهُمْ وَهُمْ هَجْنَةٌ وَلَا وَكَبُوهُمْ مَعَ الْأَقْرَبِينَ
 وَبَعْدَ حَوَارِهِ مَعَ الْبَرِّبِ تَوَجَّهَ بِالْحَدِيثِ إِلَى بَادِيسَ ، مُصَدِّرَ طُغْيَانِ الْيَهُودِ وَنَفُوذِهِمْ ،
 وَلَمْ يَكُنْ يَطْمَعُ فِي أَكْثَرٍ مِنْ أَنْ يَجْعَلَ مِنْهُ شَخْصًا مَحَايِدًا حِينَ تَشْتَعِلُ الثُّورَةُ ضِدَّ الْيَهُودِ ،
 فَهُوَ يَصِفُهُ بِالذِّكَاءِ ، وَالْقُدْرَةَ عَلَى النِّفَازِ إِلَى بَوَاطِنِ الْأُمُورِ ، وَأَنَّهُ ابْنُ مُلُوكٍ مَاجِدِينَ ،
 وَسَبَاقَ إِلَى الْخَيْرِ دَائِمًا :

أَبَادِيسُ أَنْتَ امْرُؤٌ حَازِقٌ تَصِيبُ بِظَنِّكَ نَفْسَ الْيَقِينِ
 وَأَنْ لَكَ السَّبْقَ بَيْنَ الْوَرَى كَمَا أَنْتَ مِنْ جِلَّةِ السَّابِقِينَ
 وَيَعْتَبُ عَلَى بَادِيسَ فِي رَفَقٍ : كَيْفَ خَفِيَ عَلَيْهِ حَالُ الْيَهُودِ ، وَقَدْ أَصْبَحُوا أَعْيَانًا ،
 وَانْفَرَدُوا بِهِ ، عَلَى حِينِ أَنَّهُمْ فِي غَيْرِ غِرْنَاظَةٍ ضَعْفَاءٍ مَهَانِينَ ، فَبَغَضُوهُ إِلَى شَعْبِهِ ، وَحَالُوا
 دُونَ رَقِيهِ ، إِنَّهُ بَيْنَى وَهُمْ يَهْدُمُونَ :

فكيف اختفتُ عنك أعيانهم وفي الأرض تضربُ منها القرون
وكيف تحبُّ فراخَ الزنا وهم بغضوك إلى العالمين
وكيف يتمُّ لك المرتقى إذا كنت تبني وهم يهدمون
تأملُ بعينيك أقطارها تجدهم كلابا بها خاسئين
وكيف انضردت بتقريبهم وهم في البلاد من المبعدين
ومن الحديث إلى البربر ، وعتاب الأمير ، إلى الإثارة وتهيئة النفوس للثورة . وطريقه
إليها أن يصف ما وجد عليه اليهود حين هبط غرناطة : لقد قسموا بينهم المناصب ،
ويتولون جباية الضرائب ، ويلبسون أفخر الملابس وعندهم - وهم الخونة - تنتهى أسرار
الدولة ، إذا سرق غيرهم درهماً عوقب عليه ، وأقصى عن وظيفته ، ويسرقون الأموال
الطائلة فيزدادون من الأمير قربا ، ومن السلطة تمكنا :

ولأني احتلتُ بغرناطة فكنتُ أراهم بها عابئين
وقد قسّموها وأعمالها فمنهم بكلِّ مكانٍ لعين
وهم يقبضون جباياتها وهم يخضعون وهم يقبضون
وهم يلبسون رفيعَ الكسا وأنتم لأوضعها لابسون
وهم أنماكم على سرکم وكيف يكون خثونُ أمين
ويسأكل غيرهم درهماً فيقصي ، ويُدنون إذ يأكلون
ويعزف للأمير على إيقاع ديني ، ويلمح إلى ما اتبع اليهود من وسائل للسيطرة عليه ،
فقد ناهضوه إلى ربه ، فلم ينكر ذلك عليهم ، ولا منعهم منه ، وهم أغرقوه في المتع
الحسية ، وأسكروه بها ، فما يسمع معها ولا يبصر :

وقد ناهضوكم إلى ربكم فما تمنعون ولا تُنكرون
وقد لابسوكم بأستارهم فما تسمعون ولا تبصرون
ويتجاوز الجانب الديني ، إلى ما يحسه شخصيا ، يثير فيه روح الغيرة . فاليهود يأكلون
خير ما في غرناطة ، وقصر الوزير رئيسهم يطاول قصر الأمير ، صفاء رخام وغناء حدائق ،
والمسلمون واقفون ببابه ، ينتظرون قضاء حوائجهم ، ويضحك منهم ومن دينهم :

وهم يذبحون بأسواقها وأنتم لأطرافها آكلون
ورحمتهم قردتهم دارهم وأجرى إليها نير العيون
فصارت حوائجنا عنده ونحن على بابه قائمون
ويضحك منا ومن ديننا فلنا إلى ربنا راجعون
وكان باديس نها إلى المال بخيلا ، فأثار فيه الرغبة إلى المزيد من الثراء ، ودخله إلى
أخذ أموالهم فهو أحق بها ، والاستيلاء على قصورهم وفيها كل طريف وتالد :
ولو قلت في ماله أنه كمالك كنت من الصادقين
فبادر إلى ذبحه قربة وضج به فهو كبش سمين
ولا ترفع الضغط عن رجليه فقد كثرنا كل علق ثمين
وفرقت عداهم وخذ ما لهم فأنت أحق بما يجمعون
ثم يقدم تبريرا خلقيا وفقهيا له ، ولكل ثائر ، فقد نكث اليهود العهد ، وخانوا
الأمانة ، وتجاوزوا حد الذمة ، وأخذوا ما ليس لهم ، وكانوا البادئين بالعدوان ، فليس في
قتلهم أي غدر :

ولا تحسبن قتلهم غدر غدر بل الغدر في تركهم يعثون
وقد نكثوا عهدنا عندهم فكيف تلام على الناكثين
وكيف تكون لهم ذمة ونحن خمول وهم ظاهرون
ونحن الأذلة من بينهم كأننا أسانا وهم محسنون
حتى إذا انتهى من عرض قضيته بكل جوانبها ، ختم قصيدته مطمئا إلى النصر ،
متفائلا بالفوز ، لأن الله مع قومه :

وراقب إلهك في حزبه فحزب إلههم الغالبون
اعتمد أبو إسحاق على أدوات كثيرة لكي يحقق الغاية من قصيدته ، كان يعرف أن
الجنود ، وهم الذين اصطفاهم أصلا بالحديث ، من بربر صنهاجة ، ولعل بعضهم جاء
إلى غرناطة من قريب ، وهؤلاء الأفارقة ليسوا مهينين للأشعار الرقيقة ، وحظهم من
العريية متواضع ، وكل ما يستطيعونه أن يدركوا الغاية منها فحسب ، وكل نصيبهم من

المعجم اللغوي العربي الألفاظ ذات الدلالة الدينية ، « ومع ذلك فليس مهماً : سوف يتعد الشاعر في هذه المناسبة عن الكلمات الغامضة ، والبحور المعقدة ، وعن الرموز الشعرية ، وعن الأوصاف والأقوال المكرورة في مصنع الشعراء . فليأخذ من العربية أشد الكلمات قوة وصلابة ، الألفاظ التي يمكن أن يفهمها كل مسلم قادر على قراءة القرآن ، وأن يجمعها في تراكيب سهلة غير معقدة ، وأن يرمى بها في مقاطع عادية ومؤثرة ، كالخطوة العسكرية ، وأن تكون في بحر المتقارب . والأفكار ؟ . لا شيء أكثر مما هو ضروري : الإشارات القرآنية التي تجعل من الله شريكاً فيما يمكن أن يحدث . ولكن في مقابل هذا ، جاء بكثير من الصور الدقيقة : هؤلاء اليهود الذين كانوا من قبل يسيثون في الزبالة عن خرقة مهترئة يكفنون بها موتاهم ، أصبحوا الآن يقتسمون غرناطة وأعمالها فيما بينهم ، يقبضون الجبايات ، ويتأنقون في اللباس ، ويدبحون في الأسواق ، ورتخّم يوسف قردهم داره ، ويردف كل قولة مما سبق بنقيضها الملائم لها : وأنتم السادة الصالحون ترتدون وضيع الثياب ، أنتم المساكين الجوعى ، وهم يسرقونكم ، وأنتم على أبوابهم تتسولون » ويذكر الملك في خشونة غير صريحة بأن يحترم مبادئ القرآن الكريم ، ولكنه يشير العامة ، ويدفع بهم إلى القتل والنهب (٣٣) .

رفع أبو إسحاق قصيدته إلى باديس فلم يرتج منها ، وكانت ثقته في يوسف لا حد لها ، ولكنها أثارت عاصفة من الحماصة بين البربر ، فأقسموا على القضاء على الوزير اليهودي ، وحملت الريح أبيات أبي إسحاق إلى كل أركان المدينة ، وعكف عليها الناس ينسخونها وينشدونها ويترنمون بها ، ويتحنون الفرصة ليجعلوا من أفكارها واقعاً . وجاءت اللحظة ! فقد دعا يوسف ليلة السبت لعشر خلون من صفر ٤٥٩ هـ - ٣٠ من ديسمبر ١٠٦٦ م ، أقواماً من عبيد الأمير قد عاقدوه واتفقوا معه ، وبعضهم في السر يشنأه ، وأعلمهم باتفاقه مع ابن صمادح ، صاحب المرية ، وأنه وارد عليهم ، وأخذ يعدد لهم ما سوف يقطعهم من قرى فحصى غرناطة ، فسأله واحد ممن أضمروا له الشر : « قد علمنا هذا ، فأخبرنا عمن أعطاك حق هذا المنح ، أهو مولانا حى أو ميت » . فرد عليه بعض

(٣٣) المرجع السابق ، ص ١٠٥ و ١٠٦ .

حاشية اليهودى ، ووثخه على قوله ، فأنف ذلك العبد . وخرج فاراً على وجهه وهو سكران ، يصيح بالناس ويقول : « يامعشر الناس من سمع بالمظفر قد غدره اليهودى ! وهذا ابن صمادح داخل فى البلدة » . وباديس فى هذه الحال منغمس فى بطالته ، عاكف على شرابه ، وتسامع الناس بالخبر أجمع عامتهم وخاصتهم ، وأتوا القصر عازمين على قتل اليهودى ، فتحيّل على المظفر حتى أخرجه إليهم ، وقال : « هذا سلطانكم حى ! » ورام الرئيس تسكينهم فلم يقدر ، بدأ الناس يتناشدون قصيدة أبى إسحاق فاتسع الحرق على الراقيع ، وهرب اليهودى بنفسه إلى داخل القصر ، فاخفى ، زعموا ، فى بيت فحم ، وسودّ وجهه حتى لا يتعرف إليه أحد ، ولكنهم ظفروا به وقتلوه ، وصلبوه على باب مدينة غرناطة . وبعدها تدفقت الجماهير على الشارع ، تتغنى بقصيدة أبى إسحاق ، وأحالوا السيف على كل يهودى ، ونهبوا متاجرهم ، وحصلوا على عظام أموالهم ، واقتحموا بيوتهم وأخذوا ما بداخلها ، وأشعلوا النار فى هذه وتلك ، وقتل فى هذا اليوم ما يقرب من أربعة آلاف يهودى ، وأفلت من المذبحة زوجة يوسف وابنه ، هربا إلى مدينة لوشة ، وكان على الذين بقوا على قيد الحياة أن يبيعوا أملاكهم ، وأن يرحلوا عن غرناطة ، ولم تقم لليهود بعدها فى هذه المدينة قائمة^(٣٤) .

يقول المستشرق الإسباني الكبير إميليو غوسية غومث : « لعل الشعر الأندلسى لم يعرف أبداً البساطة عارية كما عرفها فى هذه القصيدة ، وفى الوقت نفسه لم ير قصيدة مثلها ، يلفها مثل هذا الإعصار من المشاعر : لقد اجتاحت أنغامها - حية متوهجة - أعماق المدينة ، مع زفير النيران ، وحشرجة الموقى »^(٣٥) .

هل كانت قصيدة أبى إسحاق السبب المباشر للثورة ؟ . ذلك ما يراه ابن الخطيب ، فى كتابه الإحاطة ، فهو يقول صراحة : « وكان مهلك هذا اليهودى بسبب شعر حفظ عنه ، يخرص صناجة عليه » .

(٣٤) انظر : الإحاطة ، ج ١ ص ٤٤٨ - ومذكرات الأمير عبد الله ، ص ٥٤ - البيان للمغرب ، ج ٣ ص ٢٦٦ - دوزى :

تاريخ مسلمى أسبانيا ، ج ٢ ص ٣٦٦ . الترجمة الأسبانية .

(٣٥) مع شعراء الأندلس والمتنى ، ترجمة الدكتور الطاهر أحمد مكي ، ص ١٠٦ .

ويذهب إلى هذا الرأي عدد كبير من الباحثين الأوربيين . والحق أن قصيدة أبي إسحاق كانت سبباً بين أسباب أخرى كثيرة تجمعت لتؤدي إلى الثورة ، ولعلها - إذا شئت - كانت من أقوى هذه الأسباب ، فيما يتصل بتحريض الجماهير ، والدعاية ضد الوزير ، وهى على التأكيد السبب المباشر الذى أشعل النار فى الحطيم ، وهو ما يمكن أن نستخلصه من روايات عدد من المؤرخين عرضوا للحادث غير ابن الخطيب ، ويلفت النظر أن بعضهم لم يشر إلى أبي إسحاق ، وبخاصة الأمير عبد الله ، فى كتابه البيان ، ونشر بعنوان مذكرات الأمير عبد الله ، وكان حفيداً لباديس نفسه ، فقد التزم الصمت المطبق لإزاء أبي إسحاق ، رغم أنه أمدنا بتفصيلات وافية عن هذه الأحداث .

ومهما يكن فإن هذا الانتصار الساحق لابد أن يكون قد أدخل البهجة على الشيخ الفقيه فى أيامه الأخيرة ، فقد توفى بعد ذلك بقليل ، فى نهاية العام نفسه ، أى فى سنة ٤٥٦ هـ = ١٠٦٧ م .

○ شاعرة عاشقة

حفصة بنت الحجاج

يمثل الدور الذى لعبته المرأة فى الأندلس فى جوانب الحياة المختلفة ، وفى مجال الإبداع الأدبى بخاصة ، جانباً مشرقاً من تاريخ الحياة العربية هناك . كانت الحضارة مصقولة ، وللشعر منها جانب متميز ، ولم تجد القوافى تربة خصبة خارج مهدها فى الجزيرة العربية ، كما وجدت فى هذه البقعة الأوربية النائية ، تقع فى أقصى شمال غرب الإمبراطورية الإسلامية ، أهلها لاتينيون أو قوط ، أو يتمون فى أجناس أخرى بائدة ، ولغتهم مستعربة ، ومع ذلك أخذ الرحالة القزوينى بما كانوا عليه من سهولة فى قول الشعر ، « وأى فلاح يحرث بأثوار فى شلب ، يرتجل ما شئت من الأشعار فيما شئت من المعانى » .

كان الشعر أنشودة الجحام بعد التعب ، يقوله الأمير والعامل على السواء ، بعض الأمراء قاله على نحو متفرق ومتفاوت ، وبعضهم - كالمعتمد ابن عباد - تميز فيه ، وكانت حياته نفسها قصيدة ، مأسوية النهاية . وكان الحكم المستنصر خليفة مثقفاً وشاعراً مقلاً ، يدع سكنه فى غزوة ، ويحن إلى « صبح » حبيبته وحظيته ، ثم زوجه من بعد ، فيترنم بالأبيات الرقيقة التالية ، معزياً نفسه :

عجبتُ وقد دَعَتْها كيف لم أمتْ وكيف انثنتُ عند الفراق يدي معي
فيامقلتي العبرى عليها اسكبي دماً وياكبدى الحرى عليها تقطعي
وقاله أناس حظهم من الثراء محدود ، ومن المجد متواضع ، ومن عراقة النسب
لا شيء ، وتومئ ألقابهم التى وصلتنا إلى الكثير من هذا ، كابن اللبانة ، أى التى كانت
تبيع اللبن ، ومهجة بنت التيانى ، أى الذى كان يبيع التين ، وابن السقاط ، أى الذى

كان يبيع السقط من المتاع ، وغالب بن رباح الحجام ، ومهنة الحجام لا تحتاج منى إلى تفسير ، وآخرون غيرهم كثيرون .

وكان للمرأة حظ وفير منه ، وهى ميزة فاق بها الأندلس غيره من أصقاع الإمبراطورية الإسلامية ، ولقد أوقف المقرئ التلمسانى فصلا كاملا من كتابه « نفح الطيب » على شاعرات الأندلس ، ولو أن ما أورده عنهن كان مقتضيا للغاية ، رغم أنه عد منهن خمسا وعشرين شاعرة ، وإذا كن فى جملتهن شاعرات مجيدات ، فى ضوء القليل الذى وصلنا من شعرهن ، فبينهن من بلغت فى مجال الإجازة شأوا بعيدا ، ومن فاقت الشعراء المحترفين ، وقد قدم المقرئ لحديثه عنهن بقوله : « وإذ وصلت إلى هذا الموضع من كلام أهل الأندلس ، فقد رأيت أن أذكر جملة من نساء أهل الأندلس اللاتى لهن اليد الطولى فى البلاغة ، كى يعلم أن البراعة فى أهل الأندلس كالغريزة لهم ، حتى فى نساءهم وصيانتهم » .

من بين اللاتى ذكرهن المقرئ شاعرتان تأتيان فى المقدمة ، براعة فى عالم الشعر ، وتميزا فى دنيا الناس ، وتحررا من مواضع المجتمع . أما أولاهن فكانت أميرة وابنة خليفة ، وسارت بأخبارها الأيام شاعرة رقيقة ، وعاشقة جريئة ، ونالت من الشهرة فوق ما تمنى ، وما سبقت فيه معاصرها من الشعراء الرجال ، لأنها اقتحمت عالم المجد عن طريق الحب ، ولم تركب له الكلمة أو البيت أو القصيدة فحسب . وكان لنا معها إلى جانب ابن زيدون روميو وجوليت العريين ، وتلك هى ولادة بنت المستكفى .

وأما الثانية فهى حفصة بنت الحاج الركونية ، ولم تنحدر من بيت ملكى ، وكانت أديبة شاعرة ، وجمعت بين « الجمال والحب والمال » . ورغم أنها لم تحظ فى عصرنا الحديث بما حظيت به ولادة دراسة وشهرة ، لم تكن على أيامها دونها ، كانت ملء السمع والبصر ، تقول الشعر ، وتجهر بمكنون الهوى ، وترد ندوات الأدب ، وتواجه حولها ضواغط الحياة والتقاليد ، وغطى حديثها على شاعرة أخرى معاصرة لها ، رقيقة ولطيفة ، وتلتقى معها فى أكثر من منزع ، وهى نزهون بنت القلاعى . وإن كانت هذه

تكبرها عمراً بسنوات قليلة ، وقد فاقتها حفصة ، وفاقته الجميع في الحقيقة ، في أن ماروى لها من شعر ، على قلته ، يفوق ما روى لأية شاعرة أخرى .
ولم تكن حفصة شاعرة مجيدة فحسب ، وإنما لعبت دوراً سياسياً هاماً تجاوز العقيدة والقول إلى المشاركة في التدبير والثورة ، وأسهمت ، إن لم نقل دبّرت ، في مؤامرة سرية أوشكت أن تعصف بسُلطان الموحدين في الأندلس . وكانت على صلة وثيقة بعدد من كبار الساسة ، ومن رجال المجتمع في غرناطة حيث تقيم ، وفي مراكش عاصمة الموحدين حيث استقر بها المقام أخيراً .

وهي إلى جانب أخريات قليلات يمثلن ظاهرة فذة في تاريخ المرأة المسلمة لا في الأندلس وحده ، وإنما على امتداد دولة الإسلام ، فهي لا تدين بشهرتها للثراء الواسع الذي كانت عليه ، ولا إلى الحسب الرفيع الذي تُنسب فيه ، ومن المؤكد أن كثيرات غيرها من نساء عصرها كن على مستواها مالا وجاهاً وحسباً ، إن لم نقل يتفوقن عليها ، وإنما يعود تقدير التاريخ لها ، إلى أنها امرأة ذات كلمة قوية في مواجهة رجال أقوياء ، وبعض ما في شعرها من صراحة يمثل على غيرها خطراً يودي بالحياة . إننا معها بلزاء امرأة غير قعيدة البيت ، ولا مهيفضة الجناح ، ولا خفيضة الصوت ^(١)

وإلى جانب هذا التمرد الاجتماعي فإن مؤرخ الأدب لا يمكن أن يمر بها عابراً ، وهو شيء لم يستطع القدماء أن يفعلوه ، وإذا تجاوزنا المقرئ التلمساني ، ولم يكن أندلسياً أصلاً ، ولا معاصراً لأيام الإسلام في الأندلس ، لأنه مغربي ولد في تلمسان ، وأمضى حياته في القاهرة ، وفوق ثراها لقي الله ، وفي مقابرها استقر إلى الأبد ، فجاء حديثه عنها مقتضباً وموجزًا . فإن ابن الخطيب ، وكان مواطناً لها ، وجاء بعدها بقرن من الزمان ، وكان صائب الرأي ، مشغول الكلمة ، يقول عنها : « أدبية أوانها ، وشاعرة زمانها ، فريدة الزمان في الحسن والظرف ، والأدب واللوزعية » ، ويقول عنها أبو القاسم الملاحى ، وهو مؤرخ غرناطى : « كانت أدبية نبيلة ، جيدة البديهة ، سريعة الشعر » .

(١) انظر كتابنا : « دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة » . الفصل الخاص « المرأة في قرطبة من خلال طوق الحمامة » .

ويقول عنها ابن دحية في كتابه « المطرب من أشعار أهل المغرب » : من أشرف غرناطة ، رخيمة الشعر ، رقيقة النظم والنثر .

دخلت حفصة التاريخ بمواهبها ، وبما كانت عليه من جلال وفصاحة ، في المقام الأول لأن حياتها اكتسبت طابعا مأسوياً ، فقد توزع قلبها رجلان ، كلاهما هام بها حباً ، وتنافساً في الاستئثار بها ، وكان أحدهما أميراً أندلسياً صغيراً يملك ، كأى حاكم صغير ، حق الموت والحياة على رعاياه .

ولا يقدم لنا المؤرخون معلومات وفيرة ، بل ولا حتى قليلة عن طفولتها وصباها ، وكل ما نعرفه عنها أنها كانت تعيش في غرناطة ، وتنسب في أسرة بربرية ، لم يهتم بها أصحاب التراجم ، وكل ما يذكره ابن دحية عن أبيها أنه كان غنياً ، ومن أعيان المدينة . ويبدو لنا من نسبة الركوني أنه ليس من غرناطة أصلاً ، وإنما جاءها ، أو أسلافه من قبل ، من قرية صغيرة تدعى ركانة Requena ، على بعد ٦٩ كيلومتراً إلى الشرق من بلنسية ، وهي منطقة ذات طبيعة بياحرة ، وخضرة ممتدة ، كانت ولا تزال .

ولا نعرف متى وُلدت ، غير أننا لا نستطيع أن نذهب بهذا التاريخ إلى أبعد من عام ٥٣٠ هـ - ١١٣٥ م ، ومن الواضح أنها وُلدت في غرناطة ، وفيها أمضت شبابها ، وكانت غرناطة في أيامها الأولى تحت حكم المرابطين .

وكغيرها ذهبت إلى المدرسة ، أو جاءها المعلمون إلى البيت ، وكان للمدرسة الابتدائية في الأندلس مفهوم أفضل مما كان عليه الحال عند المشاركة ، فبينما هؤلاء يأخذون أطفالهم بالحفظ دون فهم ، كان الأندلسيون يهيئون تلاميذهم فيها للفترة اللاحقة ، فهم يقرأون ويفهمون ويحفظون ، ويجمعون بين القرآن والشعر واللغة ، أى أن الجانب الأدبي من التعليم لم يكن مهماً .

وكان الهدف من تعليم البنات في الأندلس ، كما هو الحال في جميع البلاد المتحضرة ، أن تصبح معه لطيفة محبة إلى النفوس ، ولترقية عقلها ، وتكوينها في الأدب بعامة ، وفي الشعر والموسيقى بخاصة ، وليس في الحساب أن تصبح معه عاملة ، أو أن يكون طريقها للعيش ، وكان ذلك متاحاً لها حتى دون تعليم . ويمكن القول بأن الزاد الثقافى الذى

عاشت عليه حفصة طفولتها وصباها يدخل في نطاق الأدب بمفهومه في العصر الوسيط ،
 أى الإللام من كل شيء بطرف ، أوهى الثقافة كما نراها الآن ، وقد حدد لنا ابن دحية
 دورها في هذا المجال فهو يقول : « إنها كانت تنشد الشعر ، وتكتب النثر في رشاقة » ، ولم
 يصلنا من نثرها شيء لتؤكد من قوله صاحب « المطرب في أشعار أهل المغرب » .
 ومنها يكن من شيء فقد جاءت حفصة إلى الحياة والمرأة الأندلسية تعيش فترة زاهرة ،
 جاء بعضها إرثاً من عصر الطوائف ، حين شاعت الحرية ، ومس خيرها ، أوحى
 شرها ، الناس جميعاً ، وجاء بعضها اكتساباً من عصر المرابطين ، وعلى غير ما يظن عامة
 الناس ، احتلت المرأة في أيامهم ، وهم بدو قدموا من الصحراء ، ورجال دين محافظين ،
 مكانة أعلى مما تحتلها في أى مكان آخر ، فكانت عندهم بمستوى المرأة في الأندلس ،
 أوحى أرق شيئا ، والدور الذى لعبته زينب البغزاوية الهوارية ، زوجة يوسف بن
 تاشفين ، وإحدى نساء العالم المشهورات بالجمال والرياسة ، في دولة المرابطين لا يقل أهمية
 عن الدور الذى قامت به السيدة « صبح » على أيام الحكم الثانى زوجها ، أو هشام المؤيد
 ابنها ، أو عن الدور الذى قامت به اعتماد الرميكية في دولة المعتمد بن عباد . وقد
 أدى ذلك إلى معارضة عنيفة من جانب الفقهاء ، وهم الذين ألحوا على يوسف بن تاشفين
 كى يبقى في الأندلس ويزيح ملوك الطوائف عن عروشهم ، وهم الذين كانوا وراء سقوط
 دولة المرابطين عندما لحظوا أن النساء يلعبن فيها دوراً أكبر مما يجب ، وبما يراى منهن ،
 وحين جاء الموحدون على أنقاضهم حدثت ردة ضد حرية المرأة ، وإن لم تستطع أن تأتى
 عليها تماماً في الأندلس على الأقل .

هل يمكن القول بأن هذا التطور كان له تأثير على نفسية حفصة ؟ .

على أية حال نحن نلمح أنها ، وبرضى والدها ، كانت تتمتع بحرية كاملة ، وأن
 والدها كان سعيداً بأنها تستخدم مواهبها ، وتعبر عن ذات نفسها ، ولا عليه بعد ذلك أن
 يرضى الآخرون أو يغبضوا .

* * *

عاصرت حفصة كل المحن التى تعاورت غرناطة ، من سقوط دولة المرابطين إلى قيام

دولة الموحيدين ، وما يصيب المدن خلال هذه الأحداث من فقيدان الأمن ، وشح الحياة ، ولم تعرف المدينة هدوءاً تزدهر معه من جديد إلا بانتصار الموحيدين نهائياً ، واستقرار دولتهم بها ، عام ٥٤٩ هـ - ١١٥٤ م ، وليس ثمة شك في أن أحداث الحروب ، وما يصحبها من فتن كقطع الليل ، تركت في نفسها وهي الأدبية الأريية ، الذكية الفطنة ، رقة في المشاعر وعمقاً في الإحساس ، واحتقاراً للحياة ، وجرأة على المواقف .

وفي هذه الفترة ، وعمرها يتأرجح حول العشرين ، سوف تلتقي بفتى من بني سعيد ، وهي أسرة عريقة ، تقيم في قلعة تحمل اسمها على مقربة من غرناطة ، وشهرت بالعلم والأدب والثراء ، وسوف يدخل التاريخ معها تحت اسم متميز أبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد . ولا نعرف كيف التقيا ، ولا أين ؟ ، فما أسهل أن يلتقي شاعر وشاعرة في مجتمع يطرب للشعر ، ويحل الشعراء ، وبهذه الإنشاد الجميل . وكان أبو جعفر إلى جانب أنه شاعر رقيق ، وأديب نائر ، صاحب لمه وحياة وفلسفة تنم عن أبيقورية متمكنة . وحين استقل أبوه بقلعتهم في الفترة بين سقوط المرابطين و قدوم الموحيدين ، اتخذه وزيراً ، واستنابه في أموره ، فلم يصبر على ذلك ، واستعفى فلم يعفه ، وعتب عليه أن يركن إلى الراحة في مثل هذه اللحظات الحاسمة ، فكتب إليه الابن شعراً :

مولاي ! في أيّ وقتٍ	أنالُ في العيش راحة
إن لم أنلها وعمرى	ما إن أنار صباحه
وللملاح عيونٌ	تميل نحو الملاحه
وكأس راحي ما إن	تملّ ميئى راحه
والخطبُ عنيّ أعمى	لم يقترب ليّ ساحه
وأنت دوني سورٌ	من العلا والرجاحه
فأعفني وأقلني	مما رأيت صلاحه
ما في الوزارة حظٌ	لمن يريد ارتياحه
كلّ وقال وقيلٌ	ممن يسطيل نباحه

أُنْسِي أَنِي مُسْتَغِيثًا فَاتْرُكْ - فَدُيْتُ - سَرَاةً
فلما قرأ أبوه الأبيات رأى ألا فائدة في أن يكلفه بما ليس مهيتاً له ، فوقع على ظهر ورقته : « قد تركنا سراح أنسك ، وألحقنا يومك بأمسك » .

كان أبو جعفر شاعراً فناناً لم يخلق للإدارة أو الحكم ، أو الحرب والظعن ، يمضي مع لذاذاته دون قيد ، ويستجيب لرغائبه حتى الثمالة ، ويكره أن يرى نفسه أسيراً في وظيفة ، ولكن . . قد تجنى على المرء مواهبه ! . ذلك أن الأمر لم يكده يستقر للموحدين ، ويرسل الخليفة الموحدى في مراكش ابنه السيد أبا سعيد أميراً على غرناطة ، حتى يطلب هذا ، إرضاء لأهلها ، وضماناً لولائهم ، وزيراً منهم ، من خيرة بيوتاتهم ، فلا يجد غير أبي جعفر صاحبنا ، فولاه الوزارة ، أو الكتابة بلغة تلك الأيام ، وحاول أبو جعفر أن يستعفى فلم يسمع له ، فضاق بالمنصب ، وكره أن يكون كاتباً لمن يرى نفسه خيراً منه ، وطوى نفسه على مضض .

كان عسيراً أن تصفو الحياة بين أمير قادم من الصحراء ، جافى الطبع ، بدوى الشمائل ، وبين شاعر غزل رقيق الحواشي ، صдах النغم ، يطرب لكل فاتن ، وتهفو نفسه لكل جميل ، وبدأ ما أضمره أبو جعفر في نفسه سرّاً مكتوماً ينضح في شعره .

خرج ذات ليلة مع رفقة له ، في رحلة صيد ، وكان اليوم غائماً وبارداً ، ولما أشتد البرد مالوا إلى خيمة حارس البستان ، وجعلوا يصطلون ويشربون على ما اصطادوا ، فحملت أبا جعفر بقية من سكر على أن يصف يومه ، ويروح بما في طوايا نفسه :
ويوم تجلّى الأفق فيه بعنبر من النعم لُذنا فيه باللهو والقنص
وقد بقيت فينا من الأمس فضلة من السكر تُغرّينا بمتّهب الفرص
ركبنا له صُبْحاً وليلاً وبعضنا أصيلاً وكلّ إن شدا جُلْجُلُ رقص
وشُهب بُزاق قد رجمنّا بشُهبها طيوراً يُساغ اللهو إن شكتِ الغنص
وعن شَفَقٍ تُغري الصباح أوالدجى إذا أوثقت ما قد تحرك أو قنص
وملنا وقد نلنا من الصيد سُؤلنا على قنص اللذات والبرد قد قرص

ثم يختم الأبيات بقوله :

فقل لحريصٍ أن يرانى مقيداً بخدمته لا يجعل البازُ في القفص
وما كنتُ إلا طوع نفسى فهل أرى مطيعاً لمن عن شأوَ فخرى قد نقص
فكان من حفظ هذين البيتين ، ووشى بهما إلى أمير غرناطة ، فعزله عن منصبه أسوأ
عزل .

* * *

لم يكن جمال حفصة وحده هو الذى شد إليها قلب أبى جعفر ، فلا شك أن غرناطة
كانت حافلة بالجماليات ، أولئك اللأى وصفهن لنا لسان الدين ابن الخطيب بعد قرنين
من الزمان بأنهن « جميلات ساحرات ، ناعحات الأجسام ، مرسلات الشعور ، نقيات
الثغور ، طيبات النشر ، خفيفات الحركة ، نبيلات الكلام ، حسناوات المحاورة ، يعنين
بزينتهن عناية بالغة » . وإنما كانت تتمتع إلى جانب جمالها بمزايا عقلية وعاطفية فائقة ،
شدت إليها انتباه هذا الرجل المتحضر الرقيق ، لقد كانت شاعرة عذبة ، وفاتة جريئة ،
ووجدت فيه فى أحلامها ، أدبا وثراء ، وعراقة أسرة ، وإقبالا على الحياة ، فلدت له
حبل الهوى بلا موازية ، تود أن تراه فتعرض عليه أن يجيئ ، فإن لم يفعل ذهبت هى ،
وتصف جمالها ، وتلج عليه : أنا فى انتظارك يا جميل (٢) !

وبدأت أشعارها تتردد فى المجالس ، وداخل البيوت وراء الأسوار ، وتحفظها الفتيات
يجدن فيها أنفسهن أو ما يطمحن إليه ، وأصبحت الشاعرة سيدة مجتمع مرموقة ، تطلب
منها الأوانس أن تخط لهن فى دفاتر ذكرياتهن شيئا يحتفظن به ، على نحو ما يفعلن اليوم مع
كبار الفنانين . وتسألها فتاة من أسرة عريقة أن تكتب لها شيئا ، فتخط لها بيتين من الشعر ،
تمدح فيهما جمال السائلة وجسبها ، وترجوها أن تصفح عن رداة خطها وكلمها (٣)
لا نعرف كثيرا عما كان يجرى بين شاعر وشاعرة آلف بينهما الحب ، وربطت بين قلوبهما
الصبوة ، وهو أمر بدهى ، غير أشعار متفرقة هنا وهناك تومئ إلى أن الصلة بينهما كانت
قوية ، وأن حفصة كانت تتحمل مسئوليتها كاملة إزاء حبها ، وعبرت عن جوانب منها كما

(٢) الأبيات رقم ١ ، من ديوانها الملحق بهذه الدراسة . (٣) البيان رقم ١٥ .

لم تعبر عنها أية شاعرة غربية أخرى ، ونعرف من أشعارهما أنها باتت مع أبي جعفر في بستان بحر مؤمل ، على مقربة من غرناطة ، وهو صاحبة سراة القوم ، « على ما يبيت به الروض والنسيم ، من طيب النفحة ونضارة النعيم » . فلما مضت كتب إليها أبو جعفر يذكرها ويتنظر ردها ، ولكن حفصة لا تشاركه تفاؤله ، إنها تعرف بغريزة الأنثى أن الناس غيرى من حبيها ، وأن حسن الظن ليس رشداً ، وبهذا المعنى ترد على رسالته شعراً^(٤) .

لقد عرف الأدب العربي المرأة المطلوبة لا طالبة ، وموصوفة لا واصفة ، مهبط آمال الشعراء ، ومناط غايتهم ، غير أن الأدب الأندلسي تميز بخاصية أن تكون المرأة من الشاعر ، أو من المحب بعامة ، ما كانه الشاعر أو المحب منها في المشرق ، تبوح بمكنون قوادها ، وتسترجع لحظات صفوها ، وتتغزل فيمن تحب ، ولا ترد في أن تصف قبله لأبي جعفر في شعر رقيق صريح ، بأنها رشفت معها ريقاً أرق من الخمر ، وهي تقول ذلك عن تجربة ، لا تدعيها ولا تكذب فيها ، ولا تتزعمها من الخيال^(٥) . وتغار على حبيها وتصف لنا غيرتها في بيتين من الشعر ، هما من أجمل ما عرف الأدب العربي تصويراً لهذه الفكرة ، فهي تغار عليه من الرقيب ، ومن نفسه ، وزمانه ومكانه ، ولا تجد له مكاناً تصونه فيه ، إلى يوم القيامة ، غير عيونها^(٦) .

* * *

لكن ترنمة الحب ووصله لم تدم لها صافية ، اقتحم عليها بلا إذن عالم حبيها الجميل أمير غرناطة ، السيد أبو سعيد بن عبد المؤمن ، ومعه سلطان الحاكم وبطشه ، ولا أستبعد أن يكون هواه لحفصة رغبة مكتومة في أن يكيد لأبي جعفر ، فلم يكن للأمير في مجال الشعر العاطفي ما يشده إلى هذه الشاعرة الغردة ، ولم يكن له في مجال الفكر ما يعجبه من آرائها المتحررة ، وكان له في سيل الجوارى المتدفق على غرناطة مندوحة إلى الأنثى لو أراد .

(٤) أبيات أبي جعفر وأبياتها في القطعة رقم ٢ من الديوان الملحق بالدراسة .

(٥) الأبيات رقم ٨ في الديوان الملحق بالدراسة .

(٦) الأبيات رقم ٥ من الديوان .

ولابد أن حفصة عانت كثيراً من ملاحقة الأمير ، خشية على أبي جعفر أكثر من خشيتها على نفسها ، فهي تعرف ما بينهما ، تعرف ما يكنه الأمير لأبي جعفر من حقد ، وما تنطوى على نفس هذا من احتقار للأمير ، وما عليه الحياة في غرناطة من سهولة القتل والتآمر والتخلص من الأعداء ، وراودت نفسها ، وابتعدت عنه قرابة شهرين لا يراها ولا تراه ، واستبد به الشوق فكتب إليها ، دون أن يذكر اسمها ، ولكنه يناجي حبيباً ، وليس غيرها له ، لقد برح به الشوق ، وثقل عليه الصبر ، وطال ليله ، ويستعجزها أن تفي بما وعدت اليوم لا غداً ، وترسل إليه ، تبدى رأياها وتعتذر ، وتعتب عليه أن يتحدث عن السأم والملل ، وألا يدرك عذرها . وسبب انقطاعها^(٧) .

وتقع حفصة بين أمرين أحلاهما مر ، وأيسرهما عسير ، أمير يلاحقها بكل ما في قدرته ، ويطوقها بكل ما في سلطته ، وشاعر غزل رقيق الحواشي ، تسعد معه ، وتساقيه الهوى ، وتحقق ذاتها إنثى وإنسانة ، وتحاول أن ترضى الأمير ، وأن تكتب إليه شاعرة ، وفي الوقت نفسه تتجافاه عاشقة ، تكتب إليه تهتة في يوم عيد ، تناديه « يا ابن الخليفة » ، وتومئ إليه في كلام خبيء يفهم على أكثر من وجه ، وهي التي اعتادت أن تكون صريحة لا تلمح ولا تكنى ، بأن العيد أتاه ، ومعه من يهوى منبياً راضياً ، ليعيد ما انقضى من لذاته وتصرم ، نعم ابن الخليفة يهوى ، ولكن أين هي من هذا الهوى ، صممت تماماً^(٨) .

وتجتاح أبا جعفر نوبة من قلق ، والحب احتواء ، والعاشق غيور ، فيقول لها محقراً شأن الأمير : ما تحين في هذا الأسود ، وأنا أقدر أن أشتري لك من سوق العبيد عشرة خيراً منه . وتبلغ قوله الأمير ، أو هكذا توقع أبو جعفر ، فاستشعر النهاية ، وأصبح موزع القلب ، خائفاً مضطرباً ، يتوقع المهالك في كل خطوة ، ويبحث عن الأمن بأي ثمن ، وصور لنا مأساته هذه أبلغ تصوير :

من يشتري منى الحياة وطيبها ووزارني وتادبني وتهذي

(٧) أبيات أبي جعفر ، وردتها عليه في الديوان الملحق بالدراسة ، رقم ٤ .

(٨) الأبيات ، رقم ١٤ .

بمحلّ راع في ذرى ملمومة زويت عن الدنيا بأقصى مرتب
لاحكم يأخذه بها إلا لمن يعفو ويرؤف دائماً بالمذنب
فلقد ستمت من الحياة مع امرئ متغصّب متغلب مرتب
الموت يلحظني إذا لاحظته ويقوم في فكري أوان تجنّبي
لا أهتدي مع طول ما حاولته لرضاه في الدنيا ولا للمهرب

وينتهز الأمير فرصة تمرد محمد بن مردنيس في شرق الأندلس ، وانضمام أحد أفراد أسرة بني سعيد إليه ، وهو عبد الرحمن بن عبد الملك ، فيلقى عليهم القبض جميعاً ، ومن بينهم أبو جعفر ، وقتله صبراً في مدينة مالقة عام ٥٥٩ هـ - ١١٩٨ م ، وحزنت حفصة عليه ، لبست السواد علانية ، وبكته جهرة ، ورثته في أبيات حفظ لنا التاريخ ثلاثة أبيات منها (٩) .

وعجز السيد أبو سعيد أن يجد إلى قلبها طريقاً ، وضاعت هي بالحياة في غرناطة ، وقد شهدت مصرع حبها ، فرحلت إلى مراکش عاصمة الموحدين ، ولقيت الخليفة ، واستشدها شعرها ، فأنشدته أبياتاً ثلاثة تطلب فيها الأمان والمأوى ، فحقق لها ما أرادت ، واختارها أستاذة لبناته ، وأمضت بقية حياتها في مراکش ، وفي عاصمة الموحدين لقيت الله آخر عام ٥٨٠ هـ - ١١٨٤ م ، أو أوائل العام الذي تلاه ، وبذلك طويت صفحة جميلة من أروع صفحات الحب في تاريخ الأدب العربي .

* * *

تدور قصائد حفصة حول التعبير عن مشاعرها ، ويحيى تعبيرها واضحاً صريحاً ، لا إيماء فيه ولا تورية ، تدعو حبيبها أن يزورها ، فإن لم يستطع زارته هي ، ولا تردد في أن تصف بعض جمالها ، وأن ثغرها عذب ، وشعرها مرسل ، وتحاف العذال والوشاة ، لأن الحب العظيم يثير من سخائم النفوس الأرضية بقدر ما يعظم ويسمو ، وهي في هذا على النقيض من أبي جعفر نفسه ، إنها بحاسة الأنثى تشك وترتاب ، وهو في جرأة الرجل المحب مع لحظاته الحلوة له الساعة التي هو فيها ولا يفكر في غد .

ولا بأس أن تعاتب أبا جعفر بأبيات من شعرها ، وهو في رفقة من أصحابه يسلمون ، ترسل بها وتنتظر ، ، ويهرع إليها تغمره الغبطة ، فقد رأى الأبيات بقلبه قبل عينه ، وتأملها بعاطفته قبل عقله . وكما عتبت ولادة من قبل على ابن زيدون أنه مال إلى جاريتها السوداء ، وكان للسوداوات نصيب من غاية العشاق وكن هدفاً ، تعتب هنا على أبي جعفر أنه علق بجارية سوداء أيضاً . ولكن شتان ما بين حب حصة وكله رقة ودل ، وبين عتب ولادة وفيه تعال وخشونة ، ذلك أن حصة كانت تحب أبا جعفر حقاً ، أما ولادة فكانت تحب نفسها أولاً ، فيها أرى ، فهي متعالية ، عنيفة ، تنصرف كأمية ، حتى حين تعاتب محباً لها (١٠) .

وتصوير حفصة للجارية السوداء فيه ظرف ورقة ، فهي ظاهراً لا تسيء إليها ، وفيها وراء اللفظ مباشرة قالت كل شيء ، فالجارية السوداء مثل الليل ، وهي حديقة خالية من النوار والزهرة .

وفي صورها الشعرية لا تخرج عن المألوف في الشعر العربي بعامة ، ولكنها تتكأ على الطبيعة دائماً ، كبقية شعراء الأندلس من معاصريها ، فالرياض مهبط لقائهما مع حبيبها ، والنهر يصفق لحبهما ، والقمرى يغرد ، وإذا أرسلت سلامها إلى أبي جعفر نازحاً ، فهو يفتح الكمام ، وينطق ورق الغصون ، وتلتقي عندها بما ابتدعه شعراء وطنها ، والمعاصرون لها بخاصة ، من ألوان التشبيه الجديد ، حين خرجوا به من رتابته المشرقية ، ودفعوا في شرايينه بدم جديد ، لم يتجاوزه تماماً ، ولكنهم جاءوا به في صورة مستحدثة مقبولة ، فخلدها ليس كالورد ، وإنما يفضحه ، وثرها ليس كاللآلى ، وإنما يكشف زيفها . وتتكأ على التراث ، فحبيبها جميل ، وهي بشينة ، ولحاظها سحر بابل ، ولها جيد الغزال (١١) .

وشعر حفصة جيد في مجمله ، موسيقاه رقيقة ، ووقعها جميل ، ولكنه فقير في الأفكار عامة ، قليل الصور ، وما جاء منها كان بسيطاً ، وإن لاهم موضوعه ، وكان في مكانه جميلاً .

(١٠) انظر الفصل الخاص بنونية ابن زيدون في هذا الكتاب .

(١١) الأبيات رقم ٧ من الديوان الملحق بالدراسة .

غير أن ما وصلنا منه قليل للغاية ، لا يتجاوز ثلاثة وخمسين بيتاً فيما وجدت ، عثرت عليها متناثرة في تحفة القادم لابن الأبار ، والمغرب في حلى المغرب لابن سعيد ، ورايات المبرزين له أيضاً ، والمطرب من أشعار أهل المغرب لابن دحية ، والإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب ، ومعجم الأدباء لياقوت ، ونفع الطيب للمقرئ ، واللاحق منهم ينقل عن السابق ، وبعيد في تصوّري أن يكون هذا هو كل إبداع شاعرة عاشقة ومتحررة ، وكانت في سعة من العيش ، ومكانة اجتماعية مرموقة تحميها من الصمت ، ولعل أنانية الرجل ذهبت بالجانب الأكبر من شعرها حين صمت عنه ، أو لعل الأحداث والكوارث أودت به فيما بعد ، وربما يعود السبب إلى حفصة نفسها ، ففي غمار الأحداث التي ألمت بها ، ففقدت حبيبها ، وهاجرت بعيداً عن وطنها ، إلى أرض لا تعرف فيها أحداً ، زهدت في أمسها كله ، وأجمل ما فيه شعرها ، وحياتها شاعرة .
وأيّ ما كان الأمر فقد ألحقت ما وجدت لها من شعر بهذه الدراسة تيسيراً للراغبين في قراءته أو دراسته .

○ ديوان حفصة :

١

أزورك أم تزور ؟

أزورك أم تزور فإن قلبي إلى ما تشتهي أبداً يميلُ
فثغري موردٌ عذبٌ زلالٌ وفرعٌ ذوابي ظلّ ظليلٌ (١٢)
وقد أملتُ أن تظلم وتضحى إذا وافى إليك بى المقيّل (١٣)
فعجلُ بالجوابِ فما جميلُ إباؤك عن بشيئةٍ ياجميلُ

(١٢) الفرع : الشعر التام - الذؤابة : شعر مقدم الرأس .

(١٣) المقيّل : القيلولة .

٢

لا تحسن الظن !

واتفق أن بات أبو جعفر بن سعيد معها في بستان بحور مؤمل ، على ما يبيت به الروض
والنسيم ، من طيب النفحة ونضارة النعيم ، فلما حان الانفصال ، قال أبو جعفر وكان
يهواها ، وكتب بها إليها بعد الافتراق ، لتجيبه على عاداتها في ذلك :
رعى الله ليلاً لم يُرْحَ بمذمم عشيّة وارانا بحورٍ مؤملٍ
وقد خففت من نحوٍ نجدٍ^(١٤) أريحته إذا نفحت هبتُ برياً القرنفل
وغرد قمرى على الدوح واثنى قضيبٌ من الریحان من فوق جدول
ترى الروض مسروراً بما قد بدا له عناقٌ وضم وارتشافٌ مُقبلٌ
فكتبته إليه بقولها :

لعمرك ما سرّ الرياضُ بوصلنا^(١٥) ولكنه أبدى لنا الغلّ والحسد
ولا صفّق النهرُ ارتياحاً لقربنا ولا غرّد القمرى إلا لما وجد^(١٦)
فلا تحسن الظن الذى أنت أهله فما هو في كل المواطن بالرشد
فما خلّت هذا الأفقَ أبدى نجومه لأمر سوى كما تكون لنا رصدٌ

٣

زيارة مفاجئة

كان أبو جعفر يوماً في منزله مع من يحب أن يتخلّى معه من الأجواد الكرام ، على راحة
سمحت بها غفلات الأيام ، فلم يشعر الا بالباب يضرب ، فخرجت جارية تنظر من

(١٤) نجد وبحور المؤمل من أجمل ضواحي غرناطة الإسلامية ، ومسكن الطبقة العالية ، ومؤمل الذى ينسب إليه الحور كان مولى

لباديس بن حيوس أمير غرناطة .

(١٥) في الإحاطة وصلنا .

(١٦) في الإحاطة ولا مدح .

الضارب ، فوجدت امرأة ، فقالت لها : ما تريدین ؟ فقالت : ادفعی لسیدك هذه الرقعة ، فجاءته برقعة فیها :

زائرٌ قد أتى بجید الغزالِ مُطلعٌ تحت جُنْحِهِ للهِلالِ
 بلحاظٍ من سحر بابلٍ صیغتْ ورُضابٍ یفوقُ بنتَ الدوالِ^(١٧)
 یفصح الرودَ ما حوى منه خدٌ وكذا الشجرُ فاضحٌ للآلِ
 ما ترى فی دخوله بعد إذنٍ أوتراه لعارضٍ فی انفصال
 فعلم أنها حفصة ، وقام مبادراً للباب ، وقابلها بما یقابل به من یشفع له حسنه وآدابه والغرام به ، وتفضله بالزيارة دون طلب ، فی وقت الرغبة فی الأنس به .

٤

لو كنت تعرف عذری !

طلب منها أبو جعفر بن سعید أن تلقاه ، فطلته قدر شهرین ، فكتب لها :

یامن أجنبُ ذکرَ اسمه وحبِّي علامة
 ما إن أرى الوعد یُقبضی والعمُرُ أخشى انصرامه
 الیومَ أرجوكَ لا أن تكون لی فی القیامه
 لو قد بَصُرْتُ بحالی واللیل أرخى ظلامه
 أنوحُ وجدًا وشوقًا إذ تستريح الحمامة
 صبُّ أطالَ هواه علی الحبیب غرامه
 لمن یتیه علیه ولا یبرد سلامه
 إن لم تُنبلی أریحی فالیأس یثنی زمامه

(١٧) الدوال : العنب الأسود ، وبنت الدوال لخر تأخذ من عصيره .

فأجابه :

يأمدعى فى هوى الحسب من الغرام الإمامة
أتى قريضك ، لكن لم أرض منه نظامه
أمدعى الحب يثنى بأس الحبيب زمامه ؟
ضلت كل ضلال ولم تفدك الزعامه
مازلت تصحب مذ كُنت فى السباق السلامه
حتى عثرت وأخجلت بافتضح السامه
بالله فى كل وقت يبدى السحاب انسجامه
والزهر فى كل حين يشق عنه كمامه
لو كنت تعرف عدى كفت غرب الملامه

٥

غيرة !

أغار عليك من عيني رقيب ومنك ومن زمانك والمكان
ولو أتى خباتك فى عيوني إلى يوم القيامة ما كفانى

٦

تهنئة

وكتب إلى أبي جعفر تهنئه ، وقد استوزره عثمان بن عبد المؤمن ملك غرناطة :
رأست فما زال العداة بظلمهم وعلمهم النامى يقولون ما رأس
وהל منكراً أن ساد أهل زمانه جموح إلى العليا حرون عن الدنس

٧

عتاب !

وكتبت إليه ، وبلغها أنه علق بجارية سوداء أسعت له من بعض القصور فاعتكف
 معها أياماً وليالي ، بظاهر غرناطة ، في ظل ممدود ، وطيب هوى مقصور وممدود :
 يا أظرفَ الناسِ قبل حالٍ أوقعه نحوه القدرُ
 عشقتَ سوداءَ مثل ليلٍ بدائعُ الحُسْنِ قد ستر
 لا يظهرُ البشرُ في دُجَاها كلاً ولا يُبصرُ الحُقرُ
 بالله قل لي وأنت أدرى بكل من هامَ في الصُّورِ
 من الذي هامَ في جنانٍ لا نور فيه ولا زهر
 فكتب إليها بأظرف اعتذار والطف أنوار :

لا حُكْمَ إلا لآمرٍ ناهٍ له من ذنبه ، مُعْتَذِرُ
 له حياءَ به حياي أعيذُ مداه بالسورِ
 كصعبة العيد في ابتهاج وطلعة الشمس والقمرِ
 سعدُه لم أملُ إليه إلا أطرافاً له خبرِ
 عدمتُ صُبْحِي فاسودَّ عِشْقِي وانعكس الفكر والنظر
 إن لم تُلحْ يانعم رو حى فكيف لا تفسدُ الفكر

٨

قبلة !

ثنائي على تلك الثنايا لأننى أقول على علم وأنطق عن خبير
 وأنصفها لا أكذبُ الله إننى رشفتُ بها ريقاً أرق من الخمر

٩

إذا لم تستطع الزيارة

سار شعري لك عني زائراً فأعز سمع المعالي شفقاً (١٨)
وكذا الروض إذا لم يستطع زورة أرسل عنه عرفه

١٠

سلام على نازح

سلام يُفتح في (١٩) زهرة السكّام ويُنطق ورق الغصون
على نازح قد ثوى في الحشا وإن كان تحرم منه الجفون
فلا تحسبوا البعد ينسيكم فذلك والله ما لا يكون

١١

حبيبة ساهرة

سلو البارق الخفاق والليل ساكن أظلل بأجابي يذكّرني وهنا
لعمري لقد أهدى لقلبي خفقة وأمطرني (٢٠) مُهلّ عارضيه الجفنا

١٢

أنت نجم

ولو لم تكن نجماً لما كان ناظري وقد غبت عنه مظلماً بعد نوره
سلام على تلك المحاسن من شجر تناءت بُنعماء وطيب سروره

(١٨) الشف: القوط .

(١٩) في المغرب عن .

(٢٠) في المغرب أمطر عن .

١٣

رثاء وحداد !

هَدَدُونِي مِنْ أَجْلِ لِبْسِ الْحَدَادِ لَحْبِيبٍ لِي أَرَدُوهُ بِالْحَدَادِ
رَحِمَ اللَّهُ مَنْ يَجُودُ بِدَمْعٍ أَوْ يَنْوَحُ عَلَى قَتِيلِ الْأَعَادِ
وَسَقَتَهُ بِمَثَلِ جَوْدِ يَدَيْهِ حَيْثُ أَضْحَى مِنَ الْبِلَادِ الْغَوَادِ

١٤

تهنئة بيوم عيد

وَكَتَبْتُ إِلَى السَّيِّدِ أَبِي سَعِيدٍ^(٢١) مَلِكِ غِرْنَاطَةَ تَهْنِئَةً بِيَوْمِ عِيدٍ :
يَا ذَا الْعُلَا وَابْنَ الْخَلِيدِ فَتَةً وَالْإِمَامَ الْمُرْتَضَى
يَهْنِكَ عِيدٌ قَدْ جَرَى فِيهِ بِمَا تَهْوَى الْقَضَا
وَأَتَاكَ مِنْ تَهْوَاهُ فِي قَيْدِ الْإِنَابَةِ وَالرِّضَا^(٢٢)
لِيُعِيدَ مِنْ لَذَاتِهِ مَا قَدْ تَصَرَّمَ وَانْقَضَى

١٥

غُضَى جُفُونِكَ !

وَسَأَلْتُهَا أَخْتَ الْوَزِيرِ أَبِي بَكْرٍ بْنِ يَحْيَى بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْهَمْدَانِي إِلَى حَفْصَةَ أَنْ تَكْتُبَ
لَهَا شَيْئًا بِخَطِّهَا فَكَتَبَتْ :

يَا رَبَّةَ الْحَسَنِ ، بَلْ يَا رَبَّةَ الْكَرَمِ غُضَّى جُفُونُكَ عَمَّا خَطَهُ قَلَمِي
تَصَفَّحِيهِ بِلَحْظِ الْوَدِّ مَنَعَةً لَا تَحْفَلِي بِرَدَى^(٢٣) الْخَطِّ وَالْكَلَمِ

(٢١) فِي الْمَغْرِبِ عُمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ . (٢٢) الْبَيْتُ فِي الْمَغْرِبِ . (٢٣) فِي الْإِحَاطَةِ بِقَيْحِ .

١٦

أمنية

انشدت أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي ارتجالاً بين يديه :
ياسيد الناس يامن يؤملُ الناس رِفْدَهُ
امن على بطرس^(٢٤) يكون لسلهمر عُدَّة
تخط بمنالك^(٢٥) فيه : الحمد لله وحده^(٢٦)

(٢٤) في التحفة بصلك .

(٢٥) في التحفة تخط يميناك .

(٢٦) الشطر الأخير من هذا البيت كان شعار دولة الموحدين .

ابن خاتمة

شاعر أندلسي من القرن الرابع عشر الميلادي

كتبت هذه الدراسة القيمة المستشرقة الأيبانية سوليداد خيرت
فنيش ، الأستاذة بكلية الآداب بجامعة مدريد الآن ، مقدمة لترجمتها
لديوان ابن خاتمة إلى اللغة الأيبانية ، ونشره قسم اللغة العربية والإسلام
في كلية اللغات في جامعة برشلونه ، برشلونه ١٩٧٥ .

اسمه كاملا : أحمد بن علي بن محمد بن علي بن خاتمة ، يكنى أبا جعفر ، ويعرف
بابن خاتمة ، وما وصلنا من أخبار تتصل بحياته قليل ، على الرغم من شهرته ، وتشهد بها
الإشارات الكثيرة التي نجدها عنه في مؤلفات معاصريه . وفي الحق فإن اسم ابن خاتمة
يتردد بكثرة غالبية في كتاب الإحاطة لابن الخطيب ، ومثله في كتابي المقرئ : نفح
الطيب ، وأزهار الرياض ، والشئ نفسه نجده في كتب التراجم الأخرى في عصره .
وأوفى ترجمة نملكها له ، هي التي أوردها ابن الخطيب في كتابه الإحاطة^(١) ، ومع
ذلك ، وعلى الرغم من طولها ظاهراً ، لا نجد فيها معلومات هامة نوّدها ، ولا تعطينا
صورة حقيقية لشخصيته ، فهي مجرد مجموعة من الثناء العاطر ، تطرى أخلاقه ، وفضائله
ومؤلفاته ، ضائعة في غمام صور بلاغية معقدة ، تدعنا غير راضين . ومن المحتمل أن
الموقف السياسي الدقيق في الأيام الأخيرة لغرناطة بني نصر ، أدى إلى شيوع ذوق أدبي
يتميز بالغموض .

يقول ابن الخطيب في بدء الترجمة التي خص بها ابن خاتمة :

« من أهل المرية ، يكنى أبا جعفر ، ويعرف بابن خاتمة .

« هذا الرجل صدر يُشار إليه ، طالب متفنن ، مشارك ، قوي الإدراك ، سديد

(١) طبعة محمد عبد الله عثان ، الطبعة الأولى . المجلد الأول ، القاهرة ، ١٩٥٥ ، ص ٢٤٧ - ٢٦٧ .

النظر، قوى الذهن، موفور الأدوات، كثير الاجتهاد، معين الطبع، جيد القرينة، بارع الخط، ممتع المجالسة، حسن الخلق، جميل العشرة، حسنة من حسنات الأندلس، وطبقة في النظم والنثر، بعيد المرقى في درجة الاجتهاد، وأخذ به بطرق الإحسان. عقد الشروط، وكتب عن الولاة ببلده، وقعد للإقراء، مشكور السيرة، حميد الطريقة، في ذلك كله» (٢).

ويقول عنه تلميذه، وجامع مؤلفاته، وستحدث عنه فيما بعد، أبو جعفر أحمد بن

زرقاله :

« فلم يخل كل عصر من شاعر يكون شعراء زمانه عيالاً عليه، ويحتاج كل منهم إليه، تنجلي الأيام من نظمه بأنفس من حلا الليالي، وتثبت في المعالي. وكان شاعر عصرنا ببلدنا هذا - عصمه الله ! - الذي رفع شمس الأدب وضحاها، ومهد أرض الشعر ودحاها، فتنفس عنه صبح البيان، وانبجس من سحاب علمه قطره الهتان، وتمت له قلوب الأدب بجباتها، وألقت إليه بأفذاها وثباتها، فعجى مع الإحسان في طلق فريد، وكان له فيه شأو بعيد، شيخنا الأستاذ المتفطن الجليل، ما عرف المثل، مشيد بنيان الأدب الذي أسس معالمة، أبو جعفر أحمد بن خاتمة» (٣).

ويعترف ابن الخطيب بفضل له في بيئة هوت ثقافياً، ويصرح بذلك عندما يهتدى إليه

هذين البيتين :

قسماً بالكواكب الزهر والزهر عاتمة
إنما الفضل ملّة خُتمت بابن خاتمة (٤)

وفي نهاية السطور التي خصه بها في كتابه الكتيبة الكامنة، وهي تنضح ودًا وإعجابًا، أطرى تبهره في العلم، وقرنه بسيبويه في النحو، وأشاد بمكانته الأدبية، وكرر الفكرة السابقة نفسها : « خبا بوفاته الكوكب الوقاد، وألقى إلى الضالة المهمل المقداد، واستولى

(٢) الإحاطة، ص ٢٤٧ - ٢٤٨.

(٣) كتاب رائق التحلية في فائق التورية، مخطوطة الأسكوريال رقم ٤١٩، الورقة رقم ١ أ.

(٤) الإحاطة ج ١ ص ٢٦٤. والبيتان من بحر الحثيف.

من بعد اليقظة الرقاد ، واستعجل النقاد^(٥) .

وإذا تجاوزنا فقرات الثناء التي أطراه بها الذين ترجموا حياته^(٦) ، ولها ما يبررها تماماً حين ندرس مستوى مؤلفاته ، لا نجد أخباراً ، ولا معلومات محددة تصور لنا ما كان عليه في دنياه ، ولم يذكر لنا أى واحد منهم تاريخ ميلاده . ولكن بروكلمان ، وجيانجوس ، ودرنبرج في فهرسه ، حددوه بأنه عام ٧١٤ هـ - ١٣١٣ م ، على حين أن يونس بيوجيس حددته بعام ٧٣٤ هـ - ١٣٣٣ م ، وكلاهما خاطئ دون أدنى شك ، ذلك أن الديوان يحمل تاريخ ٧٣٨ هـ = ١٣٣٧ م ، وليس ممكناً أن مؤلفه أنشده وله من العمر أربعة أعوام ، ولا حتى أربعة عشر عاماً . وجاء الخطأ على التأكيد من الخلط بين تاريخ

(٥) طبعة احسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ص ٢٣٩ .

(٦) المصادر التي تضمنت أخباراً عن ابن خاتمة ويمكن الرجوع إليها هي :

- ابن الخطيب ، الإحاطة في أخبار غرناطة ج ١ تحقيق محمد عبد الله عتار ، ص ٢٤٧ - ٢٦٧ .
- المقرئ ، نفح الطيب ، طبعة الشيخ محي الدين ، القاهرة ١٩٤٩ ، ج ٨ ، ص ١٣٩ - ١٤٨ .
- وأزهار الرياض ، القاهرة ١٩٣٩ - ١٩٤٠ ، الجزء الأول ، ص ٢٣ و ٢٥ و ٢٦ .
- والجزء الثاني ، ص ٢٥٢ و ٢٥٤ و ٣٠٢ و ٣٠٥ و ٣٤٠ و ٣٤٦ ، والجزء الثالث ، ص ٢٠٢ .
- ابن الخطيب ، الكتبية الكامنة ، ص ٢٣٩ - ٢٤٥ ، طبعة احسان عباس .
- ابن القاضي ، دوة الحجال ، طبعة ١ ، س . علوش ، الرباط ١٩٣٤ ، ج ١ ، ص ٤٠ الترجمة رقم ١١٦ .
- الجزيري ، غاية النهاية في طبقات القراء ، القاهرة ، ١٩٣٢ ، ج ١ ، ص ٧٨ .
- أحمد بابا التبكئي ، نيل الأبتهاج ، القاهرة ، ١٣٥٠ هـ ، ص ٧٢ .
- أحمد عيسى بك ، معجم الأطباء ، (ذيل عيون الأبناء) ، القاهرة ، ١٩٤٢ ، ص ١١١ - ١١٣ .
- ابن الأحمر ، نثر فرائد الجمان ، طبعة رضوان الداية ، بيروت ، دار الثقافة ، ص ٢٣١ - ٢٣٢ ، للترجمة رقم ٢٠ .
- خير الدين الزركلي : قاموس تراجم أشهر الرجال والنساء من العرب ، ج ١ ص ١٨١ .
- بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ، ج ٢ ص ٢٥٨ ، وللحق ج ٢ ص ٣٢٩ .
- جيانجوس : تاريخ الممالك الإسلامية في أسبانيا ، لندن ١٨٤٠ - ١٨٤٣ ، ص ٣٥٨ .
- يونس بيوجيس : دراسة حياة وأعمال المؤرخين والجغرافيين الأندلسيين ، مدريد ١٨٩٨ ، ص ٣٣١ .
- م . ف . أنتونيا ، ابن خاتمة المرئي ورسائله عن الطاعون ، في مجلة « الدين والثقافة » مدريد ، أكتوبر ١٩٢٨ .
- ج . س . كولان ، بعض شعراء الغرب من العرب في القرن الرابع عشر الميلادي ، هيسبيريس ، المجلد ١٢ ، ١٩٣١ ، ص ١ - ٣٢ . والمجلد ١٢ ، ١٩٣١ ، ص ٢٤١ .
- ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبحار في ممالك الأمصار ، مخطوطة باريس ، رقم ٢٣٢٧ ، الورقة ٢١٠ .
- وذكر ناشر كتاب ابن الأحمر مصدرين لم أستطع الرجوع إليها ، هما : هدية العارفين لاسماعيل باشا البغدادي ، ج ١ ص ١١٣ ، وشجرة النور الزكية ، لمحمد محمود مخلوف ، القاهرة ص ٢٢٩ .

ابن خاتمة شاعرنا وبين تاريخ أخ له أصغر منه ، يدعى محمد بن علي بن محمد بن خاتمة الأنصاري ، أبو عبد الله ، وهو الشخص الوحيد من أسرة ابن خاتمة الذي نعرف بعض الأخبار عنه^(٧) . ويقول ابن الخطيب عن هذا الكاتب والشاعر المرمي الأخير إنه « تأدب بأخيه وتهذب ، وأراه في النظم المذهب ، وكساه من التفهم والتعليم الرداء المذهب ، فاقننى واقتدى ، وراح في الحلبة واغتدى ، حتى نبلى وشدى ، ولو أمهله الدهر لبلغ المدى ، وأما خطه فقيده الأبصار ، وطرفة من طرف الأمصار ، واعتبط يانع الشبيبة ، مخضر الكتيبة » . وهذا ما يفسر لنا الخلط الذي وقع في تاريخ الأخوين . لقد توفي محمد ضحية وباء الطاعون عام ٧٥٠ هـ - ١٣٥٠ م ، فإذا كان تاريخ مولده عام ٧٢٤ هـ فذلك يعنى أنه فارق الحياة وهو فى السادسة والعشرين من عمره ، أو « اعتبط يانع الشبيبة » على حد تعبير ابن الخطيب . وقد أورد ابن الخطيب ، ومثله ابن القاضى ، بعضاً من قصائده ، تبلغ ثلاثاً عند الأول ، وواحدة عند الثانى ، وكلاهما يصرح بأنه تدفن فى المرية ، فى روضة بنى خاتمة ، فى روض الحوض .

وفما يتصل بموته لا يوجد أيضاً تاريخ مؤكد ، فابن الخطيب فى الإحاطة ، آخر الترجمة التى خصه بها ، وكتبها له ولما يزل حيا وطبقاً لما يصرح به شخصياً ، يجعله يقع فى ١٢ من شعبان ٧٧٠ هـ - ٢٢ من مارس ١٣٦٩ م .

وأحمد بابا التيمكى فى « نيل الابتهاج » ، ومثله أحمد عيسى بك فى معجم الأطباء ، يقولان اعتماداً على الحضرمى كمصدر لهما ، إنه توفى فى ٧ من شعبان ٧٧٠ هـ - ١٧ من مارس ١٣٦٩ م . وهو فى الستين من عمره تقريباً .

(٧) يمكن الرجوع إلى ترجمته فى :

● درة المجال ، ج ١ ص ١٩٤ ، الترجمة رقم ٥١٨ .

● نفع الطيب ، ج ٨ ص ٣٣٦ - ٣٣٧ .

● ابن حجر العسقلانى ، الدرر الكامنة ، حيدر أباد ، ١٩٣١ ، ج ١ ص ٢٠١ ، الترجمة رقم ٤٠٩٥ . وفى هذه الترجمة لا يشير إلى لفظ ابن خاتمة ، وإنما جاءت تحت اسم محمد بن علي بن حامد الأنصاري ، أبو عبد الله المرمي ، ويقول انه ترى على يد أخيه أحمد ، واستطعت فى سهولة أن أعرف شخصيته ، فضلاً عن أن الأشعار المنسوبة إليه هنا هى نفسها الموجودة فى نفع الطيب ، وفى الإحاطة ، مخطوطة الاسكوريال الورقة ٥٤ ، ومخطوطة باريس ، الورقة ٤٧ ب ٤٨ أ .

كيف نوفق بين هذا التاريخ وبين ما يقوله ابن الخطيب ؟ . ومن جانب آخر ، فإن الجزيري في كتابه غاية النهاية يوقعنا في اضطراب كبير عندما يصرح في ترجمته ، رقم ٣٩٥ ، وطبقاً لمعلومات حصل عليها من تلميذ لابن خاتمة نفسه ، يدعى : أبا عبد الله محمد بن ميمون ^(٨) ، أنه توفي في عام ٧٦٨ هـ ، أو ٧٦٩ هـ ، وله من العمر سبعون عاماً تقريباً . وهذا التاريخ يبدو غير ممكن إذا أخذنا في الحسبان قول ابن الخطيب ، أنه كان لا يزال حياً في ١٢ من شعبان عام ٧٧٠ هـ . وفيما يبدو فإن رواية الحضرمي أكثر احتمالاً ، ولو أن اليوم الذي حدده وهو السابع من شعبان لا يبدو محتملاً . وفيما يتصل بعمره ، يرى بعضهم أنه عاش ستين عاماً ، على حين يرتفع بها آخرون إلى سبعين ، ولا يمكن الجزم بأى منهما . ومن تاريخ جمع الديوان ، وهو ٧٣٨ هـ - ١٣٣٧ م ، يمكن القول بأن الأكثر احتمالاً أن ابن خاتمة رحل عن الحياة وهو في حوالى السبعين عاماً من عمره . ويتحدث عنه ابن الخطيب في كتابه الكتيبة الكامنة ، وألفه بعد كتاب الإحاطة ، وقد فارق الحياة ، وخصه بأبيات عرضنا لها فيما سبق ^(٩) .

كما رأينا ، في ضوء الأخبار التي أمدنا بها من ترجموا له ، وبالنظر إلى الموضوعات التي عالجها في مؤلفاته ، كان ابن خاتمة شاعراً وناثراً ومؤرخاً ، ورياضياً وطبيعياً ، وكاتباً ومقرئاً ، وطبقاً لما أورده أحمد عيسى بك ، وأحمد بابا الممبكتي ، وكان له في المدينة مجلس يتوافد عليه عامة الناس ، وكان جميل الوجه ، سخياً مع أصدقائه ، لطيفاً في لقائه .

○ شيوخه :

أورد لنا ابن الخطيب أو في قائمة بشيوخه ، وهم :
أبو الحسن ، علي بن محمد بن أبي العيش ، الأنصارى ، المري ، المتوفى عام

(٨) عن هذا الأديب والمقرئ والمحدث الغرناطي ، والذي توفي في الين عام ٧٩٠ هـ أو ٧٩٣ هـ ، بعد أن رحل وجاهل في تونس ودمشق ومصر ، انظر : غاية النهاية ، ج ٢ ، ص ٢٥٥ .

(٩) ص ٢٣٩ ، الطبعة التي أشرنا إليها فيما سبق .

٧٤٠ هـ - ١٣٣٩ م ، وهو من مرسية ، وأقام في المرية ، عندما سقطت مدينته في يد النصارى . وتولى قضاء المرية ، وكان يشغله قبله أبو جعفر بن فركون القيسى ، من جلة العلماء ، وله مشاركة في علوم الفلسفة^(١٠)

أبو إسحاق ، إبراهيم بن محمد بن علي بن محمد بن عبد الرحمن ، التنوخى ، ويعرف بابن أبي العاصى ، المتوفى ٧٢٦ هـ - ١٣٢٥ م ، أصلاً من جزيرة طريف ، ومن كبار القوم فيها ، رحل عنها عند استيلاء النصارى عليها في عام ٦٧١ هـ - ١٢٧٢ م ، وتحول إلى مدينة سبتة ، وورد الأندلس فاستوطن غرناطة ، وكتب في الجملة عن سلطانها . وتولى الإمامة والخطابة في مسجد الجامع ، عام ٧١٦ هـ - ١٣١٥ م ، وطبقاً لما أورده ابن القاضي بدأ يؤلف كتاباً عن الأسرة النصرية ، ولكنه توقف عن محاولته . وكان تقياً ، زاهداً في الدنيا ، مواسياً الفقراء ، « يتزاحمون عليه في طريقه ، ويتمسحون به ، ويسعون بين يديه ومن خلفه ، ويتزاحم مساكينهم على بابه ، قد عودهم طلاقة وجهه ، ومواساته لهم بقوته ، يفرقه عليهم متى وجدوه ، وربما أعجزوه قبل استواء خبزه ، يفرقه عليهم عجيباً » . وفي عام ٧٢١ هـ - ١٣٢٠ م ، انتقل إلى المرية ، وكان إلى هذا شاعراً ، وأغلب شعره في الحكمة^(١١) .

محمد بن جابر بن محمد بن قاسم بن أحمد بن إبراهيم بن حسن * القيسى ، الوادى آشى ، المتوفى عام ٧٤٩ هـ - ١٣٤٨ م ، تونسى المولد ، وحج إلى مكة ، وجال في البلاد الشرقية ، « ولقى أمة من العلماء والمحدثين ، وأصبح بهم شيخ وحده ، انفساح

(١٠) لمعرفة المزيد عن ابن أبي العيش انظر .

● درة الحجال ، ج ٢ ، الترجمة رقم ١٢٣٤ .

(١١) عن ابن أبي العاصى التنوخى انظر :

● درة الحجال ، ج ١ ، الترجمة رقم ٢٣٢ .

● الاطاعة في أخبار غرناطة ، طبعة عبد الله عنان ، ج ١ ، ص ٣٨٢ - ٣٨٥ .

● غاية النهاية ، ج ١ ، ص ٢٤ ، الترجمة رقم ١٠٠ .

● الكتيبة الكامنة ، ص ٣٢ .

● في الجزء الرابع من الاطاعة ، طبعة عبد الله عنان ، ص ١٦٣ ، حسان بدل حسن .

رواية وعلو إسناد». وكان مقرئاً متمكناً ، أديباً متميزاً ، ورجلاً تقياً ، وحفظ لنا عنه ابن القاضي في كتابه **درة الحجال** بيتاً من الشعر ، كان ابن عساكر الدمشقي يردده ، عندما ودعه وابن خاتمة في ألمرية ، وكان الوداع ، طبقاً لابن خاتمة ، في رابطة بالمرية تسمى « رابطة الوداع » . (١٢)

أبو القاسم ، عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن محمد القيسي ، ويعرف بابن شعيب ، من أسرة عريقة في المرية ، وتولى الخطابة في المسجد الجامع في المرية ، وبها شغل منصب القضاء ، وقبل ذلك كله كان تقياً وزاهداً ، لم يفارق وطنه أبداً ، وكان مستقيماً السلوك دائماً . (١٣)

أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد ، أبو جعفر ، ويعرف بابن فركون ، توفي عام ٧٢٩ هـ - ١٣٢٨ م ، وهو من المرية ، ثم انتقل إلى غرناطة ، وهو من العائلات الشريفة ، ولذلك استحق لقب « القرشي » . وشغل منصب القاضي في رندة ، ومالقة ، والمرية ، وأصبح خطيب المسجد الجامع في غرناطة ، وظل في منصبه هذا إلى أن عزل عنه بسبب الأحداث التي أدت إلى خلع نصر ملك غرناطة عن العرش ، وتولية حفيده إسماعيل الأول (٧١٣ هـ - ١٣١٤ م) مكانه ، وكان وفاؤه للسلطان المخلوع سبباً في إبعاده عن المنصب ، ومنذ هذه اللحظة طواه النسيان . وقد عُرف بالفقه ، وكان شاعراً .

(١٢) عن ابن جابر ، وهو مؤلف كتاب معروف عن رحلته ، انظر :

- بونس يوجيس ، دراسة عن حياة ومؤلفات الجغرافيين والمؤرخين الأندلسيين ، الترجمة رقم ٢٧٩ .
- درة الحجال ، ج ١ ، الترجمة رقم ٥٢٧ .
- نفع الطيب ، طبعة محي الدين ج ٨ ، ص ١٢٥ .
- جياخيوس ، تاريخ المسلمين في الأندلس ، وهو الترجمة الإنجليزية للقسم الأول من نفع الطيب ، ج ٢ ص ٥٣٩ .
- غاية النهاية ، ج ١ ، ص ١٠٦ .
- الدرر الكامنة ، ج ٣ ، ص ٣٦٥ .
- ويقول المسقلاني أنه قام يرحلين ، وطبقاً لابن الخطيب مات ضحية الطاعون ، ويقول آخرون أنه مات شهيداً .
- (١٣) عن ابن شعيب انظر :
- درة الحجال ، ج ٢ ، الترجمة رقم ٩٧٥ ، والجزء ١ الترجمة رقم ٤٩٤ ، وهي خاصة بوالده .

مرتجلاً ، ومحباً للجمل ذات الكناية ، ويستخدم التورية عندما يتحدث إلى أصدقائه (١٤) .

محمد بن محمد بن سهل بن مالك الأزدي ، أبو القاسم ، ويعرف بالوزير ، توفي عام ٧٣٠ هـ - ١٣٢٩ م ، ويعرف بيتهم ببني مالك الوزير ، وهو من غرناطة أصلاً ، ثم رحل إلى المشرق ، وتوفي إثر عودته من الحج ، وكان أديباً ، تقياً وزاهداً ، « لا يقبل من أحد شيئاً ويعطى كل شيء » (١٥)

أبو البركات ، ابن الحاج البلقيني ، توفي عام ٧٧٤ هـ - ١٣٧٢ م ، وكان قاضياً شهيراً ، ومؤرخاً وشاعراً ، وكان وثيق الصلة بابن خاتمة ، وارتبطت حياتهما معا ، ودرست حياته على نحو مفصل في مقال لي نشر بمجلة الأندلس Al-Andalus المجلد الثامن والعشرين ، عام ١٩٦٣ ، الصفحات من ٣٨١ إلى ٤٢٤ .

ويذكر ابن القاضي أيضاً ، محمد بن محمد بن عبد الواحد ، أبو القاسم البلوي ، المتوفى عام ٧٤٧ هـ - ١٣٤٦ م ، كأستاذ لابن خاتمة ، وكان قاضياً لمدينة بيرة Vera ، ثم المرية ، ورحل حاجاً إلى مكة (١٦) .

وأخيراً ، يذكر ابن القاضي نفسه أستاذاً آخر لابن خاتمة ، هو : أبو عثمان ، سعد بن

(١٤) عن ابن فركون انظر :

● الاساطة ، ج ١ ، ص ١٥٩ - ١٦٣ .

● النباهي ، المراقبة العليا ، ص ١٣٨ - ١٣٩ .

● درة الحجال ، ج ١ ، الترجمة ٤٨ .

● نيل الأبتهاج ، ص ٦٤ - ٦٥ .

● اللوحة البدرية ، ص ٥٠ - ٥٨ .

● الكنية الكامنة ، ص ١٠١ .

(١٥) عن ابن سهل انظر :

● درة الحجال ، ج ١ ، الترجمة ٥٢٥ .

● غاية النهاية ، ج ١ ص ٢٤١ .

● الدرر الكامنة ، ج ٤ ، ص ١٧٨ ، الترجمة ٤٨٣ .

(١٦) درة الحجال ، الترجمة رقم ٥١٥ .

أحمد بن ليون التجيبي^(١٧) . وقد خصه المقرئ . في كتابه **نفع الطيب** بصفحات طويلة نقلها نصاً عن ابن الخطيب ، وأورد له عدداً كبيراً من الأبيات والمقطوعات ، في الحكمة ، وخطرات فلسفية ، وتأملات في حوادث زمانه ومصائبه ، نقلها من مؤلفاته التي تتصل بهذه الموضوعات ، وعناوينها :

- ١ - كمال الحفاظ ، وجمال الالفاظ ، في الحكم والوصايا والمواعظ .
- ٢ - نصائح الأحباب ، وصحائح الآداب ، وهو موجز للكتاب السابق .
- ٣ - أنداء الدائم في الوصايا والمواعظ والحكم .

هذه الأشعار ، وترجم بعضها إلى الإسبانية من قريب إميليو غرسية غومث (الأندلس ، المجلد ٢٧ ، ١٩٧٢ ، ص ١ - ٧٥) ، تعكس شبيهاً قوياً فيما يتصل بموضوعات وأسلوب القسم الرابع من ديوان ابن خاتمة . ومن جانب آخر ، نقرأ في السطور الأخيرة من الترجمة التي أوقفها المقرئ على ابن ليون ، أنه : أوقف مدائمه على الرسول فحسب . وهي نفس حال ابن خاتمة في القسم الأول من ديوانه ، وعنوانه « في المدح والثناء » ، وهو يضم قصائد في ذكر الله وشكره ، والثناء على نبيه فحسب . وكلا الأديبين من المرية ، وعاشا في عصر واحد ، وينهلان في أسلوبهما من نفس المعين ، ويمكن أن نضعهما بين مجموعة من الشعراء والكتاب أعطوا هذه المرحلة الأخيرة من حياة الأدب الإسباني طابعه الأدبي المميز .

وكان لابن خاتمة جلساء وصدقات عديدة بين الشخصيات العاملة في بلاط غرناطة ، أو على صلة به ، وفضلاً عن ابن الخطيب ، وأشرنا إلى شواهد صداقته ومظاهرها ، وعن

(١٧) عن ابن ليون انظر :

- نفع الطيب ، ج ٨ ، ٥٨ - ١١٤ .
- درة الحجال ، ج ١ ، الترجمة ٣٥٢ .
- وقد ألف ابن ليون كتاباً عن الفلاحة ، ترجمته الآنسة خواكينيا ايجوارس إلى الأسبانية وكان موضوعها للذكورة ، وابن ليون شخصية هامة بين أدياء مملكة غرناطة . وانظر عنه أيضاً :
- الكنية الكاسية ، ص ٨٦ - ٨٧ .
- نيل الابتهاج ، ص ١٢٣ - ١٢٤ .
- ترجمته في مقال غرسية غومث المشار إليه ، في مجلة الأنلس ، المجلد ٣٧ ، عام ١٩٧٢ .

أبي البركات ابن الحاج ، وعلى الترجمة له أوقفت مقالا كاملا ، وعنه أخذت الجانب الأكبر من الروايات المتعلقة بهما ، في لحظات كثيرة من حياتيهما ، فضلا عن هذين نذكر :

أبا عبد الله محمد بن جُزَي الكلبى^(١٨) ، من أشهر أبناء أسرة بنى جُزَي العريقة ، فهو ابن أبي القاسم محمد ، الشاعر الذى وقف قصائده على مدح السلطان أبي الحجاج يوسف ، وقد استشهد الوالد فى الواقعة الكبرى بطريف ، والتي تعرف فى المصادر الإسبانية باسم معركة « سلاو » ، عام ٧٤١ هـ - ١٣٤٠ م .^(١٩)

أبو عبد الله محمد بن جُزَي ، غرناطى ، وشاعر البلاط فى غرناطة أولا ، ثم شاعر السلطان المرينى أبي عنان فى فاس من بعد ، وقد توفى فى هذه المدينة عام ٧٥٨ هـ - ١٣٥٧ م ، وكان هو الذى حرّر رحلة ابن بطوطة ، سنة ٧٥٦ هـ = ١٣٥٦ م ، أى قبل عامين من وفاته . وليس هنا المكان المناسب لكى نفصل القول فى محمد بن جزى

(١٨) انظر ترجمته فى :

- نفع الطيب ، ج ٨ ، ص ٤٠ - ٥٤ .
- أزهار الرياض ، ج ٢ ، ص ١٨٩ - ٢٠٤ .
- درة الحجال ، الترجمة رقم ٧١٥ .
- الكنية الكامنة ، ص ٢٢٣ - ٢٢٨ .
- نثر فرائد الجبان ، ص ٢٩٢ - ٣٠٦ .
- نيل الابتهاج ، ص ١٠٥ .
- بروكلان ، تاريخ الأدب العربى ، ص ٢٣٣ .
- بونس بيوجيسى ، دراسة ، الترجمة رقم ٢٨٤ .
- (١٩) درة الحجال ، الترجمة ٥٥٣ .
- نفع الطيب ، ج ٨ ص ٢٨ .
- أزهار الرياض ، ج ٢ ، ص ١٨٤ .
- الكنية الكامنة ، ص ٤٦ - ٤٨ .
- الدياج ، ص ٢٩٥ .
- نيل الابتهاج ، ص ٢٣٥ .
- الإحاطة ، مخطوطة باريس ، الورقة ٦١ ب و ٦٢ أ .

وأخباره ، وهو شخصية بالغة الأهمية ، وقد لعب مع أخويه عبد الله ^(٢٠) وأحمد ^(٢١) دوراً باهرًا في الحياة الأدبية في مملكة غرناطة .

وقد أشار المقرئ ^(٢٢) إلى الصداقة التي ربطته مع ابن خاتمة ، وأورد لنا رسالة وجهها هذا إلى ابن جزى ، تغلب عليها الصناعة اللفظية ، وتتراحم فيها الجمل ذات التورية ، وتستخدم أسلوبًا طالما استخدمه الأدباء العرب في كل العصور ، ولكنه وجد بين أدباء هذا العصر إقبالاً حميمًا . ويقول المقرئ ، إنه رد بها على قصيدة زائفة كان ابن جزى قد بعث بها إليه ، ردًا على قصيدة تلقاها منه ، جاءت في قافية الراء ، وقد حرص ابن جزى على أن تحيى قصيدته خالية من حرف الراء تمامًا ، لأنه لم يكن يستطيع أن ينطقها صحيحة ، وكان يبذلها غيتًا . وثمة قصيدة أخرى توجه بها ابن جزى إلى السلطان أبي الحجاج يوسف ^(٢٣) ، وتؤكد حكاية حرف الراء هذه ، لأن الشاعر استطاع أن يتجنب فيها ، وجاءت في أربعة وثلاثين بيتًا ، استخدام أية كلمة تحيى الراء بين حروفها . ومن جانب آخر ، فإن ابن الأحمر ^(٢٤) ، وخص ابن جزى بترجمة مطولة ، أورد لنا رسالة كتبها هذا إلى لسان الدين بن الخطيب ، وليس فيها كلمة واحدة تحيى السين بين حروفها . فالأمر كما نرى ، ليس مجرد إبعاد حرف معين لا يستطيع الكاتب نطقه صحيحًا ، وإنما استجابة لذوق خاص ، مغرم بمثل هذه الغرائب ، والتي نجد لها شبيهًا أيضًا بين كثير من الأدباء الإسبان . ولنتذكر مثلاً أن كاستيو سلورثانو C. Solorzano

(٢٠) نفع الطيب ، ج ٨ ، ص ٥٤ .

● الكتيبة الكامنة ، ص ٩٦ - ٩٩ .

● نيل الابتهاج ، ص ١٢٩ .

(٢١) نفع الطيب ، ج ٨ ، ص ١٣١ .

● أزهار الرياض ، ج ٢ ، ص ١٨٧ .

● درة الحجال ، الترجمة ٨ .

● الاحاطة ، ج ١ ، ص ١٦٣ - ١٦٨ .

● الكتيبة الكامنة ، ص ١٣٨ - ١٤٣ .

(٢٢) نفع الطيب ، ج ٨ ، ص ١٤٤ .

(٢٣) نفع الطيب ، ج ٨ ، ص ٤٢ - ٤٣ .

(٢٤) نثر فراند الجان ، ص ٣٠٣ - ٣٠٦ .

ألغى حرف R في روايته «مزرعة لور» La quinta de Laura ، وأن نبريت ريبيرا Novarrete Ribera يستخدم حرف a في روايته الحسان الثلاثة Los tres hermanas ومثله صنع ثريتا دي أرو Zurita de Haro في روايته «فضائل تصنع الجوائز Méritos disponen premios ، وكان روبين داريو Rubén Darío مولعاً للغاية بتلاعب الألفاظ هذا ، وأن خردبيل بونشلا Jardiel Poncela برّر حب هذا الأسلوب المتكلف قائلاً : «كما يحدث في التطريز على الخيش ، حين تتزع بعض الزهور الحمراء أو الزرقاء ، وتصنع مكانها أخرى» ، وعن هذا العمل المسلى يقول كاتبنا نفسه : (حين تكتب قصة عادية ، ثم تحولها إلى قصة أخرى لا تضم حروف aes أو ies تكون كمن يستجيب لشعار التشجيع عند فنان السيرك : مزيداً من الصعوبة !) .

هذا الأسلوب المتكلف ، كان اللعبة المفضلة ، فيما يبدو ، عند الأدباء الأندلسيين في القرن الرابع عشر الميلادي ، ولم يستطيع ابن خاتمة أن ينجو من تأثير هذه البيئة ، وفي الفصل الثالث من ديوانه يمكن أن نجد شواهد عديدة على هذا الأسلوب الأدبي (٢٤) .

ونذكر بين أصدقاء ابن خاتمة أيضاً : أبو القاسم عبد الله بن رضوان ، المتوفى ٧٨٠ هـ - ١٣٧٨ م ، وهو عالم مالقي ، وشخصيته متميزة في بلاط بني مرين ، وإليه أهدى ابن خاتمة ديوانه (٢٥) .

أما فيما يتصل بتلاميذه ، فلا نعرف منهم غير أسماء ثلاثة فحسب : أخوه محمد ، وأشرنا إليه من قبل ، وأبو عبد الله محمد بن ميمون (٢٦) ، وأبو جعفر أحمد بن زرقالة (٢٧) .

(٢٤) مثل هذه العرائب الأدبية ليست وفقاً على عصور الانحطاط ، والشاعر القرطبي العظيم ابن شهيد ، المتوفى ٤٢٦ هـ - ١٠٣٥ م . نظم أربعين بيتاً على البديهة . ليس فيها حرف يعجم أولها . (الحميدى - جذوة المقنّبس . ص ٢٥٩ ، الترجمة رقم ٦١٣) .

(٢٥) عن ابن رضوان انظر فيما بعد . ص ١٢٤ الهامش رقم ٤٥ من هذا الكتاب .

(٢٦) انظر ص ١٠١ الهامش رقم ٨ من هذا الكتاب .

(٢٧) لم أستطع تحديد هوية تلميذ ابن خاتمة هذا . وهو الذي جمع مختارات توريانه في كتاب وصلنا بعنوان : «كتاب =

ولم أستطع أن أجد أخباراً تتصل بسلفه ، فليس لوالده ترجمة ، ولا لأجداده ، وقد استرعى انتباهي إشارة ربما تتصل بأسرته ، في مقال نشره خووسيه مارية كوسيو Jose M. Cossio في مجلة الأندلس ، المجلد السابع ، ١٩٤٢ ، الصفحات ٥٠ - ١١٢^(٢٨) ، وعنوانه : « الأسرى المسلمون ، في القرن الثالث عشر » ، فقد وجدت في هذا المقال اسم من يدعى ابن خاتمة من المرية .

تقول المخطوطة ، عندما يَينَتُ كيف حصل مسلم من المرية على كل من بنيتو Benito ودومينجو Domingo :

« قبل أعياد الميلاد بثمانية أيام ، عام ١٣٢١ ، خرج من مرسية ، هو وميجيل ، ذهبا للصيد في البحر ، ومعهما حصانان ، وهما ذاهبان إلى وادي رولاق Rolac التقيا مع يوسف مقدم بيرة al mocadén de Vera ، وعرض لهم فرسان ورجالة من المسلمين ، فأسروا هذين المسيحيين ، وحملوهما إلى بيرة ، وباعوا بنيتو بأربعة دابل doble وربع ، وميجيل بأربعة دابل ، وحملوهما إلى المرية ، وباعوا بنيتو إلى مسلم آخر ، يسمى ابن خاتمة بأربعة دابل ونصف ، وهذا باعه إلى « أبو الحزم بخمسة دابل . . » . وفي ضوء تاريخ الوثيقة من الممكن أن نقول إننا بصدد والد ابن خاتمة صاحبنا .

○ البيئة السياسية والثقافية :

كما رأينا جرت حياة ابن خاتمة بين أعوام ٧٠٠ هـ = ١٣٠٠ م و ٧٧٠ هـ =

= رائق التحلية ، في فائق التورية . وعن الشخصيات التي تحمل اسم ابن زرقالة ، أنظر مقال : مجموعة من التوريات لأبي جعفر أحمد ابن خاتمة في : « دراسات مستشرقية ، مهداة إلى ذكرى ليني بروفنسال ، باريس ١٩٦٢ ، ص ٥٤٦ . (٢٨) وهو يدرس كتاب ف . ميا ستان دي برجارة وعنوانه :

Miraculos romanceados de Como sacô Sto. Domingo Los cativos de la Catividad et fizolos escribir Pero Martin monje del monasterio, P. 2.

الدوبل عملة ذهبية كانت سائدة خلال مملكة غرناطة ، في الجانبين الإسلامي والمسيحي من الأندلس ، وتساوى الجنيه الذهبي في عصرنا تقريبا .
المترجم

١٣٩٦ م ، أولإن شئت شغلت قمة القرن الثامن الهجرى ، الرابع عشر الميلادى . وكانت الأحداث السياسية فى هذه الفترة من أشد أحداث المملكة النصرىة اضطراباً ، وكان المناخ فى غرناطة شديد الشبه جداً بما كان عليه فى قشتالة نفسها (٢٩) .

وإذا ألقينا نظرة عجلة على تاريخ هذه الفترة وجدنا فيها : مملكة محمد الثالث وسياستا الاستعمارية ، وتدخل المرينيين ، ثم حكومة نصر (١٣٠٩ - ١٣١٤ م) ، واحتلاله مدينة سبتة ، حصار فرناندو الرابع فى أيامه مدينة الجزيرة الخضراء ، واستيلاءه على جبل طارق ، وفى هذه الأيام أيضاً حاصر خاتمة الثانى مدينة ألمرية ، وهو حادث لا بد أن شاعرنا عرفه ولما يزل صبيّاً . وحكومة إسماعيل الأول (١٣١٤ - ١٣٢٥) ، والتدخل فى سياسة الأميرين خوان وبدور الوصى على ألفونسو الحادى عشر . وعصر محمد الرابع (١٣٢٥ - ١٣٣٣ م) ، والذى اغتيل بعد أن احتلت قوات ألفونسو الحادى عشر جبل طارق ، والأحداث الهامة التى وقعت فى سنوات أبى الحجاج يوسف (١٣٣٣ - ١٣٥٤ م) ، ومحمد الخامس (١٣٥٤ - ١٣٩١ م) ، وأدرك ابن خاتمة سنوات ملكه فى قمة نضجها . إنه العصر الذى حدثت فيه وقعة طريف ، أو معركة سلاو كما تسميها المصادر الإسبانية ، وحصار جبل طارق ، وشهد موت ألفونسو الحادى عشر ضحية وباء الطاعون الذى وصفه لنا ابن خاتمة فى رسالة من أشهر مؤلفاته . وشهد ألواناً من النضال ومن الاضطرابات ومن الرذائل فاض بها عصر محمد الخامس ، وقد عزله عن العرش أخواه إسماعيل ومحمد البرميخو (١٣٥٩ - ١٣٦٢ م) ، ونفى محمد الخامس إلى المغرب ، ثم عودته مع وزيره لسان الدين ابن الخطيب . كان عصر كفاح ومناخاً فياضاً بالانفعال . وفيه ارتفعت الحمراء ، وبني بدور القاسى قصره Alcàzar فى إشبيلية ، وبدأ الأدب الأندلسى على الرغم من توهج أشكاله اللامعة ، المطرزة بألوان البلاغة الفخيمة ، يأخذ طريقه نحو الانحدار والسقوط فى وضوح ، وولد الأدب القشتالى ، وكات متأثراً

(٢٩) للمزيد عن مملكة غرناطة انظر الدراسة الممتازة التى قامت بها راشيل أرييه : أسبانيا الإسلامية فى عصر بنى نصر (١٢٣٢ -

١٤٩٢) ، باريس ١٩٧٣ . ولدراسة عصر محمد الخامس انظر : مملكة غرناطة فى عصر محمد الخامس ، لأحمد مختار العبادى ، مدريد ١٩٧٣ .

بالأدب العربي على نحو قوى عميق ، ولدنيا من أعلامه : كاهن هيتا ، وبيرو لوبث دى
أيالة ، ودون خوان منويل ، وسام توب دى كاريون* .

أين نضع ابن خاتمة في هذا المناخ السياسى والثقافى ؟ نحن نعرف عن طريق ابن
الخطيب أنه كان يتردد على البلاط الغرناطى ، وكان ينظر إليه في عاصمة بنى نصر على أنه
من خيرة الأدباء الذين ازدهروا في الأندلس ، ومع ذلك لا نراه أبداً يأخذ بأدنى حظ من
السياسة العكرة في تلك الأيام ، وليس لدينا أية معلومات تجعلنا نشك في أن طموحاً
ماكان يحركه أو وراء خطاه . ولكن ذلك لا يعنى أبداً أنه كان يعيش على هامش
الأحداث . ولقد احتفظ لنا كل من ابن الخطيب والمقرئ^(٣٠) بالرسائل التي كان يتبادلها
ابن خاتمة والأول منها . وهذه الرسائل يمكن أن تعد نموذجاً للبلاغة المتكلفة التي كان
يستخدمها الأدباء على أيامه ، في هذا العصر ، وكان ابن خاتمة أحد أعلامه ، وفيها نجىء
الأفكار والمعاني ضائعة في طوفان من ثراء اللغة ، وفيضان الصور ، وجموح الخيال .
ونعرف من الذين ترجموا لحياته أنه تولى منصب مقرئ في جامع المرية ، وأنه كان
كاتباً ، ويبدو أنه لم يشغل هذا المنصب الأخير لزم طويل ، وأورد لنا المقرئ آياتاً تتصل
باعتراله له ، يقول : « ومن نظمه وقد تحلى عن الكتابة ، وطلب إليه أن يعود فأبى
وأنشد :

تقصى في الكتابة لى زمان كشان العبد ينتظر الكتابة

* لمعرفة كاهن هيتا انظر : د . الطاهر أحمد مكي ، دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة ، الطبعة الثانية ، ص ٣٤٧ وما بعدها ، مكتبة وهبة ، القاهرة ١٩٧٧ .

بيرو (أو بدرو) لوبث دى إيالة (١٣٣٢ - ١٤٠٧ م) رجل دولة ، وأديب أسباني ، وله كتاب « تاريخ قصر

..

Rimado de Palacio

خوان منويل (١٢٨٢ - ١٣٤٨ م) ، حفيد الملك ألفونسو العاشر ، الملقب بالعالم ، وكان سياسياً وكاتباً ، ومن أشهر مؤلفاته
« الكوندى لوكارنو » ، وهو مجموعة من الحكايات ، متأثرة بالأدب العربي في جانب منها ، وترجمة حرة لنصوص عربية في جانب
آخر .

سام توب ، يهودى ، كان رباناً ليهود كاريون ، وعاش في حاية بدرو الأول ملك فشتالة ، وألف : « أمثال خلقية » ، أو نصائح
ومواعظ للملك بدرو ، وهي في جملتها مقتبسة من العربية .

(٣٠) الإحاطة ، ج ١ ، ص ٢٤٩ - ٢٥٢ ، ٢٦١ - ٢٦٨ . ونفع الطيب ، ج ٨ ، ص ١٤٥ - ١٤٨ .

فإن الله من عتق بما لا يطيق الشكر أن يملا كتابه
وقالوا: هل تعود فقلت: كلاً وهل حرّ يعود إلى الكتابه^(٣١)
كما يمكن أن نرى ، يبدو أن ابن خاتمة لم تكن لديه أية رغبة في أن ينضم أو يشغل أية
وظيفة ، وتعكس قصائده النبوة نفسها ، فلا يطل من بينها ملق ولا مديح أبداً ، والهدف
الجوهري منها دائماً الحصول على العطاء ، أو الوصول إلى مكان مرموق .
والأخبار القليلة المتصلة بأحداث حياته ، تجيء ملفوفة في فيض جارف وقطيع من
الصور البلاغية المعقدة .

وعندما تمضى مع ابن الخطيب بعد الحديث عن شيوخ ابن خاتمة ، نجد بعض
الأشعار ورسالة كتبها هذا ، بعد زيارة حاشية السلطان للمرية ، وكان ابن الخطيب يرافق
السلطان ، وعبر شاعر المرية عن بهجته بلفائه^(٣٢) . وتحمل الرسالة تاريخ ١٠ من ربيع
الأول ٧٤٨ هـ = ٢٠ من يونية ١٣٤٧ م ، وأورد ابن الخطيب بعدها طائفة من أشعار
ابن خاتمة ، تبلغ في مجموعها إحدى عشرة بين قصيدة ومقطوعة ، وبعضها لا يوجد في
الديوان .

ويشير ابن الخطيب بعدها كيف أن ابن خاتمة عقب انصرافه من غرناطة ، في بعض
قدماته عليها ، حضر مجلساً في دار ابن الخطيب ، وكتب إليه ببعض الأشعار التي نظمها
بعض من حضر المجلس . ولم يقل من هو هذا الشخص ، وقد يكون ابن خاتمة نفسه ،
وفي هذه الأبيات يصف قصر ابن الخطيب في « عين الدمع » من غرناطة^(٣٣) . وفي المكان

(٣١) الأبيات من بحر الوافر . ومثل هذه الأبيات نجدها لأستاذ أبي البركات البلقيني ، وترجمتها إلى الأسبانية ، انظر : مجلة
الأندلس ، المجلد ٢٨ ، عام ١٩٦٣ ، ص ٣٩٧ .

وهذه الأبيات تتضمن تورية ، ويمكن أن تفهم على معنيين الكتابة ، وهي الوظيفة الإدارية المعروفة ، أو الاتفاق على أن يسترد
حريته من كان رقيقاً مقابل شيء . ومن ثم فإن البيت الأخير يمكن أن يترجم في الأسبانية على ضربين ، يأخذ في كل مرة منها أحد
المعنيين دون الآخر .

(٣٢) الاحاطة ج ١ ص ٢٦٠ ، نفع الطيب ، ج ٨ ص ١٤٧ .

(٣٣) عن رحلة ابن الخطيب إلى المرية رقة السلطان أبي الحجاج يوسف ، الذي خرج من غرناطة في ١٧ من محرم عام
٧٤٨ هـ = ١٣٤٨ م ، انظر : مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس ، نشرها أحمد مختار العبادي ،
الاسكندرية ١٩٥٨ ، ص ٢٧ - ٣٥ .

نفسه ، ومازلنا مع رواية لسان الدين بن الخطيب ، دُعِيَ إلى وليمة مع جماعة من الأصدقاء ، وكان من بينهم شيخه أبو البركات ابن الحاج البليقي ، الذي اعتذر عن الأكل بأنه صائم ، قد بيته من الليل ، وحيث حضرت ابن خاتمة هذه الأبيات :
 دعونا الخطيبَ أبا البركاتِ لأكل طعام الوزير الأجلِ
 وقد ضمنا في نداء جنانُ به احتفل الحسنُ حتى كملُ
 فأعرض عتّا لعذر الصيامِ وما كل عذرٍ له مستقل
 فإن الجنانَ محلُّ الجزاءِ وليس الجنانُ محلُّ العملِ

وعندما فرغوا من الطعام أنشد الأبيات شيخه ، فقال له أبو البركات : « لو أنشدتنيها ، وأنتم بعد لم تفرغوا منه ، لأكلت معكم برا بهذه الأبيات ، والحوالة في ذلك على الله تعالى » (٣٤) .

وفي نهاية القسم المتعلق بترجمة حياته أورد لنا ابن الخطيب رسالتين :
 إحداهما توجه بها ابن خاتمة إلى ابن الخطيب نفسه والأخرى ردّ من هذا عليها .
 وطبقاً لما يقوله ابن الخطيب نفسه ، كتبها ابن خاتمة بمناسبة عزم ابن الخطيب على الخروج من الأندلس متوجّهاً إلى الحج .

وهي رسالة طويلة متكلفة ، طافحة بالاستعارات والتوريات ، وفيها يحاول ابن خاتمة أن يثنى ابن الخطيب عن إصراره في الانقباض عن الخدمة ، والتهيه على السلطان والدولة .
 ويبدو واضحاً فيما نلاحظ هنا ، قلة غرام ابن خاتمة بالرحلات ، وسجل في بعض

●= والواقع أن الأبيات لابن خاتمة نفسه ، وإذا لم يتضمنها الديوان الأصلي فهي موجودة في المصادر الأخرى ، وجاءت الأبيات ضمن رسالة توجه بها ابن خاتمة إلى لسان الدين بن الخطيب ، ومطلع الأبيات :

أقول « وعين الدمع » نصب عيوننا ولاح لبستان الوزارة جانب

وهي مقطوعة في سبعة أبيات ، انظر :

● نفع الطيب ، ج ٦ ص ٣٦ - ٣٨ ، طبعة محي الدين .

● الكنية الكاسنة ، ص ٢٤٤ طبعة احسان عباس .

● نيل الابتهاج ، ص ٧٢ - ٧٣ .

الترجم

(٣٤) الاحاطة ، ص ٢٦٠ - نفع الطيب ، ج ٨ ص ١٤٨ - رائق التحلية ، الورقة ١٤ أ .

المناسبات كراهيته للبعد عن وطنه « وما فارق ذوو الأحلام ، وأولو الأرحام ، مواطن
استقرارهم ، وأماكن قرارهم ، إلا برغمهم واضطرارهم » .

ونذكر أنه حاول أن يصرف شيخه أبا البركات عن رحلة له إلى المشرق^(٣٥) ،
ولا نعرف عنه أنه غادر الأندلس أبداً ، وعندما ترك صديقه ابن الخطيب الأندلس إلى
المغرب كتب إليه أن يعود إلى وطنه ، وبين هذا الأسلوب من البلاغة المتكلفة الغالية
الثقيلة ، التي تملأ كل الرسالة ، تلمع بعض جمل معبرة ، يحاول بها أن يقنع صديقه :

« إنكم بهذه الجزيرة شمس أفقها ، وتاج مفرقها ، وواسطة سلكها ، وطرار ملكها ،
وقلادة نحرها ، وفريدة دهرها ، وعقد جيدها المنصوص ، وتمام زينتها على العموم
والخصوص ، ثم أنتم مدار أفلاكها ، ومر سياسة أملاكها ، وترجمان بيانها ، ولسان
إحسانها ، أوطب مارستانها ، والذي عليه عقد إدارتها ، وبه قوام إمارتها ، فلديه يحل
المشكل ، وإليه يُلجأ في الأمر المفصل . . . » .

وبعد عدة جمل شجعه فيها على العودة ، بنفس الأسلوب المتكلف أيضاً ، أثنى على
الأندلس ، ومع أن ثناءه جاء موجزاً ، يمكن أن يضاف إلى النصوص التي تمثل « قومية
شعراء الأندلس » ، يقول :

« ومتى توازن الأندلس بالمغرب ، أو يعوض عنها إلا بمكة أو يثرب ؟ . ما تحت أديمها
أشلاء أولياء وعباد ، وما فوقه مرابط جهاد ، ومعاقد ألوية في سبيل الله ، ومضارب
أوتاد ، ثم ييؤ ولده مبواً أجداً ، ويجمع له بين طارفه وتلاذه ، أعيد أنظاركم المسددة
من رأى قائل ، وسعى طويل لم يحل منه بطائل ، فحسبكم من هذا الإياب السعيد ،
والعود الحميد » .

ويبدو ابن الخطيب في رده ، وقد خاب أمله في العالم ، وأسلوبه في رسالته يطابق
الأسلوب الذي استخدمه ابن خاتمة تماماً ، واستلها بهذين البيتين من الشعر :

لَمْ فِي الطوى العذرى أو لا تَلَمْ فَالْعَدْلُ لا يَدْخُلُ أَسْماعِي

(٣٥) نفع الطيب ، ج ٧ ص ٤٠٢ ، رائق النخبة ، الورقة ٦ ب .

شأنك تعينني وشأني الهوى كلُّ امرئٍ في شأنه ساعى^(٣٦)
 أما فيما يتصل بدعوته كى يعود إلى الأندلس ، فلم يقتنع بها فيما يبدو ، يقول له :
 « وأما تفضيله هذا الوطن على غيره ، لئمن طيره ، وعموم خيره ، وبركة جهاده ،
 وعمران رياه ووهاده ، بأشلاء عبّاده وزهّاده ، حتى لا يفضلّه أحد إلا الحرمين ، فحق
 برئ من المين ، لكن للحرمين جنحت ، وفي جو الشوق إليهما سرحت » .

والمعلومات المتصلة بترجمته ، والتي توجد في كتابه رائق التحلية في فائق التورية
 محدودة ، وقليلة الأهمية ، ومع ذلك أوردتها فيما يلي ، حسب مجيئها في مخطوطي
 الإسكوريال وباريس :

في الورقة ٣ ب و ٤ أ من مخطوطة الإسكوريال ، و ٩ من مخطوطة باريس خبر امرأة
 دخلت الحمام بدون مئزر ، فأمر القاضي أبو البركات البلقى بثقيفها ، فكتب إليه ابن
 خاتمة شافعاً* .

في الورقة ٤ أ من مخطوطة الإسكوريال ، ١٠ أ من مخطوطة باريس ، توجد أبيات
 من الشعر أشرنا إليها فيما سبق ، توجه بها إلى أبي البركات البلقى حين اعتذر عن الأكل
 معهم ، في روضة لسان الدين بن الخطيب ، ويزيد ابن خاتمة هنا ، أنها كانت بمناسبة
 إعدار الأمراء ، وأن ثلاثة من الأشخاص تجمعوا هناك : القاضي أبو البركات البلقى ،
 وأبو جعفر بن عبد الحق الملقى ، وابن خاتمة نفسه . وربما كان لهذا الخبر صلة بما أوردته لنا
 ابن الخطيب في كتابه الإحاطة^(٣٧) ، عندما يقول : « دخل غرناطة غير ما مرة ، منها في

(٣٦) الإحاطة ، ج ١ ، ص ٢٦٣ .

• من طريف الأمر أنني قرأت الخبر ومعه الأبيات التالية ، وهي عذبة ورقيقة ، على الصفحة الأولى من مخطوطة « إيراد الآل من
 انشاد الضوال ، وإرشاد السؤل ، لابن خاتمة ، أثناء اختلافي إلى خزنة القصر الملكي في الرباط ، صيف عام ١٩٧٣ ، أعجبت
 الناسخ ، أو مالك المخطوطة لأدرى ، ونخشي نسيانها فسجلها ، والأبيات هي :

يا فاضلياً أصبح ذا سيرة بكل عدل في الورى سارية
 منحك في جارية ثقفت ليث على حكم الهدى جارية
 وأعجب لا جاء به وقتنا مؤتسر يشفع في عاريه
 والأبيات ليست في الديوان الذي نشره د. رضوان الداية .

(٣٧) ج ١ ص ٢٥٢ .

(الترجم)

استدعاء شمال الخواص من أهل الأقطار الأندلسية ، عند إعداد الأمراء في الدولة اليوسفية » ، أى أبناء السلطان أبى الحجاج يوسف ، في شهر شعبان من عام ٧٥١ - أكتوبر ١٣٥٠ م .

في الورقة ٤ أ من مخطوطة الإسكوريال ، ٩٠ ب من مخطوطة باريس ، يقول ابن خاتمة : أمضينا ليلة في غرناطة ، في دار الشريف النليل القاضي ، وعاء الحكمة ، وخطيب العاصمة ، وقدوة الخاصة ، ابن القاسم محمد الحسنى^(٣٨) مع أبى البركات البلفيقي ، والقاضي أبى إسحاق بن شعيب^(٣٩) .

في الورقة ٤ ب من مخطوطة الإسكوريال ، و ١١ من مخطوطة باريس ، خبر عن طلب أبى القاسم بن رضوان من ابن خاتمة ديوان أشعاره .

في الورقة ٦ ب من مخطوطة الإسكوريال ، ١١ أ من مخطوطة باريس ، قصيدة توجه بها إلى القائد أبى عبد الله بن شعيب ، حين كان عاملا على قصبة ألمرية ، بمناسبة نزوله في بيت الفقيه الوزير ، والأديب اللوذعى أبى عبد الله بن جُزى .

في الورقة ٦ ب من مخطوطة الإسكوريال ، ١٢ ب من مخطوطة باريس ، أبيات من الشعر ، حاول فيها ابن خاتمة أن يثنى أبا البركات البلفيقي عن رحلة عزم عليها إلى المشرق ، وكان ذلك في جمادى الثانية ٧٣٩ هـ = ١٣٣٨ م وقد غرقت السفينة التي خلفها أبو البركات دون رحلته ، ليلة إقلاعها من مرسى ألمرية .

في الورقة ٧ ب من مخطوطة الإسكوريال ، ١٣ أ من مخطوطة باريس ، بيتان من الشعر ، تضمنتا تورية ، يمكن أن تفهم على أنها إشارة إلى يوسف سلطان غرناطة . أما الأخبار المتصلة بشهرة ابن خاتمة العريضة خارج الأندلس ، فلدينا منها رواية ابن فضل الله العمري ، في كتابه مسالك الأبصار في ممالك الأمصار^(٤٠) وهو خبر نقلناه عن مقال للأستاذ كولان Colin بعنوان « بعض شعراء العرب في الغرب خلال القرن

(٣٨) عن أبى القاسم محمد الحسنى ، أستاذ ابن زرك ، انظر : أزهار الرياض ، ص ٩ - ١٢ .

(٣٩) عن ابن شعيب ، انظر : ص ١١٠ ، الخامس رقم ١٣ .

(٤٠) مخطوطة باريس ، المجلد ١٧ ، الورقة ٢١٠ أ .

الرابع عشر الميلادى» ، فى مجلة هيسبيريس ، ١٩٣١ ، ص ٢٤١ . بقول : أنشد أبو عبد الله شهاب الدين ، أحمد بن فضل الله العقيلى الجبورى ، قصيدة لابن خاتمة فى القاهرة ، على ابن فضل الله العمرى ، عام ٧٤٠ هـ - ١٣٣٩ م ، وقال له إن الشاعر لما يزل حياً ، غير أن العمر تقدم به ، ومع ذلك ، يمكن القول أن سن ابن خاتمة فى هذا التاريخ لم تكن تقدمت كثيراً ، لأنه كما رأينا ، توفى عام ٧٧٠ هـ - ١٣٦٩ م ، فى السبعين من عمره تقريباً .

مؤلفات ابن خاتمة

تميز أديب ألمرية الشهير بين معاصريه ، الذين احتراموه وأعجبوا به ، وترك لنا مؤلفات هامة ، تشى بمعارف متعددة الجوانب ، وتومئى إلى مستواه الأدبى واللغوى والعلمى ، وسوف نعرض لهذه المؤلفات فيما يلى :

○ المؤلفات التاريخية :

١ - **تحصيل غرض القاصد فى تفصيل المرض الوافد** ، ويحتوى هذا الكتاب يمتد إلى حقلى التاريخ والطب ، وفيه يدرس ابن خاتمة العدوى وأسبابها بعامة ومرض الطاعون الأسود الشهير ، الذى اجتاحت مدينة ألمرية عامى ٧٤٩ و ٧٥٠ هـ = ١٣٤٨ و ١٣٤٩ م بخاصة ، حيث تسبب فى موت أعداد مريضة من السكان . وفضلا عن قيمة الكتاب من الوجهة الطبية ، له أهمية بالغة فيما يتصل بالمعلومات التى يقدمها عن مسقط رأس المؤلف . ولدينا مخطوطتان ، واحدة فى مكتبة دير الإسكوريال ، ورقها فى فهرس ديرنبورج ١٧٨٥ ، والثانية فى المكتبة الإمبراطورية فى برلين . تحت رقم ٦٣٦٩ .

وقد قام الأستاذ المصرى طه دنانة بترجمته إلى اللغة الألمانية فى مجلة Arch. fur. Gesh. de Med. المجلد ٢٠ . عام ١٩٢٦ . ص ٢٧ - ٨١ . وعن النص الألمانى قام الصيدلى خوسيه فرنانديث مرتينيث . من مدينة ألمرية . بترجمة الجانب الطبى

منه ، في مجلة « الحاضر الطبي Actualidad Medica » ، التي تصدر في غرناطة العدد رقم ٤٠٣ ، الصفحات ٤٤٩ - ٥١٢ ، والعدد رقم ٤٠٤ ، الصفحات ٥٦٦ - ٥٨٨ ، عام ١٩٥٨ .

٢ - مزية ألمرية على غيرها من البلاد الأندلسية . وهو مؤلف مفقود لسوء الحظ ، وكان مصدراً تاريخياً هاماً ، اغتنمه كل من ابن الخطيب ، وابن القاضي ، والمقرى ، الذى يقول عنه إنه : « مجلد ضخم ، تركته من جملة كتبى بالمغرب » ، والعتور عليه مهم للغاية . فرمما قدم لنا معلومات عما كانت عليه الحياة في مدينة ألمرية في الأعوام الأخيرة من الحكم الإسلامى .

○ المؤلفات الأدبية :

١ - الديوان ، وترجمته الإسبانية بين يدي القارئ ، ومخطوطته في الإسكوريال تحمل رقم ٣٨١ في فهرسة ديرنبورج ، وله مخطوطة أخرى في الرباط ، في الخزنة العامة تحمل رقم ٢٦٩ ك .

٢ - كتاب رائق التحلية في فائق التورية . وهو مجموع من الأشعار لابن خاتمة ، تلقاها عنه سماعاً تلميذ له يدعى ابن زرقالة ، وجمعها في كتاب ، وتوجد له ثلاث مخطوطات : واحدة في الإسكوريال ، تحمل رقم ٤١٩ في فهرس ديرنبورج ، والثانية في المكتبة الوطنية في باريس ، تحت رقم ٥٧٤٩ ، في فهرس بلوشيه ، والثالثة في الخزنة العامة في الرباط ، تحمل رقم ١٨٢٦ ، في فهرسها الذى صدر عام ١٩٥٨ . وقد درست هذه المجموعة في مقال نشرته عام ١٩٦٢ ، الصفحات ٥٤٢ - ٥٥٧ . ونصها العربى أعدته كى ينشر كاملاً في مجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية في مدريد^(٤١) .

٣ - الفصل العادل بين الرقيب والواشى والعاذل . وهو رسالة صغيرة ، في أسلوب

(٤١) هذا الكتاب ليس مجموعة من القواعد عن استخدام التورية ، كما هو عليه الحال في كتاب الصمدى : فض الختام عن التورية والاستخدام ، وإنما مجرد مجموعة من الأشعار التى تحتوى تورية . وهذا اللون من البلاغة أربى على غايته في هذا العصر . وثمة =

مسجوع ، للتمييز بين أعداء العشاق : الرقيب والواشي والعاذل ، مخطوطة هذه الرسالة في باريس ، تلى نص مخطوطة الكتاب رقم ٥٧٤٩ ، الذي أشرنا إليه في الفقرة السابقة ، وسبق أن نشرت هذه الرسالة ، وترجمتها إلى اللغة الإسبانية ، في مجلة الأندلس ، المجلد ١٨ ، عام ١٩٥٤ ، والصفحات ١ - ١٦ .

○ مؤلفات لغوية :

إيراد الآل ، من إنشاد الضوال ، وإرشاد السؤال . وهو كتاب اختصر فيه الدراسات اللغوية التي قام بها قبله الزبيدي ، أبو بكر محمد الحسن ، وابن مكى الصقلي ، وشرحها محمد بن أحمد بن هشام السبتي ، ونظمها محمد بن هاني اللخمي السبتي ، وقد طبعها وشرحها كولان في مجلة هيسبيريس ، المجلد الثاني عشر ، ١٩٣١ ، ص ١ - ٣٢ ، ونشرها ثانية أخيراً الدكتور إبراهيم السمراي في بغداد ، في كتابه : « نصوص ودراسات عربية وأفريقية »* .

ويذكر أحمد بابا النجدي ، في كتابه نيل الابتهاج كتاباً آخر لابن خاتمة في النحو ، أعطانا اسمه ، وهو : إلحاق العقل بالحس في الفرق بين اسم الجنس وعلم الجنس ، ولكننا لا نعرف عنه شيئاً .

○ مخطوطات الديوان :

عندما بدأت عملي لأقدم رسالتى للدكتورة ، لم يكن بين يدي غير مخطوطة وحيدة

= مؤلف معاصر لابن خاتمة هو : إبراهيم بن عبد الله بن إبراهيم النجدي ، أبو القاسم ، من غرناطة ويعرف بابن الحاج ، وألف كتاباً بعنوان : مثالي القوانين في التوبة والامتناع والتقصين ، طبعا لابن الخطيب في كتابه الاحاطة ، ج ١ ، ص ٣٥٥ ، والمقرى في نفع الطيب ، ج ٩ ص ٣١٥ . ويذكر الزركلي في كتابه الاعلام كتاباً آخرى للنجدي ، وليس من بينها هذا الكتاب ، ج ١ ص ٣٢ .
 * الواقع أن ما نشره كولان - وما أعاد نشره الدكتور إبراهيم السمراي ، هو تلخيص كتاب ابن خاتمة ، قام به شخص مجهول ، أما كتاب ابن خاتمة نفسه فلا ينشر ، ويملك كاتب هذه السطور مخطوطتين مختلفتين للنص الأصلي ، يقوم بالمعارضة بينها ، لتحقيق الكتاب ونشره .
 (المترجم)

معروفة لديوان ابن خاتمة ، توجد في مكتبة دير الإسكوريال ، وتحمل رقم ٣٨١ في فهرس ديرنبورج ، ولم أكن أعرف يومها أنه توجد له مخطوطة ثانية في أى مكان آخر. وخلال المهرجان الثقافى الإشبانى الإسلامى الذى عقد فى مدينة بلنسية ، فى ديسمبر من عام ١٩٦٥ ، أتيحت لى الفرصة أن أعرف العالم المغربى السيد - محمد بن شريفة ، الذى تكرم فأنبأنى بأنه توجد فى الخزانة العامة بالرباط نسخة أخرى من ديوان ابن خاتمة ، لمّا تضم إلى فهرسها. وبفضل معاونته ، وأمين الخزانة العامة ، السيد - عبد الله الرقراق ، استطعت أن أحصل على صورة « ميكروفيلم » من هذه المخطوطة ، وأن أعرضها بمخطوطة الإسكوريال قبل أن أبدأ فى نشر الديوان .

فلنتظر الآن إلى مميزات كل واحدة من المخطوطتين : مخطوطة الإسكوريال ذات قيمة لا تقدر ، لأنها فيما يصفها ديرنبورج ، فى الجزء الأول من فهرسه ص ٢٥١ ، بخط الشاعر نفسه . والحق أن عنوان الكتاب ينبىء بشيء من هذا فهو : « من شعر كاتبه عبد الله أحمد بن على بن محمد بن خاتمة ، لطف الله به » . ولا يوجد اسم لناسخ فى أى مكان آخر من الديوان ، كما هو الحال فى معظم المخطوطات التى نسخها غير مؤلفيها ، وأخيراً فإن المؤلف يختم مجموعته الشعرية بهذه الكلمات :

« انتهى التقيد ، والحمد لله حمد الشاكرين ، والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين ، مولانا محمد المصطفى ، وآله وصحبه الطيبين الطاهرين ، وعلى يدى ناظمه عبد الله المستغفر لذنبه : أحمد بن على بن محمد بن خاتمة ، لطف الله تعالى به ووفقه ، وذلك بمدينة ألمرية ، حاطها الله تعالى ، بتاريخ أخريات سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة » . كل ما معنا إذن يشير إلى أن ابن خاتمة نفسه ، هو الذى سطر صفحات ديوانه ، الذى توجد مخطوطته فى مكتبة الإسكوريال .

ويقول ديرنبورج فى الوصف الذى قدمه للديوان ، إننا بصدد كتاب يعود إلى أيام شبابة ابن خاتمة ، لأن هذا ولد فى المرية عام ٧٢٤ هـ - ١٣٢٣ م ، وهى معلومة اعتمد فيها على جيانجوس فى ترجمته لنفع الطيب ، ج ١ ص ٣٥٩ . وسبق أن تحدثنا عن الخطأ

الذى وقع فيه بعض الذين ترجموا للشاعر ، حين خلطوا بين مولده ، وتاريخ أخيه محمد ، كما أشار إلى هذا ب . مرتينيث أنتونيا^(٤٢) .

وتتكون مخطوطة الإسكوريال من ٦٠ ورقة ، وفي الصفحة ١٦ سطراً ، فى خط مغربى كُتِبَ فى عناية وجمال ، وفى حالة جيدة بعامة ، باستثناء الجانب الأعلى من الصفحات ، والسطران الأولان منها استهلكا فى العادة تماماً ، فى الجزء الداخلى منها ، وكان من الضرورى إعادة بناء الكلمات والجمل فى كثير من الحالات . ويجب أن أشكر الباحث المصرى ، العالم الأستاذ الدكتور عبد العزيز الأهوانى على مساعدته القيمة فى إعادة البناء هذه ، وفى تفسير بعض الكلمات ، خلال إقامتى فى الإسكوريال . وهذه المخطوطة مضبوطة بالشكل كلها تقريباً ، وعندما نسختها احتفظت بالشكل على نحو ما كتبه المؤلف نفسه ، ولا بد أن النص روجع بمحضره أيضاً ، فى مرات عديدة نجد على الهامش : بلغت القراءة والسماع .

ومن المهم أن نأخذ فى الحسبان طريقة التشديد التى تستخدم فى المخطوطة ، فإلى جانب حذف السكون من اللام فى أداة التعريف حين تسبق الحروف الشمسية ، والاستعاضة عنها بالتشديد ، يحافظ ابن خاتمة على إدغام النون حين تسبق حروف اللام ، والميم ، والواو ، والباء ، ويحدث الشيء نفسه فى الكلمات ذات التنوين . وهكذا نجد فى الموشحة الرابعة ، فى البيت الثانى ، من أغصان الدور الأول : « مرّائق الزهر » ، وفى الموشحة الثانية ، فى الدور الخامس البيت الثانى من الأغصان نجد : « صب مقيم » ، وفى الموشحة الثانية ، الدور الرابع ، البيت الثانى من الأغصان نجد : « عودّه » بدل « عن وده » ، ونجد فى القسم الأول ، فى القصيدة الرابعة ، البيت الأول : « يامغيث » بدل « يامن يغيث » ، وغيرها . والشيء نفسه يحدث مع الأصوات اللثوية ، سواء خرجت من أول اللسان أو من بين الثنايا ، مثل ما نجد فى الموشحة العاشرة ، فى البيت الثالث من المركز : « قَتَجَلَى » بدل « قد تجلى » .

ولمعرفة قواعد الكتابة ، وظاهرة الإدغام فى القرآن الكريم ، يمكن العودة إلى كتاب :

(٤٢) ابن خاتمة المربى ، ورسائله عن الطاعون . ثلثة الدين والثقافة . أكتوبر ١٩٢٨ ، ص ٦٨ - ٩٠ .

« دراسة في فقه اللغة العربية Traite de Philologie Arabe المؤلفه هـ . فليش ، بيروت ١٩٦١ ، ص ٨٤ - ٨٥ - ٨٥ و ١٣٩ وما بعدها . وأيضاً : « بحث في الأصوات العربية Cours de Phonetique المؤلفه ج كانتنو ، ونشر في باريس عام ١٨٦٠ ، ص ٣٨ - ٣٩ .

ومخطوطة الديوان التي في مكتبة الإسكوريال في مجلد وحدها وتجليدها فخيم .
أمّا مخطوطة الرباط ، ولم أر منها غير « الميكرو فيلم » ومصورها ، فتحمل رقم ٢٦٩ ك ، فهرس الخزائن العامة ، طبقاً لما أعلمني به السيد الرقراق ، وأجهل ما إذا كانت في مجلد مستقل ، أو في مجموع تكون جانباً منه ، مع مخطوطات أخرى ، ولو أن ترقيم الصفحات يشير إلى أنها في مجلد مشترك مع غيرها لأن صفحاتها تحمل الأرقام من ٢٨٦ إلى ٣٩٧ ، ويبدو أن الصفحة الأخيرة من « الميكرو فيلم » آخر صفحة في المجلد أيضاً ، لأن عليها تقييدات تضم آياتاً لشعراء مختلفين ، بينها للمتنبي ، وتنتهي بمصطلحات أعجمية للأشهر ، وكما ترى لا صلة لذلك كله بديوان ابن خاتمة .
وكتابة المخطوطة واضحة ، وخطها مغربي ، وينقصها الضبط بالشكل ، وكل صفحة تجيء وسط إطار من خطين .

والمخطوطة في حالة جيدة ، وأتاح لي هذا أن أقوم بمعارضة مستأنية بينها وبين النسخة الأخرى ، فتبينت الكلمات المطموسة ، وصححت الكلمات الخاطئة ، وتأكدت من القراءة المشكوك فيها مما يوجد في مخطوطة الإسكوريال التي عرضت لها من قبل . ومخطوطة الرباط شبيهة تماماً بمخطوطة الإسكوريال ، وتبدو صورة دقيقة من النسخة التي كتبها المؤلف . والاختلافات التي وقعت عليها سجلتها في هامش النص العربي ، وتعود في أحايين كثيرة إلى أن الناسخ لم يستطع أن يتبين كلمة مطموسة أو غير واضحة في مخطوطة الإسكوريال . وتوجد هذه الاختلافات في بعض الموشحات بخاصة ربما لأن الناسخ لم يستطع أن يفهمها جيداً . ومخطوطة الرباط على الرغم من أنها في حالة جيدة ، حفظاً ووضوحاً ، أدنى مرتبة من مخطوطة الإسكوريال ، لأنها لا تعدو أن تكون نسخة من الأصل ، ومن ثم تتناثر فيها بعض الأخطاء .

والفقرة التي ينتهي بها الديوان ليست كاملة ، تنقصها الجملة التي يقول فيها ابن خاتمة إنه جمع ديوانه في ألمرية عام ٧٣٨ هـ ، ونقرأ بدلا منها : « رسوله وآله وصحبه وسلم . يوم الأحد ، الخامس والعشرين من ربيع النبوى ، سنة أربع وتسعين وتسعمئة . (٩٩٤ هـ - ١٥٨٦ م)

ولا تحتوى اسم الناسخ ، والمخطوطة - كما نرى - ليست إلا نسخة نقلت بعد قرنين ونصف من الزمان على جَمْع الديوان . ولا نعرف من خطها ، ولا أين ، ولا لمن ، ومهما يكن فإن العناية التي رافقتها تومىء إلى الشهرة التي نالها شاعرنا بين مسلمى شمال إفريقيا ، وأنها استمرت قرناً كاملاً من الزمان بعد انتهاء « حرب الاسترداد » في شبه الجزيرة ، والاختلاف بين المخطوطتين أشرت إليه في نسختي العربية من الديوان .

○ محتوى الديوان :

يبدأ الديوان بمقدمة مسجوعة ، نموذج في أسلوبها ، وفيها يزهو المؤلف بمعارفه اللغوية ، وتراء معجمه ، ورقة استعاراته ، وتكون جملة غير متناسقة في ألوانها البلاغية ، ومن الصعب ترجمتها إلى لغة أخرى . ولكثرة صورها ، وعذوبتها الحقيقية لا يمكن أن تتجاوز اللغة التي كتبت فيها .

ويشير المؤلف في المقدمة إلى أنه جمع الديوان استجابة لرجاء صديق طلب منه هذا ، ولم يذكر لنا اسم الصديق ، وفكرت في البدء أن الأمر يمكن أن يكون مركباً من تلك المراكب التي يستخدمها أشباه الشعراء أحياناً ، ولكنني وجدت خيراً في كتاب آخر للمؤلف نفسه ، توجد مخطوطته في الإسكوريال^(٤٣) أيضاً ، أكد لي أن هذا الديوان كان هدية حقاً إلى صديق لابن خاتمة ، ونستطيع الآن تحديد هويته ، والخبر في هذه المخطوطة يقول^(٤٤) .

(٤٣) فهرس ديربورج ، رقم ٤١٩ ، الورقة ٤ ب ، وهو كتاب رائق التحلية .

(٤٤) أى مخطوطة « كتاب رائق التحلية في فائق التورية » ، وعن هذه المخطوطة انظر مقالى الذى نشر في « دراسات مستشرقية

مهداة إلى ليني برُونفَسال » ، باريس ١٩٦٢ ، ص ٥٤٣ - ٥٥٧ .

«كتب إلى الفقيه الأجل ، رئيس الكتاب ، صاحب القلم الأعلى بالديوان السلطاني بالمغرب ، أبو القاسم ، عبد الله بن رضوان^(٤٥) ، وهو يومئذ بالمرية ، يستدعي ديوان نظمي ، ووجه بها مع رجل ممن تقلد حفاظة الديوان الاشتغالي^(٤٦) ، مورياً بذلك^(٤٧) : ديوانُ نظمك مطلبِي فامنحْ به لأرى انتظامَ الحسن بالإحسانِ ولقد علمتُ بأن قصيدك حفظُ فبعثتْ نحوكَ حافظَ الديوانِ وعلى هذه الأبيات رد ابن خاتمة بأبيات مثلها ، أرسلها صحبة الديوان الذي سلمه إلى الرسول :

يامهدياً ربحانين أنالنا بصرى وسمعى بهجةً ولساني
مستدعياً نظمي وما نظمي لما ييدى ولو آتني بديعُ زمانِي
إن كنت قد أهديتها روحاً فلا عجبُ جنانُ جاء من رضوان^(٤٨)
ومن الواضح أن الصديق الذي توجه إليه ابن خاتمة بقصائده كان كاتباً لأبي عنان ، وهو مالقي الأصل . ويتردد على الأندلس بكثرة ، وتربطه صداقة وطيدة بكبار الأدباء في بلاط غرناطة .

وأخيراً ، بعد أن عبر عن خوفه مما قد يكون في ديوانه من نقص ، أشار إلى الأقسام التي كسره عليها ، وهي :

(٤٥) أبو القاسم عبد الله بن رضوان ، المتوفى ٧٨٠ هـ ، أديب مالقي ممتاز ، وفقه من مالقة ، درس في تونس ، وتولى وظائف هامة في بلاط بني مرين ، انظر :

- المقرئ ، فتح الطيب ، ج ٨ ، ص ٢١٤ - ٢١٩ - وأزهار الرياض ، ج ٢ ، ص ٣٤٥ ، وج ٣ ص ١٩٦ .
- ابن خلدون ، التعريف برحلته ، طبع ابن تاووت ، القاهرة ١٩٥١ ، ص ٢٢ - ٥٥ والمقدمة ، ترجمة دى سنان إلى الفرنسية ، باريس ١٨٦٢ ، ج ١ ص ٢٦ .

(٤٦) الديوان الاشتغالي كما يقول دوزي في ملحقه للمعاجم العربية ، شيء يشبه الإدارة المالية .
(٤٧) التورية في كلمة حافظ ، يشير إلى المهمة التي يتولاها الرسول من جانب ، وإلى معنى من يحفظ من جانب آخر ، والأبيات من بحر الكامل .

- (٤٨) التورية في آخر كلمة «رضوان» . لأنها تشير إلى اسم الرسول ، واسم الملاك حارس الجنة .
- ترجمت الباحثة الفاضلة الدكتورة سوليداد «بديع زمانى» إلى اللغة الأسبانية بمعنى «فريد عصره extra ordinario en mi tiempo» ، وهي ترجمة صحيحة ودقيقة ، لكنها تحتاج أيضاً إلى إشارة ، لأن ابن خاتمة يورى بها إلى «بديع الزمان» ، الكاتب والشاعر الشهير .

(المترجم)

○ القسم الأول : فى المدح والثناء ، وما ينتظم فى سلوكه من التنبيه على مواقع الجود والنعماء .

○ القسم الثانى : فى النسيب والغزل .

○ القسم الثالث : فى الملح والفكاهات .

○ القسم الرابع : فى الوصايا والحكم .

وأخيراً يقول : « وختمتها بنبذة من التوشيح ، الذى له فى مضمار الأدب المجالُ الفسيح » .

ويتكون الديوان فى جملة من ١٩٣ قطعة ، بين قصيدة ومقطوعة ، تضم ١٠٣٥ بيتاً من الشعر .

يتكون القسم الأول منها وهو فى « المدح والثناء » من تسع قصائد ، وموضوعاتها دينية كلها ، ولا نجد بينها أية قصيدة تتصل بالسياسة ، أو مدح الملوك والعظماء على أيامه ، وإنما جاءت كلها فى شكر الله ومدح الرسول . وإذا كان مدح الأقوياء ، والإشادة بآثارهم ، كان لها نصيب من الصدق أم لا ، أمراً شائعاً بين شعراء العرب فى المشرق والمغرب ، فإن ابن خاتمة أراد قاصداً فيما يبدو أن يفلت من هذا الواجب . وليس هذا وفقاً على الديوان فحسب ، وإنما فى قصائده المتناثرة بين المصادر الأخرى غير الديوان ، لا نجد أيضاً شيئاً يتصل بهذا الغرض . كيف استطاع ابن خاتمة أن يظل على هامش التيار العام ، على حين ألفت بنفسها بين طوفانه كبرى شخصيات العصر ، وكانت تربطه صلة صداقة وطيدة بالوزير لسان الدين بن الخطيب ؟ . لا نعرف لذلك جواباً دقيقاً ، ومع غيبة الأخبار عن تدخله فى السياسة ، وابتعاده عن المناصب العامة ، على الرغم من المكانة التى كان يتمتع بها ، تجعلنا نرجع أنه تجاوز المطامح التى من هذا اللون ، وآثر أن يظل بمنأى عن كل ما هو بعيد عن الحياة الثقافية .

هذه القصائد التسع كلها مطولة ، وموضوعاتها دينية ، على نحو ما أشرنا ، وفيها يتجه الشاعر بشكره إلى الله ، ويمدح الرسول وصحابته ، ويكثر من الإشارة إلى الحج والأماكن المقدسة ، ونعلى الرسول . وهى موضوعات مطروقة كلها . وترد عند كثير من الشعراء فى

مختلف العصور ، وبين معاصريه أيضاً نجد مثل هذه القصائد ، نجدها في أشعار ابن الخطيب^(٤٩) ، وابن زمرك^(٥٠) ، وأبي البركات البليقي^(٥١) ، وغيرهم .

وكثير من أبيات هذه القصائد غامض ، وتعسر ترجمته ، بسبب لغته الصوفية والمجازية ، ومع أن كثيرين من معاصريه ، على نحو ما قلنا ، نظموا أشعاراً من هذا الطراز ، فقد لحظت أن شيخه أبا البركان البليقي كان أكثرهم تأثيراً فيه . ومن المحتمل جداً أن نجد عند كليهما ، الشيخ والطالب ، صدى أفكار الصوفي المرنى الشهير ابن العريف ، ولعلهما ، كليهما ، كانا من أتباعه ، يسلكان طريقه ، ويتبعان مذهبه ، وقد حفظت لنا المصادر عنه قصائد مطولة في شكر الله ومدح نبيه^(٥٢) . ونجد في بعض قصائد ابن خاتمة الصوفية أبياتاً عذبة الجمال ، وأحياناً ذات شبه كبير بقصائد الشاعر الصوفي المصري ابن الفارض^(٥٣) ، وعاش في القرن السابق على ابن خاتمة . وإلى جانب هذه الأبيات نجد أخرى أقل حظاً ، وأحياناً تصبح قراءتها عبثاً ثقيلاً باهظاً .

وتأمل الطبيعة يحمل ابن خاتمة على أن يتغنى بنعم الله التي تتجلى من خلالها ، الطير تشدو على عرائس الأشجار ، والأوراق والأغصان تتجه إلى السماء ، وأشجار النيلوفر قبضت كفها خائفة ، وبسط السوسان يمينه راجياً ، والزنايق تفتحت شواهد على نعم الله ، والبطاح كلها أبدع رسمها ناطقة بفضله^(٥٤) ، وكل ما تلقى على البسيطة يدعونا إلى التأمل ، يقول في إحدى قصائده^(٥٥) :

فما خطباء العرب أفصحُ واعظاً من الطير يشدو لوفهمت المعاني

(٤٩) نفع الطيب ، ج ١٠ ، ص ٢٧٥ .

(٥٠) المصدر السابق نفسه ، ج ١٠ ، ص ١٤٠ - ١٤١ .

(٥١) الإحاطة ، طبعة عنان ، ج ٢ ، ص ١١٠ ، القاهرة . وعن أشعار أبي البركات ، انظر مقال : أبو البركات البليقي ، في مجلة الأندلس ، المجلد ٢٨ ، ص ٤١٦ .

(٥٢) نفع الطيب ، ج ١٠ ، ص ٣٤٤ . وعن ابن العريف ، انظر : أسين بلايوس ، ابن العريف وكتابه خماسن المجالس ، النص العربي وتعليق عليه ، باريس ١٩٣٣ .

(٥٣) عن ابن الفارض انظر : دائرة المعارف الإسلامية ، المجلد الرابع ، ص ٧٨٦ .

(٥٤) القسم الأول ، القصائد رقم ١ ، ٣ ، ٥ ، ٦ ، ٧ .

(٥٥) القسم الأول ، القصيدة رقم ١ .

ولا صفحات الهند أَرْدَعُ زاجراً من البرق يبدو لو علمت النواها
ولا لطفُ الاحسان أحسن موقعا من النور يذكو لو عرفت الأياديا
وأحيانا يبكي ذلا وخوفاً وإشفاقاً وندماً ، على مساوئ وخطايا زلت بها قدمه ، كما
فعل ابن الفارض من قبل ، ويشبه اللطف الإلهي بالخمير :

مشمولة نسجتها للشمال يدُ والطفتها أكف اللطف في القدم
فما لها غير روح الروح من قدح ولا لها غير سر السر من قدم
بيننا تُرى في أكف الشاربين طلاً إذ تستحيل شعاعاً في خدودهم^(٥٦)
وقد فاض قلبه بحب الله ، فلا مكان لغيره فيه :

هيمات عندي جوى لوفض بإدرة منه على الشهب مادارت به الشهب^(٥٧)
وتبقى معنا دائماً ، ونحن نعرض للشعر العربي ، مشكلة الصدق ، مهما كان الموضوع
الذي تدور القصيدة حوله ، وهي مشكلة لما تحل ، ولكن تدئين ابن خاتمة في حالتنا
هذه ، يبدو أنه يصدر عن قلب عاشق حقاً . ويمكن أن نقول مرة أخرى إنه الجو الصوفي
التقليدي الذي لف مدينة ألمرية ، قد تسرب إلى شعرائها في كل العصور .

وآخر قصيدتين في هذا القسم من التسميط ، والأولى منها ، أو الثامنة في ترتيب
القسم إن شئت ، تخميس لقصيدة صوفي مشرق شهير . هو الشيخ شهاب الدين أبي
عبد الله بن الحيمي ، المتوفى ٦٨٥ هـ = ١٢٨٦ م ، وكان معاصراً لابن الفارض ، وأورد
قصيدته هذه ابن القاضي في كتابه درة الحجال^(٥٨) ، ولها تاريخ مثير أشار إليه ابن
القاضي ، نقلاً عن ابن رُشيد ، ذلك أن ابن الحيمي ، كتب هذه الأبيات في شببته ، ثم
تركها دون أن يتمها ، وقف عند البيت :

يا بارقاً بأعلى الرقتين بدًا لقد حكيت ولكن فأتك السبب
ثم وضعها في شق من جدار البيت الذي كان يسكنه ، ونسبها بعد ذلك ، ومضى

(٥٦) القسم الأول ، القصيدة رقم ٣ .

(٥٧) القسم الأول ، القصيدة السابعة .

(٥٨) المجلد الأول - ص ١٥٤ ، الترجمة رقم ٤٦٦ .

الزمن ، ثم جاء إلى الدار نفسها وسكنها أديب آخر : أبو المعالي نجم الدين بن إسرائيل محمد بن سوار الدمشقي ، المتوفى عام ٦٧٧هـ = ١٢٧٨ م ، فأخذها وادعاه لنفسه ، وأنشدها جماعة من الرفاق كانوا يلتقون مع الصوفي الشهير ابن الفارض ، وبينهم ابن الخيمي ، الذي تمسك بأن القصيدة له عندما سمعها ، وحل المشكلة سألها ابن الفارض أن يكملها ، فلم يستطع ذلك إلا ابن الخيمي ، أكملها وجمع كل شطر من بيت إلى رصيفه في دقة ، ومنذ تلك اللحظة أصبح نجم الدين بن إسرائيل الدمشقي موضع السخرية . أما شطر البيت : « لقد حكيت ولكن ... » فقد دخل التاريخ مثلاً .

ويجد هذه القصيدة أيضاً في المخطوطة رقم ٢٦٨ ، الورقة ١٣ ، في مكتبة مدريد الوطنية ، غير أنها تظهر في الفهرس بطريقة خاطئة ، وليس ثمة شك في أن اسم الشاعر المشرقي فهم خطأ ، واستنتج جين روبلس Guillén Robles الذي وضع الفهرس أنه عمر الحيام ، وظهر التعريف بها في الفهرس على النحو التالي : « قصيدة معادلات لعمر بن إبراهيم الحيامي (رياضي وفلكي ومؤلف بعض الألواح الفلكية للتنجيم) . وهذه القصيدة خمسها أبو جعفر أحمد بن خاتمة الأنصاري » . وكما نرى هناك قصيدة معادلات ، ولا صلة لها بالرياضيات ، وإنما هو مجرد تخمين قام به ابن خاتمة لتلك القصيدة المشهورة . والاختلاف بين النص الوارد في هذه المخطوطة والوارد في الديوان أشرنا إليه في مكانه من التحقيق ، ومثلها الخلاف في النص بين ما ورد في الديوان وفي درة الحجال . والقصيدة الأخيرة في هذا القسم مسطرة أيضاً ، ولكن ابن خاتمة لم يشر إلى اسم صاحبها ، ولم أستطع أنا الاهتداء إليه .

وكلتا قصيدتي ابن خاتمة ، فيما أرى ، متكلفنة ، وتغلب عليهما الصناعة .
أما القسم الثاني وأعطاه عنواناً : في النسيب والغزل ، فيضم تسعة وأربعين قصيدة ورتبها على حسب طولها ، الأطول فالأقل طولاً ، وبالرغم من العنوان الذي أعطاه لها ، يمكن القول أنها جاءت في الوصف أكثر مما هي في الغزل ، وأنها يمكن أن تؤولف جانباً من الغرض الذي اصطلاح على تسميته بالوصف ، وفي رأيي فإن هذا القسم يجمع بين أقل القصائد جودة عند شاعرنا . وعبثاً نفتش خلالها عن آثار حب حقيقي أو تعبير عن ألم

صادق ، وإنما نجد ترديدًا مكرورًا ، حتى التخمّة ، للتعبيرات المطروقة ، كما لو أن الشاعر وهو ينظمها قد وقف جهده على ملء خانات مكلف بها .

وأحيانًا يبرق اسم امرأة بين آونة وأخرى ، مثل : بنت المنتصف ، أم العزيز ، مهجة^(٥٩) ، غير أنها فيما يبدو لى مجرد أسماء اختارها ليتلاعب بها فى ذكاء ، أكثر منها أسماء لشخصيات وجدت فعلا .

والوصف ، كما قلت ، هو ما يهتم به الشاعر أكثر من غيره ، سائرًا على خطى شعراء بغداد «المحدثين» ، ويبدو أنه يهتم بالشكل أكثر مما يعنى بالمضمون .

وفى استعاراته وتشبيهاته يسير أحيانًا على غير الطريقة التى سار عليها الشعراء قبله . فإذا كانت القاعدة العامة فى التشبيه أن تشبّه الأدنى بالأعلى ، أو المجهول بالمعروف ، فنقول ثغر كالأقحوانة ، وأسنان كالماس ، وقد كفصن البان ، فابن خاتمة فى بعض استعاراته يعكس الأمر ، فيجعل من المستعار له حقيقة ، ومن الحقيقة مستعارًا :

فاعتنتُ القُضيبَ منها قَوامًا وارْتَشَفْتُ الرّحيقَ منها رُضابًا^(٦٠)

وفى هذا القسم نجد أيضًا إشارات إلى الحب العذرى ، يقول :

كم قتيلٍ من عُذرةٍ وطعينٍ بين بيضِ الطلى وسُمسِرِ العيون
فى حروبِها الكُماةُ ظباءُ السُّخْدرِ والشهداءُ أسُدُّ العرين^(٦١)

والقصيدة الأخيرة فى هذا القسم تسميط ، ولكن ابن خاتمة لا يشير إلى الشاعر الأصيل الذى نظم القصيدة ، واكتفى بأن يقول إنها «قطعة لأحد المشارقة» ، دون أن يسميه .

والقسم الثالث ، وأعطاه عنوانًا : الملح والفكاهات ، هو والموشحات أهم ما فى الديوان . ولهذا القسم فيما أرى أهمية خاصة ، لأنه يعكس لنا فى وضوح النوق الأدبى فى الأندلس فى القرن الرابع عشر الميلادى ، ونلمس منه الاهتمام البالغ ، والإصرار العنيد ،

(٥٩) القصائد رقم ٨ ، ٢٩ ، ٣٠ .

(٦٠) القصيدة رقم ٢٩ من القسم الثانى .

(٦١) القصيدة رقم ٢٦ ، وعن الحب العذرى انظر أيضا ، فى قسم الموشحات ، الأرقام ٧ ، ١٨ .

على استخدام الصور البلاغية المعقدة ، وفي هذا الميدان وجد ابن خاتمة مجاله عريضاً واسعاً ، وأخذ يحظه منه حراً طليقاً ، وأظهر قدرته وتمكنه الكامل من فنه . على نحو لم يبلغه الشعراء الآخرون . كما سنرى فيما بعد .

يبدأ القسم بقصيدة عن « محاسن الشتاء وماله من الفضل على كل فصل » ، ويدعوه « سلطان الفصول » . وهي ذات قيمة كبيرة في مجال الوصف . واحدى قصائد قليلة تمدح هذا الفصل ، وجوه المتقلب البارد الممطر .

والقصيدة الثانية . وهي طويلة إلى حد ما ، إذ تبلغ ٢٧ بيتاً . تصف حفلة أقيمت في الأيام الأخيرة من شهر شعبان . ويدعوها « شعبانية » ، والأخبار التي وجدتها فيما يتعلق بمثل هذه الحفلات التي يطلق عليها اسم « شعبانية » قليلة ، وفيما يبدو كانت تتم في أبهة فخيمة وإبتهاج شعبي : يقول أ. ج . ونسينك في المقال الذي كتبه عن شهر شعبان في دائرة المعارف الإسلامية ، إن المسلمين يوقرون هذا الشهر من بين شهور العام ، ويدعونه « المعظم » ، وتقام فيه الصلوات ، وتعدّد المجالس الدينية ، والحلقات والأذكار ، وبخاصة في يومي ١٤ و ١٥ منه . وفي بعض بلاد العالم العربي يبدو أنها تشمل آخره أيضاً ، احتفالاً بتوديع حياة البهجة ، والإقبال على طيبات الطعام قبل البدء في صوم رمضان . وفيما يتصل بالأخبار المتعلقة بهذه الحفلات في الأندلس وشمال إفريقيا ، لدينا ما قدمه لنا ليفي بروفنسال^(٦٢) متصلاً بتخفيف العقوبات ، والحفلات الدينية التي كانت تقام قبل أن يحىء رمضان بخمسة عشر يوماً ، ولكنها لا تشير إلى الأيام الأخيرة من شعبان . والشئ نفسه حدث مع ابن عبدون^(٦٣) : فهو لا يعرض لنا في رسالته القصيدة والحسبة كيف كان المسلمون في إسبانيا يودعون الأيام الأخيرة من شهر شعبان . ويصف برنوت Brunot في كتابه : « البحر في التقاليد وفي الصناعة عند السكان الأصليين في الرباط وسلا » باريس ١٩٢١ ، ص ٩٨ - ٩٩ . الحفلات التي تعقد في الرباط في آخر

(٦٢) تاريخ أسبانيا الإسلامية ، ج ٣ ، ص ١٦٠ .

(٦٣) ليفي بروفنسال وغربية غوث : أنشيلة في مطلع القرن الثاني عشر الميلادي . رسالة ابن عبدون ، مدريد ١٩٤٨ ،

ص ٧٤ ، الهامش رقم ٢٧ .

يوم من شعبان . بأنها نوع من المهرجانات قبل الدخول في توبة الصيام ، وفي هذه الحفلات التي يشترك فيها كل الناس ، يجتمعون في الحدائق . وينشدون الأشعار . ويعزفون الموسيقى . ويعبرون النهر ، ويتزهون على ضفافه . وأيضاً يأكلون حتى التخمة . ولكنه في هذه الحالة يشير إلى يوم بعينه ، وهو آخر الشهر .

ويقول عنه هنري مرسية في كتابه «العربي تصورا L'Arabe par l'image» ، الرباط ١٩٥٥ ، ص ١٨١ - ١٨٩ . إنه يوم يحتفي به كثيراً في المغرب . وكان في الأصل يوماً يحتفي به الطلاب مع شيوخهم . وشخصيات أخرى محدودة العدد . فيجتمعون في روضة خاصة . حيث يستمتعون بكل المباحج خلال أيام لم يحدد عددها . قبل أن يبدأ شهر رمضان .

ولكن ابن خاتمة يبدأ قصيدته التي قدم لها بأنها : « في وصف شعبانية سنية . في روض مريع ، أتى عليها عنفوان الربيع » ، بيت يقول فيه : « أربعة أيام من الدهر حسبه بها من جملة العمر » . مما يوحي . فيما يبدو . على الأقل في العصر الذي عاش فيه . بأن هذا الحفل كان يستمر أربعة أيام . وبالتأكيد توجد في المصادر العربية إشارات إلى هذه الأيام ، ومن المفيد أن نجمع هذه النصوص . لقد وجدت إشارة إلى ذلك في كتاب المقتضب من كتاب تحفة القادم لابن الأبار . واختصره أبو إسحاق ، محمد بن إبراهيم البليقي^(٦٤)

في الترجمة التي خُص بها أبو طاهر . إسماعيل بن مسعود الخشني الجياني^(٦٥) ، يحكي هذا أنه « حضر مع جماعة من أصحابه ، فيهم أبو عبد الله بن زرقون . متزهاً في بعض الأعوام ، وفي عقب شعبان منه « فلما تملثوا بالطعام ، قال أبو الطاهر لابن زرقون : أجز يا أبا عبد الله . فقال :

حمدتُ لشعبانَ المباركِ شُبَّةً تُسهِّلُ عندى الجوعَ في رمضانِ
كما حمد الصبُّ المتيمُّ زُورَةً تحمِّلُ فيها الهجرَ طولَ زمانِ

(٦٤) طبعة إبراهيم الأبياري . القاهرة ١٩٥٧ .

(٦٥) المصدر السابق . ص ٢٢ وانظر أيضاً : مع الطيب . ج ٦ ص ٥٦ ، ج ٥ ص ٢٩٢ .

فقال أبو الطاهر :

دعوها بشعبانية ولو أنهم دعوها بشعبانية لشفاني (٦٦)
 وفي قصائد الديوان الباقية نجد كثيراً من وصف الزهور ، وفيها يسير ابن خاتمة على
 هدى مدرسة شرق الأندلس ، التي عبّد سبيلها كل من ابن خفاجة وابن الزقاق . ويشير
 دائماً إلى تبادل بواكير الزهور بينه وبين أصدقائه الذين يرسلونها إليه دائماً رفقة أبيات من
 الشعر (٦٧)

ومن أجمل أشعار هذا اللون ، المقطوعة الحادية عشرة ، وأرسلها إلى صديق له مع
 باكورة ورد أحمر ، وفيها يقول :

حيثك بكرٌ من بنات الروض أعجلها ابتكارُ
 طلعت لغير أوانها فلذاك ما اصفر البهار
 جاءتك منبثةً بلقّب مال الربيع لها ابتدار
 محفوفةً بالآس منه على محاسنها خِيارُ
 فكأنما ما بينه خدّ أحاط به عِذار

وثمة عدد من المقطوعات وقفها على « الخيري » ، وهي زهرة تعبق بأريجها ليلاً ،
 بسبب حياثها ، فيغشى حقول الكتان كالبحر ، والحدائق ، والحفلات ، وقر رمضان .
 ولكن أوضح ما في هذا القسم ، وفي النصف الثاني منه إن شئت الدقة . أن الرغبة في
 استعراض معارفه البلاغية ، فيما يبدو ، تسيطر عليه باستمرار ، من الاستعارات الغريبة ،
 والجمل المسجوعة داخلياً ، واستخدام التصريح والتجنيس . وكل ذلك ، وهو ذكي
 ومعقد في فن كتابة الشعر ، كان غاية شاعرنا فيما يبدو .

وبين أشعار هذا القسم تتميز المقطوعة رقم ٢٣ ، ويقول في مقدمته لها : « وفيه من
 اللف والنثر ما يندر وقوع مثله في الشعر » . نحن في الحقيقة معه بصدد صناعة بلاغية

(٦٦) الأبيات من بحر الطويل ، وجاء لطف البيت من اللعب بالألفاظ بين شعبان وشعبان .

(٦٧) هكذا يمكن أن نجد ذلك في القطع أرقام : ٣ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ .

تستخدم في نظم الأشعار المتسلسلة والمتراطة ، وقد درسها الأستاذ دامسو ألوونسو Dàmaso Alonso . وتوجد لها أمثلة وفيرة في كل الآداب الأوربية ، وبخاصة خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين . وقد ضمّن دامسو ألوونسو مقاله البالغ الأهمية أمثلة عديدة لهذه الصورة البلاغية ، مأخوذة من الشعر العربي ، وقد ترجمها وعلق عليها إميليو غوسية غومث^(٦٨) . وهو ما يضع أمامنا مشكلة العلاقة بين أقدم القصائد التي تعرف « اللف والنشر » في الأدب السنسكريتي . وعند اللاتين في القرن الثاني عشر الميلادي ، وعند الإيطاليين والفرنسيين والإنجليز والإسبانيين ، في القرن السادس عشر والسابع عشر الميلاديين . واحتمال أن ليس ثمة صلة بين الأدب السنسكريتي والأدب اللاتيني جعل الأستاذ دامسو ألوونسو يرى أن القصيدة العربية نفسها هي التي قامت بدور الناقل أو الوسيط . والمشكلة لما تحل ، ولكن الأمثلة التي قدمها لنا غوسية غومث دليل واضح على استخدام « اللف والنشر » في الشعر العربي على امتداد كل العصور . وهذه الأمثلة تضم أشعاراً لابن حزم القرطبي ، وابن حاجب النعمان ، وابن خفاجة ، وحمدة بنت زياد ، وصالح بن شريف الرندي ، ويمكن أن نضيف إليهم ابن خاتمة ، ولو أنه لم يتجاوز الوجدتين في لفه ونشره . ولكنها تضم عدداً من التشبيهات غير معروف نسبياً . وإذا كانت التشبيهات لا تتجاوز ستة أو سبعة عادة . فلدينا هنا حالة نادرة ، على نحو ما يصرح به الشاعر نفسه . فتحن نلتقي عنده بستة عشر ركناً على الأقل . يقول :

وخاطرة كالظبي ، في خطوها بُعد
تكناد أعاليها من اللين تنقذ
تمنيها في حضرة وسط روضة ينم علينا من خيالها الند
فصدت وقالت : ما لطبعك قد جفا
وأى رياض تبغى بعد ما أبدو
وفردوسها والقضب والعرف والندی
وأوراقها والورق والكشب والرند
وحضرتها والراح والنقل والغنا
ونرجسها والزهر والآس والورد
ثيابي وأعطافي ونشري ونعمتي
وقرطى وحلي والروادف والقند

(٦٨) دامسو ألوونسو فصل في أسلوب العصر الذهبي . اللف والنشر في الشعر ، مدريد ١٩٤٤ ، ص ١٥٢ - ١٥٦ ، وعن هذا الموضوع الحام ودرسه تنوع انظر كتابه : ستة مرافئ في التعبير الأدبي الأساني ، مدريد ، طبعة جريدوس ، ١٩٦٣ .

ووجهي وربقي والنهود ومنطقي ولحظي وثغري والغدائر والحد
إذا لحت لاسح الحسن طراً وإن أغب فلا شجن يخفى ولا احسن يبدو
فنحن إذن بصدد جملة كبيرة من التشبيهات ، جاءت على طريقة اللف والنشر في
مجموعتين ، كل واحدة منهما في ستة عشر ركناً ، الأولى تمثل المشبه به ، والثانية تمثل
المشبه ، وجاءت محكمة التركيب في بنائها .

وقد أورد لنا ابن الخطيب ، في مؤلفه الكتيبة الكامنة^(٦٩) ، بعض أبيات الشاعر
إبراهيم القيقاطي ، المتوفى عام ٧٣٠ هـ = ١٣٢٩ ، وكان معاصراً لابن خاتمة ، تضمنت
من صور التشبيه على طريقة اللف والنشر المرتب ثمانية تشبيهات هي :

جبنٌ وشعرٌ ووجهٌ وقدٌ وخدٌ وطرفٌ وربقٌ وثغرٌ
صباحٌ وليلٌ وبدرٌ وغصنٌ ووردٌ وسحرٌ وخمرٌ ودرٌ
ونمضي مع هذا القسم الثالث ، فنجد في المقطوعات رقم ٢٤ و ٢٥ و ٢٦ ، أمثلة
أخرى مثيرة ، لا تدخل في باب اللف والنشر ، وإنما هي من الصور البديعية التي تعرف
بالتجنيس^(٧٠) ، وهو : « بيان المعاني بأنواع من الكلام يجمعها أصل واحد من اللغة »
وهو قسمان : جناس مزاوجة ، وجناس مناسبة ، وهذا الأخير ألوان كثيرة ، اختار ابن
خاتمة من بينها تجنيس التصريع ، وهو : أن يقع الجناس بين الكلمة الأخيرة من المصراع
الأول والكلمة الأخيرة من المصراع الثاني في البيت ، فيعطيه جمالاً أكثر من الموسيقى
والإيقاع .

والمقطوعة رقم ٢٦ ذات أهمية كبرى ، فيما أرى . لأنها تتضمن لونا من الجناس ،
ولكن ابن خاتمة قدّم لها بقوله : « وقال والتزم في قوافيه نوعاً من التجنيس » ، يقوم على
توافق الحرفين الأخيرين من الكلمة قبل الأخيرة من البيت ، مع الحرفين الأخيرين في آخر
كلمة فيه ، أو إن شئت مع حرف القافية ، والحرف الذي يسبقه . مثلاً : الوصال صالى .

(٦٩) طبعة دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٤ .

(٧٠) ثمة دراسة هامة قام بها ب . ديات مانشو عن التجنيس ، في مجلة « سفراء » ، المجلد ٨ ، ص ٢٣٩ - ٣٢١ والمجلد ٩

للجمال مالى ، خبالو بالى* :

« بحقَّ ففضل الرسول سولى برّذ بروح الوصالو صالى
سبى سنا خسُنكم فوادى مالى وللجمالو ، مالى ؟
ياظبى هب لى رضاك على - أبرّا به من خبالو بالى
أياستُ فيك العدول منى ترفُعا عن مقالو قالى
هل أقتنى فى الملاح لاح وأهينى فى العوالو والى* »

والتشابه واضح بين مانسميه فى الإسبانية « الأشعار ذات الصدى Versos Comeco » وبين هذا اللون من الجناس ، وقد أشرت إلى هذا فى مقالى الذى ظهر فى مجلة الأندلس ، المجلد ٢٣ ، ١٩٦٨ ، ص ٩٥ - ١٢٢ ، بعنوان : « ألوان طريفة من الشعر الأندلسى » .

وقد أشار إميليو غوسية غومث فى المجلد الذى ظهر تكريماً لدامسو ألونسو^(٧١) ، إلى وجود « القافية الصدى » ، أو التجنيس الذى أشار إليه ابن خاتمة ، فى الشعر العربى ، وكان بصدده موشحة للشاعر الوادى آشى أبى الحسن بن نزار الذى عاش فى القرن الثانى عشر ، وأعتقد أن أبيات ابن خاتمة هذه نجىء مثالا أزيد على استخدام مثل هذا التجنيس بين الشعراء العرب . ما العلاقة بين الشعر القشتالى الذى نجىء « قافيته صدى » ، وهو كثير فى أدبنا ، واستخدمها شعراء كثيرون فى كل العصور ، مثل : خوان دى لا إنشينا ، ولوى دى رويدا . وبلتساردى القصر . ولوى دى ييجا ، وسور خوانة إنيس دى لأكروث ، وروين داريو^{٧٢} وغيرهم . وهذا اللون العربى من الجناس ؟ .

الآيات ليست فى الأصل لأنها لاتعنى مع الترجمة شيئا . ولكن المثل فى العربية واضح ، ولذا جئت بها كاملة .

(المترجم)

(٧١) دراسات لغوية . المجلد الثانى . مدريد ١٩٦١ ، ص ٧٣ - ٧٩ .

● خوان دى لا إنشينا (١٤٦٩ - ١٥٣٩ م) . شاعر وكاتب مسرحى . وموسيقى ماهر ، يعتبر أب المسرح الألبانى ، وتلقب مسرحياته بعامّة حول موضوعات دينية وريفية .

● لوى دى رويدا (١٥٠٠ - ١٥٦٥ م) : ولد ومات فى أشيلية . وعمل ممثلا ومؤلّفا ومدير فرقة ، ولا تزال مسرحيته « سكة الزيتون » تتمتع بشعبية حتى اليوم .

● بلتسار دى القصر (١٥٣٠ - ١٦٠٦ م) : شاعر رقيق من أشيلية ، واشتهر بديوانه « عشاء ساحر » .

من الواضح أن هذه الصناعة ، وهى متكلفة ، وتنقصها العفوية ، تنافى طبيعتنا ، فيما يبدو ، ولكن إذ تأملناها من وجهة نظر أخرى يمكن أن نجد فيها جوانب من الجمال لا يتطرق إليها الشك ، لا يجب أن نبحت عنها فى المضمون ، ولا أن نفكر فى البلاغة ، وإنما يكفى أن نقرأها باللغة العربية فحسب ، وأن ننشدها ، حينئذ نجد هذا الجمال فى اللغة ، وفى رنة الصوت وفى الإيقاع ، وشبيه بهذا ما يحدث فى كثير من أشعار روبين داريو .

كل قصائد ، أو مقطوعات ، القسم الثالث تقدم فى مجموعها كثيراً من الطرائف والمفاجآت ، فالمقطوعة رقم ٢٧ تجمع من الحلى البلاغية بين « نوع من التجنيس ومعنى من التورية » ، وفيها دليل أزيد ، وهو الخلط بين نطق السين ونطق الصاد فى عربية أهل غرناطة :

وشادنٍ باكرَ الكتابَ محتضناً للوحي ، خاطراً فى صورة القمرِ
سألته : يا حيبي ! ما بلوحيك ؟ قلْ فقال لى : إننى فى « سورة القمر » !
أما المقطوعة التاسعة والعشرون ، فتقدم تركيباً بالغ الطرافة والإثارة ، فنحن معها بلازاء مقطوعة تتألف من ثلاثة أبيات ، وبعد كل بيت تسع كلمات متشابهات القافية عمودياً ، ومتساويات الإيقاع ، وتصلح كل منها أن تكون قافية للمقطوعة ، فالقافية الأصلية فى النص هى الراء ، ولكنها يمكن أن تكون العين ، أو الحاء ، أو الباء ، أو الفاء ، أو الدال ، أو القاف ، أو الميم ، أو اللام ، أو النون ، تبعاً للفظ الذى نختار من الكلمات التى تلى كل بيت ، دون أن يضطرب البيت أو القطعة معنى ، أو قافية ، أو وزناً ، وبذلك يمكن أن تنشئ القطعة بعشر قوافٍ مختلفة :

●= لوى دى بيجا (١٥٦٢ - ١٦٣٥) : من كبار شعراء المسرح الأسباني ، بدأ حياته مغامراً ، وانتهى به الأمر راهباً ، وعاش حياة متواضعة ، وكتب مئات المسرحيات .

●سور خوانة (١٦٥١ - ١٦٩٥) : راهبة مكسيكية ، عالمة الشعر ، حتى أنها استحققت لقب ، ربة الشعر العاشرة .

●روبين داريو (١٨٦٧ - ١٩١٦) : شاعر وناقد من نيكارجوا ، ابتدع ألواناً من النغم الجرىء ، وكان على رأس مذهب « الحداثة » ، وترك تأثيراً كبيراً فى الأدب المعاصر .

(المترجم)

سِعْ لِي الْيَوْمَ أَيَا بُغْيَى لَمْ يَيْدُ لِي مَنْظَرُكَ الْأَقْرَبُ
الأبدع ، الأوضح ، الأعجب ، الأظرف ، الأسعد ، المشرق ، الأوسم
الأجمل ، الأحسن .

ماذا الجفاء ، الله في مغرم أدمعته من لوعة تقطر
تسمع ، تسفح ، تسكب ، تذرف ، تنفذ ، تدفق ، تسجم ، تهطل ، تهين
أ يظهر البدر على بعده وأنت بالقرب ولا تظهر؟
تطلع ، تلمح ، تغرب ، تسعف ، تسعد ، تشرق ، تنعم ، تُفضل ، تُحسن
ثم نلتقي في هذا القسم بموضوعات ظهور العذار ، وهو يتردد كثيراً في شعر كل
العصور ، وعند كل الشعراء تقريباً ، وعن غلمان ليسوا فوق مستوى الشبهات ، ولا ينقصه
تحليل الصورة المحبوبة في الحلم ، والوداع والهجر ، والعيون المراض موضع المدح أيضاً .
والمقطوعات من ٦١ إلى ٦٧ تصف طريقة طريفة في الكتابة على الورق عن طريق
تفريغ الأحرف بالقطع ، ولمعرفة المزيد عن هذه الطريقة يمكن العودة إلى تعليق لي نشرته
في مجلة الأندلس ، المجلد ١٤ ، عام ١٩٤٩ ، وإلى تعليقات أخرى تليه في المجلدات :
١٥ و ١٦ ، وكان الأول منها من تحرير المجلة ، والثاني بقلم الأستاذ المصري جمال محرز ،
وفيها يرد كل ما نعرف عن هذه الطريقة في الكتابة ، وكانت تستخدم في المشرق والمغرب
على السواء ، خلال القرن الرابع عشر الميلادي ، وحتى في إسبانيا المسيحية ، في قصائد
شمطوب دي كريون^(٧٢) ونضيف إلى تلك المعلومات خبراً جديداً عثرت عليه ، وهو

(٧٢) انظر مجلة الأندلس ، المجلد ١٥ ، عام ١٩٥٠ ، ٤٩٨ - ٥٠١ ، مقال : الرسائل القصصية والرسائل الحشبية ، تعليق من
التحرير . ومقال الأستاذ جمال محرز . مزيداً عن الرسائل القصصية ، في الأندلس ، المجلد ١٦ ، عام ١٩٥١ ، ٢١٩ - ٢٢٣ .
وفيما يتصل برسائل شمطوب دي كريون القصصية ، فضلاً عن الأشعار من ٩١ إلى ١٠٠ ، من كتاب الأمثال الأخلاقية الذي
أشار إليه الأستاذ س . م . شترن في تعريفه بطبعة جونثالث بويرا ، وظهر في مجلة ققه اللغة الرومانية ، انظر مقالاً لشرن نفسه بعنوان :
قصيدتان عربيتان . في مجلة سمراد ، المجلد العاشر ، عام ١٩٥٠ ، ص ٤٩٨ - ٤٩٩ .

ومن قريب نشر الأستاذ الدكتور ديات استيان كتاب : « القلم والمقص » من تأليف سام توب في مجلة جامعة مدريد ، المجلد ١٨ ،
العدد رقم ٦٩ ، الصفحات ٦١ - ١٠٢ ، وهو مقال هام للغاية ، ويضم معلومات وافرة عن طريقة الكتابة بالمقص هذه .
أيضاً أخبرني الأستاذ يهودا بني زيهوفر بأنه يمكن على دراسة قصائد سام طوب التي كتبت بهذه الطريقة ، وعن هذه الموضوعات
انظر أيضاً تعليق لي في مجلة الأندلس ، المجلد ٣٣ ، عام ١٩٦٨ ، ص ٤٧١ - ٤٧٣ ، عن : الكتابة بالمقص في بعض أشعار
الرصافي ، ومقال عن أوتو كورث في المجلد ٣٨ ، عام ١٩٧٣ ، ص ٢٤٣ .

قصيدة للشاعر البنسى محمد بن غالب الرصافى ، المتوفى عام ١١٧٧ م ، وهى أقدم مالدينا عن شعراء إسبانيا الإسلامية ، وتوجد فى مخطوطة كتاب ابن عسكر : التكميل والإتمام لكتانى التعريف والإعلام ، ص ٢٦ (٧٣) .

وهذه الطريقة التى تتمثل فى تفرغ الأحرف ، فلا تصبح غير تجويف على الورق ، يمكن أن تستخدم لغايات مختلفة . فابن خاتمة يستعملها فى قصائد الغزل ، والكتابة تشبه المحبوب :

أجل عينيك فى وشي تعاين كتاباً والهواء له مداد
حكاى كاتبي فى حالتيه لنا جسمٌ وليس لنا قواد
أما قصائد شملوب دى كريون ، (الأمثال . طبعة جونثالث يوبرا ، الأبيات ٩١ - ١٠٠) ، فتجىء لغاية أخرى ، إنها طبقاً لما يقوله المؤلف نفسه ، كتبت على هذا النحو « لأنه لا يجب أن ينفق فيها مداداً » احتقاراً لمن توجه إليه ، ولكن الأسلوب واحد وليس ثمة شك ، أنها كتابة طريفة ، وزخرفة كتابية ، تخضع للعبة الكلمات وأدق التراكيب البلاغية . وفى القرن الرابع عشر الميلادى كتب أيضاً الخطاط المشرق جواد بن سليمان بن غالب اللخمى بطريقة قطع الحروف قصيدة لامية العجم للطغرائى الشهيرة ، وهى فى تسعة وخمسين بيتاً ..

والمقطوعات الثلاث الأخيرة من هذا القسم جاءت الغازاً ، وهو غرض من الشعر كان يستخدمه شعراء المشرق والمغرب على السواء ، فى كل العصور ، ويصعب على فهمه ، ووقفت بجهدى عند حد نسخه ، فهو الغاز تقوم على تكوينات عديدة ، وعلى الحروف ، وحلها الآن يبحث على الحيرة .

أما القسم الرابع ، وهو فى الوصايا والحكم ، فيضم اثنتين وأربعين مقطوعة ، كلها

(٧٣) عن هذه التراجم المختارة لعلماء مالقة الكبار ، انظر مقال نواكين باليه ، فى مجلة الأندلس ، المجلد ٣١ ، عام ١٩٦٦ ، ص ٢٤٣ - ٢٦٥ .

كذلك ، على نحو ما هو جار في مثل هذا اللون من شعر الحكمة ، وتوجد له أمثال عديدة بين شعراء إسبانيا الإسلامية في القرن الرابع عشر الميلادي .

وليس ثمة شك في أن ابن خاتمة كان تحت تأثير اثنين من شيوخه : ابن ليون ، وأبي البركات البليقي ، والأول منها ، ونحدثنا عنه فيما سبق ، ترك عددًا من المؤلفات في هذا الضرب من شعر الحكمة ، أورد لنا المقرئ شيئًا منها في كتابه نفع الطيب ، والتشابه بين الكثير من أشعاره وماعند ابن خاتمة واضح ، ونأخذ لذلك مثلاً ، يقول ابن خاتمة في إحدى مقطوعاته :

أنعم على من تشا فأنت حتمًا أميرة
واحتج لمن شئت يومًا فما سواك أسيرة
واستعن بالله عمّن تشاء أنت نظيره
فالمرء عبيد هواه يضيّره أو يسجيره

ويقول ابن ليون (٧٤) :

من تفضّلت عليه أنت لاشكّ أميره
ومن احتجّت إليه أنت بالرغم أسيره
ومن استغنيّت عنه أنت في الدنيا نظيره

والشيء نفسه يمكن أن يقال عن مقطوعات كثيرة ، يتشابهان فيها فكرة ، وحتى في التعبير أيضًا .

وأفكار بعض هذه النصائح والتأملات تتناقض ، كما يمكن أن نرى في المقطوعات ٣١ و ٣٤ و ٣٦ ، ومن ثم فنحن لا نعرف ما إذا كنا بصدد مجرد أشياء مطروقة ، وتكرر عادة فحسب ، بعيدة عن مشاعره الحقة ، أم أننا أمام رغبة مقصودة ، للتعبير عن قناعاته .

في حالة معينة ، يشير ابن خاتمة في القصائد التي ذكرناها إلى الرحلة ، ولتلق به في القسم الأول من الديوان يعبر عن رغبة قوية في رؤية الأماكن المقدسة وزيارة قبر النبي ،

ولا نعرف ما إذا كان صادقاً أم متخيلاً ، لأن الذين ترجموا له لا يذكرون أنه أدى فريضة الحج ، ولم يخرج حتى من الأندلس في أية لحظة ، وحركته لم تتجاوز غرناطة والمرية وما حولها من قرى صغيرة .

ولم يكن عزوفاً عن الحركة فحسب ، وإنما دفع شيخه وصديقه الحميم أبا البركات البلفيقي ، لكي يقعد عن رحلة كان قد اعتزم أن يقوم بها إلى شمال أفريقيا ، مردداً بعض أبيات له من الشعر^(٥٧) .

ولنقف قليلاً مع هذا التناقض في الأفكار ، يقول ابن خاتمة في المقطوعة رقم ٣٤ :
جُلُّ في بلاد الله نحو العلا ولتجشَّبْ أهلاً وأوطانا
فبيدقُ الشطرنج من فوره يعودُ بالتجوال فرزاننا
وفي المقطوعة رقم ٣٧ يقول :

مثواكَ عِرْكَ فاحذر أن تفارقه فِعْزَةٌ واغترابٌ قلماً اتفقاً
أما ترى الشعرَ فوق الرأس محترماً فإن يزلْ عنه أضحي في التراب لقي
ولا نجد في هذا القسم كثيراً من الأفكار الأصلية . ومن الصعب أن نلمح بينها شيئاً ذاتياً بحق ، وربما في المقطوعة الواحدة والعشرين . عندما ينصح باجتنب الأقوياء .
يمكن أن نربط بين هذه الأبيات وبين حياته . وجرت دائماً على هامش الطموحات السياسية ، ولو أنها في الوقت نفسه موضوع طالما طريقة الكثيرون من الشعراء ، يقول :
خَفَ السلاطين واحذر أن تُلبسهم مادام أمرهم في الملك مضطرباً
إن الملوك بحار في خلائقهم ومن سما البحر في أهواله عَطْباً

وأخيراً ، يأتي الشاعر في نهاية الديوان بقسم أوقفه على الموشحات ، وجعلها خاتمة له ، وهي - فيما أرى - أفضل أشعار ابن خاتمة ، لموسيقاها الرائعة ، وعفويتها وطلاقتها . ويضم ثمانى عشرة موشحة .

وإثارتنا لهذا الجنس من النظم واضح ، ومن ثم نجد في فقرة أوردها المقرئ في

(٧٥) نفع الطيب ، ج ٧ ، ص ٤٠٢ .

كتابه أزهار الرياض . المجلد الثاني . ص ٢٥٢ وما بعدها ، نقلا عن « كتاب مزية المرية على غيرها من البلاد الأندلسية » ، عندما عرض لترجمة ابن عباد القزاز ، الشاعر والوشاح الشهير ، والذي عاش في بلاط المعتصم بن صمادح أمير المرية . وهذه الفقرة بالغة الأهمية ، واتكأ عليها كل الذين يهتمون بدراسة الموشحات . وإذا رجعنا إلى نصي ابن بسام وابن سعيد المغربي ظهر لنا أن ثمة شخصين ينسب إليهما ابتداء فن الموشحات : محمد ابن محمود ، ومقدم بن معافى . وكلاهما من قبيلة ، وكلاهما ينعت بأنه ضرير^(٧٦) . ويفخر ابن خاتمة بأن مواطنيه الأندلسيين ابتدعوا هذا النمط الشعري الجديد . ولا يخفى إعجابه به .

وبرهان آخر على تفضيله فن الموشحات نجده في هذه المجموعة منها ، ويضمها القسم الذي جاء به في آخر ديوانه . ولأن الخرجة أفضل ما في الموشحة ، وتجيء في آخر مكان منها ، وهي من الموشح « ملحه وسكره ومسكه وعنبره » ، فكذلك تمثل الموشحات من الديوان حين توضع في نهايته ، محتفظاً للقارئ بمفاجأة مذهشة ، فريدة ورائعة . لن نحاول هنا شرح ما الموشحة ، ولن نتعمق في المشاكل المتصلة بينها ، لأن أستاذي العزيز إميليو غوسية غوث درسها بأدق وأوضح ما يكون ، وإنما سأقف بجهدي عند دراسة الموشحات التي جاءت في الديوان ، وسأصنفها تبعاً لخواصها المميزة لها ، وموضوعاتها وخرجاتها .

يقول ابن خاتمة في المقدمة التي عرض فيها لأقسام الديوان : « وقد قسمتها أربعة أقسام ، قصد التنشيط والإيجام : القسم الأول في المدح والثناء ، والقسم الثاني في النسب والغزل ، والقسم الثالث في الملح والفكاهات ، والقسم الرابع في الوصايا والحكم . وختمتها ببذرة من التوشيح الذي له في مضمار الأدب المجال الفسيح » . يبلغ عدد موشحات الديوان ثمانى عشرة ، وكلها جاءت في خمسة أغصان ، أو أدوار

(٧٦) انظر : عبد العزيز الأهواني ، كتاب المقتطف من أزهار الطرف لابن سعيد الأندلسي ، في مجلة الأندلس ، المجلد ١٣ ، عام ١٩٤٨ ، ص ١٩ ، ٣٣ . وكذلك س . م . شترن : الخرجة الأسبانية في الموشحة الأسبانية العبرية ، في مجلة الأندلس ، المجلد ١٣ ، عام ١٩٤٨ ، ص ٢٩٩ - ٣٤٦ .

إذا شئت . للموشحة الواحدة ، وجاءت من بينها الموشحة الرابعة عشرة ، والسابعة عشرة بلا مطلع ، أو ما يطلق عليه في اصطلاح النقاد موشح أقرع . وأغلبها جاء على غير عروض البحور التقليدية المعروفة ، وقليل منها ، وبتحفظ في بعضها . يمكن أن يقال إنها جاءت فيها . وهي الموشحات رقم ٦ و ٧ و ١١ و ١٤ و ١٦ . فالموشحة السادسة جاءت في بحر الخفيف ، ولكن التفعيلات تتفاوت من بيت لآخر . وهو مالا يمكن أن يحدث في الشعر العمودي . والموشحة السابعة جاءت أغصانها في بحر المجهش . ولكن القفل والخرجة من الصعب ردهما إلى بحر . وجاءت كل من الحادية عشرة ، والثانية عشرة ، في مجزوء البسيط . أما الرابعة عشرة فوزنها بالغ الغرابة . لأن أغصانها ثلاثية . ومن بحر الطويل . أما الأقفال والخرجة فجاءا على وزن مختلفين . أربع مرات . والموشحة السادسة عشرة ممكن أن تكون من بحر المجهش فيما يتصل بالأغصان . ولكني لست على يقين من الأمر كذلك فيما يتصل بالأقفال والخرجة . ولقد أشرت إلى قافية كل واحدة منها وإلى البحر الذي أعتقد حقاً أنها جاءت فيه . وطبقاً لنظرية إميليو غرسية شومث ليس بينها أية واحدة يمكن أن تكون من بحر الكامل . أو الوافر . مما يعنى احتمال الزيادة في المقاطع .

ولا تتناول الموشحات من الأغراض إلا الغزل والوصف فحسب . فليس فيها مدح . لا ديني ولا دنيوي . ولا هجاء . وأسلوبها خفيف . وموسيقى . وذو وقع جميل على السمع . وفيها يبدو وجد ناظمها مجالاً واسعاً عريضاً . فمضى مع موهبته إلى غايتها . ونلاحظ أن الانتقال من الغصن الأخير إلى الخرجة يتم فجأة في بعض الأحيان . وينجى جافاً . وفي بعضها الآخر لا نكاد نحسه . على نحو ما في الموشحات رقم ٢ و ٦ و ٨ و ٩ و ١٢ و ١٧ .

ونجى الخرجة في معظم هذه الموشحات عامية اللغة . ومن ثم ينقصها الإعراب . وتستخدم عدداً من تعبيرات اللغة الشعبية . وأشرنا إليها . ولا نجد بين خرجاتها ما جاء في اللغة الرومانسية . كما كان شائعاً في موشحات هذا العصر . ولو أننا نجد لهذه القاعدة استثناء . كما في موشحات ابن ليون . المتوفى عام ١٣٤٩ م . وجاء بها إميليو غرسية

غومث في كتابه : « الخرجات الرومانشية للسلسلة العربية في إطارها »^(٧٧) .
ثمة خرجة واحدة فحسب لا أرى معناها واضحاً ، مما جعلني أشك في أنها تحوى بين
مفرداتها لفظاً رومانشياً . ولو أن الأمر لا يتجاوز ، حتى هذه اللحظة ، مجرد الفرض .
أعنى الموشحة الثالثة . ونص خرجتها :

ثوبك أحرز من الحبر فقد ملاني

قال لي : خليني نفتصل في بلد راني

وأعترف بأنى لست على ثقة من أن ترجمتى لها دقيقة . أولاً لأن كلمة « حبر » .
وأعتقد أنها تعنى هنا « مداد » . إذا أخذنا في الحسبان أبيات الأغصان التى سبقتها ، والتى
تقول :

وغزالو ما أجمله في تحليته

أخذ الطرس فصلة ووشى فيه

ومع ذلك ، فالمعاجم العربية تضبط الكلمة « حبر » . وهو ما يستحيل هنا . لأن
القافية الأولى في كل الأقفال جاءت راء تسبقها فتحة^٥ ، والشك الذى تولد عندى في
هذه الخرجة . أجمله فيما يلى :

١ - ضبط كلمة حبر بدل حير .

٢ - تعبير « فقد ملاني » ، وترجمته : « إذن ما أجمله ! » .

وضبط الكلمات في المخطوطة لا يدع مجالاً للشك ، ولكنى لا أبجد في المعاجم الفعل
الثلاثى « ملأ » مزيداً بهمزة ، والذى يمكن مع التسهيل أن يفقد الهمزة الأخيرة منه .
وبخاصة في اللهجة العامية . وفكرت أيضاً في أن تكون إملاء ولكن هذا المعنى لا يبدو لي
معقولاً هنا ، هل يمكن أن تكون من الأصل نفسه . بمعنى « جعله يستمتع » ، ومن ثم
يصبح معناها تمتع ، أو شئ شبيه بهذا ؟. إن معنى الخرجة فيما يبدو لي يلح على شئ
كهذا .

(٧٧) مدريد . جمعية الدراسات والشرح . عام ١٩٦١ . رقم ٢٠ ب . ص ١٩٧ .

٥ حذفت هنا فقرة . لأنها مجرد ترجمة لأبيات العيص التى سقت إلى اللغة الأسبانية .
(المترجم)

٣ - نَفْتَصِلْ ، وجاء ضبطه هكذا ، بدل « نَفْتَصِلْ » ، ولم أجد أيضاً حلاً مرضياً للفعل « فصل » ، حين يحى مزيداً بالهمزة والنون ، ولأن المعاجم تقدمه لنا مزيداً بالهمزة والتاء فحسب ، ولأن الصيغتين تشابهان في كثير من الأحيان في المعنى ، فقد ترجمتها « منفصلين » .

٤ - لفظ « بَلْدَرَانِي » ، وفكرت بدءاً في احتمال أن تكون مركبة من كلمتين : بَلْدَ وراني ، ولم أجد في هذا حلاً مرضياً . « وراني » يمكن أن تكون فعلاً لحقته ياء المتكلم ، بمعنى أكون ، في اللغة البربرية ^(٧٨) ، ولو أن استعماله أكثر شيوعاً أمام المضارع ، والاحتمال الأخير ، وارتضيته ، ولست مقتنعة به تماماً كما قلت ، أنها كلمة رومانية ، ويمكن أن تقرأ هكذا « بلندران Balandràn » ، وطبقاً لمعجم مجمع اللغة الملكي فإن لفظ « بلندران » تعود أصوله إلى اللغة الألمانية القديمة ، ويطلق على « لباس سابغ وعريض ، مع معطف قصير على الكتفين ، يستخدمه رجال الكنيسة عادة » ويتحدث دوكانج Ducange في كتابه : « معجم لاتينية العصور الوسطى » عن استخدامه في القرن الثالث عشر الميلادي ، فيقول :

« فيما يتصل ببعض أنواع ملابسنا من البلندراس ، أو البلندران ، المقررة في نظام سان بندكتو ، في مقاطعة نربونة ، عام ١٦٢٦ م ، من المؤلم أن يستخدمها الجمهور ، وبخاصة ما كان منها أصفر اللون ، وقد أدا ان المجمع المسكوني لعام ١٢٥٤ م استخدام الجمهور لها ، وحرم ارتداء البلندران ، دون أية رقابة ، في تلك المقاطعة ، كملابس علمانية ، وليس كملابس دينية » .

فالكلمة ، فيما يبدو ، كانت جارية الاستعمال في اللاتينية الواطية ، وكانت تعني نوعاً من « المعاطف » لا يستخدمه رجال الدين فحسب ، وإنما يستخدمه عامة الناس أيضاً ، كعباءة تغطي ملابسهم وتحميهم ، وبهذا المعنى يمكن أن نفهمها ، وأن نترجمها ، ويصبح معنا في هذه الحالة كلمة رومانية ، هي الوحيدة ، فيما يبدو ، التي جاءت من هذه اللغة في خرجات موشحات الديوان .

(٧٨) بروسنيه ، دراسة تطبيقية ونظرية في اللغة العربية ، الجزائر - باريس ١٩١٤ ، ص ٣١ .

وخرجتا الموشحتين رقما ٥ و ١١ طريقتان ، وقد درسها إميليو غرسية غومث في كتاب « دراسات مهداة إلى مينينديث بيدال » ، المجلد الثاني ، ص ٣٩٧ - ٤٠٨ ، وهما دليل على وجود تلك الأغنيات الشعبية ، سواء أكانت في اللغة الرومانشية أم لا ، والتي بنى عليها الشعراء الموشحة ، ويبدو ذلك واضحا في هاتين الخزجتين أكثر من أى مكان آخر ، والمطابقة ، أو الانتقال من الغصن الأخير إلى الخرجة متكلف ، ونلاحظ للوهلة الأولى ، أننا أمام جمع بين شيئين متناقضين .

والموشحة السادسة باللغة الأهمية للغاية ، فيما أرى ، إلى جانب روعة جالها . وهنا يبدو لي أن ابن خاتمة مؤلف الموشحة والخرجة على السواء ، فليس فيها جفوة ولا تكلف ، وحافظ على نفس الإيقاع . ولها ميزة واضحة استرعت انتباهي منذ اللحظة الأولى . فالتفعيلة الأخيرة من كل قفل تتكرر في بدء كل غصن يليها ، وتمثل حالة واضحة من « الشعر المترابط » ، ولا أعرف لها مثالا آخر شبيها بها في الشعر العربي ، ولكنها تكثر في الشعر القشتالي . وفي مقال الذى نشرته في مجلة الأندلس بعنوان : « بعض طرائف الشعر الأندلسي »^(٧٩) أشرت إلى عدد من أمثلة « القصائد المترابطة » التى توجد في « ديوان باينه El Cancionero de Baena » ، والتقطت بعض الأشعار التى جاءت على هذا النمط في حَمْد وشُكْر « سانتا مريا » ، في ديوان كاهن هيتا* ، وكان معاصرا لابن خاتمة الذى يستخدم نفس طريقة الربط . ~~فإن~~ ثمة علاقة بين الذوق العام والنمط الشعري في هذه المرحلة الأخيرة من الحكم الإسلامى ، بين المسلمين الإسبان وبين إسبانيا المسيحية ؟ من المحتمل جدا أن يكون الجواب : نعم .

والموشحة الثامنة يدور موضوعها عن الحب بين المسلمين والمسيحيين ، وجاءت في أسلوب خفيف ، ينبض حيوية ، ويأخذ طريقه إلى الأذن بلا استئذان .
لقد أتاح التعايش بين المسلمين والمسيحيين في كل العصور وجود هذا الشعر الغزلى ،

(٧٩) مجلة الأندلس . المجلد ٣٣ ، ص ٩٥ - ١٢٢ .

* لمعرفة صلة كاهن هيتا باللغة العربية ، يمكن الرجوع إلى كتابي : دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة ، الطبعة الثانية ، مكتبة وهبة ، القاهرة ١٩٧٧ ، ص ٣٤٢ وما بعدها .
(المترجم)

وتحضرنا الآن أشعار يوسف الرمادى ، وابن الحداد ، والإشارات العديدة إلى التعايش مع المسيحيين وعاداتهم وحفلاتهم الدينية^(٨٠) ، وهنا ، فى هذه الموشحة ، يشير ابن خاتمة إلى غلام نصرانى ، ويمكن أن نشير ، قليلا ما نلتقى بمثل هذا الخبر الطريف ، إلى صعوبة فهم لغة الغلام المسيحى . أتراها مجرد خواطر أم أنها تعكس المناخ الحقيقى فى مملكة غرناطة ، وأنها لم تعرف ازدواجية اللغة . ممثلة فى العربية والرومانشية ، وكانت شائعة فى الأندلس فى عصور سابقة ؟ إنها موشحة . كما قلت فيما سبق ، من أرق موشحات ابن خاتمة ، وأعذبها موسيقا ، وألطفها وقعا على السمع ، والتمهيد فيها ، أو إن شئت الانتقال من الغصن الأخير إلى الخرجة طبعى تماما ، تقول الخرجة :

صُبِّى عَشَقْتُ رومى وَشْ نُحْفَظُ السَّلسَانَ
السَّاعَ مَانَشَاكِلْ عَاشَقْ بَتَرْجَانْ*

وقد ترجم إميليو غرسية غومث^(٨١) الموشحة الحادية عشرة ، إلى جانب الموشحة الخامسة ، وخرجتها كخرجة هذه ، أغنية شعبية جميلة ، أعطاها ابن خاتمة طابع الموشحة . ولكن التمهيد هنا ، أى الانتقال من الغصن الأخير إلى الخرجة متكلف ، وغير طبعى ، ويشى بأن تغييرا ما حدث عند الانتقال إلى الخرجة : لقد ظهر الرقيب ، وعندما رأى وجه المحبوب محمرا ظنه فارق الحياة ، فعلا صوته صياحا ، وشىء كهذا ليس مكانة المناسب هنا ، أو كما يعلق غرسية غومث : « جىء بها تشدها الخيول » ، ومع ذلك ، فمن الواضح أن الخرجة جميلة ، وذات إيقاع شعبى :

صُبِّى جُرْحُ فَالْتَحِيلُ رَشُّ السَّحْبَقُ دَمُّ
بِاللَّه يَاطِيرًا مَلِيحُ قُلَّ الْخَبْرُ لَأَمُّ

(٨٠) هنرى بيريس ، الشعر الأندلسى فى عصر الطوائف ، باريس ١٩٥٣ ، ص ٢٧٣ - ٢٨٧ (الترجم)
● ترجمت الكتاب إلى اللغة العربية ، وسينشر قريبا جدا .
(٨١) دراسات مهداة إلى مينيتيث بيدال ، المجلد ٢ ، ص ٣٩٧ - ٤٠٨ ، بعنوان : « مكانة أحوال طراز ثالث فى الشعر الأندلسى » .
• رقم هذه الموشحة السابع فى الديوان الذى نشره د . رضوان الداية ، والواقع أن الأرقام المسلسلة بها تكرر عند الرقم ٦ المكرر ولذلك تختلف فى كل الموشحات بعده (الترجم) .

ونجد في الموشحة الرابعة عشرة جانباً مختلفاً ، ولقد عنت بدراستها في مقال الذي أشرت إليه فثا سبق ، وعنوانه : « بعض طرائف الشعر الأندلسي » ، إنه موشح أقرع ، أى جاء بلا مركز ، وكل غصن فيه يتكون من ثلاثة أبيات ، جاءت في بحر الطويل ، وجاء القفل في بيتين ، الأول منها في بحر الطويل ، أما الثانى فليس إلا ملحقاً من أربع تفعيلات ، هى تكرار للتفعيلة الأخيرة من بحر الطويل . أما الخرجة ، على نحو ما نرى ، فلا تخضع لأى بحر من بحور الشعر ، وإذا طبقنا عليها نظام التفعيلات فسنجد أنفسنا أمام لون من الأغنيات الشعبية لا تستقيم لأى وزن بعينه ، إذا فككنا بحر الطويل وهو يتكون من أربعة عشر مقطعاً ، فى كل شطر سبعة ، فسنجد أن منه ستة مقاطع فى الغصن ، ويتبعها اثنان . ويبت من أربعة مقاطع لكل قفل . ومن الواضح أن إيقاع الجانب الأكبر من الموشحات وموسيقاها تختلف كثيراً عما هى عليه فى الشعر التقليدى ، ولو أنها ظاهراً يمكن أن تكون قد جاءت فى بحر معين .

والموشحات الأربعة الأخيرة فى هذه المجموعة ، ليست لها أى ميزة خاصة . ويانتهاء الموشحات يختم ابن خاتمة ديوانه ، بعد أن حقق رغبة صديقه التى أبداها له ، طالباً منه « الإغضاء عند القضاء ، فقد انتظم بين قريحة متبددة ، واقتراحات متعددة ، وشبيهة بين الجدل والهزل مترددة » .

وبعد شكر الله ، والصلاة على نبيه وآله وصحبه ، يسجل تاريخ تدوين الديوان ، وأنه تم بمدينة المرية ، بتاريخ أخريات سنة ثمان وثلاثين وسبعائة (١٣٣٧ م) ، على يدى ناظمه ، المستغفر لذنبه ، أحمد بن على بن محمد ابن خاتمة ، لطف الله به تعالى وفقه .

الأصول العربية

لفلسفة رايونندو لوليو

● كتب المستشرق الاسباني الكبير ، العلامة خوليان ريبيرا هذه الدراسة لتتشر في الكتاب الذي صدر تكريماً للعالم الاسباني مينينديث اى بلايو ، ج ٢ ص ١٩١ - ٢١٦ ، وصدر في مدريد عام ١٨٩٩ . وأعيد نشرها في كتابه « نبذ ومقالات » ، ج ١ ص ١٥١ - ١٧٩ ، وصدر في مدريد عام ١٩٢٨ .

من بين أصعب المشكلات حلاً في تاريخ الفلسفة الإسبانية ، الأسلوب الغامض للفيلسوف رايونندو لوليو ، وتقنيته الغريبة ، ومنهجه غير المؤلف وتأكيده النادرة ، وكل ذلك مضافاً إلى عاداته في ألا يذكر مصادر مذهبه ، كان سبباً في أن أفكاره لا تفهم بوضوح كامل ، وليس من السهل أن نحدد بدقة أصول طريقته .

ولد لوليو في ميورقة ، بعد أن افتتحها خايمه ، وسط أسرة عسكرية ، كان ابناً لفارس رافق الملك في هذه الغزوة . ولا يمكن الظن بأن الجزيرة على أيامه هذه كانت تعرف دراسات مسيحية ذات تقاليد ، أو مدارس حسنة التنظيم ، يمكن أن يتعلم المرء فيها الفلسفة ، ولو أن مذهباً بالغ التعقيد كمذهب الفيلسوف ليس مألوفاً أن يظهر فجأة ، بطريقة عفوية ، ولا يمكن أن يحدث هذا في أى مكان من العالم . ومع ذلك ، وقبل أن يغشى هذا العالم المستنير مراكز المعرفة الإنسانية الكبرى ، ظهر في الأديرة ، وسط حياة رهبانية متقشفة ، وأذهل العالم يومها بمذهبه الجديد الرائع .

الذين يقتنعون في سهولة ، والذين يرضون بأى تفسير ، يستطيعون أن يستريحوا ، دون أن يواصلوا البحث العميق الجاد في إصرار ، يقبلون يقيناً أن لوليو عصامي علم نفسه بلا أساتذة ولا قراءة كتب ، وأن كل شيء عرض له جاءه فيضاً . ولكن أى شخص عاقل ،

متوسط الثقافة ، لا يمكن أن يرتضى هذه التفسيرات ، وبخاصة بعد أن ظهر ببراهين واضحة جلية أن لوليو قال في مرات كثيرة ما قاله فلاسفة آخرون أقدم منه ، مسلمون أو وثنيون . وما كان في وسعهم أبداً أن يحظروا بنعمة الفيض .

والأخبار الغامضة التي لدينا عن أيام لوليو في شببته ، لا تهتم بطريقة واضحة عن سير دراسته . ولا كيف كانت الصلة . أو تكونت الرابطة بين أفكاره . وكان علينا لكي نخرج من هذا الشك أن نلجأ إلى أسلوب آخر : أن نقارن بين أفكاره وأفكار الفلاسفة الذين سبقوه أو عاصروه . وبهذه الطريقة وحدها نستطيع أن نشير إلى ألوان من التوافق بينه وبين آخرين مشهورين جداً . وقد رأينا بعض أفكار أرسطوطاليس ، ودون سكوت ، وتوماس الإكويني . وآخرين من فلاسفة العرب أمثال ابن سينا وغيره ، تلمع بين آرائه وأفكاره . ومع ذلك ثمة مجموعة كبرى من أشياء غامضة . وقدر كبير من بقايا أفكاره ، يجعله يبدو كظاهرة رائعة ومتميزة .

أيمكن أن يحدث أنه سار على خطى نماذج مجهولة ، وأن حديثنا عن أصالته الرائعة ليس إلا جهلاً منا بمصادر مذهبه ؟ . هل درسنا التيارات العربية بقدر كاف ، والتي يمكن أن تكون أثرت في فلسفة هذا العالم المستنير ؟ .

إن تربية لوليو العربية لم تنجى من ترجحات لاتينية رديئة ، كالتى كان يستخدمها بعض « المدرسين » على أيامه . وإنما جاءت معاناة من قراءته النصوص العربية الأصيلة مباشرة .

إن الشهرة العالمية التي تمتع بها الفيلسوف الميورقي ، والمعرفة الواسعة التي كان عليها ، لا يمكن أن يبلغها دون أن يستخدم أداتها المناسبة ، وبطريقة ماهرة ، ومن الضروري بمكان أن يعرف اللغة التي كُتبت فيها هذه المواد ، ونحن نعرف عنه أنه لم يتعلم اللغة اللاتينية في المدارس . ويعترف صراحة بأنه لا يعرف قواعدا ، ويقول في مقدمة كتابه أسماء الله المئة : « إن راييموند يرجو الخبر الأب المقدس ، والسادة الكرادلة ، أن يترجموه إلى اللغة اللاتينية ، لأننى لا أستطيع ترجمته إليها ، إذ إننى أجهل نحوها » . ولم يستطع أن

يقوم بدراسات فلسفية في القطلونية^(١) ، وكانت لغته الأم ، والتي يتحدث بها ، ويكتب فيها ، لأن مثل هذه الدراسات لم تكن يومها تكتب في اللغات العامية ، وعلى النقيض من ذلك ، كان ممتازاً في اللغة العربية .

في ضوء هذا السلوك الخاص علينا أن نبحث عن أصول طريقته ، لأن دراساته العربية لم تكن سطحية كما قلنا ، ولا عادية في تناوله لها .

وإذا كان من الضروري أن نبرهن على الواقع ، فالقليل من الأخبار نلتقطها من كتبوا سيرته كافٍ ، وهي تقول إنه تعلم اللغة العربية من عبد مسلم ، متمكن الثقافة على نحو يتيح له أن يدير حواراً متصلاً مع لوليو ، وتذكر واقعاً أنه ألف كتابين باللغة العربية ، أولهما : « التأليف والتوحيد Teliph & el Ateuhid ، وكتاباً آخر يذكره ويلر Weyler ، وهو رسالته « التأمل » ، وأنه جادل في بحاية بالجزائر فلاسفة متمكنين ، وناقش في عناية خمسين عالماً عربياً . وكل ذلك لا يمكن أن يقوم به ، وهو لا يعرف غير لغته الأم ، ودون أن يعايش المصطلحات العلمية في اللغة العربية . وطبقاً لإشاراته في كتابه Desconord كان في معهد ميرامار يعلم صغار الرهبان اللغة العربية ، ولم يكن يقف بهم عند هذا الحد ، وإنما تجاوزها إلى معارف المسلمين ومناهجهم ، لكي يستطيعوا تحويل المسلمين عن دينهم بالحجة المقنعة ، لأن الأعداد العادي للمبشرين لم يكن فعالاً فيما يرى .

وفي كتابه « بلانكيerna Blanquerna يقول : إن الإيمان ذهب إلى بلاد المسلمين ، وقد وجدت هناك رجالاً كثيرين علماء في الفلسفة ، وهؤلاء لا يأخذون بكل مافي الإسلام على ظاهره ، ولا يسلمون بسلطة الأولياء ، ولا يمكن - فيما يرون - أن تكون للمرء عقيدة حقة لا تعتمد على العقل ، وغير ذلك كثير . يقول : « والآن جاء الوقت الذي يقدر فيه الناس الأسباب المؤدية إلى النتائج ، ولهذا السبب نفسه نشأت العلوم الفلسفية والكلامية » .

(١) اللغة القطلونية إحدى اللهجات الرومانية التي ندرت عن اللغة اللاتينية في العصور الوسطى ، ويتكلمها شمال شرق أسبانيا ، وجزر البليار ، وما تزال هذه ومقاطعة قطلونية ، وعاصمتها برشلونة ، تتحدث بها حتى اليوم ، واللغة القومية فيها ، وهي إلى الفرنسية أقرب منها إلى الأسبانية ، بناءً وأصولاً .
(الترجم)

وكان لوليو يضمّر حناناً ودوداً للمسلمين ، جاءه دون أدنى ريب من دراسة الكتب العربية ، ولا يمكن رده إلى الإحسان الرعوى الذى ينطوى عليه صدره ، وكان دائماً سخياً ونبيلاً ومسيحياً ، لأنه مزج فيه بين إعجابه الذاتى وبين علم المسلمين وفضائلهم ، وقرأ الفقرة التالية من كتابه « الكتاب السعيد فى عجائب الدنيا » وفيها يؤكد أن المسلمين أكثر عقلاً ، وأوسع فطنة من المسيحيين : « والسبب الذى يجعل المسيحى يهرم ويموت قبل المسلم ، أن المسلمين يطعمون الأشياء الحلوة ، دافئة وندية ، أكثر من المسيحيين . والمسلمون يشربون الماء ، وهو يزيد من الرطوبة ، ولهذا يحتفظون بداخلهم رطباً على الدوام ، على حين يشرب المسيحيون الخمر ، وهى ساخنة وجافة ، فتزيد حرارتهم ، وتمتص ما بداخلهم من رطوبة . ويتساءل فى كتابه « السعيد فى عجائب الدنيا » : « لماذا يصبح المسلمون أكثر فطنة بالطبيعة كلما تقدمت بهم السن ، والمسيحيون على النقيض ؟ . لأن الوحدة تترك الخمر واللحم بخاراً ، ويتناولها المسيحيون أكثر من المسلمين ، وهما يؤديان إلى تدمير الجسد ، ويضغطان على الفهم . أما الماء وهو بارد رطب فيلطف البخار ، ومع الرطوبة ترتفع رطوبة الدماغ ، ومع البرودة تهبط ، وبما أن الرطوبة خفيفة ، والبرودة فاحشة ، طبيعة ، فإن الدماغ البارد والرطب يمكن أن يكون أشد توافقاً لانسجام أبعثرته . مما لو كانت متفاوتة . وللاحتفاظ بشبابهم عرف المسلمون كيف يرتدون الملابس الفضفاضة ، لأن الهواء مع الملابس الواسعة يستطيع أن يتعاون مع ظاهر البدن . ومن ثم يمكن للهواء الساخن أن يمتص البخار من الجسم عندما يريد أن يزيد من قوة الهضم . على حين أن الهواء البارد يقبض المسام ، فتطيل الحرارة الطبيعية داخل الجسم ، وتجعل قدرة الهضم أقل . ولهذا يحتفظ الرجل الشاب بنضرة الفتوة على نحو أفضل ، وتبدو الشيخوخة واضحة فى محيا الرجل العجوز » (٢) .

ولا يتوقف إعجاب لوليو بالمسلمين عند الجانب العلماني ، وإنما يمتد إلى التراث الديني ولا يعرض لذلك كمثّل يثير به روح المنافسة عند المسيحيين ، وإنما يتجاوز الإعجاب فيحاول إدخاله فى المسيحية ، كتدريب عملي على التقوى .

وهكذا دعا المسيحيين أن يضعوا اسم المسيح على رأس رسائلهم ، كما يضع المسلمون البسملة والصلاة على النبي (٣) ، واستنكر الفوضى التي تلاحظ في الكنائس المسيحية حيث يختلط الرجال بالنساء ، ودعا في كتابه بلانكيرنا Blanquerina ألا يسمح مستقبلاً بأن يختلط الرجال بالنساء في الكنائس ، وكان المثل الذي يضربه المسلمون واليهود في الصلاة موضع تقدير منه ، « وإذا كان هؤلاء وأولئك غير مسيحيين ، وعلى خطأ ، وندين طريقهم ، يلاحظون هذا النظام البديع ويحسون عليه ، فما أعظم السبب الذي يوجب علينا كمسيحيين أن نأخذ به ، وأن نحافظ عليه » .

ويقول أيضاً في كتابه بلانكيرنا ، واتخذ من اسم البابا رمزاً لشخصه :
 « سأل البابا كاردينالا : هل رأى أى مسيحي ييكي خشوعاً في قداسه ؟ . فأجابه : إنه لم ير أحداً ييكي . ولكنه رأى كثيرين ينامون . وقال البابا للكرادلة : يا للروعة ! كيف يقل خشوع المسيحيين في قداسهم ، على حين أن المسلمين ، وهم على خطأ ، ييكون في صلاتهم خشوعاً ، وبيقومونها في ورع وتقوى . وفي الحال رد كاتبه في اللغة العربية ، وكان عند الباب ، فقال ، إن المسلمين يدعون إلى التقوى ، ويشرون بأعجاد الجنة ، ويخوفون من عذاب النار ، ومن ثم يغشاهم الخشوع في صلواتهم ، وييكون من التقوى التي تفيض بها جواشعهم ... » . ولهذا أصدر الخبر الأعظم أوامره بأن يتجول بعض الرجال الأتقياء . ومن تتسم حياتهم بالصلاح والتقوى والخشوع ، كل يوم في شوارع المدينة ، يعظون الناس ، يخوفونهم عذاب جهنم ، ويذكرونهم بالأعجاد السماوية ، لتكون حاضرة أمامهم في كل الأوقات (٤) .

وفي مقدمة كتابه أسماء الله المئة ، يعبر بوضوح عن رغبته في أن تمارس الكنائس يومياً إنشاد أسماء الله المئة ، موقعة وذات نغم ، على نحو ما يقرأ المسلمون القرآن جماعة في المساجد . ومن جانب آخر فن المعروف أن أسماء الله المئة ، من بين الأوراد التي يرددها المسلمون .

(٣) الصديق والمحوب . البيت رقم ١٥٦ .

(٤) بلانكيرنا . ج ٢ . ص ١٣٤ ، طبعة مجلة مدريد .

لا يظن أحد أننا نتصيد النصوص التي نخدم فكرتنا ، ونستطيع أن نبرهن بها على ما نقول فحسب ، وإنما لجأنا إلى كل المؤلفات التي استطعنا أن نحصل عليها ، وهى : بلانكيرنا ، والكتاب السعيد فى عجائب الدنيا ، والأعمال الشعرية ، وغيرها ، ولم نلتق ولا مرة واحدة مع نصوص تفوح منها رائحة احتقار المسلمين ، إنه يتحدث عنهم دائماً فى ودحون . ولكنه لم يتحدث أبداً بمثل هذه الروح عن محمد الرسول ، كان يراه مشولاً عن أرواح كثيرة بائسة ، ولكن ذلك فيما يرى قضية شائكة جداً وخطيرة للغاية ، أن يتحدث بسوء عن الرسول وهو يحاول أن يصد المسلمين عن دينهم ، وجعل من ذلك هدفه الذى لا يغفل عنه طوال حياته .

وقد التقى لوليو مع مسلمين كثيرين ، ليسوا من العامة ، ولا من شخصيات الطبقة الدنيا ، أو أصحاب العادات السيئة ، وهم موجودون فى كل الشعوب ، وإنما كانوا من الصفوة ، رجالاً فضلاء ، أتقياء من زهاد المسلمين ، وكان يطمح فى أن يحول هؤلاء عن دينهم ، ولم تقع فى خاطره أبداً الفكرة المكرورة ، والبريئة فى الوقت نفسه ، والتي تفسر أصالة العقيدة الإسلامية بالبهجة المعنوية فى قانونهم ، وغيبة الكبت فى شهواتهم . وغيرها .

وكان ذلك واضحاً كل الوضوح ، وإلا فكيف نوفق بين موقفه هذا . والاعتراف الصريح بأن أجمل وأفضل مؤلفاته ، وتعتبر أروع ما كتب فى التصوف الإسبانى ، وأصلب أساس يقوم عليه ، كتبها تقليداً لما قام به الصوفية المسلمون ؟ ولقد ردد هو نفسه ذلك ، أكثر من مرة فى كتابه بلانكيرنا يقول : « ورسول آخر من الكاردينال ، عبر إلى جانب من بلاد البربر (شمال أفريقيا) ، ورأى هناك كثيرين من الوعاظ والفقهاء يعلمون المسلمين القرآن ، ويحدثونهم عن مباحج الجنة ، ويدعونهم بالحكمة والموعظة ، وجميع الذين يستمعون إليهم تكاد أعينهم تفيض بالدمع خشوعاً ، وقد أعجب الرسول الوافد كثيراً بالتقوى التى عليها هؤلاء الناس ، وما تنضح به كلماتهم من خشوع وكل ما يدعون إليه خطأ كبير ، وعرف أن القدوة الجيدة التى هم عليها . والحياة التقية المخلصة التى يعيشونها ، ونفاذ الدعوة ، وحضور الدفعة ، مردها أنهم فى وعظهم يشيرون إلى حياة كثير من الناس ماتوا

تقاة ، ولهذا السبب نفسه كان هؤلاء الناس ييكون خاشعين .
 ووجدته أيضًا ، في كتابه « الصديق والمحبوب » يذكر أن الرجال الأتقياء ينشدون حبًا
 في الله ، وحبًا في الله أداروا ظهورهم لمباهج الدنيا ، ومضوا عبر العالم يعانون من الفقر
 ومن أشياء أخرى كثيرة^(٥) . وحينئذ فكر في أن يذهب إلى دير بلانكيرنا ويرجوهم أن
 يؤلفوا كتابًا يدرس حياة الرهبنة ، ومنه يتعلم الرهبان الآخرون ، ومعه يعرفون كيف
 يتأملون ، وكيف يصبحون خاشعين » .

وفي بلانكيرنا عزم على أن يؤلف كتابه الصديق والمحبوب ، وكلمة صديق عنده تعني
 أى مسيحي مؤمن وتقى ، والمحبوب الله إلهنا ، ثم يضيف : « وعلى حين كان يفكر في
 هذا ، في بلانكيرنا ، تذكر في إحدى المناسبات أنه كان بابا ، وذكر له مسلم بأن رجال
 الدين عندهم موضع التقدير والاحترام من الجميع ، وأنهم يسمون الصوفية أو المرابطين ،
 وتعدوا أن يكون كلامهم مزيجًا من أمثلة تحض على الحب ومن الحكم القصيرة التي تؤثر
 في الناس التقاة الخاشعين ، والذين يحتاجون إلى الشرح ، ومع الشرح يبلغ الفهم عندهم
 أعلى درجات التأمل ، وبارتفاعه تقوى الإرادة ، ويتضاعف الخشوع ، وبعد أن أخذ كل
 هذا في الاعتبار قرر أن يؤلف كتابه طبقًا لهذا المنهج^(٦) .

نقلنا كل النصوص السابقة رغم طولها ، لأننا نعتقد أنها ذات أهمية بالغة ، وكلها في
 مجموعها تؤكد الدقة والأمانة التي اتسم بها لوليو حين صرح بالمصادر التي ارتوى منها ،
 وهي حالة نادرة في كتبه ، وكان هذا الاعتراف الخيط القائد الذي هدانا في البحث عن
 نماذج التي احتذاها .

وبعد أن درست بعض كتب التصوف الإسلامية ، أصبحت مقتنعًا بعمق بأن هذا
 الفيلسوف الميورقي الشهير ليس إلا صوفيًا مسيحيًا .

وإن مانجده عنده من ازدراء الهيئات الرهبانية ، والجماعات الدينية المنظمة ،
 واعتكافه وحيدًا ناسكًا متأملًا ليفرغ لخدمة « محبوه » ، وتجوالة فقيرًا ، عاريًا إلا من

(٥) بلانكيرنا ، ج ٢ ، ص ١٠٥ - ١٠٦ .

(٦) ج ٢ ، ص ١٥٨ - ١٦٠ .

خرقة ، ينتقل من بلد إلى آخر ، يعظ الناس في الشوارع والميادين أحياناً ، في أسلوب خشن ، لا يفرق بين الكبير والصغير ، وتفكيره في أن يعزف بالبزق ليلاً ، فإذا سمعه الناس أخذوا في محاسبة نفوسهم ، متعرضاً لاتهم بالحمق والجنون ، وتفرغه أحياناً للتبشير بالمسيحية في الجبال والوديان ، يمضى على « باب الله » الذى يقيم أوده ، أو اعتكافه في مغارة يستغرق في تأملاته ، منفرداً « بمحبوبه » ، بعيداً عن الوحدة التى يشعر بها وهو بين الناس وفي غمار المجتمع ، وكل ذلك كان يقوم به أعداد لا تحصى من المرابطين المسلمين على أيامه ، على امتداد شواطئ أفريقيا التى زارها .

وعقيدته الخاصة أن كل علم إشراف أو فيض من الله ، ويحيى دون وسيلة ثقافية ، وفيه يسبق الإيمان الفهم ، والحقيقة مبدأ مشترك بينهما ، ويصعد الفهم عبر سلم حيث الإيمان يسبقه ، وهذا يعتمد على ذاك للتعلم في الأسرار الإلهية ، والعلم هنا واحد والكل منسجم ، العالى والهابط ، الحسى والمعنوى ، وتضيق الخلافات الكبرى والتناقضات ، وكل هذا يقول به المرابطون المسلمون ويمارسونه منذ أعوام طويلة ، قبل أن يولد رايغوندو لوليو .

وهذه التأكيدات الجريئة لها نكهة القول بأهلية الكون أو « الطمأنينة » ، وفيها يؤكد أن « المحبوب والصديق » يصبحان في لحظة الشطح وحدة فعلية في جوهرهما ، مع نهج واضح في الوقت نفسه ، وقناعة عميقة ، بصحة العقيدة وصفائها . وبراهينه « العقائدية الميتافيزيقية » هذه ، يراها بعض المؤلفين خليطاً غامضاً مما هو صوفي وعامى ، وبين ما هو مقدس وعلماني ، بين ما يبدو حماقة وبين أرق الخواطر ، حجج لا يفهمها كثير من المسيحيين ، وتبدو في نظر لوليو واضحة تماماً ، وتلك التقنية الغربية جداً ، وغير المفهومة أبداً ، والتي قيل عنها إننا فقدنا معها مفتاح ذكائه ، على حين أن كل الطعوم الغامضة لطريقته ، تقنية وفكرًا ومذهباً في القول ، جاءت من الصوفية المسلمين المعاصرين له . وثمة منهج تربوي خاص ، وكان تجديداً أدخله هذا العالم المستنير ، وطبقاً له كل شيء يُعلم شعراً ، حتى المنطق . وكل شيء ينشر نثرًا يتم عن طريق التصوير ، بعيداً عن النظريات البحتة ، والأفكار التجريدية ، وإنما يعرض مصوراً في جداول ودوائر

ومربعات ، وغيرها ، لكى يسلك سبيله عن طريق العين إلى ذكاء الجماهير ، وهو منهج خاص تميز به الصوفية المسلمون المعاصرون للولليو .

ولنبرهن على هذه الآراء ، ونظهر التشابه بين الأفكار والمواقف ، يمكن أن نمضى فى جمع الشواهد من حياة التجوال عند كثير من الصوفية الإسبان المسلمين الذين عبروا إلى شمال أفريقيا ، فى الفترة التى سبقت أيام لوليو مباشرة ، واشتهروا بذكائهم وتقواهم . فابن سبعين المرسى ، وكان مرابطاً وفيلسوفاً ، مضى يعظ فى الشوارع والميادين ، ويعلم الناس بالرموز والتمثيل ، ويستخدم فى أبحاثه عما وراء الطبيعة لغة حافلة بالأسرار والغموض وتخفى وراءها أفكاره الجريئة ، ولم تكن تسير فى الخط المحافظ دوماً . وابن هود الزاهد ، وهو من مرسية أيضاً ، ويتسبب فى أسرة انحدر منها العديد من الشخصيات الهامة جداً ، راح يطوف العالم ناسكاً ، يلبس طرطوره الشهير ، ويرتدى زيه الغريب ، ويتميز بلحيته البيضاء الوقورة ، متقشفاً ، مستسلماً لإماتة النفس والمكاشفات الصوفية ، متأملاً دائماً ، وحزين أبداً ، ودامع العين باستمرار ، وأشعاره تودع على مئات الفراسخ أريج من يعتقد فى ألوهية الكون . أو الوادى آشى ، الششتري الشهير ، وقد أوقى الحكمة ، وجمهرة من الفقراء تتبعه ، زهاد فى ملابس رثة ، غائبين عن الوجود ، وهم مع أستاذهم ينشد لهم موشحاته وأزجاله ، فى عفوية عذبة ، بالغة الروعة ، يتغنى فيها بأشواقه الصوفية ، والحرلى ، أو أبو العباس ، وكلاهما من مرسية أيضاً ، وابن الفارض ، والعفيف التلمسانى ، وأبو مدين ، وآخرون غيرهم ، جماعات كاملة تتلاقى وتتكاثر شرقاً وغرباً ، تعيش الحياة نفسها ، وتمارس أفكاراً متشابهة .

ولكن بين هؤلاء جميعاً ، تميز شخص واحد بالمعرفة الواسعة ، وبالفلسفة العميقة ، إلى جانب أنه شاعر وصوفى ، وأستاذ عالمى ، وأعنى به محبى الدين ابن عربى ، وهو من مرسية أيضاً ، وحياته وآراؤه ومنهجه صورة مسبقة لحياة وآراء ومنهج الفيلسوف الميورقى . فلنحاول أن نستغل المعلومات الوفيرة ، المتناثرة فى مؤلفات ابن عربى الضخمة والمتصلة بحياته ، فى الفتوحات المكية ، ومحاضرات الأبرار ، وديوانه ، وكلها طبعت فى

القاهرة ، والأخبار المتصلة به ، في كتب من ترجموا له من المؤلفين أمثال : المقرئ التلمساني في نفح الطيب ، وابن شاكر الكتبي في فوات الوفيات ، وابن القاضي في درة الحجال وغيرهم ، لكي نبنى سيرة هذا الصوفي الإسباني المسلم ، ونرسم صورة موجزة لحياته في ضوء ما قدموه لنا .

فيما يقول ابن عربي عن نفسه ، ولد في مرسية عام ٦٥٠ هـ = ١١٦٥ م ، في بيت حسب وتقى ، وكانت أسرته ميسورة الحال ، وجرت بين أسلافه أحداث ذات مواقف سريعة ومتقلبة ، انتهت بهم إلى حياة التقشف والعزلة والانزواء ، بعد حياة دنيوية عريضة ومرسلة ، وأحد أخواله ، يحيى بن يوجان ، ملك تلمسان ، استجاب يوماً لواعظ مرابطي خشن ، التقى به يوماً يمتطي صهوة جواده ، ويتجول في ضواحي المدينة صحبة رجال بلاطه ، ترجل من على الحصان ، ونزع ملابسه الملكية ، وبدأ يبكي ، ثم ذهب بعد ذلك يخدم الله رفقة هذا الصوفي ، وفي الرباط كان يعيش على جمع الحطب من الغابات ، ويذهب به لبيعه في تلمسان ، فيجد من الناس التقدير والاحترام ، ويلتمسون منه البركة والدعاء .

وشيء شبيه بهذا دفع صاحبنا ابن عربي إلى تغيير أفكاره وحياته ، وظل حتى في شيخوخته يذكر والأسى يملأ قلبه ، والندم يغشى جوانحه ، تلك الأيام البهجة من شبابه ، مرت دون أن يذكر اسم الله فيها ، وإنما قضاه في الصيد والقنص عبر وديان قرمونة . وبالملة دل ريو ، قريباً من إشبيلية ، على خيل والده ، رفقة بوازيه . وقد أمضى الأعوام الثمانية الأولى من طفولته في مرسية ، ثم انتقل والده إلى إشبيلية ، ولا يذكر من أيامه تلك إلا بعض الكلمات تخلفت في سمعه من خطبة الجمعة التي كان يلقيها إمام المسجد الجامع في تلك المدينة .

وعاش فترة شبابه في إشبيلية ، وككل الشبان على أيامه ، درس القراءات والأدب والتاريخ وغيرها ، وحرص أحد أعمامه على أن يدرس له الشعر ، وفي رحلة قام بها إلى قرطبة نظم بعض الأبيات بمناسبة زيارته لمدينة الزهراء ، وكانت يومئذ أنقاضاً . وأصبحت مأوى للوحوش والحيات ، وعندما بلغ أشده عيّن كاتباً في حكومة إشبيلية .

ولا نعرف ما إذا كانت أمه التقية ، أو زوجه مريم ، أو كليهما وأسباب أخرى . نمت في أعماقه هذا الاتجاه الجديد ، ولكن من المؤكد أن أبا العباس المغربي ، وهو صوفي من إشبيلية ، قدم من الغرب Algarves في جنوب البرتغال ، كان أستاذه الأول في العلوم الإلهية ، وتعلم معه على هذا العالم الجليل إرفاق آخرون من إشبيلية شاركوه هذا الاتجاه . وإجلالا له ، وتقديراً لذكراه ، خصه فيما بعد بمؤلف تاريخي ، أورد فيه أخبار هذه المدرسة .

ويذكر ابن عربي بكثرة ، في كتبه التي وصلتنا ونعرفها ، أنه قرأ ودرس بعض مؤلفات الفيلسوف الإسباني ابن حزم ، وأنه استخدم «كتاب الأسرار» وكان متداولاً بين المدارس والفرق الإسلامية . على نحو ما كان عليه كتاب أرسطو ، إلى جانب رسائل أخرى لم تكن تنسجم تماماً مع الاتجاه السني الرسمي ، ويذكر أيضاً بعضاً من الحوار أو الجدل الذي دار بينه وبين بعض المعتزلة والفلاسفة ، وخرج منها دائماً منتصراً بالطبع .

ومع ذلك ، كان اهتمامه الرئيسي في ذلك الوقت أن يتردد على الزهاد والمرابطين ، ومن الذكريات التي كانت تقع في خاطره دائماً ، ويردها في حنان ودود ، حياة وعادات نونة فاطمة الإشبيلية الصوفية ، وكانت امرأة تقية صالحة ، والهة في حب الله ، وارتبط معها بأواصر الأخوة ، ولزمها سنين خادماً ومريداً ، وشيّد لها بنفسه خصاً من الأعواد ، اعتكفت فيه زاهدة ومسكينة ، وكانت العلاقة بينهما مثلاً عالياً للشرف والحب الصوفي ، ويذهب لزيارتها صعبة والدته ، وكان وجه هذه يحمر خجلاً واستحياء عندما ترى وجنتى تلك المرأة متوردين وبشرتها نضرة ، تبدو كفتاة في الرابعة عشرة من عمرها ، وبقي أن نعرف أن هذه المرأة على الرغم من فائض النعمة التي تبدو فيها ، وميعة الشباب التي تحتفظ بها ، بلغت الخامسة والتسعين من عمرها ، عبرتها صحيحة ، وأمضتها واعية .

وفضلاً عن هذه العابدة احتفظ في ذاكرته بأخرى تسمى مرجانة ، وكان يدعوها «شمس خدامات الله وأم الفقراء» ، وثالثة من إشبيلية تدعى أم زهرة ، وبجمهرة لا تحصى من الزاهدات والصوفيات والعبادات ، اللاتي يملأن مدناً أخرى . ويذكر على

نحو أكثر إصراراً أستاذاً واحداً تعلمن عليه جميعاً ، وهو عبد الله الموروني ، ودرس عليه علم التوحيد .

وعندما بلغ سن الرشد ، وتسلىح بقدر كاف من المعارف ، بدأ رحلاته ، فذهب إلى تونس ، ويذكر أنه نظم قصيدة في جامع الزيتونة ، وفيما بعد ، عندما عاد إلى إشبيلية ، فوجيء بأنهم يرددونها في أسواق إشبيلية منسوبة له ، دون أن يكتبها أو ينشدها أحداً . وذهب إلى فاس ، وفي مسجد الجامع تلقى الفيض الإلهي ، وفي جنة ابن حيون ، مهبط لقاء مردييه ، أثار العجب بينهم بما أظهره في أحاديثه من علم ، وعندما مر بمدينة سبتة درس في بيت زاهد كان تلميذاً للغزالي ، وصاحب مذهب وأفكار كان ابن عربي يحب أن ينظمها شعراً .

وقبل أن يتنبأ بالمهمة التي خصته بها السماء في المشرق ، تجول ثانية في تلك المدن وفي مدن أخرى ، فقد روى وهو في التاسعة والعشرين من عمره في مدينة طريف ، وفي تلمسان حيث زار قبر عمه الموقر يحيى ، وأشرنا إليه من قبل ، وفي الثلاثين من عمره كان في تونس ، وبعدها بعام في فاس . وفي الثانية والثلاثين كان في إشبيلية ، وبعد قليل عاد إلى فاس ثانية ، وفي الخامسة والثلاثين شوهد في غرناطة وألمرية حيث ألف كتاباً رمزياً وموسيقياً ، وفي السابعة والثلاثين من عمره كان في مدينة مراكش .

وفي هذه المدينة الأخيرة تلقى دعوة من السماء بأن يذهب إلى المشرق ، حوم فوقه ، في غرفته أو صومعته التي كان يلزمها ، طائر رائع الجمال ، أعلمه بالخبر . واستجاب لهذه الدعوة الكبرى ، ورحل إلى المشرق ، ومر بفاس وبجاية ، وفي هذه الأخيرة رأى حلماً عجباً : أنه تزوج زوجاً صوفياً بكل نجوم السماء والحروف والبدور ، وعرض رؤياه هذه على من قصها على رجل عارف بالرؤيا ، فاستعظمها وقال : « هذا هو البحر لا يدرك قعره ، صاحب هذه الرؤيا يفتح الله له من العلوم العلوية ، وعلوم الأسرار ، وخواص الكواكب » ، وفي تونس ، المدينة التي شهدت ظواهر تقواه الخاشعة ، ذهب ليزور أخوته في كهف يقع وسط مقابر الجانب الشرقي ، وزار القاهرة ، ولا يحمل عنها ذكريات طيبة ،

فقد ثارت في وجه أفكاره ، وكان على شفا أن يقتل فيها متهماً بالزندقة ، ومنها ذهب إلى مكة .

وفي عاصمة الإسلام تلقى النور الإلهي غامراً ، وكان ذلك دافعاً له فيما بعد ، وبخاصة وهو يطوف بالكعبة ، إلى تأليف كتابه « الفتوحات المكية » ، وهو أروع كتبه ، وكان قد بلغ من العمر حينئذ تسعة وثلاثين عاماً . وفي الواحد والأربعين من عمره ظهر في بغداد ، وفي الموصل ، وبعدها بعام ظهر فيها حول أرمينية ، وذهب إلى نيفارقين ، وديار بكر ، وقونية ، وسيواس ، وغيرها . ومنها عاد إلى مصر ، والقدس ، وبغداد ، وبعدها بقليل روى في ملطية في آسيا الصغرى ، وهي قرية كانت تحت حكم الإغريق البيزنطيين ، وفيها تزوج المرأة التي رزق منها بولديه ، وهما شاعران مشهوران . وفي الخمسين من عمره وجد في دمشق ، وفي حمص أجرى عليك الملك راتباً يبلغ مائة بيزته^(٧) يومياً ، وكان ابن عري يوزعها بين الفقراء . وفي الثامنة والخمسين كان يقيم في حلب ، في بيت أهداه له حاكم المدينة ، وتصدق به صاحبنا ابن عري على أحد المتسولين في الشارع ، وأخيراً عاد إلى دمشق ، وله من العمر ثلاثة وسبعون عاماً .

هناك ، بعد أن كتب أهم مؤلفاته ، وهو الفتوحات المكية ، وسط فيض وكشف لا يتوقف ، تلقى خلاله علوم ما وراء الطبيعة إلهاماً ، في أشكال هندسية وتشخيصات جبرية ، ومات في الثمانين من عمره ، محترماً بفضائله ، موقراً لمواهبه . وحين كان يأخذ طريقه إلى الآخرة ، بدأ الطفل راييموندو لوليويته بين ذراعي الحاضنة في مدينة بالمة ، من جزيرة ميورقة ، وفيما بعد سوف يتجول رجلاً ، مبشراً بالمسيحية ، في نفس الأمكنة التي مر بها ذلك المرباط الإسباني المسلم قبله بأربعين أو ستين عاماً .

كان ابن عري في حركته الدائبة يحمل حياة سارحة ، يبدو معرضاً عن ضجيج الدنيا ، ويتخفى وراء مسكنته واعتكافه ، ورغم ذلك لم يكن مغموراً ولا مجهولاً في أى مكان ذهب إليه ، وتعود أن يقول عن نفسه إنه مجنون ، ورغم ذلك يرى مريديه ، ويحاضر إخوانه ، ويروض تلاميذه . وكان هؤلاء الفقراء الناسكون يمثلون حينئذ ، كما هو الحال في

(٧) البيزته تعادل الآن قرشاً مصرياً واحداً .

عصور تلت ، قوة هائلة فى العالم الإسلامى ، يثيرون الشعوب ، ويدفعون الملوك ، كى يقاوموا المسيحيين ، ويكتبون لهم كى لا يسمحوا لهؤلاء الكفار أن يقيموا كنائسهم ، أويدقوا نواقيسهم أو يرفعوا أصواتهم وهم يتظاهرون عبر شوارع المدينة فى مواكبهم الدينية ، وكان ابن عربى فى المشرق خلال الحروب الصليبية ، فأخذ يستنهض هم المسلمين كى لا يسمحوا للنصارى أن يختلطوا بهم ، وألا يزور أولئك هؤلاء ، ويكتب إلى المسلمين الذين يقيمون فى بلاد الروم يحثهم أن يحافظوا على دينهم ، وألا يدخلوا فى جدل مع المبشرين المسيحيين ، وهو شىء يعافه ، وإن مدح أحياناً الحوار مع بعض المسيحيين ، لأن هذا مما تقتضيه مثالية الفضائل الإسلامية ، وسمو عقيدته الدينية وصفائها ، وهى - فيما يرى - أكثر إقناعاً من الأديان الأخرى ، لأنها تؤمن بكل ماهو صالح فى الإنجيل وصحف موسى .

وفى أواخر أيامه رأى الملوك تجله ، والشعوب توقره ، وأدرك التأثير الرائع الذى أحدثته أفكاره العميقة ، ونظرياته العلمية ، وأصبح الناس يحتفظون بكتبه ويقرأونها عبر كل البلاد الإسلامية . ومنذ قرنين فحسب ، ذهبت جماعة من علماء المغرب إلى سفح جبل قاسيون ، خاشعين راغبين ، لكى يصلوا فى ضريحه ، ولا يزال هذا الصوفى الأندلسى الشهير موضع الإجلال والتقدير حتى يومنا هذا .



إن التشابه المثير فى حياة كلا الصوفيين الإspanيين ، المسلم والمسيحى ، يعود إلى خصوصيتها الفكرية . لقد كتب ابن عربى ، ومثله فى ذلك لولوى ، أكثر من أربع مئة مؤلف ، أو على الأقل هذا ما اعترف به نفسه فى رسالة كتبها لابن السلطان الكامل . وهذا التشابه فى السلوك يمكن أن يكون صدفة كله ، ولكن ما ليس سهلاً تفسيره عن طريق الصدفة البحتة ، أو الاتفاق العارض ، هو التشابه فى نظامها ومبادئها ، ومنهجها ، وطريقة عرضها لما يدعوان إليه ، وثمة موقفان ، أو ثلاثة ، بخاصة لها طابع شخصى ، ويشيران إلى العلاقة المباشرة الودود بين كليهما .

كتب ابن عربى مؤلفاته يبنى بها تربية المرابطين والعاكفين ، وإثارة الحمية فى نفوسهم

حتى يصبح اسم الله موضع الإجلال في الأرض ، وليعملوا على بناء البشر وتهذيب أخلاقهم ، وأن يرتفعوا بفهمهم حتى يبلغوا الحقائق الإلهية . وإذا كان قد اهتم بالعلوم التي تستهدف أشياء دنيوية ، فلكى يعرف « المحبوب » على نحو أفضل ، فغاية العلم معرفة جوهر الحب الإلهي .

وابن عري ، مثل لوليو ، يؤكد أن العلم واحد ، ويبحث عن الواحد . والأشياء الموجودة ليست إلا كلمات الله ، الذي يرى صورته نفسها في المخلوقات ، كما أن المرء يرى صورته نفسها عندما يقف أمام المرأة .

ويرى ، ومثله في ذلك لوليو ، أننا يمكن أن نبلغ العلم عن طريق الإيمان ، وعن طريق الفهم ، ولكن قوة الروح أقوى من قوة العقل الطبيعية ، لأن الإيمان فوق الفهم والعقل ، ومصدر العلم نحيء أيضاً لا تحصيلاً ، والعقل يحتاج دائماً إلى عون مافي براهنيه . وهذه لا تكون علماً حتى ولو استندت على الأسباب الضرورية ، أما الإيمان فضرورة بذاته ، ومن ثم يصلح أن يكون للعقل في البحث عن الحقيقة ، وبالإرادة نستطيع أن نبلغ علماً أسمى من علم الفلاسفة ، وما يعجز العقل الإنساني عن معرفته بطريق الفكر النظري يكشفه الله لعباده إشراقاً ، لأن كثيراً من الأشياء تقع في الجانب الآخر من جبل المعرفة الإنسانية . والله يهب الحقائق العليا لأصحاب الإرادة . أما القياس المنطقي فلا يكفي لما وراء الطبيعة أو العلم الإلهي .

وقد تلقى ابن عري ، فيما يقول ، كل العلوم عن طريق النور الإلهي وحده ، ونفس الشيء يصرح به لوليو ، وعندما كان ابن عري في إشبيلية تلقى المعرفة بالعلوم الطبيعية والفلكية ، بلا كتب ولا أساتذة ، وعرف الكيسياء ، كما يصرح . عن طريق الإلهام علماً موهوباً . ولهذا ليس من عادته أن يشير في كتبه كثيراً ، كما يفعل مؤلفون آخرون ، إلى العلماء أو المؤلفين . يقول ومثله فعل لوليو من بعد : « لسنا نحن الذين يشارون إلى كلمات هؤلاء ، أو أمثال أولئك ، وإنما نقدم في هذا الكتاب (أى الفتوحات المكية) ، وفي كل كتبنا ، ما منحنا الفيض الإلهي ، وما أمر لنا به الله » .

وأسلوبه متناسق مثل لوليو ، وبين العالم العلوي والعالم السفلي تطابق كامل فيما يرى .

وأشكال الأفلاك العليا مثل الأشكال السفلى الأساسية ، ويوجد تناسق كامل بين كل الأنظمة ، ماهو متصل بعلم الكائنات ، وما هو منطقي أو أخلاقي . وهكذا فإن الكائن الصافي ، والكائن غير الصافي ، وما ليس كائناً ، ويمكن أن يصبح كائناً ، أى الممكن ، كلها تتلاقى فى نظام آخر من التقدير مع الله ، والعدم والعالم ، واليقين ، والإنكار ، والشك ، والنور ، والضباب ، والشفق ، والسماء ، وجهنم ، والبرزخ^(٨) . وتناسق نظامه السابق يبلغ النهاية من الكمال ثابتاً وجسوراً فى وحدة الوجود ، ويحاول فى جراءة عظيمة ومنطقية أن يستدل عليها من عقائد الإسلام الأساسية ، وأن يستخرج حتى الحروف نفسها من النصوص القرآنية .

والشكل الذى استخدمه ابن عربى لكى يعرض أفكاره ، وما يمكن أن نطلق عليه منهجه التعليمى ، له مشابهاة لا شك فيها عند لوليو .

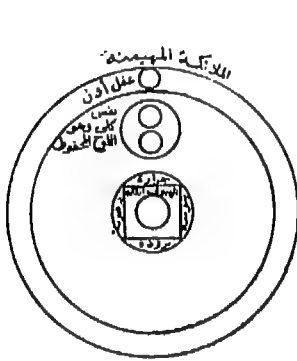
لقد نظم ابن عربى المواد المختلفة شعراً . مهما كان الموضوع جافاً ، وهذه الأشعار يمكن أن تتسم بالجفاف . نعم إيقاعها منضبط ، وموسيقاها واضحة ، ولكن ما فيها من الشعر قليل ، وكل ما هنالك أنه يستخدم نغم القافية وسيلة يعاون بها القارئ على أن يحفظ من الذاكرة ما يحاول أن يعرض عليه . إنها أشعار ميتافيزيقية صعبة الفهم ، حافلة بالمعاني ، ولكنه يكتبها فى سهولة منقطعة النظر ، ويبلغ به الأمر أن يعتقد ، حتى فى هذه ، أنها جاءتة إلهاماً ، لأنه ينظمها فى الحلم . ويتذكرها يقظاً ، وأحياناً يلاحظ عندما يستيقظ أنها تخرج من فمه آلياً . دون أى جهد ثقافى . كما لو كان ثمة شئ فى داخله يملئها عليه ، ونظمها فى كل الأنواع : شعراً وموشحة وزجلاً ، وفى كل البحور ، واستخدم فى قوافيها جميع الحروف . ونخس فى بعض قصائده الصوفية لوناً شعرياً واضحاً ومتميزاً ، ويتوجه فيها إلى الله محبوبه تحت رموز مختلفة ، وسوف نعرض لهذه الأشعار فيما بعد ، على نحو خاص .

ويلعب الجمّل السحرى دوراً عظيماً عند ابن عربى ، وتعود أن يخلطها فى كل أفكاره

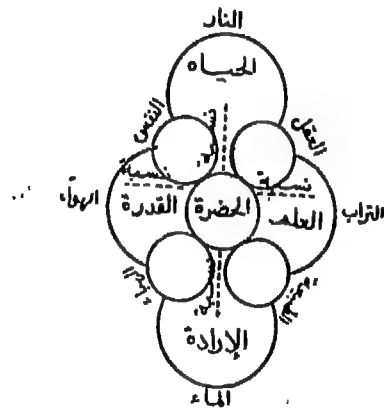
(٨) انظر : ميجيل أنسبى ملانيوس . محبى الدين بن عربى . فى كتابه تكملة مينيديث أى بلايو ، ج ٢ ، ص ٢١٧ -

٢٥٦ ، حيث يشرح بعض هذه المصطلحات .

تقريباً ، وبها يشرح أحياناً أشدها غموضاً وميتافيزيقية . ويؤمن بالفصائل الخاصة للحروف والأرقام ، ويستخدمها في مربعات كوسيلة تربوية .
ويبدو لابن عربي ، ومثله لوليو ، أن كل شيء سهل الفهم عن طريق الرموز ، وتجسيمه عن طريق الرسم ، ويعرض العلم في أشكال رياضية ، ويشرحها مستخدماً المثلثات والمربعات ، وقد تداخلت في بعضها البعض ، والدوائر ومراكزها ، والمربعات داخلها ، وغيرها . وبعض هذه الأشكال قريب الشبه جداً بما عند لوليو ، وأحياناً نجىء في صورة دقيقة منها تماماً ، ومعها ندرك العلاقة الوطيدة بينهما ، كما لو أن أحدهما نسخ صورته من الآخر (٩) .



شكل (٢)



شكل (١)

وتعرض لابن عربي مثل لوليو حقائق ما وراء الطبيعة ، وأخرى إلهية ، في أشكال محسوسة ، ويرى الله أحياناً في شكل نور بلا شعاع ، وفيه تذوب روحه ، على حين توجد في هذا ، في الوقت نفسه ، كل الأشياء بجواهرها التي تتكون منها ، وفي مرات أخرى كانت تعرض له ، كما لو كانت مركز دائرة ، يخرج منه ما هو ممكن في شكل شعاع ، وهناك بعيداً من المحيط ، يوجد المستحيل والعدم الخالص وغيرها . وهذه الأحلام المدهشة التي يراها في إلهامه ، كانت أشياء محسوسة . وليست عقلية ، وفي شكل حقيقي وليست مثالا .

(٩) انظر أسين بلاتويس في المصدر السابق : تصوير وتفسير دائرة الممكن ، ودوائر الأجاس والأبواب .

فلا غرابة إذن أن يضع في عدد من مؤلفاته بعض الرسوم ، يصور بها جانباً من أحلامه على نحو أكثر سهولة للناس من أصحاب الخيال^(١٠) .

وتقنية ابن عربي مثل تقنية لوليو ، صعبة وغامضة على الغرباء ، وإن شئت طبقاً لما يصرح به هو نفسه . إن علمه لا يمكن أن يخضع للتقنية ، ولا تكفي اللغة العادية لعرضه . وفيما يتصل بالأشياء التي تتشابه يكفي أن يتفق الناس على أن يعطوا نفس الأسماء لنفس الأشياء ، أما العلوم الإلهية - ونجته إلهاماً ، فلا توجد لها مصطلحات لأن ما عند الله ليس له مثل ، وإنما جانب آخر لا يحدث أبداً أن يظهر ماهو إلهي للشخص الواحد مرتين في الصورة نفسها . وبالتالي من المستحيل أن توجد تقنية لتوصيله . وفضلاً عن ذلك يحدث للصوفية ما يحدث للعشاق . حين يبلغ بهم هياج الشهوة مبلغه ، فيتحدثون مثل المجانين . بطريقة شاذة ومبالغ فيها . لأنهم لا يستطيعون أن يتحكموا في إرادتهم ، ولا أن يقيسوا المدى الذي تبلغه أفاظهم .



شكل (٣)

في ضوء ما فصلناه سابقاً نستطيع أن نفهم موقف ابن عربي . وكان في نطاق الإسلام شبيهاً بموقف لوليو بين المسيحيين : ذاك مثل هذا كان عدواً متطرفاً وصريحاً لآراء ابن رشد الفلسفية ، والمفكرين الأحرار ، والذين يرفضون فكرة الإلهام والنصوص الدينية ،

(١٠) يقول ابن عربي في كتابه الفتوحات المكية ، الجزء ٣ ، ص ٥٢٣ ، أنه ألف كتاباً بعنوان : انشاء الجداول والدوائر ، صور فيه العالم والحضرتين ممثلتين في أشكال العلم بها على صاحب الخيال ، إذ لا تغلو العقول من حكم الأوهام فيما تعلم أنه محال ، ومع هذا تتصوره ، ويغلب عليها حكم الوهم ، إذ لا ينضبط لها العلم بذلك إلا بعد تصوره ، وحينئذ تنضبط القوة الحافظة وتحكم عليه القوة المذكورة .

والإيمان . ولكنه من جانب آخر كان يمضى بعيداً عن طريق الفقه الرسمى ، كما كان لوليو بعيداً عن الكنيسة الرسمية ، وكلاهما كان يحاول أن يصلح الناس ، وأن يهذب الأخلاق بوسائل تربوية غير حكومية .

وكان الصوفية يريدون أن يبعثوا النهج القديم من حياة الإسلام ، تلك الأيام التى تلت وفاة الرسول ، وكان لوليو يطمح أن يبعث نظام الأخبار من الرسل .
ورجال الدين الرسمىون فى كلا الدينين عاملوهما بكل برود ، واهتمهما دعاة العقل فى كلا الشعبين بالجنون ، وأنها دعاة يملكون بالمدن الفاضلة .

وكان الفقهاء يقولون عن المرابطين إنهم يتحدثون كسكارى ، لغتهم غير مفهومة ، وألفاظهم ذات معنى حين تؤخذ مفردة ، ولكنها فى جملة لا تفهم ، ولا تعنى فى ظاهرها شيئاً . وعلى النقيض ، كان تلاميذهم ومريدوهم يجدون فى الكلمات التى لا يفهمها الآخرون معانى خفية ورائعة ، وتعودوا أن يقولوا عن معارضيتهم إنهم ليسوا إلا رغبة أودخاناً سوف يذهب بهم الزمان .

يقول كمال الدين ، أحد كبار العلماء فى سورية : « يالهم من جهلة ! . يالهم من جهلة أولئك الذين يستنكرون بعض التعبيرات ، والكلمات التى يستخدمها ابن عربى فى كتاباته ، إنهم يحفلون بمعانيها لأنهم لا يملكون الذكاء الضرورى لفهمها ! . ليأتوا إلىّ ، سوف أحل لهم صعوباتها ، وأشرح لهم ما أراد ذلك الرجل العظيم أن يقول ، وبهذه الطريقة تبدو لهم الحقيقة واضحة ، ويمكن أن تزول همومهم الخاطئة » .

وقد سئل الفقيه زروق البرنوسى عن رأيه فى محبى الدين بن عربى فقال : « هو فى رأى أستاذ عالمى ، أراه شيخ العلماء ، أولئك الذين يعرفون كل شىء ، وفيما يتصل باستقامة عقيدته يجب أن أعترف بأن الآراء لا تتفق فى هذا يراه بعضهم زنديقاً ، ويراه الآخرون ولياً ، ضربه الله مثلاً للمسلمين » .

« ويسألون زروقاً ، ومع أى الجانبين أنت ؟ فيجيب : فيما يبدو ، القول بأنه زنديق مجازفة من جانبى ، والقول بأنه ولى مخاطرة ، وقد تودى إلى فضيحة بين الجهال . وهو ما يجب أن يراه الإنسان الحكيم فى مثل هؤلاء الأشخاص كلهم ، كابن الفارض ،

والششتري ، وابن أملة ، وابن سبعين ، والعفيف التلمساني ، وغيرهم ، ففي زهدهم حقائق تتصل بمذهب وحدة الوجود على التأكيد .

وباختصار يمكن القول بأن رأى المسيحيين في أفكار راييموند لوليو ، لا يبعد كثيراً عن رأى المسلمين في ابن عربي ، مع تفاوت بسيط لصالح الفيلسوف الميورقي .

حين نتأمل جيداً كل ما سبق تسترعى نظرنا المشابهات الكثيرة في الحياة ، والنظام ، والمنهج ، والموقف ، بين هذين الصوفيين الإِسْبانين ، كل منهما في نطاق الدين الذي آمن به ، الإسلام أو المسيحية .

وفضلاً عن هذه المشابهات ، وهي دلائل واضحة على علاقات مباشرة ، أو غير مباشرة ، بين محيي الدين بن عربي وراييموند لوليو ، استطعت أن أميز بعض الرموز ، وهي دليل واضح على وجود علاقة خاصة ، مباشرة وشخصية بين المذاهبين ، وتؤكد - فيما أرى - أن لوليو يجب أن يكون قد انتفع إلى حد بعيد بكتب ابن عربي ، وهو ما يفسر لنا جانباً كبيراً من زهده ومن فلسفته .

بين أعمال لوليو المنظومة واحدة تحمل عنوان : « أسماء الله المئة » ، يقول المؤلف في مقدمتها : « يقول المسلمون إن في القرآن ٩٩ اسماً ، وهي أسماء الله الحسنى ، ومن يعرف الاسم المئة يعرف كل الأشياء ، ولهذا آلف هذا الكتاب :

« أسماء الله المئة » ، وأعرفها كلها » . « وفي كل اسم من أسماء الله نظمنا عشرة أبيات من الشعر ، ويمكن أن ترتل في الكنيسة على نغمات المزامير ، فلهذا السبب نظمناها ، لأن المسلمين يرتلون القرآن في مساجدهم » . « وبما أن الله جعل للكلمات وللأحجار وللحشائش خاصية مميزة ، فكذلك مع أسمائه ، ولهذا أنصح بأن تذكر أسماء الله المئة كل يوم ، وأن تحملها مكتوبة معنا » .

كان في ذهن لوليو ، كما نرى وكما يصرح به هو نفسه ، عندما كتب مؤلفه هذا ، أمثلة من التقوى الإسلامية يهدف إلى إدخالها في المسيحية . وفضلاً عن هذا ، نلاحظ تأثير المذاهب الإسلامية في أفكاره . فهو يتحدث عن أسماء الله الحسنى كما لو كانت تعويذة لها فضل وتأثير ، وهو شيء إسلامي تماماً .

ولست أعرف ، أنا على الأقل ، أن الفضائل الطبيعية أو المعجزة لأسماء الله الحسنى شائعة بين المسيحيين ، كما لو كانت أحجاراً أو حشائش لها قوة سحرية خفية . وعلى العكس كان المسلمون على الدوام يرتلون أسماء الله الحسنى ويتذكرونها ويحملونها معهم مكتوبة ، كتعويذة تقيهم كل مكروه .

وإذا كان لوليو حين ذكر هذه الفضائل لأسماء الله الحسنى ، قد سار على خطى مؤلف مسلم ، وهو شيء واضح ، فن المؤكد أن هذا المؤلف هو محيي الدين بن عربي ، لأن هذا كتب عدة مؤلفات شعراً ونثراً تتصل بأسماء الله الحسنى ، وفي الجزء الأخير من مؤلفه العظيم الفتوحات المكية توجد رسالة مطولة ، كتبها شعراً ونثراً عن « أسماء الله الحسنى » ، على الرغم من الجدل الذي قام حول ما إذا كانت هذه الأسماء التسعة والتسعون مذكورة في القرآن أم لا .

وثمة ملمح خاص عن العلاقة الشخصية بين كلا المؤلفين يمكن أن نجدها فيما دعا إليه لوليو من أنه يجب إعادة تنظيم مجمع الكرادلة في روما ، وذلك في رسالته المسماة « بلانكيرنا » ، فجعل لكل كاردينال ، بما في ذلك البابا ، اسماً اشتقه من أبيات ترتيلة « المجد لله في الأعلى » ، وجعل لكل منهم رسالة يؤديها في الدنيا مشتقة من اسمه الذي اختاره له ، فهناك كاردينال يسمى « نحمدك » ، وآخر يسمى « نباركك » ، وهكذا . وفي النظام الداخلي للصوفية ، كما رآه ابن عربي ، نجد أشخاصاً موكلين بالوعظ وتربية المسلمين وهم الأقطاب ، ولفظ قطب ومعناه المحور قريب من لفظ Cardo أو Cardinis اللاتيني ، ومعناه قلب ، ومنه اشتق لفظ كاردينال . وكل قطب له لقب مقتبس لفظه من القرآن ، ومكلف بأن يعظ الناس بلقبه ، وأن يردده في الخافقين ، وأن يمارس في الوقت نفسه مهمة تتصل بما يعبر عنه في هذا النص ، فهناك قطب لقبه « لا إله إلا الله » ، وثان « الله محمود » وثالث « الحمد لله على كل حال » ، وغيرها (١١) .

(١١) أشك في أن الصوفية ابتدعوا لفظ قطب ، ربما لم يصنعوا شيئاً أكثر من تقليد التنظيم الطبق العلوي في الكنيسة الكاثوليكية ، بطريقة خفية وغامضة ، لتعويض غيبة مثل هذا التنظيم في الإسلام ، واقترح لوليو فيما بعد ، متأثراً بالصوفية ، أن يبعث ما سبق للصوفية أن قللوا فيه المسيحيين ، وبعد كل شيء فن المعلوم أن التصوف الإسلامي وليد الأفلوطينية الجديدة للمسيحية .

اتفاق نادر وغريب : إن التجديد الذى أراد لوليو أن يدخله إصلاحاً فى المسيحية ، أطراه فى شكل شبيه له ، الصوفى المسلم ابن عربى .

ولكن الدليل القوى ، وفيما أرى يمثل البرهان الحاسم ، ويفوق كل ما أتينا عليه من مشابهات واتفاقات فيما سبق ، ماورد فى كتاب الصوفى لوليو : « الصديق والمحجوب » ، يقول ، على نحو ما رأينا فى نصوص سابقة ذكرناها : إنه وجد الناس فى جانب من بلاد البربر يحكون هناك أن الأتقياء يرتلون الأناشيد عن الله والحب ، ويسبحون عبر الدنيا ، يعانون المسكنة وأعمالاً أخرى كثيرة ، وأن هؤلاء الصوفية أو المرابطين تعودوا أن يرسلوا بعض الأمثال والحكم القصيرة التى يتطلبها أسلوبهم ، ويضيف لوليو : إنه ألف كتابه طبقاً لهذا المنهج .

ونجد أيضاً اتفاقاً بالغ الغرابة ، وهو أن ابن عربى عثّن كتاباً زهدياً خالصاً له : « ترجمان الأشواق » ، وصفه كما يقول فى المقدمة منه ، وفى أمكنة أخرى من كتابه « الفتوحات المكية » ، بأنه مجموعة من شعر العشق ، تشبه ما يقوله الحبيب فى محبوبة ، غير أن ألفاظه ذات معان رمزية ، وكل المفردات المطروقة فى الشعر العربى من : الأطلال ، وأريج الزهور ، والقمر ليلاً ، والنجوم والبرق والرعد ، والصبا ، والروابي ، والحدائق ، والغابات ، والفتيات الكواعب والتماثيل الجميلة وغيرها ، لها معان خفية ، وأن الصور الغزلية ، والصفات الغرامية ، تشير إلى الله ، والعلوم الإلهية ، وفهمها يجب التعمق فيها ، والغوص إلى أبعد أغوارها ، وليس الوقوف عند ظاهرها وحده . وقد كره بعض الفقهاء هذا الشكل من الشعر الصوفى ، وصدمهم أن تستخدم الأشعار الغزلية فى التوجه إلى الله ، والحديث عن الأشياء الإلهية . ولهذا وجد ابن عربى نفسه مضطراً إلى أن يؤلف كتاباً آخر أعطاه عنواناً : « ذخائر الأعلاق » ، وفيه عرض وشرح الغاية من كل لفظ أو تعبير أو تصوير ، وهى تفسيرات مفيدة لمن يقرأونها ، فيما يرى . لقد كانت تراويل الحب وفقاً على العاكفين أو خدام الله ، وهذه الكلمات الحنون تجعل من الإثارة المعنوية

عملا جميلا ومحبياً (١٢)

وفضلاً عن هذا فإن العقيدة التي يضمورها فيما يتصل بالحب الإلهي تفسر من بعيد مذهب وحدة الوجود ، الذي نلاحظه في صوفية لوليو . ويكرر ابن عربي في أكثر من مكان من مؤلفاته مذهباً مشابهاً نتبينه من فقراته التالية : « إن الغاية التي يؤدي إليها الحب الروحي هي المطابقة ، بأن تصير ذات المحبوب نفس ذات المحب ، وأن تكون المطابقة متبادلة ، فتصير ذات المحب نفس ذات المحبوب كذلك » . وهي فقرة تتفق تماماً مع ما يعرضه لوليو في بدء كتابه « الصديق والمحبوب » . فهما يتفقان كلاهما في الشكل ، وفي الخطوط العريضة للمعنى ، ويحملني هذا على الاقتناع بأن لوليو في مذهبه يتكأ على كثير من الأشياء عند محبي الدين بن عربي .

ربما كان من الأوفق طبعاً أن نجد كثيراً من جمل ابن عربي ، وفقرات من كتبه ، ترجمها لوليو ، ولكن الأمل في أن نجد شيئاً شبيهاً بهذا لا يجب أن يستولى على مشاعرنا ، لأن لوليو لم يهمل ذكر المصادر فحسب ، ولكنه ترك ماتعوداً أن يفعله آخرون أحياناً . مثل : رايوندو مرتين . وألبرتو ماجنو ، وتوماس الأكويني ، وغيرهم . لقد حذف هؤلاء الأسماء . غير أنهم كانوا ينقلون فقرات الفلاسفة السابقين كاملة . وليس ثمة شك في أن لوليو درس كتب الصوفية ، وأطلع على علمهم وتمثل مذهبهم ، ولكنه فيما بعد ، مع كل هذه المادة التي تعلمها ، شكل طريقته ، وعندما كتب لم ينسخ عن آخر ، وإنما قال ما عنده ، كما لو كان له شخصياً . كيف استطاع أن يعتقد أنه ملهم . على حين وهو يعرض مذهبه لم يتوقف عن نسخ النصوص العربية ؟. إن القول بأنه ملهم ، وأنه نقل النصوص العربية في الوقت ذاته . لا يتسع لها معبد لوليو الأخلاقي . وإذا لم يذكر الأسماء ، ويحدد النصوص . فلأنه كان يعتقد أنه جاءته إلهاماً .

باختصار ، كان من عادة لوليو ألا يذكر مصادره . وألا يترجم . وأعتقد أنه استخدم الوسيلة الوحيدة لكي يشير إلى انتماء طريقته الفلسفية . بأن يقول إنه سار على

(١٢) إلى أستاذي العزيز فرانسيسكو قديرة يعود الفضل في الحصول على بعض الفقرات والملاحظات عن مؤلفات محبي الدين بن عربي ، من كتابه « ترجان الأزواق » ، وأخذها مباشرة من النسخ المخطوطة التي تحتفظ بها مكتبة الاسكوريال .

خطى الصوفية . وابن عربى من بينهم بالذات يفسر لنا أشياء كثيرة خاصة ، أصبحت من ملامح الفيلسوف الميورقى . كالمبادئ الأساسية لمذهبه ، وسلوكه الخاص ، ورأيه العلمى ، ومنهجه التربوى ، وتقنيته ، وأخيراً صوفيته . وهو نفسه يعترف ، وذلك شىء نادر جداً . بالتقليد الذى اتبعه فى « الصديق والمحبوب » ، وهو نقطة الانطلاق فى الصوفية المسيحية .

هذه الملاحظة الأخيرة كانت ، كما قلنا فى ما سبق ، الخيط الموصل للبحث الذى حملنا على أن نلمح آفاقاً جديدة لم يكن يحلم بها أحد ، وفضلاً عن أنها تملأ فجوة جاءت حلاً « للاستمرارية » فى تاريخ فلسفة مثل فلسفة لوليو ، كان لها أهميتها على امتداد مئات الأعوام فى نطاق المسيحية . وقادتنا فى نهاية المطاف إلى أن نهتم بأن نخرج إلى الضوء أفكار بعض علماء ما وراء الطبيعة المتعمقين من المسلمين الإسبان ، ولا يتحدثون عنهم فى أوروبا غير القليل أوبالكاد . ويحتفظون بأكثر من مفاجأة للباحثين . هكذا كان أصحاب وحدة الوجود الذين ولدوا فى أرض مرسية ، مذهبهم فيما وراء الطبيعة كان صداه فى العالم الإسلامى أعظم رنيناً من مذاهب فلاسفة آخرين مشهورين جداً بين المسيحيين ، مثل ابن رشد ، وابن باجة ، وابن طفيل .

وفى هذه المفاجأة لأحتفظ لنفسى بأكثر من « مجرد سائح » يحىء فى الطلعة ، ولكى نحمل القضية إلى نهاية سعيدة لا أعتقد فى نفسى أننى مؤهل لذلك بدرجة كافية ، وأدعها آملاً وسعيداً وراغباً لصديق الدكتور ميغيل أسين بلاثيوس ، والذى سوف يقوم بها خيراً منى . فهو يملك الاجتهاد . والصبر . والحماسة العلية ، وتكويناً فلسفياً أصيلاً ، وقوة مثل هذه الروح . وليست جامدة ولا متعصبة ، يمكن مع المرونة الضرورية أن/تواصل ، بلا عنف . اكتشاف التفكير المعقد ، والمتنوع ، والدقيق ، والعميق ، لهؤلاء الصوفية المسلمين .

وبهذه الطريقة . وفى نطاق حقلنا . نحاول أن نكمل وصايا ونصائح بطل العلم الإسباني الممتاز . والذى أهدي إليه هذا المقال .

الشعر الأندلسي وتأثيره في الشعر الأوربي

● هذه الدراسة القاها المستشرق الاسباني الكبير أنخل جونثالث بالثيا محاضرة في المعهد الاسباني التابع لجامعة كولومبيا في نيويورك . ونشرت في « المجلة الاسبانية الحديثة » ، السنة الأولى - العدد الثاني - يناير ١٩٣٥ .
وتصدر عن المعهد نفسه .

سوف أتحدث إليكم عن المسلمين الإِسبان ، وعن جانب من الثقافة الإِسبانية الإسلامية ، ولعباً دوراً عظيماً وبالغ الأهمية في الحياة الأدبية للشعوب الأوربية . وأود أن أعرض عليكم بعض النظريات الجديدة التي انتهى إليها كبار الأساتذة من العلماء الإِسبان ، حول نهج القصيدة الغنائية التي أنشدها المسلمون في وطننا ، ومعها سوف تعرفون أن الأندلس كان يستخدم في العصور الوسطى البعيدة لهجة رومانية في الحياة اليومية ، ذات أهمية كبرى في دراسات فقه اللغة الحديث وستعرفون عرضاً قليلاً من الجهد الذي يقوم به المستشرقون المعاصرون في إسبانيا الحديثة ، والازدهار الذي تشهده الجامعات الإِسبانية ، وفيها لمعت أسماء : خوليان ريبيرا ، وأسين بلاثيوس ، ومينينديث بيدال ، وبهم عرفت قمة من المجد ليس لها شبيه .

وأول ما يجب علينا ، قبل أن نقتحم مجال تاريخ المسلمين في إسبانيا ، أن نسقط من اعتبارنا قولاً معاداً ، ظل يتردد على امتداد أعوام طويلة خلت ، فحجب واقع أولئك الرجال ، وشوه حقيقة كيانه ، وأشد هذه الأخطاء . ويأتى في المقدمة ، الاعتقاد بأن أولئك المسلمين كانوا جميعاً عرباً أرومة ، وأن إسبانيا العصور الوسطى كانت منقسمة إلى فريقين ، في مواجهة مستمرة ، وفي صراع لا يتوقف ، دون أن يعرفوا اتصالاً آخر غير الصراع اليومي ، وهي فكرة مطروقة ، وقول مكرور . وكان محبباً إلى خطباء القرن

الماضى ، والصورة الحبية لديهم عادة أن يضعوا الهلال فى مواجهة الصليب ، وقد احتجب الأول حين رفع الكاردينال مندوثا صليبه البطريكى فوق برج الشمع فى غرناطة ، فى الثانى من شهر يناير عام ١٤٩٢ ، ولكن الحقيقة التاريخية تختلف عن هذا كثيراً ، وفى ضوء ما عرفنا ، واقتنعنا به كلنا ، بعد الملاحظات البالغة الدقة التى انتهى إليها أستاذى خوليان ريبيرا .

لقد لاحظنا معه أن الفتح العربى لم يأخذ طابع الهجرة ، على نحو ما حدث فى غزو شعوب شمال أوروبا البربرية . حين استقروا فى أنحاء مختلفة من الإمبراطورية الرومانية ، ففقدوا عليها ، ومزقوها شرمزق ، وجاءوا إليها بأسرهم وعاداتهم ودينهم ، وعاشوا فيها زمناً دون أن يتأثروا فى شىء بما هو رومانى ، وأبقوا دائماً على عادات أجناسهم الأولى فى البلاد التى قدموا منها . ولكن المسلمين الذين جاءوا إلى إسبانيا لمساعدة آل غيطشة ، ضد لدرىق آخر ملوك القوط ، كانوا عدة آلاف فحسب ، قد يبلغون العشرين ألف عدداً ، من العرب وبربر شمال إفريقيا . جاءوا على دفعتين ، جنوداً فى جيوش مقاتلة ، وحين ارتأى قوادهم فتح شبه جزيرة إيبيريا لحسابهم ، بدل أن يقنعوا بمساعدة أبناء غيطشة ، استقروا فى الأرض الإسبانية ، وكونوا بيوتاً فى بلادنا ، وتزوجوا فى أغلب الأحيان بنساء إسبانيات . ولدينا أخبار عديدة عن سيدات عديدات من عليا الطبقة الاجتماعية القوطية ، أو الإسبانية الرومانية ، تزوجن من مسلمين . ونجد لذلك مثلاً متميزاً فى زواج أيلة Eglón أرملة لدرىق ، وتكنيتها المصادر الإسبانية بأمر عاصم ، من عبد العزيز بن موسى بن نصير ، ومارست على زوجها العاشق قدراً كبيراً من النفوذ والتأثير ، واستطاعت أن تشعل فى أعماقه نار الطموح إلى العظمة ، وحب الفخفخة ، حتى أنه جرؤ على أن يفكر فى الاستقلال بالأندلس ، وأوشكت الأميرة أيلة أن تحرر وطنها من التبعية الشرقية ، وهو حلم أتت عليه خناجر المغتالين حين أنها حياة الأمير فجاءة وهو يصلى فى المسجد ، عقاباً له على اتهام كاذب ألصق به ، بأنه اعتنق المسيحية تحت تأثير زوجه . وامرأة قوطية أخرى ، كان أحفادها بدورا فى سماء الإسلام الإشباني ، وأعنى بها سارة القوطية ، كما تدعوها المدونات العربية ، وقد بلغت الخليفة الأموى نفسه فى دمشق ، دفاعاً عن حقوقها ، وحلت مشكلة

الإقطاعيات التي كانت بيد النبلاء الإسبان الأصليين ، ومن بين أحفادها المؤرخ الشهير **ابن القوطية** ، أحد المؤرخون الذين لحظوا آثار وجود حزب قومي في جنوب إسبانيا ، بين أولئك الذين اعتنقوا الإسلام من المسيحيين .

وحتى أمراء قرطبة الأمويين ينحدرون من أمهات إسبانيات ، ونعرف فيما يروى لنا ابن حزم المؤرخ ، أن أمراء العرش الأموي ، ابتداء من **عبد الرحمن الداخل** ، كانوا أبناء سيدات من شمال إسبانيا ، أغلبهن من **الباشكنس** ، أو **الباسك** في اللغة الإسبانية الحديثة ، وبلغ بهم الأمر أن جاء شعرهم أشقر ، وعيونهم زرق ، لأن الرجال منهم كانوا يفضلون هذا اللون فيمن يتزوجون من النساء . فإذا نظرنا إلى **عبد الرحمن الناصر** ، الخليفة القرطبي الشهير ، في ضوء هذه الاعتبارات ، وجدنا نسبه من ناحية الأب سلسلة متصلة من الأسماء العربية ، ومع ذلك ، فما يجري في عروقه من الدم العربي قليل جداً ، لأن كل جداته كن إسبانيات . ونسبة الدم العربي فيه ، واستعير التشبيه البليغ الذي استخدمه ريبيرا ، « مثل أن تصب قليلا من الأنيلين في بركة ماء ، فليس ثمة شك في أن الماء سوف يأخذ لون الأنيلين ، ولكن طبيعة تركيبه الكيميائي لم تتغير جوهرياً » .

إذا نظرنا إلى الأحداث من هذه الزاوية الجديدة لاستغرب التأثير الذي لعبه **المولدون** ، وهم الإسبان الذين اعتنق آباؤهم الإسلام ، في الحياة الاجتماعية . فقد أخذوا بحظهم من الحياة العامة ، وأسهموا في تطور البلد أدبيا واقتصاديا ، وفي القرون الأخيرة من الحكم الإسلامي بدأت تتردد في المدونات العربية أسماء كثيرة ذات ألقاب إسبانية أصيلة .

وجود جنس إسباني واصل حياته في الأندلس الإسلامي دفعنا إلى التفكير في أن هؤلاء القوم واصلوا الحديث بلغتهم الأصلية ، وكذلك الذين جاءوا إليهم من شمال شبه الجزيرة لكي ينضموا إلى صفوفهم ، والنساء اللاتي انتهى بهن المطاف في قصور الخلفاء وكبار الشخصيات ، مثلهم في ذلك مثل الذين ظلوا في الجنوب واعتنقوا الإسلام دين الدولة الرسمي ، أو الذين آثروا أن يظلوا على دين أسلافهم فلم يفارقوا الكاثوليكية ، وتطلق عليهم المصادر الإسبانية اسم **المستعربين** Los Mozàrabes وظلوا يتحدثون في حياتهم

العائلية ، وقضاياهم اليومية ، لغتهم الأصلية ، أو يستخدمون ما يسمى بعامية أهل الأندلس ، وهي لهجة بدأ علماء فقه اللغة يدرسون خصائصها . ويقول لنا المؤرخون ، مثل الخشنى فى كتابه **قضاة قرطبة** ، إنها كانت تتحدث فى داخل القصور ، وتفهم فى دور القضاء ، وكان الأندلسيون يفهمون النكات ، والتعبيرات غير المحتشمة التى تقال فيها ، وتحصلهم على الضحك . وتأثير من هذه اللغة ابتدع العروض الرومانى ، وسوف نتحدث عنه فيما بعد .

وجود لغتين يتحدث بهما الناس معاً فى الجانب الإسلامى من شبه الجزيرة ، أتاح الفرصة لطريقتين مختلفتين فى مجال الشعر الغنائى ، ومظهرين متباينين فى ثقافة إسبانيا فى العصر الوسيط ، فأصبحت مثلاً فريداً بين كل دول أوروبا ، فى هذا المجال ، وفى جوانب أخرى حيثما اتصل الشرق بالغرب^(١) .

لقد أغرم الإسبان بالأدب العربى ، لأن الطريق إلى الحياة الرسمية والوظائف العامة يبدأ من إجادة لغة القرآن الكريم ، ومع أنهم كانوا يتدثرون الدراسة بالفقه والسنة ، إلا أن منهج تعليم اللغة العربية المستعمل فى المشرق ، والمطبق فى إسبانيا الإسلامية ، أدى بهم إلى معرفة الشعر العربى وتذوقه ، والإعجاب به ، وهذا اللون من الشعر ، ونصفه بالتقليدى . يتركز فى السير على نهج القصيدة الجاهلية . وهى أشعار لا يعلى عليها فيما يرى النقاد العرب القدامى . ومن الواضح أن تقديس هذه النماذج أدى إلى التكلف . ذلك أن الشعراء العرب كانوا ينظمون دائماً أشعارهم وفقاً لهذا المنهج التقليدى . « فكان على الشاعر الذى ينظم قصيدة وفقاً للطريقة القديمة أن يبدأ بذكر المنازل التى ظعن عنها أهلها . ثم يتحسر ، ويرجو أصحابه أن يقفوا معه ، لكى يبكى ذكرى حبيب ومنزل ، ورفاقاً رحلوا عن هذه الديار إلى منازل ومياه أخرى . وبعد ذلك يدخل فى قسم النسيب من قصيدته ، فيشكو آلام الهوى . ومن ثم يستلفت الاهتمام نحو شخصه ، ثم يصف رحلاته المجهدة . الفياضة بالمتاعب فى ربيع الصحراء ، ويتحدث عن نحول دابته من طول السرى ،

(١) يمكن الرجوع إلى الجداول التى توضح هذه الاتصالات فى المحاضرة التى ألقبها عند اختيارى عضواً بمجمع التاريخ ،

ب عنوان : تراث الإسلام . مدريد ١٩٣١ .

ويعتدحها ، ويطنب في وصفها . ويختمها بمدح الأمير أو الحاكم الذى ينشده قصيدته . حتى يفوز بشيء من عطاياه» (٢) .

ودور الشعراء الذين يقلدون هذه النماذج الجاهلية يقوم على تعميق الخيال ، وإحكام الاستعارة ، وإعطاء الأفكار والصور المطروقة شكلاً جديداً ، وفي هذا المجال أبدعوا روائع حقيقية ، وكما استخرجوا من تاج العمود التقليدى ، ذى الأوراق الأقتشية ، أرق الزخارف التى تزين العمدان فى حمراء غرناطة ، واستطاعوا من زخرفة أوراق الحشف البسيطة ، وكانت محبة إلى البيزنطيين ، أن يضعوا الرخام الرائع الذى يزين محراب مسجد قرطبة الجامع ، كذلك فعلوا فى الشعر ، استخرجوا من تلك الزخارف الشعرية « الأرابيسكية Arabisque » ، وتشبه أن تكون قصور حمراء لفظية ، على حد تعبير أفضل المستشرقين الإسبان المعاصرين معرفة بالشعر الأندلسى ، إميليو غوسية غومث ، الأستاذ فى جامعة غرناطة (٣) .

عالج الشعراء الأندلسيون كل موضوعات الشعر ، وتتاح لنا الفرصة هنا لإصلاح خطأ شائع أيضاً ، وهو اتهام عرب تلك الأيام ، ثم أحفادهم من بعدهم حتى يومنا هذا . بالشهوانية الجاسية فى عواطفهم ، لأنهم ، ولم لا ؟ ، عالجوا الموضوعات العاطفية . ولا تنقصنا الأمثلة من شعراء كبار مشهورين ، عرفوا بغرامياتهم العنيفة ، سعداء أحياناً . وتعساء أحياناً أخرى ، وتركوا صدى قوياً دائماً فى كتب التاريخ ، ومن أشعارهم التقط أصحاب كتب المختارات القصائد التى يتخذونها مثلاً . وليس أخلد فى الأدب العربى كله من اسمى ولادة وابن زيدون .

يقول ابن زيدون فى نونيته الشهيرة :

بَنَّمْ وَبَنَّاَ فَمَا ابْتَلَتْ جَوَانِحُنَا شَوْقًا إِلَيْكُمْ وَلَا جَفَّتْ مَاقِينَا

(٢) ر . ياسيه : الشعر الجاهلى ، باريس ١٨٨٠ ، وانظر : جونثال بالثيا ، تاريخ الأدب الأندلسى ، رسلونة ١٩٢٨ ، من ٣٤ - ٣٥ .

(٣) كان ذلك حين ألقى الكاتب محاضراته ، وفيما بعد أصبح أستاذاً للأدب العربى فى كلية الأدب بجامعة مدريد ، ورئيساً لمدرسة الدراسات العربية بها ، ورئيساً لتحرير مجلة الأندلس ، ثم سفيراً لوطنه فى العراق ، ولبنان ، وتركيا ، وهو الآن فى المعاش . (المترجم)

يكاد حين تناجيكم ضمائرنا يقضى علينا الأسى لولا تأسينا
حالت لفقدكم أيا منا فغدت سوداً . وكانت بكم أيضاً ليالينا
إذ جانب العيش طلق من تألفنا ومورد اللهو صاف من تصافينا^(٤)
وقد ردت ولادة على رجاء الحبيب هذا . في مناسبة أخرى ، بهذه الأبيات ، تدعوه
إلى لقاء . وتحدد له موعداً :

ترقب إذا جنّ الظلامُ زيارتي فإني رأيت الليل أكنم للسرّ
وبى منك ما لو كان بالشمس لم تلح وبالبدر لم يطلع ، وبالنجم لم يسر^(٥)

ولا يزال المعتمد بن عباد ملك إشبيلية يتمتع بشهرة عريضة على امتداد العالم
الإسلامي كله ، وكان يحب اعتماد الرميكية . وهي آخر شخصية لمعت من الجنس
الإسباني الإسلامي ، وحين هبت العواصف عنيفة على ملوك الطوائف . ووقعوا تحت
تهديد ملوك الشمال المسيحيين . وقوة هؤلاء كل يوم في ازدياد ، وبخاصة بعد استيلائهم
علي طليطلة عام ١٠٨٥ م . تلفت المسلمون نحو أفريقيا يطلبون العون من المرابطين . وقاوم
المعتمد ، وأدرك واعيا الكارثة المدمرة التي يمكن أن تصيب الإسلام الإسباني من جراء
التدخل الأفريقي .

وحين جاءت لحظة الاختيار لم ينس أنه إسباني . ولو أن المؤرخين العرب وضعوا على

(٤) كل تراجم الشعر الأندلسي إلى اللغة الأسبانية الواردة في هذه الدراسة . ستكون من عمل صديق وزميلي غوسية غومث ،
وهو أقدر من غيره على ترجمة الشعر الأندلسي ، إلى لغتنا ، برعم صعوبته . وكتابه الشعر الأندلسي ، ونشر في مدريد لأول مرة عام
١٩٣٥ ، أفضل مجموعة منه تعرفها اللغة القشتالية . لقد عرف حقا كيف يهب الأشعار المترجمة روحا ، مما جعل ترجمته أعذب وأرق
من ترجمة خوان باليرا الأنفة . في ترجمته لكتاب هون شاك الألمان . شعر العرب وفهم في أسبانيا وصقلية .
● صدرت من كتاب غوسية في الأسبانية طبعات عديدة ، ولما تتوقف طبعاته ، وترجم إلى اللغة العربية بعنوان : الشعر
الأندلسي ، وصدر في القاهرة لأول مرة عام ١٩٥٢ .

(المترجم)

(٥) الأبيات من ترجمة بوس يوبسيس إلى الأسبانية ، وانظر كتابي : تاريخ الأدب الأندلسي ، ص ٦٠ ، الطبعة الأولى ،
برشلونة ١٩٢٨ ، (ص ٦٩ من الطبعة الثانية ، برشلونة ١٩٤٥) .

● لا أظن هذه الأبيات ردا على تلك . لأن هذه تنصع رغبة ، وتقصع عن هوى مكنون . أما البوية فغالها بعد أن انصرم ما بينه
وبين ولادة من حب . من جابها على الأقل . فكانت منه ذكرى آتية ، لعهده تقضى . وحب ولى

(المترجم)

فه الحملة الشهيرة ، قبل أن يشهد احتضار الإسلام في إسبانيا : « أفضل أن أرمى الجمال في أفريقيا على أن أرمى الخنازير في قشتالة » . ومن المؤكد أنه حين رأى المرابطين يغزون الأندلس لجأ إلى صهره ألفونسو السادس ^(٦) ، وكانت لحظة توتر فاجعة في حياة إسبانيا ، لأن قوات الملك القشتالي بقيادة ألبر هانس Alver Fanez . الساعد الأيمن للسيد القنيطور ^(٧) ، توجهت لمساعدة الملك الأندلسي ، ولكنهم هزموا في المدور قريبا من قرطبة ، ولم يعد ممكنا منذ هذه اللحظة أن يشهد الإسلام استقراراً في إسبانيا ، لأن توجيه الأمور فيها انتقل إلى أناس أفريقيين ، بعيدين عن جنسنا . ولا صلة لهم بتقاليدنا ، وأمضى الملك الشاعر التعس ما تبقى له من العمر سجيناً في أغمات ، بأئس العيش ، تهدد خياله الآمال في أن يعود إلى ملكه يوماً ، وهو أمل لم يتحقق أبداً .

يروى ابن اللبانة الشاعر أن رجلا من أهل إشبيلية كان يحفظ قصيدة المعتمد التي كتبها يستعطف بها أباه المعتمد ، لما فرط في أمر مאלقة . وخذله أصحابه . فأخرج منها . ولجأ إلى رنذة ، فأقام بها مدة تحت موجدة أبيه ، والتي مطلعها :

سكّن فؤادك لا تذهب بك الفكر ماذا يعيد عليك البث والحدُر
« ثم خرج من بلده لنية منه إلى أقصى حى في العرب ، فأوى إلى خيمة من خيماتهم . ولاذ بذمة راع من رعاتهم . فلما توسط القمر في بعض الليالي . وهجع السامر . تذكر

(٦) حين رفض المرابطون ترك الأندلس بعد انتصارهم الحاسم في معركة الزلاقة عام ١٠٨٦ م . حاول المعتمد أن يخالف ملك قشتالة ضدهم ، ولكن المرابطين انتصروا عليهم . وقتل بعض أبناء المعتمد وهم يدافعون عن ملكه . ونقل هو نفسه وما تبقى من أسرته إلى مراكش ، وسجنوا في أعماق قريبا منها . وأثناء ذلك هربت زوجة أحد أبناء المعتمد ، مع أبنائها ، والتجأت إلى ملات القونسو السادس ملك قشتالة ، وارتدت عن الإسلام ، وأصبحت زوجة له . وألجأ منها أنه الوحيد ضلخه ، وسوء يقتل فيها بعد . في معركة دارت بين أبيه والمرابطين . تلك هى الخطوط العريضة للقصة ، ولكن الرواية الأسبانية . الشعبية والرسمية والدينية ، والعلماء فيها بعد ، فرحوا بالخبر ، التقطوه وصاغوا حوله الأساطير : كنة المعتمد أصبحت استه ، ولم تهرب . إنما أهلاها المعتمد نفسه لألفونسو ، لتكون عشيقته ، أو زوجته في أحسن الأحوال . والحقيقة ما ذكرنا واسم هذه القصة سدة . وفي المصادر الأسبانية Zaida ، ودرج الباحثون العرب على ترجمتها « زائدة » وفي ضوء القوانين القصصية للغتين الأسبانية والعربية . يجب أن تكون سيده . (المترجم)

(٢) لمعرفة المزيد عن السيد القنيطور والبرهانس . انظر كتاب : ملحمة السيد . دراسة مقارنة . الطبعة الثالثة دار المعارف القاهرة ١٩٨٣ .

الدولة العبادية ورونتها ، فطفق ينشد القصيدة بأحسن صوت وأشجاء ، فما أكملها حتى رفع رواق الخيمة التي أوى إليها عن رجل وسيم ضخم ، تدل سيما فضله على أنه سيد أهله ، قال :

- يا حَضْرَى ! حياك الله ، لمن هذا الكلام الذى أعذوذب مورده ، واخضوضل منبته ، وتخلت بقلادة الخلاوة بَكْرَه ، وهدر بشقشقة الجزالة بَكْرَه ؟.

فقال : « هو الملك من ملوك الأندلس يعرف بابن عباد » .

فقال العربى : « أظن هذا الملك لم يكن له من الملك إلا حظ يسير ، ونصيب حقير . فثل هذا الشعر لا يقوله من شغل بشىء دونه » .

فعرفه الرجل بعظم رئاسته . ووصف له بعض جلالاته ، فتعجب العربى من ذلك ثم قال : ومن الملك إن كنت تعلم ؟.

فقال الرجل : هو فى الصميم من لحم . والنؤاية من يعرب .

فصرخ العربى صرخة أيقظ الحى بها من هجعته ، ثم قال : هلموا ، هلموا ! ، فتبادر القوم إليه ينثالون عليه ، فقال : يامعشر قومى ! ، اسمعوا ماسمعته ، وعوا ماوعيته . فإنه لفخر طلبكم ، وشرف تلاصق بكم . يا حَضْرَى ! أنشد كلمة ابن عمنا . فأنشدهم القصيدة ، وعرفهم العربى بما عرفه الرجل به من نسب المعتمد ، فخامرتهم السراء . وداختهم العزة ، وركبوا من طربهم متون الخيل ، وجعلوا يتلاعبون عليها باقى الليل . فلما أرسل الليل نسيمه ، وشق الصباح أوكاد - أديمه ، عمد زعيم القوم إلى عشرين من الأبل فدفعها إلى الرجل . وفعل الجسيع مثل ما فعل . فما كان رآد الضحى إلا وعنده هُنيدة من الأبل ، ثم خلطوه بأنفسهم ، وجعلوه مقر سرورهم وتأنسهم ^(٨) .

وشبيه بمأساة المعتمد موت الشاعر الغرناطى ابن سعيد . ولا يزال صدى فاجعته فى ذكرانا ، فقد قتله ابن السلطان عبد المؤمن . فى منافسة بينهما على حب حفصة الركونية ،

(٨) أوحز الكاتب القصة إبحارا شديدا . وأتيت بها كاملة لما تنطوى عليه من دلالات . ونصها فى الحلة السراء ، لابن الأبار .

وهي شاعرة ملهمة ، عرفت كيف تعبر عن عواطفها الجاححة . وغيرها الحادة . في هذين البيتين من الشعر :

أغارُ عليك من عيني رقيب ومنك ومن زمانك والمكان
ولو أني خبأتك في عيوني إلى يوم القيامة ما كفاني
وربما كان ابن خفاجة شاعر جزيرة شقر ، من أهم شعراء الغزل الأندلسي ويدرس شعره الآن المستشرق الفرنسي هنري بيريس . الأستاذ في جامعة الجزائر ، وينتظر العلماء بفارغ الصبر نشر ديوان الشاعر^(٩) ، استمع إليه يصور منظرًا غراميًا :

غزاليةً الألاحظ ، ريمية الطلى مداميةً الأملى ، حبايةً الثغر
ترنح في موشية ذهبية كما اشتبكت زهر النجوم على البدر
وقد خلعت ليلا علينا يد الهوى رداء عناق مزقته يد الفجر
ولا أستطيع مقاومة الرغبة في أن أردد ترجمة خوان باليرا لهذه الأبيات من شعر ابن خفاجة ، وتنضح بشهوانية وثنية :

وليل تعاطينا المدام وبيننا	حديث كما هبّ النسيم على الورود
نعاوده والكأس يعبق نفحه	وأطيب منها مانعيد وما نبدي
ونقل أقاح الثغر أوسوسن الطلى	ونرجسة الأجفان أووردة الخد
إلى أن سرت في جسمه الكاس والكرى	ومالا بعطفه فمال على عضدي
فأقبلت أستهدي لما بين أضلعي	من الحر ما بين الثنايا من البرد
وعايته قد سلّ من وشى برده	فعانقت منه السيف سلّ من الغمد
ليان مجس ، واستقامة قامه	وهزة أعطاف وزونق إفرند
أغازل منه الغصن في مغرس النقا	وألثم وجه الشمس في مطلع السعد
فإن لم يكنها أو تكنه فإنه	أخوها كما قد الشراك من الجلد

(٩) لا أعرف أن هنري بيريس نشر ديوان ابن خفاجة كاملاً ، والطبعات التجارية مشوهة ومافسة . والطبعة الوحيدة المتوفرة التي يمكن الاعتماد عليها هي التي قام بها السيد غازي ، الأستاذ في كلية الآداب جامعة الإسكندرية . وشعرها مشأه المعاف . الإسكندرية .

تسافر كلنا راحتى بجسمه فطوراً إلى خصرٍ وطوراً إلى نهد
فتببط من كشحيه كف تهامة وتصد من نهديه أخرى إلى نجد
ولكن ، أهذا كل شيء ؟ هل كانت مشاعر الإسبان المسلمين العاطفية على هذا النحو
فحسب ؟ ليس الأمر كذلك لحسن الحظ ، فثمة مشاعر أكثر سمو وروحية تغلب على
العلاقات العاطفية .

وخلال عهد الإمارة ، الأيام التي كان فيها الزعيم القومى عمر بن حفصون يهدد أمير
قرطبة من وكنته في قلعة بشتّر . كان سعيد بن جودى يمثل النموذج الصادق للفارس
العربى ، وتفرد في زمانه بالخصال العشر لا يدفع عنها ، ولا يكون فارساً كاملاً إلا من
اجتمعت فيه ، وهى : الجود ، والشجاعة ، والفروسية ، والجمال ، والشعر ، والخطابة ،
والشدة ، والطلعن . والضرب . والرماية . وكان شخصيته متميزة ، كذلك الشخصيات
التي نعرفها في عالمنا الإسباني : بدرونيو ، ١٤٦٨ - ١٥٠٥ م ، البحار الذى رافق
كولون في اكتشاف شواطئ فترويلا ، أو المؤرخ المغامر ديجودى باليرا ، ١٤١٢ -
١٤٩٢ م ، وغيرهم كثيرون أمثلة حية للفروسية المغامرة ، أو مثل السيد الإلهى
دون كيخوته ، وقد أحس مرة بأدق جراحات الحب .

وخلال عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن جاء ابن جودى ذات يوم إلى قرطبة ،
« وكان مع جزالته مستهترا بالنساء صبا إليهن . مقدما هن على جميع لذاته » ، ودخل
المدينة من الباب الغربى . ومر بدار الأمير عبد الله ، الذى صارت إليه الإمارة بعد أبيه
محمد . « فوافقه يشرب في عليقة له بأعلاها ، مطلة على الطريق ، مع جارية له تسمى
جيجان ، كانت موصوفة في زمانها بالجمال والحسن والإحسان ، فإذا بها تغنيه ، وهو
يفديها ويستسقيها ، فأنصت للصوت وقد ذهب بلبه ، وعدل ناحيته يمتع سمعه ، ويلتمح
ساعة ، إلى أن لاح له معصم الجارية ، وقد مدت يدها بالكأس إلى مولاها ، فراقه
ما رأى من حسنها ، ووقعت بنفسه فهام بذكرها ، وأداه ذلك إلى البحث عن اسمها ،
فاجتهد في شراء جارية تحسنه بقرطبة ، نقر عنها ، وغالى في ثمنها ، حتى ملكها ، وسماها

جيجان ، اسم هواة تلك ، ونال منها لذته ، فلم تسله عن سميتها ، وهام دهرًا بذكرها ، وقال فيها شعراً كثيراً . منه قوله :

سمعى أبى أن يكون الروح فى بدنى فاعتاض قلبى منه لوعة الحزن
أعطيتُ جيجانَ روحى عن تذكرها هذا ولم أرها ولم ترفى
فقلْ لجيجانَ ياسؤلُ ويأملُ استوص خيراً بروح زال عن بدنى
كأننى واسمها ، والدمع منسكب من مقلتى ، راهب صلى إلى وثني

ونستطيع القول بأن هذه الحالة ليست نادرة ولا شاذة ، وندعم رأينا بما ورد فى كتاب ابن حزم المثير والطريف : طوق الحمامة ، ويمكن أن يقرأ فى أى من اللغات الأجنبية : الروسية ، أو الانجليزية ، أو الفرنسية ، أو الاسبانية ، أو الإيطالية ، ولغات أخرى ، إلى جانب اللغة العربية التى كتب فيها^(١٠) .

مثل هذا الحب يمكن أن ندعوه بالعدوى ، نسبه إلى بنى عذرة ، وهى قبيلة عربية « يفضل الرجال فيها الحزن الحلو ، المستسلم المشوق ، للحب الإفلاطونى ، على العواطف الحادة للغرائز الحيوانية البهجة ، ويعرفون كيف يموتون حباً ، قبل أن يندسوا بالشهوة الملول المشبعة عرس الأفراح العفيفة » .

والأصول الفلسفية لهذه النظرية نجدها مبسطة فى كتاب الزهرة لابن داود الأصفهاني^(١١) ، وتكأ كما يقول المستشرق الفرنسى ماسينيون على النظرية الإغريقية القديمة عن الحب ، ومؤداها أن الحب تعاسة مادية ، وقوة طبيعية ، لا مهرب منه ، أعمى ، لا عقل له ولا غاية ، ينظر إلى سفو كليس بنفس العين التى ينظر بها إلى إمبردوقليس ، ولكنه حب طاهر ، على نحو ما فهمه وعاشه وتغنى به شعراء البدو الزاهدون

(١٠) فى الأصل إشارة فقط إلى الترجمة الانجليزية التى قام بها أ . ر . نيكل . الأستاذ فى المعهد الشرقى بجامعة شيكاغو ، ولم يكن طوق الحمامة قد ترجم لغيرها من اللغات حينذاك .

(المترجم)

(١١) نشر نيكل مع إبراهيم طوقان ، القسم الأول منه ، شيكاغو ١٩٣٢ . ونشر القسم الثانى الدكتور إبراهيم السمرانى والدكتور بورن حمودى القيسى ، بغداد ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م .

من قبيلة بني عذرة . ولكن هذه الفكرة ذات الأصل الإغريقي تبرز بالتقاليد الإسلامية ،
والتي تنسب إلى الرسول قوله : « من حب ، فعف ، فمات ، مات شهيداً » (١٢) ..
وكان هذا الحب العذري متأثراً على التأكيد بالتمازج المسيحية التي يمكن أن يراها في
حياة رهبان الأديرة على نحو ما لاحظ أسين بلاثيوس (١٣) .

يمكن أن نشير هنا إلى أمثلة عديدة للحب الأفلاطوني ، أوردها ابن حزم في كتابه
طوق الحمامة ، وكان المؤلف نفسه يومها يمضي حياته كلها يستنشق أريج كلمة ، أو ابتسامة
عذبة من فتاة شقراء . تربت معه طفلة في قصر أبيه ، ولم يستطع أبداً أن يثير اهتمامها به ،
لأن لحظات المجد التي بلغها بيتهم ، ولا في سنوات التعاسة التي انتهت إليها ، وحين أصبح
البؤس سيد قرطبة ، بعد فتنة البربر ، أناخ بكل كلفة في بيت الفتاة السيئة الحظ ، وأذبل
الحرمان مفاتها ، ولقد وجدها ابن حزم « قائمة في المأتم وسط النساء ، في جملة البواكي
والنوادب ، فلقد أثارت وجداً دفيناً ، وحركت ساكناً ، وذكرني عهداً قديماً ، وحباً
تليداً ، ودهراً ماضياً . وزمناً عافياً . وشهوراً خوالى ، وأخباراً بوالى ، ودهوراً فوانى ،
وأياماً قد ذهبت . وآثاراً قد دثرت . وجددت أحزاني ، وهيجت بلائلي . على أني كنت
في ذلك النهار مرزاً مصاباً من وجوه ، وما كنت نسيته ، ولكن زاد الشجى ، وتوقدت
اللوعة ، وتأكد الحزن ، وتضاعف الأسف ، واستجلب الوجد ما كان كامناً قلباً بجيبها
فقلت قطعة منها :

يُيكِّي لميت مات وهو مكرم وللحى أولى بالدموع الذوارف
فيا عجباً من آسف لا مرء ثوى وما هو للمقتول ظلماً بآسف

أو قصة يوسف الرمادي ، شاعر بلاط المنصور بن أبي عامر ، وقد أحب مبهوراً فتاة

(١٢) ماسينيون . هوى الحسين بن منصور الخلاج . شهيد الإسلام الصوقي ، باريس ١٩٢٢ ، ج ١ ص ١٧١ - ١٧٤ .

(١٣) ابن حزم القرطبي ، ج ١ ، ص ٥٣ .

● ناقشت قضية الحب العذري وأصوله . ورأى أسين بلاثيوس في ذلك ، في كتابي : دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق
الحمامة ، الفصل : « غراميات ابن حزم » ومشكلة الحب العذري في الأندلس ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، ١٩٨٢ .
(المترجم)

جميلة يجهلها ، ورآها مرة واحدة ، ولكنى لن أمضى مع القصة إلى نهايتها^(١٤) ، وأرى من الخير أن نقرأ بعض المقطوعات الغزلية التى تعكس نظرية الحب العذرى ، على النحو الذى شاعت فيه عبر إسبانيا الإسلامية .

لنقرأ هذه الأبيات لشاعر مرسية أبى بحر ، صفوان بن إدريس ، وليكن عنوانها :

« مشهد حب » ! :

يا حسنه ، والحسن بعض صفاته والسحر مقصور على حركاته
بدر لو أن البدر قيل له : اقترح أملاً ، لقال : أكون من هالاته
وإذا هلال الأفق قابل شخصه أبصرته كالشكل فى مرآته
والحال ينقط فى صحيفة خده ماخط فيها الصدغ من نواته
صاحبه والليل يدنى تحته نارين من نفسى ومن وجناته
وضمته ضم البخيل لماله أحنو عليه من جميع جهاته
أو ثقته فى ساعدي لأنه ظبى أخاف عليه من فلتاته
وأبى عفاى أن أقبل ثغره والقلب مطوى على جمراته
فاعجب للتهب الجوانح غلة يشكو الظما والماء فى لهواته

أوهذه المقطوعة لابن فرج الجياني ، المتوفى عام ٩٧٦ م ، وصاحب كتاب الحقائق ، وهو مجموعة من المختارات الشعرية ضاعت ، ولم يصلنا منها إلا ما نقله عنها الآخرون ، وعنوانها « عفة ! » :

وطائفة الوصال عفت عنها وما الشيطان فيها بالمطاع
بدت فى الليل سافرة فباتت دياجى الليل سافرة القناع
وما من لحظة إلا وفيها إلى فتن القلوب لها دواعى
فلكت النهى جمعات شوق لأجرى فى العفاف على طباعى
وبت بها مبيت السقب يظما فيمنعه الكعام من الرضاع

(١٤) يمكن العودة إلى القصة فى كتاب طوق الحمامة ، ص ٤٠ . تحقيق الدكتور الطاهر أحمد مكي . الطبعة الثالثة . دار المعارف . القاهرة ١٩٨٠ .

كذلك الروضُ ما فيه لمثلَى سوى نظر وشم من متاع
ولستُ من السوائِم مهملاتٍ فأتخذُ الرياض من المراعى
ما أبعد هاتين المقطوعتين عن أبيات ابن خفاجة السالفة ، تطفح شهوانية ، وتفيض
رغبة ! .

ولا أستطيع أن أمضى قبل أن أقدم لكم بعض المقطوعات الحميرية ، وكانت شائعة
بين شعراء الأندلس ، وفي الدراسة الموجزة التى قدم بها غرسية غومث لجموعة الأشعار
الأندلسية التى اختارها وترجمها إلى الإسبانية ، يمكن أن نقرأ وصفاً مختصراً لحفلة شراب
جميلة ، « حيث قلب يدنو إلى قلب هوى ، وشفة توحى إلى شفة رشفاً » ، على حد تعبير
ابن هانى الإلبيرى .

ولا أود أن أغفل الشعر الوصفى . أو أمضى دون أن أقدم له مثلاً ، لكى ندرك المدى
البعيد الذى بلغه شعراء الأندلس فى وصف أدق الأشياء ، واللذاعة التى يضعون بها أمام
أعيننا أبسط الأمور .

لنقرأ كيف رأى أبو الحسن ، على بن حصن ، كاتب المعتمد بن عباد أمير اشبيلية .
فرخاً من الحمام ، وكيف وصفه ، يقول :

وما هاجنى إلا ابنُ ورقاء هاتف على فنن بين الجزيرة والنهر
مُفْسَّقٌ طوقٍ ، لا زورديّ كلكل موشىّ الطلى ، أحوى القوادم والظهر
أدارَ على الياقوت أجفانُ لؤلؤ وصاغ من العقيان طوقاً على الثغر
حديداً شبا المنقار داجٍ كأنه شبا قلمٍ من فضة مُدٌّ فى حبر
توسد من فرع الأراك أريكةً ومال على طى الجناح مع النحر
ولما رأى دمعى مُراقاً أرابه بكائى . فاستولى على الغصن النضر
وحث جناحيه ، وصفق طائرا وطار بقلبي حيث طار ، ولا أدرى
وجعفر بن عثمان المصحفى . الحاجب الوزير الشهير ، والذى لعب دوراً هاماً فى حياة

المنصور بن أبي عامر ، في خلافة الحكم الثاني ، وابنه هشام الثاني ، يصف سفرجلة على النحو التالي :

ومصفرة تختال في ثوب نرجس وتعبق عن مسك ذكي التنفس
لها ريح محبوب ، وقسوة قلبه ولون حب ، حلة السقم مكتسى
فصفرتها من صفري مستعارة وأنفاسها في الطيب أنفاس مؤنسى
فلما استمتت في القضيبي شبابها وحاكت لها الأنواء أبراد سندس
مددت يدي باللفظ أبغى اقتطافها لأجعلها ريحاني وسط مجلسي
وكان لها ثوب من الزغب أغبر يرف على جسم من التبر أملس
فلما تعرّت في يدي من لباسها ولم تبق إلا في غلالة نرجس
ذكرت بها من لأبوح بذكره فأذبلها في الكف حر تنفسي
رقة عذبة ورائحة ، لم يبلغها أبداً أي من كتاب النثر المحدثين !.

ولكن هذا الشعر ما كان ممكناً أن يصبح شعبياً في إسبانيا لأنه متكلف إلى حد بعيد ، بالغ الرقة ، واسع الثقافة ، ومن ثم لم يستطع أن يمارس تأثيراً كبيراً على ما جاء بعده من آداب . ولكن ، لحسن الحظ ، ولد في الأندلس جنس غنائي آخر ، انبثق عن اللغة العامية ، وارتبط بعربية الشارع ، وباللغة الرومانشية وكانت تستخدم في الحديث اليومي ، وأصبحت لغة البيت ، وهو جنس بلغ من الحيوية والنضج حداً عالياً في شبه جزيرة إيبيريا ، وامتد تأثيره خارجها ، وهو اكتشاف يدين به العالم المثقف لفطنة العلامة أستاذي خوليان ريبيرا . ففي عام ١٩١٢ اختاره المجمع الإسباني عضواً به . وكان بحثه الأول فيه عن ديوان ابن قزمان^(١٥) ، وفيه قدم براهين جلية على وجود لغة رومانشية كانت تتكلم في الأندلس ، وهي اللغة التي كتب بها شاعر القرن الثاني عشر الميلادي أزجاله . وهي ليست لغة الشعر المعروفة ، التي كان المؤدبون يلقونها للدارسين ، وإنما اللغة الدارجة ، الجارية

(١٥) فندت الطبعة الأولى من هذا البحث ، ثم أعيدت طباعته مع أنماث أخرى للمؤلف في محترات له . صدرت في طلدين ، بعنوان : « بذر ومقالات » ، مدريد ١٩٢٨ .

على الألسن في قرطبة ، بما فيها من نكات سوقية ، وعبارات متبذلة ، ومعجم الساقطات في الموخير ، وألفاظ الطلاب التي يستعملونها في مبادلتهم خارج الدرس ، ومفردات الأطفال حين يلعبون في الأزقة ، وفيها الكثير من المصطلحات التي يتعارف عليها أهل كل حرفة ، ولا تخلو كذلك من اللغو الفارغ الذي تحفل به أحاديث البيوت . وبعض مفردات هذه القصائد الزجلية ملتقط حقاً من جمل موجودة فعلاً ، تتردد دائماً على ألسنة العامة ، وقد تكون مأخوذة من أغنيات أطفال لا تعنى شيئاً بالنسبة لنا الآن ، لأننا نفتقد مفتاح ترجمتها وتفسيرها .

انظر إلى إحدى هذه الأغاني المزدوجة اللغة :

أنا ، مطر . تان شلباطو ،

تان حزين . تان بناطو !

تري اليوم وشطاطو .

لم نذوق فيه غير لقيمة^(١٦)

ليست الفرصة مواتية هنا ، لأضيف جديداً إلى ما جاء به ريبيرا من براهين ذكية ، دلت بها على أن هذا الجنس الشعري أندلسي المنبت ، ويعود إلى ما قبل القرن العاشر الميلادي . وأدلته مقنعة فكرياً ، ولكن النقاد وقد رأوا البناء العملاق الذي أقاموه حتى

(١٦) اعتمدت في كتابة هذه الفقرة على طبعة غربية عومث لديوان ابن قزمان ، وهي أصح الطباعات وأدقها ، وتختلف اختلافاً

بيناً عن غيرها ، ومعنى الكلمات الرومانشية الواردة فيها :

مطر *matre* ، ومعناها أم . تان *tan* عندما تتكرر ، كما هنا ، معناها حيناً وحيناً ، أو كثيراً عندما نجى مفردة . وبناطو *penato* متالم أما كلمة شلباطو ، فيمكن أن تكون شيئاً للسحرية ، ويرى غربية أنها قرية في صويفاتها من كلمة *chiflado* الأسبانية ، ويتضمن أن تكون هي . وهذه معناها : معنوه ، مجذوب ، وترجمة الأبيات في لغة عربية فصيححة ومعاصرة :

أنا ، يا أمي ، حيا شلباطو

وحيثاً حزين ، وحيثاً متالم .

ألا تزين اليوم طويلاً ؟

ولم أذق فيه غير لقيمة !

وانظر القصيد كاملة في كتابنا « شعراء الأندلس والمثنوي » - وفي دراسة موجزة عن ابن قزمان ، من ١٥١ - ١٧٥ ، وهو ترجمة

لكتاب غربية عومث . الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٣ .

(المترجم)

ساعتها ، لتفسير أصول الشعر الغنائى فى اللغة الرومانشية ينهار من أساسه ، يطالبون بالوثائق ، وبالشواهد التاريخية التى تبرهن على وجود هذا الشكل فى تلك العصور البعيدة . وظهرت الوثيقة ! وجدناها فى فقرة أوردها مؤرخ الأدب العربى فى الأندلس ، الشهير

الثقة : ابن بسام ، فهو يقول فى كتابه « الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة » :

« وأول من صنع أوزان هذه الموشحات بأفقنا ، واخترع طريقته ، فيما بلغنى ، محمد ابن حمود القبرى الضرير^(١٧) ، وكان يصنعها على أشطار الأشعار ، غير أن أكثرها على الأعاريض المهملة غير المستعملة ، يأخذ اللفظ العامى والعجمى ويسميه المركز ، ويضع عليه الموشحة ، دون تضمين فيها ولا أغصان » . « وأوزان هذه الموشحات خارجة عن غرض هذا الديوان إذ أكثرها على غير أعاريض أشعار العرب » .

وعندما نسمع هذا رأى ، ويدل على احتقار ابن بسام للموشحات ، لأنها جاءت فى « أكثرها على الأعاريض المهملة غير المستعملة » ، وفيها ألفاظ عامية ورومانشية ، يرد فى خاطرناتعبيرالمركزسانتيانا Santillana الشهير ، عن الأشعار الرومانشية ومؤلفيها ، فهو يقول فى رسالته « مقدمة إلى مشير البرتغال » : « شعراء منحطون أولئك الذين ينظمون هذه الأغاني والأشعار الرومانشية ، بلا أدنى نظام ولا قاعدة ، وهى لا تبهج إلا أسافل الناس والطبقات المنحطة » . وكما أنه على امتداد القرون التى خلت ، لا أحد غير الموسوعيين والذين يخترفون الأدب يذكر شيئاً من أشعار سانتيانا ، ونظمها على النهج الإيطالى أو الفرنسى ، على حين أن القصائد الرومانشية ظلت برهاناً خالداً على قيمة الأدب الإسباني ، وتعتبر من مفاخر أمتنا فى البلاد المختلفة التى تتكلم اللغة القشتالية ، حدث الشيء نفسه فيما يتصل بالزجل ، فعلى حين أن القصائد ومقطعات الشعر العمودى الأندلسية التى اختارها ابن بسام لما تزل ترقد مطوية فى مخطوطات العصور الوسطى لا يذكرها أحد ، انتشرت الموشحة والزجل على

(١٧) يرى بعض الباحثين أن ابن بسام ، أو ناسخ الذخيرة ، أخطأ فى الاسم . وأن صُحْته مقدم بن معاذ القبرى . ويرى آخرون أنها شخصان وجد كلاهما ، ولكن المثير أن يكون كلاهما من قبرة ، ويوصف بأنه صرير ، وعاش فى الفترة نفسها . وينسب إليه ابتداء الموشحات .

امتداد العالم العربي كله (وما زالوا يتغنون بها في المغرب والجزائر ، وحتى في الهند) وعبر العالم المسيحي ، واستطاع أن يمس ، كما سنرى ، شكل الشعر الغنائي في اللغات الرومانشية ، لأن الشعب في كلا الجانبين ، العربي والمسيحي ، استولى على الطريقة الجديدة ، وجعل من نفسه سيداً لها ، ونقلها كل جيل إلى خلفه ، كشيء يكون جزءاً من روحه ذاتها .

طرفاً هذه الطريقة الجديدة هما الزجل والموشحة ، والزجل أشد بساطة ، وهو يتكون من أدوار ، وكل دور يتكون من مطلع ، أو مركز ، ومن ثلاثة أبيات ، أو أكثر ، متفقة القافية فيما بينها ، تسمى الأغصان ، وبيت آخر ، أو أكثر ، هو القفل ، وقافيته ووزنه من نفس قافية ووزن المطلع .

وأما الموشحة فنظم تكون فيه القوافي اثنتين اثنتين ، على هيئة الوشاح ، « كالعقد يتكون من صفيين من لآلي مختلفة الألوان » ، فالتسمية تشير إلى طريقة تأليف القوافي ، وفيما عدا ذلك تشبه الزجل تماماً ، فشكلها واحد ، وكل ما هناك أن الزجل يطلق على السوق الدارج منها ، إذ لا بد أن يكون في اللغة الدارجة ، مما يتغنى به في الطرقات ، أما الموشحة فلا تكون إلا في العري الفصيح ، ويمكن القول إن لفظ الموشحة يطلق على المذهب من الزجل ، الذي تستعمل فيه الفصحى ، أو ينظم في أسلوب أرفع من أسلوب الأزجال . والمثل التقليدي للزجل نجده في « أغنية التلامذة » لكاهن هيتا ، وهو :

Senhores, dat al escolar,

Que vos vienne demandar.

Dat Lymosna é rracion

Paré por vos oracion,

Que Dios vos dé salvacion

Querid por Dios á mi dar.

سادس، اعطوا التلميذ،

الذي جاء يطلب منكم.

اعطوه صدقة صلاة،

فهو سيصل من اجلكم،

ويدعو الله ان ينجبكم،

ليريدون ان نعطوهم الى

El byen, que por Dios feciéredes,

La Lymosna, que á mi diéredes,

Quando deste mundo saltéredes,

Esto vos avrá á ayudar.

وماصم من خير فله،

وماعظيم من صدقة فله،

وعندما ندعوك هذه الدنيا،

فكل ماصم سيكون لى عريككم.

وفضلاً عن هذه الأزجال ذات الطراز البسيط للغاية ، ويتكون كل دور فيها من المركز ، وثلاثة أبيات هي الأغصان ، وبيت رابع هو القفل ، فهناك أزجال كثيرة تستخدم القوافي الممكنة في أغصانها ، ولكنها تحترم نظام القفل في كل دور دائماً ، كقاعدة أساسية في هذا النظام ، ومن ثم يمكن أن تكون لدينا النماذج التالية :

○ أدوار خماسية تكون قوافيها على هذا النحو : أ أ ب ب ب أ ج ج ج أ إلى آخر

الزجل .

○ أدوار سداسية تكون على هذا النحو : أ ب ج د د د أ ب ج إلى آخر الزجل .

○ أو سباعية تكون على هذا النحو : أ ب ج أ د د د أ ب ج أ إلى آخر الزجل .

ومع ذلك ، يمكن القول أن الطابع الشعبي لهذه الأزجال ، وأشير إلى أزجال ابن قزمان بخاصة ، رغم قالبها المبتكر ، يدل على أنها نظمت ليتغنى بها الشعراء الجوالون في الأسواق ، والمتسولون في الشوارع والطرقات ، والمحتالون في الحواري والأزقة ، وأصحاب المجون والخلاعة ، و « النسوان والسكرى والسكران » ، على حد تعبير ابن سناء الملك . وهي ليست مما يتغنى به الإنسان منفرداً ، « وإنما ينشدها الناس جماعة في الطرقات بصوت جهير ، وسط جمهور يتجمع أفراداه حول المنشد ، حيث ينشدون المركز جماعة عقب كل فقرة يلقيها ، وتصحب ذلك كله آلات الموسيقى كالعود والناي والطنبور والدف والصاجات ، وربما تخللها الرقص » .

وأوزان هذه الأغاني . على الرغم من أنها مشتقة من تفاعيل العروض الشعرى التقليدية ، لا تلتزم بقواعد النحو ، وألفاظها من الدارج الذي لا يعرف حركات الإعراب ، ولا يخضع النطق بقوافيها لشرائط التقفية المعروفة في الشعر الفصيح ، ولا يفوتنا أن نشير إلى ابن قزمان كان يستعمل دائماً الصوامت Consonants بطريقة أكمل مما نجده في الأشعار الأوربية القديمة » .

ويكون المركز عادة مما يثير انتباه السامعين ، ويجذب أسماع الجماهير ، حتى يصغوا إلى الأغنية وهم راغبون ، ونجى غزلاً ، أو دعوة إلى الشراب ، مثل قول ابن قزمان :
أياماً ملاح ، شرط الخلاعة خزيت أم الذي يعمل صناعة

وقوله في زجل آخر:

نعطى ثيابي وننفق مالى فالشراب السبلى

ويسمى ابن قزمان الجزء الأول من كل زجل: «التغزل»، وهو مطلع الزجل الذى يومىء إلى موضوعاته، «ولابد أن يكون فى أمر عام أو تقليدى، وينبغى أن يصاغ فى قالب سهل خفيف فكاهى، ويغلب أن يكون موضوعاً جنسياً أو حمرياً أو سخرية من المجتمع، ولا ينجىء جارحاً ولا مثيراً». وإنما مبتدلاً لا تحفظ فيه». ويعالج الغزل بطريقة لا صلة لها بالطابع العربى المشرق. فلا أبل ولا تجوال ولا قفار، ولا أثر للحياة البدوية الطاعنة، ولا ذكر للديار التى هجرها أهلها، ولا يشير إلى أى من موضوعات تاريخ العرب. ولا يذكر الإسلام إلا فى مواضع قليلة، ويكون ذلك عادة عند تعرضه للفقهاء والأتقياء. وهو ينال منهم فى غير حياء، ويركبهم بألوان من السخرية، فإذا ذكر شهر رمضان والصيام سخر من الصائمين، وأطرى المقطرين والمقبلين على الخمر واللواط. وهو لا يذكر الدين إلا فى ثلاثة مواضع أو أربعة خلال أزجال المديح، ويحجىء هذا التوقير منه وهو فى معرض السخط على نصارى الشمال^(١٨).

«أما القسم الثانى من الزجل وهو المسمى «بالمديح»، فيتنبغى فيه ابن قزمان بفضائل من يهدى إليه الزجل. ثم يختمه بطلب معروف أو عطاء».

وفى يومنا هذا تقدمت كثيراً الدراسات التى تهدف إلى جمع المادة التى تساعد على معرفة هذه الطريقة الأندلسية، وفى العام الماضى نشرت مدرستا الدراسات العربية فى كل من مدريد وغرناطة النص العربى لديوان ابن قزمان^(١٩) فى حروف لاتينية، وترجمتا جانباً

(١٨) أوجر الكاتب هذه الفقرة، وآثرنا نقلها بالتفصيل من كتابه الأدب الأندلسى، الفقرة ٥٩، الطبعة الثانية، برشلونة

١٩٤٥.

(المترجم)

(١٩) نشر غريسيث ديوان ابن قزمان من جديد. وجاءت طبعته فى ثلاثة مجلدات، نشرتها دار «حريدوس» فى مدريد، عام ١٩٧٢. وقد شمل الديوان وصحه، وشربه فى حروف لاتينية مع ترجمته إلى الأسبانية، المجلدين الأول والثانى، وأودع المؤلف آراءه وأفكاره ودراساته المجلد الثالث. ومع أنه لا يمكن التسليم بكل ما قال من الجمع، إلا أن تحقيقه لنص الديوان جاء عملاً ممتازاً، وبالتالي ألقى ستار النسيان على كل ما سبقه من محاولات.

(المترجم)

كبيراً من أزاله ، وليس كلها ، إلى اللغة الإسبانية ، لأن ترجمتها عسيرة للغاية .

نحن إذن إزاء واقع تاريخي لاشك فيه ، وهو وجود طريقة شعرية غنائية شعبية منذ القرن التاسع الميلادي ، انتشرت في العالم الإسلامي منذ العصور الوسطى حتى يومنا هذا ، لأن أصحاب الزجل والموشحات كانوا يمثلون اتجاهًا ، ورغم أن عددًا منهم لا بأس به عرف بقدرته على نظم الشعر التقليدي ،^١ وله فيه قصائد معروفة ، أو كتب مؤلفات بالعربية الفصحى ، إلا أنهم صاغوا قصائدهم في هذا قالب الجديد ، لما يتميز به من حيوية باللغة القوة ، احتفظ بها إلى يومنا في اللغة العربية ، كما يقول خوليان رييرا ، فلا يزال يستخدم في المغرب ، وفي كل شمال إفريقيا ، وحتى في مصر ، وفي الحفلات الدينية في فارس والهند ،

وحتى المدائح النبوية جاءت في نفس العروض ، ومن نفس القافية ، التي صبت فيها أغاني الخلقاء في شوارع قرطبة ، حين يرسلون في الهواء الجارى خطراتهم غير المحتشمة ، خلال القرن الثاني عشر الميلادي .

وبعيداً عن عالم الإسلام ، في إسبانيا وفي أوروبا ؟. لقد أصاب رييرا كبد الحقيقة حين دعا إلى الاهتمام بهذه الوقائع الجديدة ونحن نبحث عن أصول الشعر البروفنسالي ، ولو أن الدوائر العلمية تلقت يومها فكرته في برود وفور ، لأن من الصعب جداً أن نشد الأفراد إلى خارج ما تعودوه ، بعيداً عن « الروتين » ، وأن ندفع بهم في طرق جديدة . يتطلب السير فيها جهداً كبيراً ، وربما كان رأى الناقد الفرنسي جان روا تلخيصاً أميناً لما كان قد استقر عليه النقد الأوربي إذ ذاك . يقول : « جاء الشعر البروفنسالي منذ نشأته بعيداً عن أى تأثير أجنبي ، لقد انبثق فجأة ، كزهرة انشقت عنها الأرض بلا ساق ولا جذور » . ويعتبر مينينديث إى بلايو الشعر البروفنسالي أصل كل الأشعار الرومانسية .

ومضت الأعوام الأولى ، والصمت يلف فكرة رييرا ، وبخاصة في المجالات المتخصصة ، وفيما بعد ، حين نشر نص ابن بسام الحاسم ، أخذت نظرية رييرا طريقها إلى كتب التاريخ المبسطة والموجزة ، ومن ثم بدأت تنتشر . دون أن تهمل أوروبا عن

معارضتها العنيفة لها ، وسيكون قسوة منى أن أستغل صبركم ، وأمضى معكم في رحلة عبر الجدل الذي أثاره كتاب أمثال : رودريغيز لابالRodriguez Lapalالبرتغالي ، ونيكل Nykl التشيكي والمقيم في الولايات المتحدة ، وسيجي Siger ، وسبانكSpanke ، وشلودكو Scheludko ، وغيرهم، ووجهة النظر التي قبلها كل من الإسباني مينينديث بيدال M. pidal ، والبرتغالية كارولينا ميكائيليس Carolina Michaelis وآخرون من علماء الدراسات الرومانية ، وأفضل أن أقدم لكم بعض النماذج من الشعر الذي جاء في قالب الزجل من الآداب الرومانشية ، لتحكموا في القضية بأنفسكم .

نجد مثلاً أن جيوم التاسع Guillaume IX ، كونت بواتيه ، ودوق أقيطانية ، تزوج عام ١٠٩٤ م من فيليبه ، أرملة شائجه ملك أرجون ، واشترك بنفسه في الحروب الصليبية عام ١١٠١ م ، وعاد منها بعد عام ، أى في سنة ١١٠٢ ، وتوفى عام ١١٢٦ م ، أو ١١٢٧ م ، ونظم في أواخر حياته أشعاراً في قالب الزجل ، ولو أنه أدخل تغييراً طفيفاً على الطريقة الأندلسية ، فجعل المركز في نهاية الغصن لا في أوله ، واعتبره قفلاً أو نهاية^(٢٠) ، وجعل قافية أول بيت من القفل ترد في نفس قافية البيت الذي قبل البيت السابق عليها ، وهذا الأمر الجانبي جعل العروض البروفنسال يأخذ طريقاً مختلفاً . أنظر إلى الأغنية السابعة من ديوانه :

"Farai un vers, pos mi sonelh.
E'm vauc e m' estauc al Solelh,
Domnas ia de mal conselh,
E sai dir eals:
Cellas C'amor de Cavalier
Tornon a mals."

« سأنظم شعري مادمت حليلاً .
ممتطياً صهوة حوادي تحت ضوء الشمس
هناك سوة كثيرات سيئات البية .
وأقول لكم من هن :
إهن اللال يؤولن عشق الفارس
تأويلها ميساء .

(٢٠) من الواضح أيضاً أن موشحات وأرحالا عربية كثيرة جاءت أيضاً بلا مركز ، واصطلح النقاد القدامى على تسمية ما جاء كذلك « أفرع » في مقابل تلك التي تبدأ بالمركز . وتسمى « تام » أو « كامل » . كما أن بعض القصائد البروفنسالية جاءت أيضاً كاملة ، أى بدأت بمركز . كما نرى في المثال التالي .

وأشد وضوحاً القصيدة الثامنة في ديوانه ، وجاءت ثمانية المقاطع ، وفيها يشير إلى

تجديده :

“Farai chansoneta nueva..	سأظم أغنية جديدة،
Ans que vent ni gel ni plueva	قبل أن تعصف الرياح، ويسقط الجليد، ويطل المطر،
Ma donna m'assai em'prueva.	فسيقل تلسر وتبلول،
Quossi de qual guiza l'am,	لتعرف كيف أحبها،
E ja per plag que m'en mueva	ومهما ضاعفت أذى،
No'm solvera de son liam.	لن ألك نفسي من وثاق حبها.

وفي قصائد شعراء التروبادور الآخرين ، مثل : موان دي مونتودون Moine de

Montaudon وكلمة موان تعني راهب ، وج . رينولد G. Raynold ، وج . بحريت

G. Magret . ومركبرو Marcabru نجد أشعارا جاءت في القالب الذي صاغ فيه أشعاره

كونت بواتيه ، وظل نظام هذا الطراز من الشعر الأندلسي ، وأعني به الزجل

والموشحات ، باقياً في صناعة الألحان الموسيقية خلال العصور الوسطى ، ولا سيما في هذا

النوع من الألحان المعروف بالرونندو rondó ، وفي الأغاني الشعبية الفرنسية ، مثل :

« La Reuse de Dunkerk » « وردة دنكرك » ، « La mau mariée » ،

بل إن هناك مقطوعات فرنسية راقصة شاعت بين الناس في القرن السابع عشر ، سارت

كلها على طريقة عرفت باسم « الرونديه Le Rondet » ، أي التوبة ولا تزال تذكرنا حتى

اليوم ببحور الزجل الأندلسي .

ولابد أيضاً أن بعض الأغاني الشعبية القطلونية تتصل ببحور الزجل الأندلسي ، مثل

هذه الأغنية ، وجاءت تحت عنوان : « La llebre » :

“Dentre l'hort me'n son entrada,
i una llebre hi he agafada,
La flor del llinet
La flor del llinet m'agrada,
La flor del llinet.
Por la cua l'he agafada,
Si l'he uita a l'empallada,
tot tas tant me l'he manjada.”
La flor del llinet.....

وفما يتصل باللغة البرتغالية توجد أشعار جاءت في قالب زجلى في « ديوان الفاتيكانة Concioneros de la Vaticana » وفي « مختارات برانكونى "Colocci - Brancuti" » وتظهر أيضاً في قصائد فرنان فلهو Fernàn Velho شاعر من عصر الملك ألفونسو العاشر ، الملقب بالعالم ، وفي ديوان الشاعر بايوسواريز Payo Soarez وحتى في إنجلترا نلتقى بأغان شعرية قديمة ، موجهة إلى العذراء ، أو تقال في أعياد الميلاد ، صبت في هذا القالب الشعرى الأندلسى ، وحتى يومنا لا تزال نجد في الأغان الشعبية في إسكوتلاندة ، وفي إيرلندة ، رباعيات جاءت على نمط أزجال مسلمى الأندلسى .

وقد درس العلامة خوسية مياس فايكروسا José Millàs Vallicrosa الأستاذ في جامعة برشلونة ، تفصيلاً وفي عمق ، الصلات التي كانت قائمة بين الشعر الإيطالى في العصر الوسيط وبين أصوله الإسلامية ، ووجد أن عروض القالب الشعرى المسمى « الكونتراستو Contrasto » ، ومعناه الخصام أو الاختلاف يرجع إلى أصول فارسية ، ويصاغ في قالب الزجل الأندلسى . ويرى أن الشعر الدينى الإيطالى في العصر الوسيط ، والذي يطلق عليه اسم « المدائح Laudes » ، وينظم في اللهجة الدارجة ، على النقيض من التراتيل اللاتينية ، ولم يكن الجمهور يفهمها ، كان على صلة وثيقة بعروض الزجل الأندلسى . ونجد أفضل نماذجه عند جاكابون دى تودى Jacapone di Todi . صديق القديس فرانسيسكو دى أسيس ، فقد التزم قالب الزجل كاملاً أحياناً مثل :

«Dulce amor di povertade,
quanto ti degiamo amare!
Povertade poverella,
Umildade e tua sorella,
ben ti basta la sacodella,
e al bere e al mangiare».

« يا حبيب الفقر الرقيق ،
كم بنينى أو أحببك ! .
أيها الفقر المسكين ،
إن الذلة أختك ،
يكفيك طبق صغير ،
للشرب والطعام » .

وأحياناً أخرى يحور شكل الزجل الأندلسى ، فيقسم البيت إلى أشطار ، فيصبح ثمانى المقاطع ، بعد أن كان رباعياً :

"O magioa virtuoso – retenutta battaglia
non e senza travaglia – per lo megio passare.
L'amor me costrenze – d'amare le cose amante
ne l'aomre e l'odio – de le cose blasmane
amare ed odiare – en un coragio stante
socce bataglie tante – non le porria stimare."

وتبدو أوزان الموشحات والأزجال في الطراز الشعرى الإيطالى المعروف بالبالاتا La ballata ، أى المرقصات ، وهو يمثل الشعر فى أحسن صوره ، وبلغ قمة تطوره عند لورنزو دى مديتشى Lorenzo di Médicis والبوليز يانو El Poliziano ، وظلت طريقته مستعملة فنظمت فيها الأغانى الكرنفالية ، وهو طراز شعبي عنى بنظمه الأدباء ، وإن كانت موضوعاته مما يوجه إلى العوام فحسب ، مثل أزجال ابن قزمان تماماً . ويظهر طراز الزجل كذلك فى المدائح المقدسة ، التى تشبه المنظومات الإسبانية المعروفة باسم « المدائح الإلهية » ، وجاءت فى قالب الزجل شكلاً وعروضا .

وأخيراً: فيما يتصل بإسبانيا ، احتفظت هذه بشكل الزجل حياً خلال العصور الوسطى . وفى العصر الذهبى للأدب الإشباني (القرن السادس عشر الميلادى) . ولقد حار علماء فقه اللغة زمناً فى أوزان أغانى ألفونسو العاشر . أما الآن ، وبعد أن قام خوليان ريبيرا بدراسة موسيقاها على نحو رائع وخالد . فيمكن تفسيرها فى ضوء الزجل الأندلسى ، قالباً ووزناً . فإذا كتبنا هذه الأغانى دون أن نقطع الأبيات إلى أشطار وجدنا معظمها من طراز الأزجال . وإن كان القفل ينظم على قافية سابقة مثل :

"Oimidades con pobreza, quer a Virgen coroada.
mas d'orgullo con riqueza e ela muy despagada.
E desta razon vos direi un miragle muy fremoso.
que mostrou Santa Maria Madre do Rey grorioso.
a un ererigo que era le a servi deseioso.
e por en gran maravilla le foi per ela mostrada "

وترجمتها :

ان السيدة العذراء التوجة تفصل التواضع مع الفقر،
على العرور مع العى ، لأنها تخترهما احتقارا سادياً .
ولذا سوف نقص عليكم معجزة باللغة الحال،
سمتها القديسة مارية ام الرب المحيد،
لرجل دين كان راغبا في خدمتها،
وقد صنعت العذراء هذه المعجزة لثريه اباعا

وقد رأينا فيما سبق كيف أن « أغنية التلاميذة » لكاهن هيتا جاءت في قالب زجلى ، وكان الشاعر يعرف الحياة الإسلامية جيداً ، ويعرف الآلات الموسيقية التى يستخدمها المغنون العرب . وكتب أحياناً أغانى مرقصة للمتبحرات والراقصات الموريسكيات ، وثمة شعراء آخرون فى « ديوان باثنة » . مثل :
بياسندينو Villasandino ، وخرينا Gerena ، وآخرون مثل خمينيث دى أوربا Jiménez de Urrea ، وألبارث جاتو Alvarez Gato وستونييجا Stuniga ، والأغنيات التى تضمها الدواوين الموسيقية . مثل « ديوان بلاثيو » ، ونشره برييرى Barbieri . وكلها تسمى إلى أصلها الأندلسى . استمع إلى أغنية المسلمات الثلاث

هذه :

Tres moricas me enamoran :
en Jaén:

Axa y Fátima y Marién.

Tres moricas tan garridas,
iban a coger olivas,
y fallabanlas cogidas,

en Jaén:

Axa y Fátima y Marién.

Tres moricas tan lanzanas
iban a coger manzanas
y fallabanlas t omadas,

en Jaén:

Axa y Fátima y Marién.

Dijeles: Quienes Soies, Sonoras.
de mi vida robadoras?

ثلاث سليات عشقى

فى حيان.

عائشة وفاطمة ومريام

ثلاث سليات رائعات الحيل.

دهن يجمعن الزيتون

فوجدنه قد حن

فى حيان:

عائشة وفاطمة ومريام.

ثلاث سليات فاضلات السمر.

دهن يجيرن الدلع.

فوجدنه قد حن

فى حيان:

عائشة وفاطمة ومريام

قلت لهن: من أدنى مافنيات

وفد سلتى حيان.

– Cristianas, que eramos moras
en Jaén:
Axa y Fatima y Marién.

قلن مسيحيات وكن ملهمات
في جيان:
عائشة وفاطمة ومريم

إلى آخر هذه الأغنية ، ومامضى فقرات منها . وموضوعها وموسيقاها تعود إلى أيام
هارون الرشيد ، وظلوا يتغنون بها في إسبانيا حتى القرن السادس عشر الميلادي ، والتقطتها
السيدة كارولينا ميكائيليس في البرتغال في القرن التاسع عشر الميلادي .
وبعض مقطوعات الشاعر خوان دل إثنينا Juan del Encina الدينية جاءت في البحر
نفسه ، الذي جاءت فيه القطعة السابقة :

No te tardes, que me muero;
carcelero,
No te tardes, que me muero!
Apresura tu venida,
porque no pierda la vida.
que la fe no está perdida,
Carcelero,
No te tardes, que me muero.
sacame desta Cadena,
que recibo muy gran pena,
pues tu tardar me condena,
Carcelero
No te tardes, que me muero

لاتنب عني ، فإن لموت ،
يا سجان ،
لاتنب عني ، فإن لموت ،
عجل بالهنيء ،
حتى لا أفسد حياتي ،
وفيك لم يضع إيمان ،
يلسجان ،
لاتنب عني ، فإن لموت ،
فك عني هذه القيود ،
وفيها فلسية الأمل ،
حين تنب عني تقضى علي ،
يا سجان ،
لاتنب عني ، فإن لموت .

وبعض أغنيات المهدي جاءت في نفس هذا القالب الزجل ، وكثير من الأشعار
الدينية التي تشد بمصاحبة موسيقى علمانية ، وظل هذا التقليد متبعاً حتى القرن السابع
عشر الميلادي ، وقد نظم الشاعر الإسباني كيبيدو Quevedo بعض الأبيات يسخر فيها
من بعض السود ، وجاءت في قالب زجل ، وحتى الكاتب المسرحي كالديرون
Calderon في مسرحيته المأسوية الرائعة « حب بعد الموت » ، يرسل على السنة بعض
الموريسكيين الأنشودة التالية ، ذات الطابع الزجل الخاص الخالص :

Aunque en triste cautiverio,
de Alá por justo misterio,
Llore el africano imperio.
su misera ley esquiva
su Ley viva!
viva la memoria extrana,
de aquella gloriosa hazana,
que en la libertad de Espana.
a Espana tuvo cautiva
su ley viva!

وعلى الرغم من الأسر التعيس،
وإرادة الله لنا عدلاً خفياً،
فإننا نكفي الامبراطورية الأفريقية.
ومقدر عليها من شقاء
وليحي دين الله!
ولنحي الذكرى الرائعة،
للك العمل المجيد^(٢١)
التي جعلت من إسبانيا
أسيرة حريتها.
وليحي دين الله!.

يا للحيوية الرائعة التي ينطوي عليها هذا النظام الشعري! ، لقد ظل يقاوم التلاشي على امتداد قرون وقرون ، وأصبح وسيلة للتعبير عن مشاعر شعوب مختلفة ، وفي لغات متباينة ، ويجب أن نضيفه إلى أبحاد الحضارة العربية الخالدة ، والتي امتدت إلى أوروبا عن طريق الإنسان المسلمين ، والتي لا تنحصر في مسجد قرطبة الرائع ، وأؤكد لكم أنه لا يوجد مسجد آخر يضاهيه أهمية وروعة على امتداد كل العالم الإسلامي الذي أعرفه مشاهدة من المغرب إلى أسطنبول ، ولا في منارة الخير الدا الجميلة في إشبيلية ، رمز الأندلس ، وإبداع مهندس مسلم يحمل لقباً إسبانياً ، وليس لها شبيه في الجمال والرقّة في كل العالم الإسلامي ، ولا أستثنى من ذلك منارة الكتبية الشهيرة في مدينة مراكش ، ولا في روعة قصور بني نصر الحاملة في غرناطة ، وليس للحمراء مثيل في كل المعالم المدني القائم في العالم الإسلامي . وعندما نتذكر بناء هذه الروائع لا يجب أن ننسى أولئك الشعراء المغمورين والضائعين ، مثل مقدم بن معافى القبري ، والذين أبدعوا لنا قالباً شعرياً يفيض بالقوة والحيوية ، على نحو ما رأينا وحللنا في إيجاز . وفي كل الحالات عندما نتذكر التراث الذي أضافه الإنسان المسلمون إلى الحضارة الأوروبية ، نشعر بالزهو لأن هؤلاء الذين خلفوا لنا هذه الروائع الفنية ، من الزجل والموشحات والنظريات الفلسفية التي تربي عليها المفكرون الغربيون ،

(٢١) يشير إلى فتح المسلمين لإسبانيا .

وكتب العلم والطب التي أسهمت في أن تجعل من الحياة الإنسانية شيئاً أجمل وأفضل ،
والذين بلغوا القمة بالحضارة على أيامهم ، وجعلوا من إسبانيا أرقى دول أوروبا ثقافة ،
هؤلاء كانوا أجدادنا ، من جنسنا ، وليس عدلاً أن نجردهم من إسبانيّتهم لمجرد أنهم كانوا
مسلمين .

رثاء المدن والممالك

في الشعر الأندلسي

○ أصول مشرقية :

بكاء المدن الزاهرة شعراً حين تأتى عليها الفتن المدمرة ، والممالك حين تذهب بها الثورات العاتية ، له أصول مشرقية ، أول ما نلتقى بها في تلك الدموع الغزيرة التي ذرفها الشعراء على بغداد أثناء الفتنة بين الأمين والمأمون عام ١٩٧ هـ = ٨١٢ م ، حين حاصرها طاهر بن الحسين قائد جيش المأمون ، ولاقت خلاله بلاء شديداً يعجز عنه الوصف ، وحين اقتحمها كان القتال يدور من شارع إلى شارع ، ولكي يقضى الجيش على المقاومة التي لقيها كان يدك أحياء برمتها ، « وكثر الخراب والهدم حتى درست محاسنها » ، واستحالت إلى إطلال ، ولم يكن لها في مدن العالم يومها نظير ازدهاراً وثراء وجلالاً . وقد بكاها عمرو بن عبد الملك الوراق ، ورد ما أصابها إلى العين :

من ذا أصابك يا بغدادُ بالعينِ ألم تكوني زماناً قرّة العينِ
ألم يكن فيك قوم كان مسكنهم وكان قريبهم زيناً من الزينِ
صاح الغرابُ بهم بالبين فافترقوا ماذا لقيت بهم من لوعة البينِ
أستودع الله أقواماً ما ذكرتهم إلا تحدر ماء العين من عيني
كانوا ففرقهم دهر وصدعهم والدهر يصدع ما بين الفريقينِ

وفيها قال إسحاق بن حسان ، أبو يعقوب الخرمي . وهو من الفرس ، قصيدة طويلة في مئة وخمسة وثلاثين بيتاً ، وصف فيها ما حل ببغداد في نبرة آسية ، ولوعة صادقة ، صور خلالها الفتنة تصويراً دقيقاً مسهباً ، حتى لتبدو أمام العين ، حين قراءتها ، صور

التخريب والدماء والقتل والذعر الذى يتغشى الناس فى الطرقات ، وانتصر فيها بحكم فارسيته للمأمون :

يابؤس بغدادَ دارَ مملكة دارتْ على أهلها دوائرها
 أمهلها الله ثم عاقبها لما أحاطتْ بها كبائرُها
 رَقَّ بها الدين واستُخِفَّ بذى الـ فضل وعزَّ الرجال فاجرُها
 وصار ربُّ الجيران فاسقُهُم وابترَّ أمرَ الدروبِ شاطرُها
 يُحرق هذا ، وذاك يهدمُها ويشتنى بالنَّهب داعرها
 والكرخُ أسواقُها معطلةٌ يستنُّ شُدَّانها وعائرها
 أخرجت الحربُ من أساقطهم آسادَ غيل غلبا قساورها
 من البوارى ترأسُها ومن الخو ص إذا استلأمتْ مغافرها
 لا الرزقَ تبغى ولا العطاء ولا يحشرها بالعناء حاشرها

وبعد ذلك بثمانين عاماً ، أو بالدقة فى سنة ٢٧٧ هـ = ٨٩٠ م ، اقتحم الزنج مدينة البصرة فى ثورتهم التى قاموا بها ، وقاوموا الدولة خلالها أربعة عشر عاماً ، وقام بها ضحايا الاستغلال الذى مارسه زبانية الإقطاع تجاه المستضعفين الذين كانوا يعملون فى مناجم الملح الواقعة فى نهر الفرات الأدنى ، فغرس السخط والحقد فى نفوسهم ، ونفوس من كانوا فى مثل حالتهم ، وأرسلت الدولة الجيش لإخضاعها ، ولكن ظروف المقاطعة وكثرة المستنقعات والترع جعلتهم ينتصرون على كل هؤلاء الجنود ، واعتنقوا مبادئ الخوارج التى اعتنقها زعيمهم على بن محمد ، وكانوا يقتلون دون رحمة كل من يقع فى أيديهم من الأسرى وغير المحاربين ، ويقدر عدد من ذهب ضحية وهدراً فى هذه الحرب بأكثر من نصف مليون ، وعقب إحدى المعارك بلغ عدد الرؤوس التى لم تطلب من الكثرة حداً جعل الزنوج يفرغونها فى إحدى القنوات التى حملتها إلى البصرة ليتعرف عليهم أهلهم وأصدقائهم هناك ، ولقد هجر الناس البصرة وواسط والأهواز والأبلة ، ودمر الزنج البصرة عن آخرها .

وقد وجدت البصرة في ابن الرومي الشاعر الذي يبكىها ، فوصف غلبة الزنج عليها ،
والمآسى المروعة التي تعرضت لها ، وكعاداته يهتم بالوقائع . ويستقصي دقائق الأحداث
وتفاصيلها ، وقصيدته تبلغ الذروة إحكاماً في بنائها . وتسلسلا في أفكارها ، وكل بيت
يسلمك إلى ما بعده ضرورة ، وفيها يتحدث عن العذارى يتعرضن للإعتداء ، ويجعلهن
أبكار تأكيداً ، وأن فضحهن كان جهاراً ، ووقف عند الاعتداء على الأطفال وقتلهم ،
وألح إلى القصور التي استحالت إلى تلال من الرماد والتراب :

زاد عن مقلتي لذيذ المنام	شغلها عنه بالدموع السجام
أى نوم من بعد ما حل بالبصرة	ماحل من هنات عظام
دخلوها كأنهم قطع اللي	ل إذا راح مدهم الظلام
كم فتاة بخاتم الله بكر	فضحوها جهراً بغير اكتام
كم رضيع هناك قد فطموه	بشبا السيف قبل حين الفطام
بذلت تلكم القصور تلالاً	من رماي ومن تراب ركام
صّبحوهم فكابد القوم منهم	طول يوم كأنه ألف عام

وحين اجتاحت التار مدينة بغداد عام ٦٥٦ هـ - ١١٦١ م . وسحقوها في غير رحمة ،
وأثروا على الخلافة فيها إلى غير رجعة ، بكأها الشعراء ، بكأوا المدينة والخلافة معاً ، ولكن
هذا الأمر جاء وقد استقر رثاء المدن والممالك في الشعر الأندلسي على أصوله . ومن ثم فأمر
أشعارها لا يعيننا هنا .

هل جاء الأمر في الأندلس تقليداً لما جرى في المشرق ؟. لا أرى هذا ، وأكاد أقطع
بأن قصيدة الخرمي في فتنة الأمين والمأمون لم تبلغ الأندلس ، فصاحبها شعوى متعصب
لقومه وجنسه ، وإن سلمت عقيدته وحسن إسلامه ، فأدارت لها بغداد ظهرها ، على
ما في القصيدة من جمال وقوة ، ربما لأن الشاعر متعصب أولاً ، ومحاولة منها لنسيان الفتنة
ثانياً ، ولأم الجراح بين بنى العباس ، فالقاتل والمقتول من أبناء هارون الرشيد ، ولعل
الدولة نفسها رأياً للصدع كانت تدفع الناس إلى نسيانها ، وليس صدفة فيما أرى أن

الخرمى ليس له ديوان كامل ، رغم رقة ما وصلنا من شعره وجودته ، وكان الطبرى ، وهو مؤرخ سياسى دقيق ، الوحيد الذى أتى بقصيدته فى الفتنة كاملة ، وأورد ابن قتيبة فى « الشعر والشعراء » أبياتاً منها ، وجاء الجاحظ بأبيات منها أقل فى كتابه « الحيوان »^(١) . وقصيدة هذا حالها فى المشرق بعيد أن تبلغ الأندلس الأموى وأن تؤثر فيه .

وبعيد أن يكون ابن الرومى بقصيدته وراء العاطفة التى تفجرت بين جوانح ابن حزم وصاحبه ، فشتان ما بين الأمرين والمناسبتين . فذاك يبكى مدينة سمع بخرابها ولم يعيش فيها ، ولا تمسه محنتها من قريب ، وهذان يبكيان مهابط طالما ترددا فى أرجائها ، وقصوراً طالما أمضيا أجمل الساعات بين قاعاتها ، وجناناً نعما بوافر ثمرها ، ورطيب فيئها ، وجمال أشجارها ، إلى جانب أننى أشك كثيراً فى أن قصيدة ابن الرومى هذه عرفت مبكراً فى الأندلس ، لأن الشاعر نفسه أقل الشعراء تردداً فى أسماع الأندلسيين ، ولا يجرى ذكره فى مدوناتهم إلا قليلاً وعرضاً ، ومن خلال الحكايات القليلة التى شهر بها ، وارتبطت به متشائماً أو متطيراً ، أوحين يبلغ الدقة الكاملة فى التصوير ، مثل أبياته فى « صانع الرقاق » ، وأبيات أخرى شبيهة .

أما فى الأندلس فولد هذا الشعر بين الأحداث المتلاحقة ، ومن الصراع المستمر بين الأحزاب المختلفة التى قامت على أنقاض الخلافة المنهارة ، وبين الأندلسيين وغزاتهم من أفريقية ، وبينهم وبين النصارى فى شمال وطنهم ، ومهد له التغنى بحب الوطن قرية أوضاعها ، ومدينة أو عاصمة ، وكل الأرض التى جابها الشاعر حباً فى الرحلة ، أو طلباً للرفد والمتعة ، يصف ما على وديانها من زهر وثمر ، وما فى سمائها من برق وسحب ،

(١) انظر :

- تاريخ الطبرى ، ج ٨ ، ص ٤٤٨ وما بعدها ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، سلسلة ذخائر العرب ، دار المعارف بمصر .
- ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ج ٢ ، ص ٨٥٥ ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، القاهرة ١٣٧٨ هـ - ١٩١٧ م .
- الجاحظ ، الحيوان ، ج ١ ص ٢٢٥ و ج ٥ ص ٢٠٤ ، تحقيق عبد السلام هارون .

وما يخرقها من بحيرات وأنهار ، وما يتحرك عليها من طير وحيوان ، وماله فيها من صداقات وذكريات ، ومجالس أنس وشراب . فإذا افتقد ذلك غريباً حن إليه ، وإذا ذهبت به الحرب بكاه ، وكان لنا مع هذه المشاعر شعر يرثى المدن الذاهبة ، والممالك الضائعة ، والأرض تسقط في يد العدو ، ويصور في جوى صادق فواجع المسلمين . وكان لنا في النثر الأدب المفاخر ، يبشر بتفوق الأندلس ، ويعدد سبقه ، يزهو بعلمه ، وما يضم من عظماء الرجال ، على نحو ما نرى في رسائل ابن حزم ، والشقندي ، وابن سعيد ، في فضائل الأندلس^(٢) .

فبكاء الممالك المنهارة ، والمدن الذاهبة ، فن أندلسي أصيل فيما أرى ، وجدت دوافعه في المشرق والمغرب على السواء ، وخص الأندلس ببعضها ، وتفرد بأنه جرى مع هذه الدوافع إلى غايتها ، فكان له معها قصيد رائع أحياناً ، ودون الجيد أحياناً أخرى ، تبعاً لثقافة الشاعر وطاقاته النفسية ، وحظه من تجارب عصره عمقاً واتساعاً . وكان وراء ذلك كله ما أسميه :

○ الوجدان الأندلسي :

في أعداد قليلة لا تتجاوز الخمسين ألفاً من العرب الخالص ، وضعفهم من البربر ، أزيد أو أقل شيئاً ، جاءوا إسبانيا فاتحين ، أو مهاجرين بعد الفتح ، بحثاً عن حياة أفضل ، أو حباً في المغامرة ، أو سعيًا وراء المجهول ، أو رحالة يستهوهم الجديد ، أو رغبة في نشر الإسلام ، أو رباطاً في ثغوره دفاعاً عنه ، أو فراراً من اضطهاد سياسي أو قبل أو عقيدتي يلاحقهم في المشرق ، وعلى هذه الأرض الأوربية استقروا ، وتزوجوا من إسبانيات ، وبدأوا يكتفون أنفسهم مع الواقع الجديد ، لم يتخلوا عن عاداتهم ودينهم ولغتهم ، ولكنهم أيضاً لم يديروا ظهورهم وقلوبهم وعقولهم لما وجدوا على هذه الأرض ، ولم تمض غير سنوات قليلة في عمر الشعوب ، حتى أصبحت العربية لغة كل القوم ،

(٢) الرسائل الثلاث توجد في كتاب نصح الطيب للمقرئ ، ج ٣ ، ص ١٥٠ وما بعدها ، طبعة احسان عباس .

والإسلام دين الغالية بينهم ، لم يفرضه سيف ، ولا أكرهت الناس عليه محاكم التفتيش ، وإنما استهوتهم فيه أشياء جميلة ، فقد كرم الإنسان ، وأعلى قدره ، واحترم إرادته ، فلا إكراه في الدين ، والناس سواسية كأسنان المشط ، لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى .

ويضغط الباحثون الأوروبيون ، في جانب كبير منهم ، على الدوافع الاقتصادية ، ودورها في دفع الناس إلى الإسلام ، ورغبة الإسبان في تحسين أحوالهم الاجتماعية ، وأن يأخذوا بحظهم من المناصب الإدارية ، وهى قولة فيها بعض الحق ، وفيها كثير من الباطل . أما الحق فالمناصب العليا في الجانب الأعظم منها كانت وقفاً على المسلمين ، ولكن .. كم يبلغ عدد هذه الوظائف في عاصمة كقرطبة ، تجاوز تعدادها في نهاية القرن العاشر الميلادى المليون نسمة ؟ . وأما الباطل فربط ارتفاع الحياة الاجتماعية والاقتصادية بالإسلام ، فلا صلة بين الأمرين ، ويوسع أى فرد أن يملك الأموال الطائلة ، والثروات الضخمة ، والضياع الواسعة ، تاجراً أو مزارعاً أو صاحب صناعة ، دون أن يتوقف هذا على دينه في شيء ، ولدينا شواهد عديدة في كتب التاريخ على نصارى أغنياء ، ويهوداً يملكون دنيا عريضة من المال والعقار ، وسوف يضيق بها المسيحيون فيما بعد ، بدءاً من القرن الرابع عشر الميلادى ، ويفتعلون الكثير من الأزمات ليستولوا عليها ، تغريماً لهم أحياناً ، وتجريدهم منها مباشرة أحياناً أخرى ، وطردهم من الأندلس نهائياً في نهاية المطاف .

على أية حال لا نكاد نبلغ القرن العاشر الميلادى ، حتى تنصهر كل العناصر الإسلامية التى سكنت شبه جزيرة إيبيريا ويتكون الوجدان الأندلسى المتميز شيئاً فشيئاً ، فتخف حدة القبلية ، وتأخذ العصبية العرقية في التلاشى ، وتبرز أشياء كثيرة تصبح مدعاة الفخر ، إلى جانب عراقاة الأسرة ، كالثقافة الواسعة ، والكفاءة في النهوض بالمناصب ، والشجاعة في الحرب ، والنجاح في معترك الحياة . نعم ظل المسلمون في جانب ، وأهل الذمة من النصارى واليهود في جانب آخر ، ولكن يجب ألا ننسى في أية لحظة أن جل المسلمين كانوا من سكان شبه الجزيرة الأصليين ، قوطاً أو لاتيناً ، أو من بقية العناصر الأخرى التى

سبقتهم في الوجود . وأن الفوارق الدينية لم تكن دوماً حواجز حائلة بين الصلات الإنسانية المختلفة ، التي يفرضها التعايش ، ويتطلبها تشابك الحياة ، والتعاون والتكاتف على مواجهة صعابها ، وجعلها أقل عسرا ، وأسهل تناولا ، وبخاصة في المدن الكبرى ، وبين الطبقات الدنيا ، على حين ترتفع الثقافة بالطبقات الأخرى إلى ما فوق هذا الاختلاف ، ونعرف من اعترافات ابن حزم في طوق الحمامة ، وكان خصما لدوداً لكل ما ليس إسلاماً ، أن مكانه المفضل في مدينة ألمرية حين لجأ إليها ، كان دكان يهودى طيب وعطار^(٣) . وكانت حياة الناس في جملتها رضية ، وبخيرات وطنهم قانعون ، وإحساسهم بأن بلادهم تفوق جيرانها مدينة يشيع في نفوسهم الحب لها ، والحرص عليها ، على حين يثير في أعماقهم إدراك الخطر المحدق بها ، وبعدها عن مركز الإسلام ، خوفاً خفياً ، ومن ثم تولد بين أديائهم ، من شدة ارتباطهم بها ، ما أسميه :

○ شعر الحنين :

ولست أزعم أنه وقف على الأندلسيين دون المشاركة ، فقد كنت ، وما زلت ، أرى أن المقدمات الطللية إلى شعر الحنين أقرب منها إلى الغزل أو النسيب^(٤) ، ولكن حنين الأندلسيين جاء خاصاً ، وصادقاً ، و متميزاً ، وكثيراً ، وازدهر حين ضاع من أندالهم في المشرق بين صخب الحياة في المدينة ، وعمق إحساسهم به كثرة رحيلهم ، داخل الأندلس نفسه ، أو خارجه إلى بلاد بعيدة ، وراء الأفضل من العيش ، أو ل مجرد الرحلة ، فهم في حنين دائم إلى حياة جميلة فارقوها ، ولذا ذات متنوعة عاشوا عليها ، وأناس يضطرب مع ذكرهم القلب ، وطبيعة تهفو لجمالها النفس .

أمضى المعتمد بن عباد أياماً من فتوته عاملاً على شلب Silves^(٥) أيام أبيه ،

(٣) انظر : ابن حزم ، طوق الحمامة ، طبعة دار المعارف بتحقيقنا ، ص ٣٥ ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٧٧ .

(٤) انظر كتابنا : امرؤ القيس ، حياته وشعره ، ص ١٥٤ وما بعدها ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف بالقاهرة ، ١٩٧٩ .

(٥) هي الآن مدينة صغيرة في جنوب البرتغال ، قريبا من شاطئ المحيط ، تتبع محافظة الغرب algarve ، وكانت أيام الحكم الإسلامي قاعدة كورة أكشونية ، وسقطت في أيدي النصارى عام ١١٥١ م .

وهي مدينة جباها الله من جبال الطبيعة الشئ الكثير ، على مرمى البصر من المحيط الإطلنطي ، ذات « بسائط فسيحة ، وبطائح عريضة ، ولها جبل عظيم منيف ، كثير المسارح والمياه » ، تعلوه أشجار التفاح ، وتتضوع منه روائح العود ، « حسنة الهيئة ، بديعة البناء ، مرتبة الأسواق ، وأهلها وسكان قراها عرب من اليمن وغيرها ، وكلامهم بالعربية الصريحة ، وهم فصحاء يقولون الشعر ، وهم نبلاء خاصتهم وعامتهم » ، وكانت للمعتمد فيها خلوات ولهوات ، « فهي ملعب شبابه ، ومألف أحبابه ، عمر لنجودها غلاما ، وتذكر عهودها أحلاماً ، وكان قصر الشراحيب من معالمها ، ويصفه ابن خاقان بأنه « متناه في البهاء والإشراق ، مباه لزوراء العراق » ، فلما تولى الملك بعد أبيه ، عام ٤٦١هـ = ١٠٦٩ م ، اختص بها أحب شعرائه إليه إذ ذاك ، أبا بكر محمد بن عمار ، فوجهه إليها متفقداً لأعمالها ، فلما ودعه أهاجه الشوق ، وغلبته الذكرى ، ودعا شاعره أن ينقل إلى مرابعها تحيته :

ألا حيّ أوطاني بشلبِ أبا بكر وسهلنّ : هل عهد الوصال كما أدري ؟
وسلمّ على قصر الشراحيب عن فتى له أبداً شوقٌ إلى ذلك القصر
منازلُ آسادٍ وبيض نواعمٍ فناهيك من غيلٍ وناهيك من خثِرِ
وكم ليلة قد بت أنعم جُنْحها بمُخصبةِ الأرداف مجدبةِ الخصر
وبيضٍ وسُمرٍ فاعلاتٍ بمهجتي فعال الصفاح البيض والأسلِ السمر
ليالٍ بسد النهر لهواً قطعُها بذات سوارٍ مثل منعطفِ البدر
نصت بردها عن غصنٍ بانٍ منعمٍ نصيرٍ كما انشق الكمام عن الزهر

ويحكى ابن بشكوال عن الشيخ أبي بكر بن سعادة أنه دخل مدينة طليطلة مع أخيه ، على الشيخ الأستاذ أبي بكر الخزومي ، قال : فسألنا من أين ؟ ، فقلنا : من قرطبة ، فقال : متى عهدكما بها ؟ فقلنا : الآن وصلنا منها ، فقال : قرباً إلى أشم نسيم قرطبة ، فغربنا منه ، فشم رأسي وقبله . وقال لي : اكتب :
أقرطبة الغراء هل لي أوبةٌ إليك وهل يدنو لنا ذلك العهد

سقى الجانبَ الغرْبِيَّ منك غمامةً وقعقع في ساحات دوحاتك الرعدُ
لياليلك أسحارَ وأرضك روضةً وتربك في استنشاقها غيرُ وردُ

ويدع ابن زيدون قرطبةً فارًّا بحريته ، قاصداً إشبيلية ، ويمر في طريقه إليها ببطلبيوس ،
ويتوقف بها بضعة أشهر ، ويمر عليه عيد الأضحى وحيداً ، « وقد ثار به الوجد بمن كان
يألفه والغرام ، وتراءت لعينه تلك الأطباء الأوانس والآرام » ، فذكر أعياده بها ،
ومتقلب نزهاته فيها ، ومضى يسترجعها مهبطاً وراء آخر :

خليلي لا فطرُ يسرُ ولا أضحي فها حال من أمسى مشوقاً كما أضحي
لأن شافني شرقُ العقابِ فلم أزل أنخص بممحوض الهوى ذلك السفح
وما انفك جوفى الرصافة مشعري دواعي بث تعقب الأسف البرحا
ويحتاج قصرُ الفارسي صباية لقلبي لا يالو زناد الأسى قدحاً

وأيام وصل بالعقيق اقتضيته فإن لم يكن ميعاده العيدُ فالقصصاً^(٦)
وآصال لمبو في مسنة مالك معاطاة ندمان إذا شئت أوسبحاً
لدى راكد تصبيك من صفحاته قوارير خضر خلتها مردت صرحاً
معاهد لذات وأوطان صبوّة أجلتُ المعلى في الأمانى بها قدحاً
ألا هل إلى الزهراء أوبة نازح تقضى تنائها مدامعه نرحاً
مقاصير ملك أشرقت جنباتها فخلنا العشايا الجون أثناءها صبحاً

ويرحل الكاتب أبو بكر محمد بن القاسم ، ويلقب « اشكناهة »^(٧) ، وارتحل إلى
المشرق لما نبت به قرطبة ، عند قلب دولها ، وتحول ملوكها وخولها ، فجال في العراق ،
وأقام بخلب ، ثم غلبه الشوق ، وحن إلى وطنه وأهله ، وصور لنا المهانة التي يلقاها

(٦) المصحح عيد الصاري

(٧) « اشكناهة » تعني في عامية الأندلس وشمال إفريقيا : ما هذا . ويدو أنها كانت من لوازم أبي بكر فعرف بها ، ووردت في
« المغرب في حلى المغرب » نصحق الدكتور شوقي سيف « اشكناهط » في الدخيرة لابن بسام ، مغلد ١ ، قسم ١ ، « اشكياط » .
وكلاهما تحريف فبا أرى .

الغريب ، أى غريب ، ويدعو قومه إلى أن يتعظوا بما قاسى ، وأن ينأوا بأنفسهم عن هذه التجربة :

أين أقصى الغرب من أرض حلب أمل في الغرب موصول التعب
 حن من شوق إلى أوطانه من جفاه صبره لما اغترب
 جال في الأرض لجاجاً حائراً بين شوق وعناء ونصب
 كل من يلقاه لا يعرفه مستغيثاً بين عجم وعرب
 لهف نفسي أين هاتيك العلا واضياعاً وياغب الحسب
 والذي قد كان ذخراً وبه أرتمى المال وإدراك الرتب
 صار لي أنحس ما أعددتُه بين قوم مادروا طعم الأدب
 يأحبى اسمعوا بعض الذى يتلقاه الطريد المغترب
 وليكن زجراً لكم عن غربة يرجع الرأس لديها كالذنب

اما الأديب الشاعر أبو الحسن على بن موسى بن سعيد ، متمم كتاب « المغرب فى حلى المغرب » ، فقد هاجر من وطنه ، صحبة والده . وأقام بمصر زمناً ، وامتزج بأدبائها وشعرائها ، ورحل إلى غيرها من بلاد المشرق ، وعاد إلى تونس ، ثم رحل منها ثانية إلى المشرق أيضاً ، وعاد فاستقر بها أخيراً إلى أن لقي الله ، وأعطانا صورة دقيقة للغريب حين يواجه عالماً جديداً عليه للمرة الأولى ، وبخاصة فى عاصمة كبرى كالقاهرة ، فهو يقول حين ردها :

أصبحتُ أعترض الوجوه ولا أرى ما بينها وجهها لمن أدريه
 عودى على بدئ ضلالاً بينهم حتى كأننى من بقايا التيه
 ويح الغريب توحشت الحاظه فى عالم ليسوا له بشيه
 إن عادَ لى وطنى اعترفتُ بحقه إن التغرب ضاع عمرى فيه

وفى القاهرة أيضاً حن إلى وطنه ، وأدركته وحشة قاسية ، تذكر معها ما كان يعهد بالأندلس من المواضع البهجة ، التى قطع بها العيش غصاً خصيباً ، وصحب الزمان يافعاً

ولبس الشباب قشياً ، وصور لنا هذا في قصيدة طويلة ، وازن فيها بين ماترك هناك وما يرى هنا ، وأتى على ذكر المعاهد التي خلف فيها جميل ذكرياته ، وبقياً من حياته ومن أحبائه ، وهي طويلة ورائعة ، أتى فيها على ذكرياته تفصيلاً في مدن الأندلس الزاهرة : إشبيلية ، والمرج ، وشتبوس بلد ابن عمار الشاعر ، والجزيرة الخضراء ، ومالقة ، ومرسية . ولقد تتكرر التجربة ، ولها في كل مرة مذاق خاص ، وتشابه المهبط ، ولكل مهبط جمال متميز ، وفاق ابن سعيد أقرانه في أنه وقف عند كل ذكرى طويلاً ، فأعطانا لها صورة مجسمة ، لم يقف بها عند مجرد الحنين والشوق ، وإنما حرص على أن يقدم لنا كل دقائقها ، فالسواقي تتهادى ، والحائتم تشدو ، وجماليات شتبوس يشرقن من النوافذ ، وغناؤهن في جلاله يكرهك على أن تسمع وإن لم ترد ، وفي عفوية أسرة يتمنى : « ليتني هناك ما زلت أذنب ، فالبلدة طيبة ، والله غفور رحيم ! » .

هذه مصرُ فأين المغربُ ؟	مذ نأى غنى دموعى تسكبُ
فارقته النفسُ جهلاً إنما	يُعرف الشيء إذا ما يذهبُ
أين حمصُ ؟ أين أيامى بها ؟	بعدها لم ألق شيئاً يُعجب
كم تقضى لى بها من لذة	حيثُ للنهرِ خريز مطربُ
وحمام الأيك تشدو حولنا	والثاني فى ذراها تصخب
أى عيشٍ قد قطعناه بها	ذكره من كل نُعمى أطيب
ولكم بالمرج لى من لذة	بعدها ما العيش عندى يعذب
والنواعير التى تذكارها	بالنوى عن مهجتي لا تُسلبُ
ولكم فى شتبوس من منى	قد قضيناهُ ولا من يعتب
حيث هاتيك الشراحيبُ التى	كم بها من حُسن بدر معصبُ
وغناء كل ذى فقرٍ له	سامعٌ غضباً ولا من بغضبُ
بلدة طابتُ وربُّ غافر	ليتني ما زلتُ فيها أذنبُ (١٨)

(٨) اجتزأنا من القصيدة بالآيات السابقة ، ويمكن العودة إليها كاملة في نفع الطيب ، ج ٢ ، ص ٢٨١ - ٢٨٣ ، طبعة

هذه ملامح عامة ، غير مستقصية ولا مطبنة ، لجوانب من شعر الحنين ، ونلمح معها أنه لم يبدأ إلا بعد القرن العاشر الميلادي ، حين انصهر الأندلس في دولة ، ونما إحساس الناس بالوطن على مهل ، وهو شعر نظائره قليلة في المشرق . ولافت للنظر أيضاً أن العرب أو البربر الذين جاءوا إلى الأندلس واستقروا فيه ، لا نعرف لهم حتى ولا في الأعوام الأولى ، خارج التشبيهات المطروقة تجيء عرضاً ، شعرا يخنون فيه إلى أيامهم الأولى ، في مهابطهم التي قدموا منها ، هناك في شمال إفريقية ، أو مصر . أو الشام ، أو العراق ، أو الجزيرة العربية . ولا أعرف غير مقطعات ثلاث للأمير عبد الرحمن الداخل ، ومنها ما ينسب لغيره ، وجاءت كل واحدة منها في أربعة أبيات ، يتشوق إلى معاهد الشام في مقطوعة . ويناجي نخلة في اثنتين ، وهو استثناء يدعم القاعدة ولا ينقضها ، فقد جاء عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس مكتمل الوجدان والدوق ، ورأى نفسه وباعترافه غريباً على أرض الأندلس ، وما كان ممكناً أن يتأسى هنا عن أمسه هناك ، فقد خلف وراءه خلافة عظيمة انتزعت من بيتهم ، وانتهى به المطاف أميراً على مقاطعة من مقاطعات الخلافة ، محدودة المساحة والقدرة والمجد ، صنعها بيده ، وظلت مجهولة القدر والمصير حتى آخر أيامه ، فهي لا تعوضه ولا تنسيه أبحادهم هناك .

وقد تولد عن جمال الأندلس في جملته ، وحب الناس له في عاقبتهم وارتباطهم به وطناً حين يقيمون عليه ، واحتفاظهم له بذكرى حنون حين يفارقونه ، أن بكاءهم عليه ، حين يعرض له مكروه ، ينحى حاراً صادقاً ومن أبعد أغوار النفس . ويمكن أن نجمل المكاره التي تعاورت الأندلس في هذا الجنال في ألوان ثلاثة : مدن خربتها الثورات والفتن ، وملوك أزاحهم المسلمون أنفسهم ، وبلاذ استولت عليها النصارى ، ولكل لون شعراؤه وطابع بكائه ، وكانت قرطبة عاصمة الخلافة ، وجوهرة مدن الأندلس ، أول مدينة أتت عليها الثورة ، وامتدت بها أعواما . وشاركت فيها كل الجماهير .

○ بكاء قرطبة :

حين تولى عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر الحجابة بعد أبيه ، واتخذ اسم المظفر

لقباله ، وواصل سياسة والده ، وكان « الأندلس يشهد تغيراً جذرياً في حياته ، لقد حل الصراع الطبقي محل الصراع العنصرى . وظهرت اتجاهات جديدة في الدين والسياسة ، وطفقت على السطح الظواهر العامة التى تسبق أية ثورة ظهرت قديماً ، أو حتى في أيامنا هذه ، والتى ستودى بالخلافة بعد قليل : سحق عام وعميق ، وفساد حقيقى يمتد واقعاً أو تصوراً إلى الطبقة الحاكمة ، وثروات ضخمة تظهر فجأة دون مقدمات ، ولا يملك أصحابها من المؤهلات أو رأس المال شيئاً ، إلا صلات مريبة بالحكام ، أو من يتصل بهم من زوجات وبنين وبنات وموظفين . وشيوخ من يحكمون فى الظلام ، أو من وراء ستار ، أو بالتعبير السياسى الحديث أولئك الذين يحكمون وليسوا مسئولين لا دستوراً ولا عرفاً ، ومكاسب قليلة ، براقة وخادعة ، تسكر الحاكم ، وتذهب بعقله ، وتغرس فيه الغرور بدل التأمل ، ومحاولات غير جادة وفاشلة لوقف ذلك كله ، ثم تنفجر الأرض عن تنظيم سياسى خفى ، يأتى بنظام جديد غير متوقع ، حتى لأولئك الذين يفكرون فى التغيير أو قاموا به »^(٩) .

ولم تطل أيام المظفر . شهد طلائع الثورة ، وإمارات التغير ، ورحل فى زهرة شبابه قبل أن يطحنه ثقلها عام ١٠٠٨ م ، وتولى الحجابة بعد أخوه عبد الرحمن الملقب « شنجول » . فى سن طرية لا يتجاوز العشرين عاماً ، ويفتقد كل الخصائص والمزايا التى كانت لأبيه أو أخيه من قبل ، وحدث نفسه أن يصبح ولى عهد هشام الثانى ، فثار عليه أعضاء البيت الأموى وقتلوه ، وانفجرت الثورة ، واحتدم الصراع عنيفاً ومدمراً بين الفئات المتصارعة ، من عرب وبربر وإسبان ، وأمويين وشيعة ، وأتينا على أحداثها تفصيلاً فى كتابنا « دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة » ، واستمرت حتى عام ١٠٢٦ م ، وعبر أحداثها تعرضت العاصمة الجلييلة والجميلة لكل ألوان المهانة ، من الذبح الجماعى الشامل للشيوخ والنساء والأطفال ، والنهب والتدمير والحرائق . ومعها تحول أفخم ما عرفت أوروبا والعالم على أيامها . وعلى أيامنا أيضاً ، إلى أكوام من الخرائب

(٩) د . الطاهر أحمد مكي ، دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة ، ص ١٠٥ - ١٠٦ ، الطبعة الثانية ، القاهرة

والأنقاض ، وأنت على كل ضواحيها الجميلة ، بما فيها الزهراء والزاهرة ، ومات الناس جوعاً ، وفنيت المواشى ، وعمت البطالة ، وأغاض الشقاء الشامل كل بواذر الأمل ، وتكفل وباء بالطاعون بالقضاء على ما أفلت من هذه المحن .

خلال هذه الفتن أتى البربر على بيوت آل حزم في بلاط مغيث ، وترك ابن حزم نفسه العاصمة نجاة بشخصه ، حين انهارت مقاومة الخليفة الذى وقف إلى جانبه ، وعمل معه وزيراً ، فلجأ إلى ألرية ، وبقى فيها فترة ، جاء خلالها من يحدثه عن قصورهم ، وما فعل الزمان بها ، فبكاهما نثراً وشعراً ، وجاء نثره فيها جميلاً ، يعكس مأساته فى صدق ، ويصور محنة العاصمة فى دقة ، وينضح تشاؤماً وزهداً ، عرض لما كانت عليه بيوتهم وقرطبة إجمالاً ، وما انتهى إليه حالها ، فى جمل قصيرة مزدوجة موجعة ، وتمثيل مجسم حزين الإيقاع ، تكاد معه ترى كل شئ وتلمسه ، وغلبت على أسمائه صيغة الجمع ، سالماً أو مؤثناً أو مكسراً ، واتكأ كثيراً على ما أسميه الطباق النفسى ، فهو يضع ما كان فى مواجهة ما هو كائن ، بشراً ، أو حيواناً ، أو جراداً ، أو حركة ، إلى جانب الطباق بين المفردات (١٠) .

وألقى بنثره فيها قصيدة كاملة من الشعر ، اقتصر منها ناسخ طوق الحمامة على بيت واحد فحسب ، وجاء ابن الخطيب فى كتابه « أعمال الأعلام » (١١) بأبيات منها تبلغ العشرين ، لا ندرى معها إن كانت هذه هى القصيدة كلها أو جانب منها ، لأن ابن حزم طويل النفس فى شعره عادة . والمعانى التى تتردد فى الشعر هى نفسها التى جاءت فى النثر ، مع تفصيل فى هذه ، غير أنه أشار فى الشعر إلى أنه ترك قرطبة مجبراً ، ولو استطاع لآثر أن تكون له قبراً ، ورد ذلك إلى القدر النافذ يمشى طوعاً أو كرهاً :

فيادارُ لم يقفركِ منا اختيارُنا ولو أننا نستطيعُ كنت لنا قبراً
ولكنَّ أقداراً من الله أنفذتْ تدمرنا طوعاً لما حلَّ أوقهرنا

(١٠) يمكن العودة إلى هذا النص فى « طوق الحمامة » بتحقيقنا ، ص ١٢٦ و ١٢٧ ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٧ .

(١١) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ونشر باسم تاريخ أسبانيا الإسلامية ، ص ١٠٧ و ١٠٨ ، تحقيق ليني بروفستال ، الطبعة

وحمل الأبيات تحيته إلى أهل قرطبة ، إلى أى مكان نرحوا ، ودعاهم إلى الصبر وإن كان طعمه مرًا :

ويادهُ بُلغ ساكنيها تحيّي ولو ساكنوا المروين أوجاوزوا النُّهرا
فصبراً لسطو الدهر فيهم وحكمه وإن كان طعمُ الصبر مستقلاً مرّاً
وأسلوب ابن حزم في الشعر ، كأسلوبه في النثر ، يقوم على الموازنة بين الأمس والحاضر ، ما كان لهم وما وصاروا إليه ، وتميز بمناجاة الدهر ، وتمنى العودة ، ويكثر فيه من استخدام أداة النداء ، والطباق بين الألفاظ ، غير أن الصور الأدبية في النثر أرق وأدق منها في الشعر ، ربما لأنه في النثر كان حرّاً طليقاً ، فلما حاول أن يأتي شعراً على ما قاله نثراً وجد نفسه مقيداً بالمعاني والأفكار والصور التي أبدعها في هذا ، فهي في النثر عفوية وفي الشعر صناعة ، وفقدان الحرية في الفن ، وفي كل شيء في الواقع ، في أى جانب منها ، يفسد على الفنان إبداعه ويهبط به .

وثانى من بكى قرطبة وقد صارت أطلالا ، الشاعر الناقد ابو عامر بن شهيد ، المتوفى عام ٤٢٦ هـ = ١٠٣٥ م ، وكان ندّاً لابن حزم ، ويكره بعامين ، وتربطها صداقة وطيدة ، يدعمها التوافق في المزاج ، والتقارب في الأهواء ، ووحدّة الطبقة ، فكلاهما وزير وابن وزير^(١٢) ، ولكن ابن شهيد لم يفارق قرطبة كصاحبه ، وعاش نهاية أيام العاصمة عن قرب ، وشهد مأساتها كاملة ، وصوته لا يبلغ قرطبة من بعيد ، وإنما يصدر من أعماقها ، بين الأطلال وأكوام الخرائب ، وجاء صدى لهذا الواقع الأسيف كله ، وهو يتلفت حوله فلا يرى أحداً يستجيره ، فالناس جلهم قتلى ضمتهم القبور ، والقلة الباقية توزعتها الطرق مولية ، وأين اليوم في بلقعه وخوائه ووحدته من شمل جامع بالأمس ، وعيش أخضر ، وروائح يفتّر منها العنبر ، الأمن يلفها ، والقوم ينعمون بجبالها ، والقصور طيبة ومن فيها أجمل ، لقد نزلت بها النوى فدمرت المسكن والساكن ، وتغيرت الدنيا ومن عليها ، ولم يملك ابن شهيد غير أن يدعو لها بالغيث ينزل بساحتها ويحيى رياضها ،

(١٢) راجع نشاطها المشترك في قرطبة في كتابنا : « دراسات عن ابن حزم » ، وكتابه طرق الحماة » ، ص ٧٦ ، الطبعة الثانية

وأن يجود الفرات ودجلة والنيل بساحتها ، وبأسى على ما كان من أيامها وطلبائها وسلامها ،
وما عمرت به من كرام وعلماء ، وأدباء وظرفاء ، وسراة ورواة ، مضى كل هؤلاء ، ولهم
جميعاً قلبه يتفطر :

ما في الطلول من الأحبة مُخْبِرُ	فمن الذي عن حالها نستخبرُ
لا تسألنَّ سوى الفراقِ فإنه	يُنبيك عنهم أنجدوا أم أغوروا
جار الزمانُ عليهم فتفرقوا	في كل ناحية وباد الأكثر
جرت الخطوبُ على محل ديارهم	وعليهم فتغبرت وتغبروا
فلمثل قرطبة يقل بكاءً من	يسكى بعين دمعها يتفجرُ
عهدي بها والشمْلُ فيها جامعُ	من أهلها ، والعيش فيها أخضرُ
والدارُ قد ضربَ الكمالُ رواقه	فيها ، وباعُ النقص فيها بقصر
ورياحُ زهرتها تلوح عليهمُ	بروائح يفتّر منها العنبرُ .
والقوم قد أمنوا تغيرَ حُسْنِها	فتعمّموا بنجالها وتآزرُوا
يا طيبهم بقصورها وجذورها	وبدورها بقصورها تتخذِرُ
ياجنةً عصفتُ بها وبأهلها	ريحُ النوى ، فتدمرت وتدمروا
آسى عليك من السماء وحقّ لي	إذ لم نزل بك في خيالك نفخر
يا منزلاً نزلت به وبأهله	طيرُ النوى ، فتغيروا وتنكروا
جاد الفراتُ بساحتك ودجلةُ	والنيلُ جادها وجاد الكوثر
وسقيت من ماء الحياة غمامةً	ثجيا بها منك الرياض وتزهر
أسقى على دارِ عهدتُ ربوعها	وظباؤها بغنائها تتبختر
أيام كانت كف كل سلامةٍ	تسموا لآلِها بالسلام وتُبدرُ
حزنى على سرواتها ورواتها	وثقاتها وحجاتها يتكرر
نفسى على آلائها وصفائها	وبهائها وسنائها تتحسر
كبدى على علمائها ، حلماها	أدبائها ، ظرفائها ، تتفطر (١٣)

إذا وازنا بين ابن حزم وصاحبه ابن شهيد وجدناهما يتفقان في أشياء ويختلفان في أخرى ، فالأول لاذ بالصبر واتكأ عليه ، وتنضح أبياته زهداً وتشاؤماً ، وردّ ما حدث إلى الدهر والقدر ، أما الثاني ، وهو ابن شهيد ، فلم يدع أصلاً إلى الصبر ، وإيقاعه ، مع ذلك ، هادئ مستسلم ، ورأى ما حدث جوراً من الزمان ، وعرض لما كان في المدينة من مجالس العلم ، والفن واللوانه ، ولم يشر ابن حزم إلى شيء من هذا . وبعمامة كان ابن شهيد ، وهو شاعر أصلاً ، أرق موسيقياً ، وألسن لفظاً ، وأوضح عفوية ، وكان في شعر ابن حزم ، وهو بعض مواهبه ، شيئاً من البطء والرتابة ، يوحي بأنه ينتزع أبياتها انتزاعاً ، فتجىء تجربها خيول على حد التعبير الإسباني ، ويتحرك معها ، أوبها ، داخل أسوار عالية لا يستطيع اجتيازها ، وكثرت فيها المحسنات اللفظية من جناس وطباق ، وهو أمر قل أن يجيء عفواً ، ولكن الحق أن كليهما كان يصدر عن عاطفة صادقة وقلب سليم .

كان بكاء ابن حزم وصاحبه مدينتهما الحلوة فاتحة رثاء كثير خُصّت به ، حزّين وعابر ، يجيء في أبيات قصيرة ، أو هذا ما وصلنا منه ، خطرات نفس مكلومة ، قبل لحظة المحنة ، كذلك الأبيات التي حفظها لنا ابن عذارى ، في كتابه « البيان المغرب » لشاعر مجهول لم يذكر اسمه ، يبكي فيها عاصمة الخلافة :

أبكى على قرطبة الزين فقد دثتها نظرة العين
أنظرها الدهر بأسلافه ثم تقاضى جملة الدين
كانت على الغاية من حسنها وعيشها المستعذب اللين
فانعكس الأمر فما إن ترى بها سرورا بين اثنين
فاغد وودعها وسر سالما إن كنت أزعمت على البين

وهي أبيات فاترة الروح ، مجرد نظم دفع صاحبه إليه هول الكارثة ، فهو أصلاً ليس بشاعر . ولتلق بشاعر مجهول آخر ، والرواية لابن عذارى أيضاً ، وهو يأخذ طريقاً مختلفاً عن صاحبه ، فهو يشمت في القرطبيين شمتم المغيظ ، وينعى عليهم غفلتهم ، وماركنوا إليه من حياة الدعة ، وأنهم نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، والأبيات قليلة فيما يبدو في بداية

الفتنة ، لأنه يعتب على مواطنيه كيف غفلوا عن حالهم ولن يتسبوا إليه ، ولو فعلوا لبكوا دماً ، ويدعوهم إلى تدبير الأمر لأن المحنة عمتهم جميعاً ، ولن تنقضى أبداً :

أضعتُمُ الحزَمَ في تدبير أُمركُمُ ستعلمون معاً عُقبى البوار غداً
فلو رأيتمُ بعين الفكر حالكمُ بكيتمُ بدمٍ أن دُمتمُ بدداً
لاكنَّ سُبُلَ العَمى أعمت بصائرکم فالبستمُ ثياباً للبلَى جدداً
يا أُمَّةً هتكتُ مستور سوءِها ماكلُ من ذلٍّ أعطى بالصغار يدا
في سورة الحشر آياتٌ مفصَّلةٌ^(١٤) في شأنكم أنزلتُ لم تعدكم أحداً
نعم وفي الكهف العشرين خاتمةٌ^(١٥) تقضى عليكم بالآ تفلحوا أبداً
فاستشعروا سوء عقابكم فقد شملتُ جميعكم محنةٌ لا تنقضى أبداً

والآيات توحى بأن قائلها فقيه متوسط ، فهو يعطى الفتنة تأثيراً فقهياً خالصاً ، وعلى الرغم من جودة الأفكار لم يستطع أن يضعها في صورة جميلة أو إيقاع أخاذ ، ومعجمه اللغوي محدود ، حتى أن كلمة القافية في البيتين الأخيرين جاءت واحدة ، حروفاً ومعنى . وبعد انتهاء الفتنة بأعوام ليست دون الأربعين ، وخلال عصر الطوائف الذى قام على انقراض الخلافة ، جاء « باقعة عصره ، وأعجوبة دهره » ، الشاعر الرافض ، الثائر على واقع أيامه الفاسدة ، خلف بن فرج السميسر إلى قرطبة في تاريخ نجعله ، ولكنه ليس قبل عام ٤٤٠ هـ = ١٠٤٨ م على التأكيد ، فوقف بأطلال الزهراء يناجيها ، ويستخرج العبرة مما آل إليه حالها ، ويبكى مجدداً تليداً كانت تمثله ، وحياة عامرة كانت تصطبغ فيها :

وقفتُ بالزهراء مستعبراً معتبراً أندبُ أشتاتا
فقلتُ : يا زهرا ألا فارجمي قالت : وهل يرجع من ماتا
فلم أزلُ أبكى وأبكى بها هيات يُغنى الدمعُ هياتا
كأنما آثار من قد مضى نوادب يندبن من ماتا

(١٤) يشير إلى الآية رقم ١٩ من سورة الحشر « ولا تكونوا كالذين نسا الله فأنساهم أنفسهم » .

(١٥) يشير إلى الآية ١٠١ من سورة الكهف : « الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعاً » .

وحديثه عنها ، كما نرى ، على شاعريته حديث من يندب أطلالا ومجداً تومىء إليه ،
ولأنه لم يشهد الأحداث نفسها لم يعرض لما أصاب الناس والحياة وقرطبة العاصمة ، ومن
المؤكد أنه عندما جاءها وجد الحياة دبّت فيها من جديد ، فعاد خرابها عمارا ، وارتفعت
أطلالها بيوتاً ، وإن لم تعد إلى ما كانت عليه حتى يومنا هذا ، أما الزهراء فظلت أنقاضاً لم
يرتفع فيها بناء ، ولا امتدت إليها يد إصلاح ، حتى سنوات قليلة خلت ، فقد أخذ
الإسبان ينفضون عنها غبرة الموت ، ويعيدونها حجراً إلى حجر ، لمجرد رسم صورة ، ولو
باهتة ، لما كانت معالمها عليه .



تردد أفكار الشعراء في تناول الخنثى وأسبابها بين السلبية والإيجابية ، بين الرضى المستسلم
والشماة المثيرة ، أو التأمل الهادئ ، وكلها تصدر عن نبع واحد ، فحين تحمل الخطوب
الجسام بالشعوب المتحضرة تُفقد لها حين القدرة على التمييز الدقيق ، والتفكير المنطقي ،
فتعود إلى القلب بدل العقل ، وتفسر الأمر عن طريق العاطفة بدل الفكر ، وتركن إلى
أوهى الأسباب هروباً من واقعها الأليم .

ولم يعرض أىّ منهم ، فيما وصلنا من شعر ، لعناصر الشر ورغوس الفتنة ، ولم ينحوا
باللائمة على أحد ، وبخاصة ابن حزم وابن شهيد ، وكلاهما شهد المأساة ، ولهما مقام
اجتماعى وسياسى ملحوظ فى العاصمة ، وشاركا فى أحداثها . أتراهم كانوا يحسون فى أعماقهم
بأن إلقاء المسئولية على فريق بعينه فيه عدوان على الحق ؟ . وأن كل الذين فى قرطبة
مسئولون عما حدث ؟ . نحن نعرف أن ابن حزم ظل إلى آخر رمق فى حياته ، حتى بعد أن
ترك السياسة جانباً ، وامتدت به الحياة طويلاً ، يلتزم جانب الشرعية فيما يتصل بقضية
الخلافة ، فبقى على ولائه لبني أمية لا يحدد عنه ، ونعرف أنه كان جريئاً فى الحق ، يقول
ما يعتقد بصوت مرتفع ، ومضى يناضل وحيداً ضد الجميع ، وضد كل شىء ، ولا يمكن
أن نعزو صمته إلى أنه مجاملة أو خوفاً من أحد . أما ابن شهيد فباح بالآلام من العاصمة
نفسها ، ومغامرة منه أن يدين أحداً فى لحظة انزوى فيها القانون ، وحل مكانه الرعب

والفوضى ، والآخرون ، وهم مجهولون ، يبدو أنهم من غمار الناس ، ليست لديهم القدرة على إداة أحد ، فأثروا السلامة ، وردوا كل شيء إلى القدر .



وبعد نصف قرن من أحداث قرطبة ، سوف نلتقي بقصيدة ابن رشيق القيرواني ، في رثاء مدينته القيروان ، حين اقتحمها عرب صعيد مصر ، والذين عرفوا باسم الهلالية ، عام ٤٤٩ هـ = ١٠٥٧ م ، بعد حصار لها دام أربع سنوات ، وصنعوا ما صنع جند طاهر ابن الحسين بمدينة بغداد ، أو الزنج بمدينة البصرة ، أو البربر بقرطبة . وهي قصيدة طويلة تبلغ خمسة وخمسين بيتاً ، تحدث فيها عن العلماء والزهاد والأئمة الذين ازدانت بهم مدينة القيروان أيام عزها :

كم كان فيها من كرامٍ سادٍ	بيضُ الوجوه شوامخ الإيمان
متعاونين على الديانة والتقى	الله في الأسرار والإعلان
وأئمة جمعو العلوم وهذبوا	سُنن الحديث ومُشكّل القرآن
علماء إن ساءلهم كشفوا العمى	بفصاحة وفصاحة وبيان

ووصف ما لحقها من الفظائع وكيف نقضوا العهود ، وخفروا الذمم ، وسبوا الحرم ، ونهبوا البيوت وما فيها ، وصور خروج الناس حفاة هاربين يحملون أطفالهم :

فتكوا بأمة أحمدٍ أترأهم	أمنوا عقاب الله في رمضان ؟
نقضوا العهود المبرمات وأخفروا	ذمم الإله ، ولم يفوا بضمآن
فاستحسنوا غدر الجوار وآثروا	سبى الحرم وكشفة النسوان
والمسلمون مقسّمون تنالهم	أيدى العصاة بذلة وهوان
يستصرخون فلا يُغاث صرّخهم	حتى إذا سئسوا من الإرنان
فادوا نفوسهم فلما أنفدوا	بما جمعوا من صامت وصوان
واستخلصوا من جوهر وملابس	وطرائف وذخائر وأواني
خرجوا حفاة عائدين برّهم	من خوفهم ومصائب الألوان

هربوا بكل وليدة وفطيمة وبكل أرملة وكل حصان
وبكل بكر كالمهاة عزيزة تسبي العقول بطرفها الفتان
وعرض لما أصاب مسجد عقبة ، وكان ثاني مسجد هام أقيم في إفريقية كلها ، ورابع
مسجد في الإسلام^(١٦) ، بناه عقبة بن نافع عام ٦٧٥ م ، وكيف توقفت الصلوات به ،
وما أصابه من محن تبعث الأسى ، وتثير الحزن في الناس كافة :

والمسجد المعمور جامع عقبة خرب المعاطن ، مظلم الأركان
فقر فما تغشاه بعد جماعة لصلاة خمس ولا لأذان
بيت بوحي الله كان بناؤه نعم البناء والمبتنى والبنى
أعظم بتلك مصيبة ماتنجلي حسراتها أو ينقضي الملوان
وأفاض كثيراً في ذكر المحن التي حلت بالقيروان ، وجعلتها خراباً لقرون تلت ، وتمنى لها
أن تعود إلى سابق مجدها ، وطيب أيامها :

أترى الليالي بعدما صنعت بنا تقضى لنا بتواصل وتدان ؟
وتعيد أرض القيروان كعهدا فيما مضى من سالف الأزمان
ومن الواضح أن عاطفة الشاعر باردة ، وأسلوبه فيها ركيك يبلغ حد الإسفاف
أحياناً ، وتكاد أن تكون منظومة تاريخية ، ومرد ذلك فيما أرى ، أن ابن رشيق كان ناقداً
في المقام الأول ، فجاءت قصيدته تحمل سمات شعر العلماء والفقهاء من نظم وبرود
وتكلف .

غير أن القيروان الحربة وجدت من يبكيها صادق اللوعة ، وفي شعر بالغ الروعة ، في
شخص ابن شرف القيرواني ، المتوفى عام ٤٦٠ هـ = ١٠٦٧ م ، وكان صديقاً لابن
رشيق ، ورفيقاً ملازماً ، وغادر كلاهما عاصمة إفريقية بعد خرابها ، انتقلا إلى المهديّة
أولاً ، وإلى صقلية من بعد ، وفي هذه استقر ابن رشيق ، وآثر ابن شرف أنه يدعها إلى
الأندلس ، وفيه أمضى بقية حياته جاءه على أيام ملوك الطوائف ، وأقام به عشر سنين

(١٦) أول مسجد أقيم في إفريقية . وثالث مسجد في الإسلام ، هو الذي بناه عمرو بن العاص في فسطاط مصر القديمة عام ٦٤٢ م .

موزع القلب والعاطفة ، حائر العقل والفكر ، وفيه وقبله قال شعراً كثيراً رقيقاً ضاع معظمه ، وكتب عشرين مقامة يعارض بها الحريري ، لم يبلغنا منها غير ثلاث : اثنتين في النقد الأدبي ، والثالثة جرت مجرى الهزل والمجون .

ومن بين ما وصلنا من شعره قصيدته في بكاء مدينة القيروان ، وهى من روائع الشعر العربى ، دقة تصوير ، وبراعة تعبير ، ورقة موسيقا . وصف فيها المدينة وقد لفها الظلام ، وأطبقت عليها الوحشة ، وعمها الصمت ، وخلت منها الحياة ، ومست المأساة حتى نجومها فى أفق السماء ، فهى تتحرك ثقيلة الخطا ، بطيئة الحركة ، فاترة متوانية ، كأنما يتغشاها النعاس :

آو للقيروان! أنه شجوى من فؤادٍ بجاحمِ الحزنِ يصلى
حين عادتُ بها الديارُ قبوراً بل أقولُ الديارُ منهن أخطى
ثم لاشمعةٌ ، سوى أنجمٍ تخطو على أفقها نواعس كسلى
بعد زهرِ الشاعِ توقد وقدما ومثانٍ الدُّبال تفتل فتلا
والوجوهُ الحسانُ أشرف منهنَّ ويفضّلنهن معنىً وشكلا

وفاق كل رفاقه من الشعراء ممن عبروا عن هذه الفواجع ، بأنه قدم لنا صورة مفصلة لواقع الهاربين من هذه المدن ، رجالها ونسائها ، شيوخها وأطفالها ، وقد سارت بهم الطرق ، وازدحمت بهم المسالك ، وتوزعتهم المآسى ، وتعرضوا للعدوان الوحشى ممن لا ضمير له ، ولا يرقب فى العزل إلا ولا ذمة . خلفوا وراءهم ما يملكون من ثياب وأثاث وأموال ، وخرجوا فراراً لم يودعهم جار ، ولا حياهم قريب ، يلقون المذلة والهوان فى كل بلد يحلون به ، أشرافهم يعملون أخس المهن ، ولأرذل الناس ، وليس هناك من يعزى أو يواسى ، أو يعين على تجاوز المحنة . إنها صورة حية لواقع من نطلق عليهم فى أيامنا هذه اسم « اللاجئين » ، فى أى بلد ، ومن أى شعب :

بعد يوم كأنما حُشر الخلقُ حفاةً به ، عوارى ، رجلى
ولهم زحمةٌ هنالك تحكى زحمة الحشر والصحائف تلى
وعجيجٌ وضجةٌ كعجيج الخلق يسبكون والسرائر تبلى

من أيامي وراءهن يتامى
وحصان كأنها الشمس حسنا
فات كرسيا الجلاء فأضحت
جار فيهم زمانهم وأولو الأم
تركوا الربيع والأثاث وما يش
لبسوا الباليات من خشن الصو
نادبات: عفراء تسعد سعدى
ليس منهن من يودع جارا
كلهن اعتدى الفراق عليه
فلذا الدهر ضمهم فرق الدهر
من ثعابين حاملين نيوبا
وشياطين راحين يلاقو
فتعزى الظهور تعتل عتلا
فلذا مطمع أصابوه في أحش
فلذا نجت المقادير منهم
لقى الهون والمذلة أنى
ليس يلقى إلا امرأ مستظيلا
فترى أشرف البرية نفسا
فهمو كل مانبت بهم أر
مزقوا في البلاد شرقا وغربا
لا يلقى النسيب منهم نسيبا

ملثوا حسرة شجوا وثكلا
كنفتها الأطوار نجلاء، كحلى
في ثياب الجلاء للناس تجلى
رففوا يرجون في الأرض عدلا
نقل لا حامل من الناس ثقلا
ف، وعاد النية في الناس غفلا
وسعاد نجيب بالنوح جملا
لا، ولا حرمة تشيع أهلا
فاقتحمن الجلاء حفلا فحفلا
ر لهم غير ذلك النبل نبلا
عصلا: ذابلا ونبلا ونصلا
ن بجوف الفلا مساكين عزلا
وتشق البطون تغسل غسلا
لاء قوم غموا بذلك كلاء
راحلا بالخلاص يحمل رحلا
كان في سائر البلاد وحلا
طالباً عنده حقوقا وذحلا
ناكسا رأسه يلاطف نذلا
ض مطايا الفراق خيلا ورجلا
يسكون الدمع هطلا ووبلا
يتعزى به ولا الخل خلا

هل يمكن القول بأن ابن رشيق وصاحبه ابن شرف في قصيدتيهما احتذا أحدهما الرجلين، أبا شهيد أو ابن حزم، وكلاهما تجاوزت شهرته حدود وطنه، وكانت إفريقية

خلال عصر الطوائف على صلة وطيدة بالممالك التي ينحدر أمراؤها من أصول بربرية
 بخاصة ، أوجاءوا إلى الحكم بدعم منها ، ولم تتوقف الرحلات بين الجانبين ، قدومًا
 وذهابًا ، من مختلف الطوائف والطبقات ، أدباء وعلماء وجنودًا ، ومن عامة الناس ،
 رغم التفاوت الشديد بينه وبينهما في الجودة والأسلوب والأفكار؟ بلى .
 ولكن ، يمكن من جانب آخر أنها أيضًا جاءت وليدة تأثير مشرقى ، لأن أفريقية ظلت
 تلعب على امتداد العصر الوسيط دور الناقل ، ومركز الالتقاء بين الثقافتين المشرقية
 والأندلسية ، ولو أن القيروان في ثقافتها كانت أقرب إلى الأولى منها إلى الثانية ، وهو ظن
 يدعمه أن قصيدة ابن رشيق أقرب في أفكارها إلى قصيدة ابن الرومى منها إلى ابن حزم
 وصاحبه ابن شهيد ، على حين جاء ابن شرف نسيج وحده في جل أفكاره .

رثاء المدن والممالك

في عصر الطوائف

○ طابع عصر :

« كان أحسن الأزمان وأسوأها ، عصر الحكمة وعصر الجهالة ، عهد اليقين والإيمان وعهد الخيرة والشكوك ، أوان النور وأوان الظلام ، ربيع الرجاء وزمهرير القنوط : بين أيدينا كل شيء وليس بين أيدينا أى شيء قط ، وسبيلنا جميعاً إلى سماء عليين وسبيلنا جميعاً إلى قرار الجحيم . تلك أيام كأيامنا هذه التى يوصينا الصاخبون من ثقافتها أن نأخذها على علاقتها ، وألا نذكرها إلا بصيغة المبالغة فيما اشتملت عليه من طيبات وآفات » . هذا هو عصر الثورة الفرنسية كما وصفه الكاتب الإنجليزي « شارلز دكتر » فى بداية قصته « المدينتين » ، وليس أصدق منه تصويراً لعصر الطوائف فى تاريخ الأندلس البعيد لأنك « قد تنقل هذا الوصف إلى أمة غير الأمة الفرنسية ، وعصر غير القرن الثامن عشر للميلاد ، وأنت لا تخرج به عن زمانه ومكانه وفحواه ، إذ هو وصف صادق لكل عصر من العصور فى « تواريخ الانتقال والاضطراب » . إنه عصر « لا يوصف فى جملته إلا بمثل هذا الوصف الغامض الجلى الذى كأنما يصف لك عصرين مختلفين لا عصرًا واحدًا متناسق الأوضاع والأحوال ، لأنه فى الحقيقة عصران مختلفان أو عدة عصور مختلفات ، وإن اجتمعت فى نطاق واحد من الزمان » ^(١) .

كان عصر الطوائف أوان الحصاد لكل ما بذرت أيام الخلافة المجيدة ، وعصر الحجابة الزاهرة ، من جرائيم الخير وعناصر الفلاح على السواء . وأثمر فيها الخطأ كما أثمر التوفيق ،

(١) اقتبست هذه الفقرة الجامعة من كتاب : ابن الرومى ، حياته من شعره ، لعباس محمود العقاد ، ص ١٠ - ٢١ ، الطبعة الثانية ، ١٣٥٧ - ١٩٣٨ ، ولو أنه بصدد الحديث عن القرن الثالث الهجرى فى دولة الإسلام الشرقية ، لأنها خير ما يعبر عن واقع الأندلس فى القرن الخامس الهجرى .

وبلغت الغاية في الحالين ، وتوزعت خيراتهما ، وشرورها أيضاً ، جماعات مختلفات من كل جنس ودين . ولقد أنهار صرح الخلافة الواحدة ، وانتثر عقد بلادها ، وتفرقت أيدى سبا . وقام على أنقاضها رؤساء طوائف العرب ، وأمراء الجماعات البربرية ، وفتيان صقالبة القصور ، وتقاسموها إمارات ، ومع التفرقة ضاعت القوة الواحدة الموجهة للسياسة الأندلسية العامة ، واختفى ما هو أخطر من ذلك ، وهو المثل الأندلسي الأعلى ^(٢) . وظهر اليهود على المسرح السياسي ، ومكنوا لأنفسهم في إمارة غرناطة زمناً ^(٣) ، وتغيرت الأمور حول الأندلس تغيراً حاسماً ، فقد استيقظت إسبانيا النصرانية ومدت يدها إلى أوروبا ، ونظم أهل المغرب أمورهم في صحرائهم وأقاموا لأنفسهم دولة ، وبين نارى النصراني في الشمال والبربر في الجنوب وقف ملوك الطوائف ، وقد وهن أمرهم ، وأضعفهم التزب والبذخ ، لا يكاد سلطان أحد منهم يتخطى حدود بلده ، وكانت دويلاتهم أشبه بجمهوريات إيطالية في ثياب شرقية ، وسادت العصر كله روح من البذخ المسرف ، والإجرام السافر الذي لا يتورع عن شيء من المطامع والزوات إلى الخناجر والسموم ^(٤) . وبين صخب الحياة اللاهية ، وعريضة اللحظات الماجنة ، وغيبة الوعي بالغد والمصير ، استيقظ الأندلس كله على كبرى القوارع ، وكانت :

○ سقوط طليطلة .

قُدِّرَ لطليطلة أن تكون أولى المدن الكبرى الداهية ، ورغم أنها لم تسقط في حرب ، ولم ينحسرها المسلمون في قتال ، إنما ذهبت نتيجة خدعة مأكرة من ألفونسو السادس ، واستسلام مهين من القادر يحيى بن ذى النون ، كانت الضربة القاصمة التي شالت بعدها كفة المسلمين ورجع جانب الكاثوليك ، وكانت محنة حقيقية لما تمثله طليطلة من ثقل في حياة الأندلس السياسية والحرية والشعورية ، كانت عاصمة أسبانيا على أيام القوط ،

(٢) غرسة غوث : الشعر الأندلسي ، ص ٣١ - ٣٢ من الأصل الأسباني ، وص ٤٣ - ٤٤ من الترجمة العربية .

(٣) أنظر الفصل الخاص بالقصيدة التي فجرت ثورة في هذا الكتاب .

(٤) غرسة غوث : الشعر الأندلسي ، ص ٣٢ ، الترجمة العربية ص ٤٤ .

وأحيط فتحها على يد طارق بن زياد بأساطير جميلة ، ذات خيال ممتع ، عما لقي فيها المسلمون من كنوز وثروات وسلاح ، ولم تفقد أهميتها حتى بعد أن أصبحت العاصمة قرطبة ، فتميزت كقاعدة حرية ذات ثقل ملحوظ في شمال الدولة الإسلامية ، وزادها قدراً ما تتمتع به من موقع استراتيجي ممتاز ، يتيح لها منعة طبيعية في وجه المغير ، كانت على قمة جبل مرتفع ، يطوقها نهر تاجه (تاخو Tajo في الإسبانية الحديثة) وتصلها بما وراءها قنطرة محصنة ، وعرفت إلى جانب ذلك بإبائها الصلب متمثلاً في ثورات لا تنتهى ، وبلغت - كغيرها - قدراً عالياً من الرقي والتحضر ، وأخذت بحظ وافر من الثقافة ، وإذا كان حظها من الأدب متواضعاً فقد فاقت غيرها في التأليف العلمي ، ففيها عاش الزرقالي (أبو ابراهيم بن يحيى النقاش ٤٥٢ - ٤٧٢ هـ = ١٠٦١ - ١٠٨٠ م) أبرع من أنجب الأندلس من علماء الفلك ، وابن وافد (أبو المطرف عبد الرحمن بن محمد بن عبد الكبير ٣٨٨ - ٤٦٦ هـ = ٩٩٨ - ١٠٧٤) أوسع أهل زمانه علماً بالطب ، وعرفت مؤرخين نابين كصاعد الطليطلى (٤٢٠ - ٤٦٢ هـ = ١٠٢٩ - ١٠٦٩ م) صاحب كتاب « طبقات الأمم » ، ونحويين مجيدين كأبي الوليد القوشى ، وعددًا من أصحاب الوثائق والعقود المتمكنين كابن مغيث (أبو جعفر أحمد بن محمد ت ٤٩١ - ١٠٦٩ م) . وغيرهم .

وبقدر ما كانت تمثل كان تشاؤم المسلمين من سقوطها ، ولم تحفظ لنا كتب الأدب من رد الفعل المباشر عند الشعراء إلا أبياتاً ثلاثة قالها الزاهد الفقيه أبو محمد عبد الله بن العسال (ت ٤٨٧ هـ = ١٠٩٤ م) . حين تركها ورحل إلى غرناطة :

يا أهلَ أندلس حُثُوا مطيكمُ فما المقامُ بها إلا من الغلطي
الثوب ينسل من أطرافه وأرى ثوب الجزيرة منسولاً من الوسط
ونحن بين عدو لا يفارقنا كيف الحياة مع الحياة في سفت

وهو صوت غريب أجش في الأسماع ، لأنه بدل أن يبكى ما حل بوطنه يحذر الأندلسيين من الإقامة فيه ، ويدعوهم إلى الرحيل ، ولو فهمنا الأبيات على ظاهرها لقلنا

إنها تمثل موقعاً إنهمازياً ، ولكن هذا اللون من التعبير السلبي يستهدف في الحقيقة المبالغة في النذر والتذكير .

يمكن تعليل قلة الشعر المروى في سقوط طليطلة بدءاً بأن الحرب كانت لا تزال سجلاً ، وأن المسلمين ثأروا لهزيمتهم في معركة طليطلة ، قبل مضي عام واحد بانتصار حاسم ورائع في معركة الزلاقة عام ١٠٨٦ م ، وأن الأمل في استرداد المدينة ظل قائماً ، كما أن الشروط التي تم تسليم المدينة في ظلها كانت - في مثل ظروفها - مشرفة ، فقد آلى ألفونسو السادس على نفسه أن يحافظ على حياة مسلمي طليطلة ، وحياة نساءهم وأطفالهم ، وألا يلحق ضرراً بأملأهم ، وتعهد بأن يسمح لمن يريد أن يخرج بالخروج ، ومن يريد أن يبقى بالبقاء ، ومن يبقى لا يطلب منه أكثر من دفع ضريبة الرأس ، ومن يهاجر يمكنه أن يعود في الحال ، ويسترد أملاكه مهما عظمتم قيمتها دون معارضة ، كما أوجب أهل طليطلة إلى الضمانات التي طلبوها فيما يتصل بحرية ممارسة شعائرهم الدينية والحفاظ على جامعهم الكبير .

لكن الكاثوليك ما لبثوا أن تنكروا لعهودهم ، فنقضوا المعاهدة لأسابيع من دخولهم طليطلة (٦ من مايو ١٠٨٥ م) ، فحولوا المسجد الجامع إلى كنيسة في يوليو من العام نفسه ، وحيل بين المهاجرين وبين العودة إلى ديارهم ، وضيق على المسلمين في أداء شعائرهم أولاً ، ثم أكرهوا عبي التكتلك فيما بعد حين أزفت شمس الاسلام الاندلسي على المغرب .

كان للأحداث التي وقعت بعد سقوط المدينة صدى أضخم من الأحداث التي صاحبت السقوط ، بين سكان المدينة أنفسهم أو بين بقية مواطنهم في حواضر الأندلس ، وعلى نحو خاص ما اتصل منها بالدين والعقيدة ، وكان لتحويل جامع طليطلة - وهو الثاني بعد جامع قرطبة سعة وضخامة وأبهة وعمارة بالعلم والدرس - رنة أسى حزينة ، ويعكس المقرئ أن الاستاذ الشيخ المغامى كان آخر مسلم وطئت قدمه الجامع ، لقد ذهب ليتزود منه ، « صار إليه وصلى فيه ، وأمر مريداً له بالقراءة ، ووافاه الفرنج هناك ، وتكاثروا عليه لتغيير القبلة ، وكلما قالوا له : عَجَل ، أشار هو إلى تلميذه بأن أكمل القراءة ، ثم قام

ما تهبب فصلى به ، ورفع رأسه وبكى الجامع بكاء شديداً^(٥) .

ما حدث في طليطلة نجد صدها واضحاً في قصيدة وحيدة طويلة تبلغ اثنين وسبعين بيتاً ، حفظها لنا المقرئ كاملة ولم ينسبها إلى قائل^(٦) . ويبدوها الشاعر متسائلاً في عجب : هل في الأندلس من يقر هادئاً وقد ضاعت طليطلة ، فُهد بضياها ركن الدين الحصين ، وتوالت بعدها النكبات والمصائب ، وأحس المؤمنون بالفزع حين علموا أن الغلبة كانت في جانب ألفونسو السادس :

لُكُكْ كَيْفَ تَبْتَسِمُ الثَّغُورُ سُرُوراً بَعْدَ مَاسِيَّتِ الثَّغُورِ
أَمَّا وَأَبَى مَصَابِ هُدًى مِنْهُ ثَبِيرُ الدِّينِ ، فَاتَّصَلَ الثُّبُورُ
لَقَدْ قُصِمَتْ ظُهُورُ حِينَ قَالُوا أَمِيرُ الْكَافِرِينَ لَهُ ظُهُورُ
وَيَعِضَى فِي تَسَاوُلِهِ : أَلَيْسَ بِالْمَدِينَةِ شَهْمٌ يَقَاوِمُ الْإِحْتِلَالَ وَيَحْرُرُهَا مِنَ الْعُبُودِيَّةِ ؟ لَقَدْ خَضَعَ الَّذِينَ تَعَوَّدُوا النَّصْرَةَ ، وَاسْتَكَانَ مِنْ كَانَ فِي طَبْعِهِمُ النُّفُورُ ، وَهَانَ الْقَوْمُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، وَتَسَاحَوْا فِي حَرَمَاتِهِمْ :

أَلَيْسَ بِهَا أَبَى النَّفْسِ شَهْمٌ يَدِيرُ عَلَى الدَّوَائِرِ إِذْ تَدُورُ
لَقَدْ خَضَعَتْ رِقَابٌ كُنَّ غُلْبًا وَزَالَ عَتُوُّهَا وَمَضَى النُّفُورُ
وَهَانَ عَلَى عَزِيزِ الْقَوْمِ ذُلٌّ وَسَامَحَ فِي الْحَرَمِ فَتَى غِيُورُ
وَيُخَالِصُ مِنْ هَذِهِ الْمَقْدَمَةِ الْعَامَةِ لِيَعْرُضَ مَا جَرَى فِي طَلِيْطَلَةَ نَفْسِهَا ، لَقَدْ انْتَصَرَ الْكَاثُولِيكُ وَاسْتَوْلُوا عَلَى الْمَدِينَةِ ، ذَاتِ الْحِصُونِ الْعَالِيَةِ ، تَفُوقَ ضَخَامَةِ وَمَنْعَةِ إِيْوَانَ كَسْرَى وَالْخُورْنُقِ وَالسِّدِيرِ . كَانَتْ مَعْقِلُ الْإِسْلَامِ وَمَنَارُ عِلْمِهِ ، فَخَبَا ضَوْوُهَا وَعَادَتْ دَارُ كُفْرٍ ، وَأَخْرَجَ سَكَانَهَا الْمُسْلِمُونَ ، وَحَوَّلَتْ مَسَاجِدَهَا إِلَى كَنَائِسَ ، وَعَبَثُوا بِجَرَائِرِهَا : طَلِيْطَلَةُ أَبَاحَ الْكُفْرَ مِنْهَا حِمَاها ، إِنْ ذَا نَبَأٌ كَبِيرُ فَلَيْسَ مِثَالُهَا إِيْوَانُ كَسْرَى وَلَا مِنْهَا الْخُورْنُقُ وَالسِّدِيرُ مُحَصَّنَةٌ مُحَصَّنَةٌ بَعِيدٌ تَنَاوَلَهَا ، وَمَطْلَبُهَا عَسِيرُ

(٥) المقرئ ، نفع الطيب ، ٤ / ٤٤٧ طبعة احسان عباس .

(٦) المرجع السابق . ٤ / ٨٣ وما بعدها .

ألم تكُ معقلاً للدين صعباً فذَلَّله كما شاء القدير
وأخرج أهلها منها جميعاً فصاروا حيث شاء بهم مصيرُ
وكانت دارَ إيمان وعلمٍ معالمها التي طمست تير
فعادت دارَ كفرٍ مصطفاه قد اضطربت بأهلها الأمور
مساجدُها كنائس ، أى قلبٍ على هذا يقر ولا يطير ؟
ويرد الأحداث إلى قلب الدهر ، يذكر ذلك في بيت واحد ، ثم يمضى ، لا يقف
عند الأمر ، ولا يجعل منه قضية يدور حولها ، وإنما يتجاوزها ليرد على الذين جعلوا الهزيمة
عقاباً من الله على معاص ارتكبتها أهل طليطلة ، وإنكاراً منه لواقع في حياتهم لا ترتضيه
الشرعة ، وحجته في الرد أن غيرهم أسوأ منهم ، وأشد فسقاً وفجوراً ، فإذا ارتضينا هذا
سبباً فعلياً أن نتوقع نفس المصير ، وفي قوله هذه يستهدف أمرين فيما أرى : الدفاع عن
قوم سقطوا في محنة الاحتلال ، فهم في حاجة إلى شيء آخر غير التقرير والذم ، وتذكير
الغافلين في بقية مدن الأندلس بما يمكن أن ينتهى إليه حالهم ، إذا واصلوا سيرتهم
العابثة ، وواصلوا مظالمهم وعصيانهم سراً وعلانية :

ندورُ كان للأيام فيهم يهلكهم فقد وفّت الندورُ
فلن قلنا العقوبة أدركتهم وجاءهم من الله النكير
فلنأ مثلهم وأشد منهم نجورُ وكيف يسلم من يجور
أنأمنُ أن يحل بنا انتقامُ وفينا الفسقُ أجمع والفجور
وأكلُ للحرام ولا اضطرار إليه فيسهل الأمر العسير
يزول السرُّ عن قومٍ إذ ما على العصيان أرخيت الستور
وينتقل داعياً إلى سل السيوف لنصرة الدين والثأر للقتلى ، والموت دون حياة عزيزة
خير من الحياة في ظل عيش ذليل ، ويضيق بالصابرين على الثأر ، ويلوم القاعدين
دونه :

خذوا ثأر الديانة وانصروها فقد حامت على القتلى النسرُ
ولا تهنوا وُسِّلوا كل عَصْبٍ تهابُ مضارباً منه النحور

وموتوا كلكم فالموتُ أولى بكم من أن تُتجاروا أو تُتجُوروا
أصبراً بعد سبىٍ وامتحان يُلام عليها القلبُ الصبور
ويصور قعود الناس عن الحرب ، ويهتمهم بالجن ، وأنهم أبقار تخور ، ترعدهم
أخبار الهزائم وما يجرى لمواطنيهم في المدن التي سقطت في قبضة الكاثوليك ، ويتمنى لو
كانوا أسوداً تزار وتخيف وترعب :

نخور إذا دُهينا بالرزايا وليس بمعجبٍ بقرٍ يخورُ
ونجبنُ ليس نزار. لو شجعنا ولم نجبن لكان لنا زئير
لقد ساءت بنا الأخبارُ حتى أمات الخبيرين بها الخبير
ويعرض لمحاولات الإغراء المادية من جانب العدو وكيف استجاب لها من المسلمين
الغنى والفقير ، فبقى بعضهم في أرض الكفر خزيان ينمى ثروته ، وجرى آخرون مع الخزي
إلى نهايته فارتدوا عن دينهم ، وبلغ الحزن غايته حين أثر الجميع البقاء ، وحثهم : إلى
أين نذهب ؟ وكيف نترك بيوتنا وأموالنا وليس لنا وراء البحر دور ولا أموال ، ليست لنا
هناك ضياع نعلم بوارف أشجارها وطيب ثمارها ، ولا طبيعة فياضة بجبالها من ظل وماء
واعتدال هواء :

تجاذبنا الأعداى باصطناعٍ فينجذبُ التحولُ والفقيرُ
فباقي في الديانة تحت خزيٍ تثبطهُ الشوْيهةُ والبعيرُ
وآخرُ مارقٌ هانت عليه مصائبُ دينه فلهُ السعيرُ
كفى حُزنا بأن الناس قالوا : إلى أين التحولُ والمسيرُ؟
أنتركُ دورنا ونفّر عنها وليس لنا وراء البحرُ دورُ
ولا ثمَّ الضياعُ تروقُ حسنا نباكرُها فيعجبنا البكورُ
وظلُّ وارفٌ وخيريرُ ماءٍ فلا قرُّ هناك ولا حرورُ
ويؤكلُ من فواكهها طرىً ويُشرب من جداولها نَميرُ
ويورد الشاعر المجهول حجاج أولئك القوم ، الذين آثروا عيش التخاذل ، وارتضوا
حياة الدعة في ظل الاحتلال ، يؤدون الجزية للإسبان كل شهر ، ويدفعون عشر محصولهم

كل صيف وهم صاغرون . ويعاود الحديث عن تلاشي اليقين ، وذهاب الدين ، ورضا المسلمين بالرق ، ويبكى ضياع دولة الإسلام ، ويندب الضائعين من أهله في بلاد الشرك ، ويحث المسلمين على القتال لأنّ الحزن لا يفيد ، والبكاء لا ينقذ ، ويندب رفاقاً حيارى خلفهم وراءه في طليطلة ، لا استقروا على البقاء ، ولا أقدموا على الهجرة ، وارتضوا أن يدفعوا الجزية ، وأن يؤدوا الضرائب ، عشر دخلهم كل صيف ، مادام الذين استولوا على المدينة يحمونها ، وأصبح المسلمون مواليتهم ، ولا يقنع بالندب والنوح وإنما يدعو إلى نبذ السلم ، والدعوة إلى الحرب فهي وحدها التي تغسل عار الهزيمة ، وتجبر العظم الكسير :

يُودَى مَغْرَمٌ فِي كُلِّ شَهْرٍ وَيُؤْخَذُ كُلُّ صَائِفَةٍ عَشُورُ
فَهُمْ أَحْمَى لِحُوزَتَنَا وَأَوَّلَى بِنَا ، وَهُمْ الْمَوَالِي وَالْعَشِيرُ
لَقَدْ ذَهَبَ الْيَقِينُ فَلَا يَقِينُ وَغَرَّ الْقَوْمَ بِاللَّهِ الْغُرُورُ
فَلَا دِينَ وَلَا دُنْيَا وَلَكِنْ غُرُورٌ بِالْمَعِيشَةِ مَا غُرُورُ
رَضُوا بِالرَّقِّ يَا لَهِ مَاذَا رَأَوْهُ وَمَا أَشَارَ بِهِ مَشِيرُ
مَضَى الْإِسْلَامُ فَابْكِ دَمًّا عَلَيْهِ هُمَا يَنْفِي الْجَوَى الدَّمْعُ الْغَزِيرُ
وَنَحْ وَأَنْدَبُ رِفَاقًا فِي فَلَاقٍ حِيَارَى لَا تُحِطُّ وَلَا تَسِيرُ
وَلَا تَجْنَحُ إِلَى سَلَمٍ وَحَارِبٍ عَسَى أَنْ يُجْبَرَ الْعَظَمُ الْكَسِيرُ
وَيُقَارَنَ بَيْنَ مَوْقِفِ الْعَدُوِّ وَمَوْقِفِ الْمُسْلِمِينَ ، وَكَانَ نَصِيبُ أَوَّلِكَ الرُّشْدُ ، وَحِظُ
هَؤُلَاءِ عَمَى الْبَصِيرَةِ ، وَكَيْفَ يَلْقَوْنَ مِنْهُمْ وَاحِدًا وَيَفْرُونَ عَنْهُ جَمْعًا ، وَيَدْعُو الْمُسْلِمِينَ إِلَى
الثَّبَاتِ عِنْدَ اللَّقَاءِ ، وَالصَّبْرِ عِنْدَ الشَّدَةِ ، لِأَنَّ كَثْرَةَ الْعَدَدِ وَحْدَهَا لَا تَغْنِي شَيْئًا . وَيُخْتَمُ
قَصِيدَتَهُ يَبْكِي دَوْلَةَ الْإِسْلَامِ الضَّائِعَةَ فِي بَطَاحِ الْأَنْدَلُسِ ، وَيَنْدَبُ أَهْلَهُ الْمُضِيعِينَ فِي بِلَادِ
الشَّرْكِ ، وَيَتَمَنَّى لَوْ وَجَدَتْ الْجُمُوعُ الْحَائِرَةَ قَائِدًا مُقْتَدِرًا . يَنْصَحُ الرَّأْيَ ، وَيُعْطِي الْمَثَلَ ،
وَيُحَسِّنُ الطَّعْنَ ، وَيَتَقَدَّمُ عِنْدَ اللَّقَاءِ ، فَإِنَّهُ لَكَبِيرٌ أَنْ يَكُونَ سَكَّانُ الْأَنْدَلُسِ إِمَّا قَتِيلٌ
أَوْ أُسِيرٌ :

أَنْعَمِي عَنْ مَرَاشِدِنَا جَمِيعًا وَمَا إِنْ مِنْهُمْ إِلَّا بِصِيرُ

ونلقى واحداً ويفرّ جمعٌ كما عن قانصٍ فرت حميرٌ
ولو أنا ثبتنا كان خيراً ولكن مالنا كرمٌ وخيرٌ
إذا مالم يكن صبر جميلٌ فليس بنافعٍ عددٌ كثيرٌ
ألا رجلٌ له رأىٌ أصيلٌ به مما نحاذر نستجير
يكثُر إذا السيوفُ تناولتهُ وأين بنا إذا ولّتْ كرورٌ
ويطعن بالقنا الخطّار حتى يقول الرمح ما هذا الخطير
عظيمٌ أن يكون الناس طرا بأندلسٍ قتيلٌ أو أسير

أكثر الشاعر من التنديد والتقريع في قصيدته ، ولكنه لا ينتهى بها إلى تثبيط العزائم ،
أو إشاعة اليأس ، وإنما يهدف من ورائه إلى استنهاض الهمم وإثارة الحمية ، ودفع الناس
إلى التماسك والوقوف في وجه العدو ، ويختمها وقد فتح لهم طاقة من الرجاء ، ويتفاءل
بالنصر في أحلك ساعات المحنة ، مستمداً ذلك من إيمان بالله ، وثقته في نفسه وقومه رغم
تطامن البلى :

ونرجو أن يتيح الله نصرًا عليهم ، إنه نعم النصير

لم يورد أى من المصادر الأندلسية التى بين أيدينا القصيدة أو أبياتاً منها ، وانفرد المقرئ
بإيرادها كاملة ، على ما يبدو من أبياتها ، فى كتابه **نفح الطيب** ، ولم يصرح كعادته كثيراً
باسم المصدر الذى نقل عنه ، وقد تأملت الأبيات طويلاً ، وبدأ لى أن قائلها من طليطلة
قطعا ، واحد أكيدا ، فهى متساوية النغم والبناء والمشاعر ، يؤكد على بعض الأفكار
بتكرارها أحيانا ، لكن لا شىء فيها يمكن أن ينصرف إلى مدينة أخرى ، أو أضيف لها فيما
بعد .

الشاعر من طليطلة إذن ، شهد وقائع الأحداث الأولى على الأقل ، وفارقها قبل
التسليم النهائى فيما أرجح ، لأنه يصور لنا حالتها حينئذ تصوير خبير ، يتحدث عن الأخبار
الواردة على أهل طليطلة ، وعن يأسهم ، وطول انتظارهم للنجدات التى يأملونها ، وعن

سقوطها أخيراً . ويعتذر لأخوان له فيها بأنه إذا كان قد هاجر فهو حاضر معهم بأحزانه وأشجانه :

لئن غبنا عن الإخوان إنا بأحزانٍ وأشجانٍ حضورُ
ويلمح إلى ما كان لطليطة من دور ثقافي فيجىء تعبيره دقيقاً محدداً ، لا يقول إنها كانت منارة الأدب ، ولا مهبط الشعر ، ولم يكن لها هذا الدور ، وإنما يصفها بأنها كانت منارة العلم ، وحصن الدين ، ومهبط الإيمان ، وهي كذلك واقعاً . ويتحدث عن مناعتها الجغرافية ، ومعها كان الظن بأنها لا تسقط في يد غاز أبداً ، وأن العدو أرغم جانباً من أهلها على الهجرة ، وأن مساجدها أصبحت كنائس ، وأصاب كبد الحقيقة حين ألمح إلى محاولات العدو في اجتذاب سكان طليطة إليه بعد أن استولى عليها ، مما أوجزه المقوري في جملة مينة : « وبسط الكافر العدل على أهل المدينة ، وحَبَّب التنصّر إلى عامة طغامها ، فوجد المسلمون من ذلك مالا يطاق حمله » . ورغم تقيّعه الشديد لأهل طليطة عد ماوقع نذراً من الأيام ، ولم يرجع به إلى غيبية مخزنة ، تصاحب دائماً فترات السقوط الفكرى ، والانحطاط العقلى ، وتجعل العصيان والفسوق وراء كل هزيمة ، دون تحليل النتائج وردها إلى أسبابها العلمية المباشرة ، بل ودافع عنهم ، وذكر من جعل المعاصي سيئاً ، وأن السقوط عقوبة ، بأن غيرهم يفعل مثلهم ، وأشد منهم ، وإذن فعليهم أن يحذروا لأن الدائرة سوف تدور عليهم إذا لم يفيقوا ويتنبهوا . وهو لا يضغط على هذا المعنى كثيراً كما نجد في القصائد الأخرى التى تجيء فيما بعد .

الشاعر أصيل في أفكاره واتجاهه ، لأن قصيدته أول ما قيل في بابها ، وليس عالة فيها على أحد سبقه ، ولا تنسحب تجربتها على أحداث أخرى مماثلة أو مشابهة ، ونلمح فيها على استحياء تصويراً عابراً لداخله ، وتطل مشاعره الشخصية من بيت لا نجد له شبيهاً عند رفاقه من بعد ، فقد أهما الأمر وكان له معه ليل كليل امرئ القيس أو النابغة من قبل :
يطول على ليلى ، رب خطبٍ يطول لهوله الليلُ القصيرُ
وهو متمكن من أدواته ، عروضاً ولغة ونحواً ، ليس في قصيدته اضطراب أو ركافة ، ولا في إيقاعها تكلف أو إسفاف . ولكنه فيما يبدو ليس فناً هوايته الإبداع ،

ولا شاعرا صناعته القريض . وإنما يشغل الشعر حيزاً محدوداً من اهتماماته فحسب ، إلى جانب هموم علمية أخرى ، فصوره الشعرية قليلة ، وماورد منها جاء بسيطاً ساذجاً ، وهو يعتمد على ألوان التشبيه والاستعارات المألوفة ، إلى جانب المحسنات اللفظية ، ومن بينها الجناس بخاصة ، كاملاً أو ناقصاً ، ثم الطباق ، والموقف يستدعيه فنياً ، لأن المقابلة بين الفكرتين أو الموقفين تعطى التصوير الذى يهدف إليه بعدا ، والمعنى مزيدا من التأكيد . ومع غيبة الوثائق القاطعة باسم الشاعر إثباتاً أو نفياً ، آثرت أن أعتمد على الظن الراجح فى الوصول إلى قائل هذه الأبيات ، وقلبت الأمر على وجوهه ، وتتبع أخبار الشعراء فى طليطلة فى هذه الفترة فلم أجد من يمكن أن تنسب إليه هذه القصيدة غير أبى الوليد هشام بن أحمد الوقشى ، فقد عاصر هذه الأحداث ، وهو أصلاً من طليطلة وأعطانا ابن بشكوال خطوطاً عريضة لحياته ، وملامح من اتجاهاته ، تنبىء بأنه صاحب القصيدة ، وسنأتى على ذلك فيما بعد ^(٧) ، ويرجح بظنى أن المقرئ نقل له أبياتاً أخرى قصيرة ومتعددة ، فى مناسبات مختلفة ، وسنلتقى به مرة ثانية فى بلنسية ييكها فى قصيدة أخرى ، حين سقطت فى يد السيد القنيطور ^(٨) ، وتعرضت لمحنة شبيهة تماماً بما تعرضت له طليطلة من الحصار والتجويع ، وفى هذه المرة وصلنا اسمه محرفاً تماماً ، وتوصلنا إليه ، أما القصيدة نفسها فضاعت ، وصلتنا فى صورة طريفة . لا نظير لها فى تاريخ الأدب العربى ، مكتوبة بعامية أهل الأندلس ، وفى حروف لاتينية ، ومترجمة عن ترجمة الأصل إلى اللغة القشتالية ، وسوف ندرسها تفصيلاً فى فصل خاص : « مرثية بلنسية ضائعة » .

○ المعتمد يرنى دولته :

بدأت دولة العبابدة فى أشبيلية ، قبل أن ينتشر عقد الخلافة الأموية ، على يد القاضى أبى القاسم محمد بن عباد (ت ٤٣٣ هـ = ١٠٤٢ م) وثبتت أركانها على يد ابنه عباد الذى

(٧) انظر فصل : « مرثية بلنسية ضائعة » فى الكتاب ، ص ٢٧٨ .

(٨) أتينا على تاريخ السيد ، وما أصاب بلنسية على يديه تفصيلاً ، فى كتابنا : ملحمة السيد ، دراسة مقارنة ، دار المعارف ،

الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٨٣ .

تلقب بالمعتضد (٤٠٣ - ٤٦١ هـ = ١٠١٢ - ١٠٦٩ م) ، وكان متناقض المزاج ، يجمع بين الدهاء اليقظ ، والقسوة البالغة ، والإحساس الرقيق ، والعلم الواسع ، والذوق الرفيع ، إلى ذاكرة واعية وقريحة شاعرة ، وأحاط نفسه بهالة من الشعراء جعلت همها مديحه ، وأسرف في الانفاق فبدأ في هيئة خلافة من العظمة ، إلا أن ابنه المعتمد (٤٣٢ - ٤٨٨ هـ = ١٠٤٠ - ١٠٩٥ م) وقد خلفه على عرش أشبيلية احتل في دنيا الأدب والتاريخ مكانة أعظم من مكانة أبيه ، فقد فاقه في الشعر ، وبرىء من أوزاره في السياسة ، وكان يمثل الشعر خير تمثيل من وجوه ثلاثة : ينظمه على نحو يثير الإعجاب ، وكانت حياته نفسها شعراً حياً ، وكان راعى شعراء الأندلس أجمعين ، بل الغرب الإسلامي كله .

ظل سلطان المعتمد في ازدهار زهاء عشر سنين ، لكن سقوط طليطلة وضغط النصارى على أشبيلية وبقية الحواضر الإسلامية ، جعل ملوك الطوائف وعلى رأسهم المعتمد - يستنجدون بالمرابطين في أفريقيا ، وعبر المرابطون إلى الأندلس ، وانتصروا على النصارى في معركة الزلاقة ، لكنهم في نهاية الأمر انقلبوا على ملوك الطوائف أنفسهم ، وأخذوا يستولون على معقلهم واحد إثر آخر ، وسقطت أشبيلية في أيديهم بعد كفاح مرير من المعتمد وأبنائه ، وقتل منهم المأمون والراضي ، ومن قبلهم الظاهر ، ومن بعدهم عبد الجبار ، ولما صار المعتمد في أيدي المرابطين « جُمع هو وأهله ، وحملتهم الجوارى المنشآت ، وضمتهم جوانحها كأنهم أموات ، بعد ما ضاق عنهم القصر ، وراق منهم العمر ، والناس قد حشروا بصفى الوادى ، وبكوا بدموع كالغواذى فساروا والنوح يحدوهم ، والبوح باللوعة لا يعدوهم »^(٩) .

كان المعتمد في حياته شاعراً أكثر منه حاكماً ، إلا أن عراقة الأصل ، ونبل المحتد ، وحمية العربى ، تجلت واضحة في مواقفه من ضغط المسيحيين في الشمال ، فكان أول من اقترح دعوة المرابطين لمواجهة جيوش النصارى الزاحفة ، وحين خوفه المتنفعون بالفساد في

(٩) اس خاقان ، قلاند العيان . ص ٢٣ .

وطنه بأنهم إذا جاءوا لن يرحلوا ، كانت قوله الشهيرة « رَعَى الجبال خير من رعى الحنازير » ، وقاتل في معركة الزلاقة قتالاً محمومًا شجاعًا ، وسار إليها على رأس جيشه واثقًا بالنصر ينشده :

لا بد من فرج قريب يأتيك بالعجب العجيب
غزو عليك مبارك سيعود بالفتح القريب
لله سَعْدُكَ إِنَّهُ نُكْسٌ على دين الصليب
لا بد من يوم يكو ن له أنا يوم القلب (١٠)

وَألقى ألفونسو السادس ملك قشتالة بثقل جيشه كله على المعتمد ، لأنه وراء هذه الحرب ، ومال عليه بكل جموعه ، وأحاطوا به من كل جهة ، وحمى الوطيس ، واستحرق القتل في أصحاب ابن عباد ، وصبر المعتمد صبراً لم يعهد مثله لأحد ، وعرضته الحرب ، واشتد عليه ومن معه البلاء ، وانكشف بعض أصحابه ، وفيهم ابنه عبد الله ، وأُتخِن جراحاً ، وضرب على رأسه ضربةً فلقت هامته ، حتى وصلت إلى صدغه ، وجرحت يمين يديه ، وطعن في أحد جانبيه ، وعقرت تحته ثلاثة أفراس ، كلما هلك واحد قُدم له آخر ، وهو يقاسى حياض الموت ، ويضرب يميناً وشمالاً ، وتذكر ابناً صغيراً له ، كان مغرمًا به ، تركه عليلاً في إشبيلية ، يكنى أبا هاشم :

أبا هاشم هشمي الشفار فله صبرى لذاك الأوار
ذكرتُ شخصيك تحت العجاج فلم يثنى ذكره للضرار

وحين أطبقت جيوش المسلمين مجتمعة ، من مرابطين وأندلسين ، على جيش ألفونسو وأصحابه ، ونصرائه من كل بقية دول أوروبا ، وصدقوا الحملة عليه ، « ولَّوا ظهورهم ، وأعطوا أعناقهم ، والسيوف تصفعهم ، والرماح تطعنهم ، وتفرق جيش ألفونسو شذراً مذر ، وغطت جثث جنوده ساحة المعركة ، فما استطاع المراء أن يتحرك خلالها إلا على الجثث خوضاً في الدماء .

(١٠) يوم القلب هو معركة بدر .

« ولما رجع ابن عباد إلى إشبيلية جلس للناس ، وهنئ بالفتح ، وقرأت القراء ، وقام على رأسه الشعراء فأنشدوه ، قال عبد الجليل بن وهبون : حضرت ذلك اليوم ، وأعددت قصيدة أنشدها بين يديه ، فقرأ القارئ « إلا تنصروه فقد نصره الله » (١١) ، فقلت : بُعداً لى ولشعري ، والله ما أبقت لى هذه الآية معنى أحضره وأقوم به . لكن ابن تاشفين لأسباب سياسية إرتآها ، وليس هنا موضع مناقشتها ، قرر أن يزيح أمراء الطوائف عن عروشهم ، وبدأ بالمعتمد لأنه أعظمهم وأقواهم ، ولقرب عاصمته من عدوة المغرب ، وسهولة الوصول إليها إبحاراً ، ودافع المعتمد وبنه عن ملكه ، وترامى على الموت بنفسه ، غير أن ذلك لم يحجده نفعاً ، وخرج الناس من منازلهم ، وقد شئت الغارة عليهم ، « يسترون عوراتهم بأناملهم ، وكُشِفَتْ وجوه المخدرات العذارى ، ورأيت الناس سكارى وما هم بسكارى ، ورُحِلَ بالمعتمد وآله ، بعد استئصال جميع ماله ، لم يصحب معه بلغة زاد ، ولا بقية مراد » .

وأدرك المعتمد واعياً أن دولتهم انهارت ، وملكهم تلاشى ، وبدأ شاعراً يرثى ، ولا أقول يبكي ، مجداً ضائعاً ، فى أبيات شرقت وغربت ، لأنها تصوّر المثل الأعلى فى حياة العربى ، أميراً على عرش ، أو راعياً وراء قطيع : السمّ ألد مذاقا من الخضوع ، والشرف الرفيع لا يُسلب ، لم يتخلّف عن القتال ، ولا ضنّ بنفسه عن الاستشهاد ، ولئن عاش بعده فلئن له عمراً لم ينقض ، فما سار يوماً إلى معركة وأمل أن يعود منها حياً ، تلك هى أخلاقه ، وهى أخلاق أهله من قبل :

لَمَّا تَمَاسَكَتِ الدِّمَوعُ	وَتَنَبَّهَ الْقَلْبُ الصَّدِيعُ
وَتَنَاسَكِرَتْ هَمَمِي لَمَّا	يَسْتَأْمُهَا الْخَطْبُ الْفَطِيعُ
قَالُوا الْخَضُوعَ سِيَاسَةً	فَلْيَبْدُ مِنْكَ لَهِم خَضُوعُ
وَالَّذُ مِنْ طَعْمِ الْخَضُوعِ	عِ عَلَى فِى السَّمِّ النِّقِيعُ
إِنْ تَسْتَلِبْ عَنِ الدُّنَا	مَلِكِي وَتُسَلِّمْنِي الْجُمُوعُ

فالقلبُ بينَ ضلوعه لم تُسلم القلبَ الضلوع
لم أَسْتَلْبُ شرفَ الطبا عِ أَيْسَلْبُ الشرفُ الرفيع
قد رمتُ يومَ نزالهم أنْ لا تحصُنِي الدروع
وبرزتُ ليس سوى القميصِ صر على الحشا شيءٌ دفع
وبذلتُ نفسى كى تسبى لَ إذا يسيلُ بها النجيع
أجلى تأخَّرَ لم يكنْ بهوى ذُلِّي والخضوع
ماسرتُ قط إلى القتا لَ وكان من أملَى الرجوع
شيمُ الألى أنا منهمُ والأصل تتبعه الفروع

وحين انفضت المعركة ، وخسر كل شيء إلا الشرف ، تطلع فإذا ابنه سراج الدولة أبو عمرو قاتل ابن عكاشة فى قرطبة ، وأبو خالد يزيد الملقب بالراضى قتله قروور اللمعى غدرا برندة ، وأبو نصر الفتح الملقب بالمأمون قاتل فى قرطبة أيضا ، وفى طريقهم إلى مقرهم النهائى أسرى ، لم تتوقف أمهم ، اعتماد الرميكية ، ولا أخواتهم بكاء عليهم ، وصور لنا حاله تكبله القيود وذلل الأسر ، وحال زوجه يغلبها الحزن ، وترجرها التقوى ، وتذللهما الذكرى ، وتفزع للبكاء ، وتصبر أحيانا ، وهى مضیعة بين تلاطم هذه العواطف :

يقولون صبرا لا سبيل إلى الصبر
هوى الكوكبان : الفتح ثم شقيقه
ترى زهرها فى ماتم كل ليلة
يُنحَن على نجمين أتكُلن ذا وذا
أفتحُ لقد فتحت لى بابَ رحمة
توليتما والسنُّ بعدُ صغيرة
توليتما حين انتهت بكما العلا
فلو عدتما لاخترتما العود فى الثرى
يُعيدُ على سمعى الحديدُ نشيده
سأبكى وأبكى ما تطاول من عمرى
يزيدُ ، فهل بعد الكواكب من صبر
تخْمَشُنْ لَهْفًا وسطه صفحة البدر
وأصبرُ ما للقلب فى الصبر من عذر
كما ييزيد الله قد زاد فى أجرى
ولم تلبث الأيام أن صغرت قدرى
إلى غاية . كلُّ إلى غاية يحجرى
إذا أبصرتمانى فى الأسر
ثقيلاً فتبكى العين بالحسِّ والنقر

معى الأخواتُ الهالكاتُ عليكما وأمَّكما الثكلى المضرمةُ الصدر
فتبكي بدمعٍ ليس للقطر مثله وترجُرها التقوى فتصغى إلى الزجرِ
أبا خالدٍ أورثنى الحزن خالداً أبا النَّصرِ مذ وُدَّعتْ ودَّعنى نصري
وقبلكما قد أودَعَ القلبَ حسرةً تجددُ طولَ الدهرِ ، تُكلُّ أبى عمرو
ودخل عليه ابنه أبو هاشم ، والأب «يرسف فى قيوده ، ويتقلب فى حديدته ،
فخنقت الطفلَ العبرةُ ، وكان أحب أبناء المعتمد إليه ، وأحظاهم على صغره لديه ،
فناجى القيد ، جعله شخصاً يخاطبه ويعتب عليه قسوته ، لقد شرب منه الدم ، وأكل
اللحم ، ويودُّ أن يهشم العظم ، لا يبالي بطفل جاء يسترحمه ، ولا بأخيات له جرعهن
السم والعلقم ، من يعى تكاد دموع الحزن تذهب ببصره والصغير لا يفهم يلوذ بالرضاع :

قيدى ! أما تعلمنى مُسلماً أبيت أن تشفقَ أو ترحمًا
دمى شرابٌ لك واللحمُ قد أكلته لا تهشم الأَعْظما
أرحمُ طفيلًا طائشًا لُبُّه لم يخش أن يأتيك مُسترحا
وأرحم أخياتٍ له مثله جرَّعن السمَّ والعلقما
منهن من يفهم شيئاً فقد خفن عليه للبكاء العمى
والغر لا يفهم شيئاً فما يفتحُ إلا للرضاع فما

وهى صورة بالغة الحزن ، جعل منها التشخيص شيئاً نحسه ونشعر به ، ويتسرب إلى
أعماقنا خفياً ، فيجسد التجربة أماننا حية ، ويستل الدموع من أعيننا غزيرة ، كأننا نرى
المشهد أماننا .

وقد أورثته قسوة المحنة ، وهول الاعتقال ، وفداحة الآلام تطوق بنيه بعد السعد ،
ويعانون المهانة بعد العز ، زهداً جليلاً ، وتأسياً نبيلًا :

أرى الدنيا الدنية لا توائى فأجملُ فى التصرف والطلاب
ولا يغرك منها حسنُ بُردٍ له علمان من ذهب الكهاب
فأولها رجا من سرابٍ وآخرها رداء من تراب

جاءت قصائد المعتمد فى رثاء دولته ، وبكاء واقعه ، كثيرة وفريدة ، ولم يحدث قبله

أن فاضت ينابيع الشعر في أعماق أمير فصور لنا مأساته وأحزانه وآلامه وتأسيه ، وصاغ التجارب موحية مثيرة من واقعه ومآسيه ، كما صنع المعتمد ، في نبرة صادقة ، ومعاناة حقيقية ، وإيقاع حزين ، ولكنه في كل الحالات ينبض نبلاً ، وينضح بكبرياء عجيب .

« لم يكن المعتمد حاكماً عظيماً بحال ، فقد تولى مقاليد شعب أفسد الترف طبعه ، فلم يصرف شيئاً من العناية إلى أمور رعيته ، وترامى على ملذات نفسه ، ومن ثم كان عبء الحكم عليه ثقيلاً ، كان بطبعه ميالاً إلى الراحة ، تشغله تلك الأشياء الخارجية التي تشغل الفنانين وتتألف منها مسراتهم وشقاواتهم ، فكان ذلك مما حال بينه وبين القيام بأعباء الحكم على النحو المطلوب . لكن أحداً من الناس لم تنطو نفسه على قدر من الحساسية والفيض الشاعري الدافق كالذي ضمته نفس المعتمد ، وأتفه الأشياء في حياته وكل متعه وأحزانه ، كانت تأخذ على الفور شكلاً شعرياً ، ويمكن كتابة تاريخ حياته ، أو على الأقل حياته الشعورية ، اعتماداً على شعره وحده ، على بوحات قلبه ، إنها طافحة بالحزن والابتهاج الذي يأتي ويذهب كل يوم مع إشراقة الشمس أو تلبد الغيوم . ثم إن القدر أراد له أن يكون آخر أمير أندلسي الأصل يحمل في جلال علم ثقافة فكرية وقومية قُدِّرَ لها أن تنطوى ويذهب أمرها تحت ظل المرابطين الذين فتحوا البلاد ، لقد أحاط به عطف خاص لأنه كان أصغر وآخر فرد من أفراد تلك الأسرة الكثيرة العدد . أسرة الأمراء الشعراء الذين حكموا الأندلس . لقد أسف عليه الناس أكثر مما أسفوا على أى شخص آخر دون استثناء ، تماماً كما يأسف الإنسان على آخر وردة في الموسم ، وآخر يوم جميل في الخريف . وآخر شعاع من أشعة الشمس الغاربة » (١٢) .

○ ابن اللبانة يبكي دولة العباددة :

هذا الهبوط من السمو إلى الحضيض ، من سدة الملك إلى وهدة السجن . أثار كوامن الشعر في نفس شاعر المعتمد . أبو بكر محمد بن عيسى المشهور بابن اللبانة (ت ٥٠٧ هـ -

١١١٣ م) (١٣) فبكى دولة العباددة فى شعر صادق طافح بالأسى . عدد فيه مآثرهم وما صاروا إليه . فى عبارة رقيقة . وتصوير دقيق ، خال من المبالغة والتهويل :

تبكى السماء بدمع رائج غاد على البهاليل من أبناء عباد
على الجبال التى هدت قواعدها وكانت الأرض منهم ذات أوتاد
والرايات عليها الياضات ذوت أنوارها فغدت فى خفض أوهاد
عريسة دخلتها النائبات على أساود لهم فيها وآساد
وكعبة كانت الآمال تعمرها فاليوم لا عاكف فيها ولا باد
ياضيف أقفر بيت المكرمات فخذ فى ضم رحلك واجمع فضلة الزاد
ويامؤمل وادهم ليسكنه خف القطين وجف الزرع بالوادي
وأنت يا فارس الخيل التى جعلت تختال فى عدد منها وأعداد
ألق السلاح ، وخل المشرفى فقد أصبحت فى لهوات الضيغم العادى
لما دنا الوقت لم تحلف له عدة وكل شىء لمقيات وميعاد

ثم يلتمس العذر لخلعهم . فقد خلع بنو العباس من قبل ، وكانوا أعز سلطانا ، وأعظم ملكا . فأقفر منهم بغداد ، كما أقفرت من هؤلاء لإشبيلية :

إن يُخلعوا فبنو العباس قد خلعوا وقد خلت قبل حمص أرض بغداد
لكنه لا يطيل الوقوف بهذه المقارنة ، ولا يتجاوزها إلى غيرها ، وإنما يخلص إلى موضوع القصيدة نفسه ، فيصور مشهد ركوب بنى عباد السفن فى طريقهم إلى المنى ، لقد سيقوا إليها منظوماً بعضهم إلى بعض بالجبال ، وضممتهم السفن فى جوفها كما تضم القبور أمواتها . كل الأحداث يمكن أن تنسى إلا ذلك اليوم ! ، ولقد رأى الناس وهم على

(١٣) ابن اللبانة ، نسبة إلى أمه وكانت تتبع اللن ، ويقال له الداني نسبة إلى بلده دانية denia ، مدينة أندلسية على شاطئ البحر الأبيض ، لترجمة حياته انظر :

- ابن سعيد المغربى ، المغرب ، ج ٢ ص ٤٠٩ وما بعدها ، تحقيق شوق ضيف .
- المراكشى ، المعجب ص ١٤٧ وما بعدها ، تحقيق محمد سعيد الريان ، ط . الأولى .
- ابن خاقان ، قلائد العقيان ص ١٥١ .

ضفتى نهر الوادى الكبير نساء المعتمد ، هن اللؤلؤ جلالاً ورونقاً وبياضاً ، يشرين من نفس الكأس ، وقد سفرن من هول الفاجعة ، ومزقن وجوههن بأظافرهن من شدة الحزن : حموا حريمهم حتى إذا غلبوا سيقوا على نسق في حبل مقتاد نسيت إلا غداة النهر كونهم في المنشآت كأموات بالحاد والناس قد ملأوا العبرين ، واعتبروا من لؤلؤ طافيات فوق أزياد حط القناع ، فلم تستر مخدرة ومزقت أوجه تمزيق أبراد

ثم يصف توديع الناس لهم على نحو من الصدق والدقة يخيل إلينا معها أننا نرى الناس يتراحمون على ضفتى الوادى الكبير ليروا السفن تبتعد عن الشاطئ بأصحابها وسط فيض هتون من العبرات :

حان الوداع فضجت كل صارخة وصارخ من مفداة ومن فاد سارت سفائنهم والنوح يصحبها كأنها لبل يحدو بها الحادى كم سال فى الماء من دمع وكم حملت تلك القطائع من قطعات أكباد

كان ابن اللبانة أصدق شاعر رثى دولة فى الأندلس ، ولم يتوقف بكاؤه لها بزوالها وفقدان الأمل فى عودتها ، وحاول أن يستخرج من مأساتها العظات والعبر ، يوقظ بها نائماً أو يذكر غافلاً ، وألف فى ذلك قاصداً كتابه « نظم السلوك فى مواعظ الملوك » ، وبقى حياته يتردد على أغصان حيث المعتمد أسير ، يمدحه ويواسيه ، ويبكى أيامه البوالى . وقال عن روحته تلك ، إنها « وفادة وفاء لا وفادة اجتداء » ، وأشعاره فى الدولة العبادية كثيرة ، وكلها بمنزلة عالمية ، وإذا كان المجال لا يتسع لأن نأتى عليها جميعها ، فإن نفسى لا تطاوعنى أن أمضى دون أن آتى على شئ من قصيدة مطولة منها . وقالها بعد أن أنفذ القدر سهامه ، وانتهى كل شئ إلى غايته ، فجاءت أقل صريحاً ، وأهدأ نفساً ، وأعطق تأملاً ، وأحفل بالحكمة والرضى ، فكل شئ مرهون بأوانه ، والدهر حول قلب ، ونحن بيده أحجار من الشطرنج يحركنا كيف شاء ، والعامل من ينفص يديه من الدنيا بعد أن رأى المعتمد فى سماء عزه ، ثم أتت عليه فهو فى حماة السجن والأسر . ومجمل ما حدث

لإشيبيلة بعده في بيت واحد من الشعر ، انطوى على مبالغة مقبولة : الأرض بعدهم
أقفرت والناس قد ماتوا :

لكيَّ شيء من الأرض ميقاتُ وللمنى في منايهن غاياتُ
والدهرُ في صفة الحرباء منغمسُ ألوانُ حالاته فيها استحالات
ونحن من لعبِ الشطرنج في يده وطلما قُمرتُ بالبيدِ الشاةُ
انفض يدبك من الدنيا وزينتها فالأرضُ قد اقفرتُ والناس قد ماتوا
وقل لعالمها الأرضيَّ قد كتمتُ سريرةَ العالم العلوى أغمات

وفي عام ٤٨٨ هـ = ١٠٦٥ م ، تُوفى المعتمد بأغمات ، وورى التراب هناك ، ونودى
في الدعاء للصلاة على جنازته : « الصلاة على الغريب » ، وبعد أيام وافى قبره شاعره
المخلص أبو بحر ابن عبد الصمد ، « فلما كان يوم العيد وانتشر الناس ضحىً ، وظهر كل
متوارٍ وضحا ، قام على قبره عند انفصاهم من مصلاهم واختياهم بزيتهم وحلاهم ،
وقال بعد أن طاف بقبره والتزمه ، وخر على ترابه ولثمه :

ملكُ الملوكُ أسمعُ فأنادى أم قد عدتكَ عن السماع عوادى
لما خلتُ منك القصور فلم تكنُ فيها كما قد كنت في الأعياد
قَبَلْتُ في هذا الثرى لك خاضعاً وتخذتُ قبركُ موضع الإنشاد

وهي قصيدة أطلال إنشادها ، فبكى وأبكى ، « وهذه نهاية كل عيش ، وغاية كل
ملك وجيش ، والأيام لا تدع حياً ، ولا تألوا كل نشر طياً ، تطرق رزاياها كل سميع ،
وتفرق منايها كل جمع » . ومع ذلك بقيت مأساة المعتمد وإبائوه حية في وجدان الأدب
العربي . لم يقترب منها النسيان لحظة . يرتادها القاص ، والشاعر والمؤرخ والمتذوق ،
يستلهمها إبداعاً ، أو يذرف عليها دمعاً ، أو يتخذها وثيقة . أو يتخذ منها محوراً لرواية
تدور حول أحداثها .

ونسى التاريخ بقية الملوك والطغاة ! .

○ ابن عبدون يرى بنى الأفطس :

وإلى الشمال من دولة العباددة فى إشبيلية Sevilla قامت مملكة بنى الأفطس فى بطليوس Badajoz ، وكانوا يسابقون جيرانهم فى رعاية العلم ، وإشاعة الثقافة . والإغداق على الأدباء ، وبلغت المملكة أوجها على أيام المظفر ، محمد بن عبد الله ابن الأفطس ، وحكم فيما بين ٤٣٧ و ٤٥٦ هـ = ١٠٤٥ = ١٠٦٣ م^(١٤) وابنه المتوكل ، أبو محمد عمر ، وحكم من ٤٦٠ إلى ٤٨٧ هـ = ١٠٩٤ ، وإذا كان المعتمد وأبوه من قبل قد شهرا بالشعر ، فقد عرف المظفر بالعلم ، فكان راوية أدب ونحو وشعر ونوادر وأخبار ، وألف منها موسوعته المظفرى وجاءت فى خمسين مجلداً ، ورسخ ابنه المتوكل فى الشعر والنثر ، إلى شجاعة مفرطة ، وفروسية عالية . فكان لا يغب الغزو ولا يشغله عنه شىء . وعرف بلاطهم - كبلات جيرانهم - عدداً كبيراً من الشعراء والكتاب ، كابن السيد ، وابن القبطورنة ، وابن سارة ، وابن البين ، وابن عبدون ، وابن عبد البر وغيرهم .

وكما جمع القدر بين الدولتين فى المترع ، ومواجهة زحف النصارى الداهم من الشمال ، والاستنجد بجيرانهم الأفريقين وأخوتهم فى الدين ، جمع بينهم فى النهاية التعسة ، فكان زوال ملك بنى الأفطس - كبنى عباد - على يد المرابطين . وفى نفس العام ، وعلى نحو أشد قسوة وعنفاً إذ قتل المرابطون المتوكل ، ثم قتلوا ولديه الفضل والعباس من بعد ، قتلوا صبراً . وضربت أعناقهم فى غرة ٤٨٧ هـ - ١٠٩٤ م^(١٥) . وعندما طويت صفحة بنى الأفطس قال فيهم ابن عبدون ، أبو محمد عبد المجيد

(١٤) حتى زمن قريب كان المعتد أن المظفر حكم إلى عام ٤٦٠ هـ = ١٠٦٧ م ، ولكن عثر أخيراً فى أسبانيا على عملة باسم ابنه وخليفته يحيى المنصور مؤرخة فى ٤٥٦ هـ = ١٠٤٥ م . فصححت تاريخ وفاته بما يتفق وهذا الاكتشاف الحديث .

(١٥) ذكر المراكشى فى كتابه المعجب ص ٧٥ أنهم قتلوا عام ٤٨٥ هـ = ١٠٩٢ م وهو وهم منه وقد ذكر ابن الأبار التاريخ صحيحاً ، وعنه نقلنا ، فى كتابه الحلة السراء ج ٢ ص ١٠٢ .

قصيدته التي يصفها عبد الواحد المراكشي بأنها « أزرت على الشعر ، وزادت على السحر ، وفعلت في الأبواب فعل الخمر ، فجلت عن أن تُسامى ، وأنفت من أن تُضاهى ، فقل لها النظر ، وكثر إليها المشير ، وتساوى في تفضيلها وتقديمها باقل وجري » (١٦) .

بدأ ابن عبدون قصيدته بمطلع تقليدى يشكو فيه الدهر الفاجع ، والدنيا الخادعة ، والليالى القلب ، فكم من دولة هيأت لها الأيام أسباب النصر والتأييد ، ثم كرت عليها فسلبتها كل ما منحت ، ولم تبق لها على خير :

الدهرُ يُفجع بعد العينِ بالأثرِ فما البكاءُ على الأشباحِ والصورِ
أنهاك أنهاك لا آلوك موعظةً عن نومةٍ بين نابِ الليثِ والظفرِ
فلا تغرنك من دنياك نومتها فما صناعةُ عينها سوى السهرِ
ما لليلى ، أقال الله عثرنا من الليالى ، وخانتها يدُ الغيرِ
كم دولةٍ وليتْ بالنصرِ خدمتها لم تُبقي منها - وسل ذكراك من خبرِ

ومضى يذكر الدول والأسر والرجال الذين عدت عليهم صروف الليالى ، من الجاهلية إلى الإسلام ، ومن الفرس إلى اليونان ، فيشير إلى دارا والإسكندر ، وإلى طسم وعاد وجرم ، وإلى ترف اليمين وحضارتهم ، وأهداف المضرين وغاياتهم ، وإلى كليب ومهلل ، وامرئ القيس وأبيه ، وعدى بن زيد ومقتله ، وحرب داحس والغبراء ، وإلى يزدجرد آخر ملوك الفرس ، وهربه عن عرشه وقاعدة ملكه حين وطئ جيش سعد بن أبي وقاص أرض بلاده ، وإلى يوم القادسية وغزوة بدر ، ويشير إلى الكثيرين من صرعى المسلمين على امتداد تاريخهم ، كعمر وعثمان وعلى وغيرهم ، وإلى نكبة الأمويين ثم

(١٦) الوزير أبو محمد عبد المجيد ، من مدينة يابرة Evora ، كان شاعرا نائرا لمع في بلاط بنى الأفطس ، ودخل بعد ذهابهم في خدمة المراكشين . انظر ترجمته في :

- عبد الواحد المراكشى ، المعب ، ص ١٦٤ وما بعدها .
- ابن الأبار ، الحلة السراء ، ج ٢ ص ١٠٢ وما بعدها .
- ابن خاقان ، القلائد ، ص ١٥١ .

وكان المراكشى ، من بين هؤلاء وغيرهم ، هو الوحيد الذى أورد القصيدة التى نحن بصددتها كاملة .

البرامكة من بعدهم ، والمستعين والمعتز من الخلفاء العباسيين ، ويختمها بالحديث عن مصرع المعتمد وبنيه ، وهو في ذلك كله لا يلتزم ترتيباً تاريخياً معيناً ، إنما يستشهد بما يقع في ذاكرته من معلومات وسيعة ، يمهّد بها للحديث عن نكبة بنى الأفطس ، معتذراً لهم أو عنهم ، ومتأسياً بما حدث لسابقيهم :

هوتُ بداراً . وفلّتْ غَرْبَ قاتله
واسترجعتُ من بنى ساسان ما وهبتُ
وألحقتُ أختها طسماً ، وعادَ على
وما أقالتُ ذوى الهيئات من يَمَنِ
ومزّقتُ سباً في كل قاصيةٍ
وأنفذتُ في كُلِّبِ حَكَمَها ورمّتُ
ولم تُرَدَّ على الضِّلِيلِ صحتهُ
ودوختُ آلَ ذُيَّانٍ وإخوتهم
وألحقتُ بعدىً بالعراقِ على
وَبَلَّغْتُ يَزْدَجُودَ الصَّيْنِ واختزلتُ
وخضبتُ شَيْبَ عُمَانٍ دماً وخطتُ
وليتها إِذْ فدتُ عمراً بخارجةٍ
وما وفّتُ بعهودِ المستعين ولا
وأوثقتُ في عَراها كلَّ معتمدٍ
وروعتُ كلَّ مأمونٍ ومؤتمنٍ
وأعثرتُ آلَ عُبَّادٍ لَعاً لهمُ

وكان عَضْباً على الأملاكِ ذا أثرٍ
ولم تدعُ لبنى يونان من أثرٍ
عادٍ وجُرْهُمَ منها ناقضُ المِرَرِ
ولا أجارت ذوى الغايات من مُضَرِ
فما التقى رائحُ منهم بمبتكرِ
مهْلَهْلاً بين سَمْعِ الأرضِ والبصرِ
ولا نثتُ أسداً عن رَبِّها حُجْرُ
عَبَساً ، وغصّتُ بنى بدرٍ على النهرِ
يدِ ابنه أحمَرَ العينين والشعرِ
عنه سوى الفُرسِ جَمَعَ التلْكِ والخَرَرِ
إلى الزبيرِ ولم تَسْتَحِ من عُمرِ
فدت علياً بمن شاءتُ من البشرِ
بما تَأَكَّدَ . للمعتز من مِرَرِ
وأشرقتُ بقذاها كلَّ مُقْتَدِرِ
وأسلمتُ كلَّ منصورٍ ومنتصرِ
بذيلِ زَبَاءٍ لم تُنْفِرَ من الدُّعُرِ

وبعد هذه المقدمة الطويلة يبدأ الشاعر حديثه في رثاء بنى الأفطس ، فيلحن اليوم الذى ذهبوا فيه ، ويبكى من بعدهم الأدب والكرم والشجاعة والحدود لا تجد من يحمىها ويدود عنها :

بنى المظفر . والأيام لا نُزِلَتْ مراحلُ ، والورى منها على سقر
سُحِقا ليومكم يوماً ولا حملتُ بمثله ليلةً في غابر العُمر
مين للأسرة . أو من للأعنة . أو من للأسنة يُهديها إلى الثغر
مَن للبراعة . أو من للبراعة . أو من للساحة . أو للنفع والضرر
أو دفع كارثة ، أو ردع آفة أو قمع حادثة تعيا على القدر

ويذكر فضل المتوكل أبو محمد عمر ، وابنيه الفضل والعباس ، وقد قتلهم المرابطون
حين اجتاحوا أرض بطليوس ، ويأسى على أيامهم الطيبة ، ويكي فيهم الجلال والإباء
والوفاء :

ويح السامح ويوح البأس لو سلما واحسرة الدين والدنيا على عمر
سقت نرى الفضل والعباس هامية تُعزى إليهم سماحا لا إلى المطر

.....
ومر من كل شيء فيه أطيبه حتى التمتع بالأصال والبكر

القصيدة طويلة . تبلغ أبياتها خمسة وسبعين . ونتم عن علم واسع واطلاع متبحر .
ذلك أن ابن عبدون لم يقنع بأن يجعل من قصيدته مجرد صرخة حزينة . تعبر عن لوعة
صادقة . في أبيات ذات جرس جميل . وإنما جعل منها معرضاً لكبار الرجال الذين أختى
عليهم الدهر . وعظام الدول التي عصفت بها يد الحداث . في أسلوب صحيح يخالطه
تأنق بين الحين والحين ، وهو يجهد القارئ ، ويبعث في نفسه الملل . بما يلجأ إليه من
اللعب بالألفاظ ، وما يستخدمه من الأخيالة البعيدة التصور ، فهي ليست قصيدة تثير
كوامن المشاعر بقدر ما هي عرض موفق لعلم واسع مثقل بالزخارف والزينة ، وعندما نقارن
بين قصيدة ابن اللبانة في بني عباد ، وقصيدة ابن عبدون في بني الأفطس ، نجد الأولى
أحر عاطفة وأصدق مشاعر ، وعلة ذلك فيما يبدو أن ابن اللبانة كان يدين بحياته وشهرته
لبنى عباد . فارتبط معهم شعورياً على نحو وثيق ، أما عبدون فكان وزيراً متمكناً .
لا يدين نجاحه لأحد . ولم يرتبط مستقبلاً بمستقبل الذين كان يعمل في بلاطهم . وآية

ذلك أنه دخل بعد ذهاب دولتهم . في خدمة من ذهبت الدولة على يديه . ومن قتل ممدوحيه : الأمير المرابطى سير بن أبى بكر .

وعلى الرغم من ذلك نالت قصيدة ابن عبدون شهرة غامرة ، وأصبحت مادة لشروح وتعليقات كثيرة ، أكبرها وأذيعها شرح عبد الملك بن عبد الله المعروف بابن بلرون من أدباء القرن السابع الهجرى . الثالث عشر الميلادى . وقد درس المستشرق الهولندى دوزى هذا الشرح ونشره فى لايدن عام ١٨٤٦ . كما طبعت القصيدة فى مصر بشرحها على نحو تجارى عام ١٣٤٠ = ١٩٢١ .



وفى نفس العام الذى أزاح فيه المرابطون دولة بنى الأفطس ، كان السيد القنبيطور يقتحم مدينة بلنسية . عام ١٠٩٤ م . وبقيت تحت حكمه أعواماً عانت فيها من الشقاء والذل ، ألواناً . مما عرضنا له فى كتابنا ملحمة السيد^(١٧) تفصيلاً ، ويحدثنا التاريخ الإشباني عن مرثية بليغة قالها شاعر عربى فى المدينة . ولكن التاريخ العربى . أو ما وصلنا من مصادره . صمت عنها تماماً . ولعلها ضاعت فى غمار الأحداث . ومن خلال المصادر الإسبانية أتينا على خبرها تفصيلاً وأفكارها تقريباً . وشغلت الفصل التالى كله .

(١٧) انظر : ملحمة السيد . دراسة مقارنة . الطبعة الثالثة دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٣ .

مرثية بلنسية ضائعة !

وجاء الدور على بلنسية !
أكبر مدن شرق الأندلس ، على البحر الأبيض المتوسط ، وأعظم مرافئ الأندلس
الإسلامي ، وكانت كما يصفها الحجاري المؤرخ في كتابه « المسهب » : « مطيب
الأندلس ، ومطمح الأعين والأنفس ، خصها الله بأحسن مكان ، وحفها بالأنهار
والجنان ، فلا ترى إلا مياهها تنفرع ، ولا تسمع إلا أطيافاً تسجع ، ولا تستنشق إلا أزهاراً
تنفح ، وما أجلت لحظك في شيء إلا قلت هذا أملح » وتميزت باديانها المثمرة ، وخيرها
الوفير ، ونظمها الدقيقة في الزرع والإرواء ، كانت مهبط كثير من الأسر العربية العريقة ،
ومتندى لجمع من الكتاب والأدباء والشعراء ، كابن الأبار وابن خفاجة وابن الزقاق .
وسقطت رسمياً في يد السيد في ١٥ يونية ١٠٩٤ م ، وكانت قبل ذلك تحت سيطرته
الفعلية . أو تحت حامية ألفونسو ملك قشتالة ، منذ دخلت في حوزة بني ذى النون أصحاب
طليطلة عام ١٠٦٥ م . أى أن التاريخ بين سقوط طليطلة في يد ألفونسو ، وبلنسية في يد
السيد لا يتجاوز تسعة أعوام .

وكانت النتائج التي أدى إليها سقوط المدينتين واحدة في مجال السياسة ، فبعد سقوط
طليطلة عبر يوسف بن تاشفين أمير المرابطين في المغرب مضيق جبل طارق . ولأول مرة ،
لكي يثار لذل المسلمين ، وبلغ بانتصاره في معركة الزلاقة على الجيوش المسيحية جاهاً
ومجداً خالدين . وبعد سقوط بلنسية أحس بنفس المرارة التي أحس بها عند سقوط
طليطلة ، وربما على نحو أعنف وأشد ، فحشد جيشاً من المغرب ، وكتب إلى قواده في مدن
الأندلس ، أن يمدوه بما يستطيعون من المثونة والجنود ، وجاء الجيش وعلى رأسه أكبر
قواده ، ابن أخيه سير بن أبي بكر بن تاشفين ، وحاصر بلنسية ، ودام الحصار طويلاً ،
ونازل السيد في عدد من المعارك ، خسر بعضها منها وربح بعضها ، وأخيراً استطاع المرابطون

أن يحرروا المدينة في أوائل مايو ١١٠٢ م ، أى بعد ثمانية أعوام من احتلال السيد . ولقد عانى أهل بلنسية من أهوال الاحتلال مالم يعانه أحد قبلهم ، ذلاً وجوعاً واسترقاقاً ، ومع ذلك فإن سقوط بلنسية لم يكن له من الصدى بين الشعراء ما كان لسقوط طليطلة . وليس بين أيدينا من شعر في المصادر العربية ، يتحدث عنها ، ويعرض لما أصابها غير أبيات قليلة ، أربعة أبيات لابن خفاجة (١٠٥٨ - ١١٣٩ م) ، هى بالوصف ألصق منها بالثناء ، ويبدو صاحبها مسرفاً في الحياد والموضوعية ، لا تنضح بعاطفة ، ولا تنم عن تأثر ، ولا توحى بالمناسبة التى قيلت فيها ، وهى كما تصدق على بلنسية اجتاحتها العدو ، وعبث بجلال أهلها المسيحيون ، يمكن أن تنطبق على أية مدينة أخرى دهمها السيل أو عاثت بها الحرائق قدراً وعلى غير تدبير . وهى أقرب لأن تكون مقدمة طليطلة لقصيدة جاهلية ، تبكى رسوماً دوارس في صحراء مرملة ، من أن تكون رثاء لبلنسية ذات الجنان النضرة ، والحضارة الخضرة ، والمرفاً الزاخر بالحياة وبالناس :

عاثتُ بساحتك الظُّبا يادارُ ومحا محاسنك البلى والنارُ
فلذا تردّد في جنبك ناظرٌ طال اعتبارُ فيك واستعبار
أرض تقاذفت الخطوبُ بأهلها وتمحّضت بخرابها الأقدار
كتبت يدُ الحدّثان في عرّصاتها لأنتِ أنتِ ، ولا الديار ديارُ

عجيب أن يكون ذلك رثاء ابن خفاجة لبلنسية موطنه ، وهو الذى وهب مغانى الأندلس شعره ، ووقف على تصويرها فنه ، وعب من لذاذتها حياته ، وتعلق بها أرضاً وماء ، وشجرًا وسما . !

لكن مريثة أخرى أنصورها رائعة ، لأن صاحبها كان أديباً وشاعراً وعالماً ولغوياً ، ولأن مناسبتها كانت مثيرة وملهمة ، ضاعت في زحام الأحداث ولم يصلنا عنها شىء في المصادر العربية ، حتى ولا مجرد إشارة ، واحتفظت بها اللغة القشتالية نصّاً مترجماً إليها في أقدم مدوناتها .

كان دوزى (١٨٢٠ - ١٨٨٣ م) أول من وقعت عينه على هذه المريثة ، ذلك أن

المستشرق الهولندي العظيم عكف زمناً طويلاً على دراسة ما يسمى في اللغة الإسبانية باسم « المدونة الأولى للتاريخ العام Primera Cronica General » وكتب فيها بين أعوام ١٢٦٠ و ١٢٦٨ م ، بإشراف ألفونسو العاشر ملك قشتالة ، والملقب بالعالم ، فلحظ أن الجزء الأخير من هذه المدونة ويختص بحياة السيد ، تتسم المعلومات الواردة فيه عن السيد وحصار بلنسية بالإطناب في سرد الحقائق ، والدقة في وصف البيئة الإسلامية في كبرى شرق الأندلس ، وهي خصائص تميز هذا الجزء عن بقية الأجزاء ، وانتهى في دراسته إلى أن الرواية الواردة عن هذه الفترة في « مدونة التاريخ لعام » نقلت مباشرة من كتاب تاريخ مؤلف مسلم من أهل بلنسية ، وكتبه في بلنسية نفسها ، في الفترة التي كانت فيها تحت حكم السيد أو زوجه دونيا خمينا ، ثم تتبع صلات القرى بين الأصل العربي والمدونة الأولى للتاريخ العام ، فوجد عبارات عربية التركيب ، في أكثر من مكان ، نقلها إلى اللغة القشتالية مترجم تنقصه البراعة ، قليل الدراية بالتركيب والتعبيرات التي كان يتوخاها المسلمون في الأندلس .

وتشير المدونة صراحة إلى اسم مؤلف تنقل عنه ، تسميه Abenalfarex ، وهو اسم لا يرد في أي من كتب التراجم الأندلسية . وقد انتهى دوزي ، ووافقه من بعد العالم الإسباني الكبير منتديث بيدال ، إلى أن صاحب الكتاب العربي الذي نقلت عنه المدونة هو ابن علقمة ، محمد بن الخلف بن الحسن إسماعيل الصدي ، ويكنى أبا عبد الله ، وتوفي عام ٥٠٩ هـ = ١١١٦ م ، وله أخبار وافرة ، فقد ترجم له ابن الأبار في تكملة الصلة (الترجمة رقم ٥١٤) . ولم يكن شاعراً متقدماً ، ولا كاتباً بليغاً ، غير أن أهم أثر ذكره من ترجموا له تاريخه في تغلب السيد على بلنسية وأسماء : « البيان الواضح في الملم الفادح » وقد ضاع هذا الكتاب ، فلم يصلنا منه إلا ما نقلته المدونة عنه في اللغة القشتالية ، وإلا بضع صفحات نقلها عنه مؤلفون متأخرون .

لندع دوزي نفسه يقص علينا تجربته مع هذا النص ، يقول : « هذه المراثية ذات أصل عربي دون شك ، لأنها تحمل طابعاً خاصاً يجعل المرء يحكم عليها للوهلة الأولى بأنها تنتمي إلى الشعب العربي ، وفيما يبدو لي ، فإن ابن الأبار كانت عينه على نفس القصيدة

وهو يسجع مريثته البليغة في بكاء بلنسية عندما سقطت في يد ملك أرجون .
 « جاءت المريثة في « المدونة العامة » مرفقة بتفسير ، وكان ألفونسو العالم مغرمًا بتأليف
 مقطعات من هذا اللون ، ويجوز لي أن أنسبها إلى واحد من الكيميائيين العرب ، وكان
 الملك يحب أن يحيط نفسه بعدد منهم ، وأن يعمل معهم في كتابة مؤلفات مختلفة . غير أننا
 نقرأ على رأس هذه القطعة العنوان التالي : « كلمات الحاجب الفقيه » ، مما يوحي بأنها
 ترجمة لأصل عربي . ويبدو لي أن ألفونسو كان يعرف من العربية ما يتيح له أن يترجم بدقة
 وبسرعة النصوص النثرية ، ولكنه لا يستطيع أن يفهم الشعر أو يترجمه بنفس المستوى
 ومن المؤكد أنه عندما وصل إلى هذه القصيدة ، وقد وجدها في تاريخ بلنسية أمر واحدًا
 ممن يعملون في بلاطه بترجمتها ، ولسوء الحظ فإن الذي وقعت عليه الترجمة لم تكن لديه
 أية معرفة بالشعر ولغته ، فلم ير في معانيها إلا مجرد إشارات غريبة وغامضة .
 « لم يعثر أحد بعد على النص العربي للمريثة ، ولكن المركز بيدال يعتقد أنه وجده ،
 ولا في مخطوط عربي ، ولا في نسخة من المدونة العامة ، وإنما داخل كتاب
 ذي صبغة عالمية ، في ستة أجزاء ، ألفه خوان فرنانديث دي إرديا
 Juan Fernandez de Eredia ، ومخطوطة هذا الكتاب نسخت في Avignon
 خلال عام ١٣٨٥ م ، وتوجد الآن في مكتبة دوق دي أسونا Daque de Osuna ،
 وتضم إلى جانب النص الإسباني للمريثة نصًا عربيًا آخر ، كتب في حروف عادية ، وقد
 نشره بيدال ، واعتقد أن هذا النص العربي هو أصل المريثة ، وعده لوثًا من الشعر
 الشعبي » .

« وفي البدء اقتنعت بالفكرة ، وآمنت بهذا الرأي ، لأن وجود النص الأصلي للمريثة
 البلنسية سيكون برهانًا جديدًا على ما ارتأيته من أن أخبار المدونة العامة كانت مجرد ترجمة
 لكتاب عربي . ولكنني عندما تأملت الأمر في روية غيرت رأيي ، لأن النص الذي نشره
 بيدال لا يمكن أن يكون من القرن الحادي عشر ، لأنه كتب في عامية منحطة للغاية ،
 مليئة بالأخطاء النحوية والصرفية ، فهو يستخدم كلمة « متاع » بدلا من ضمير الملكية ،
 ومهما يكن من تسامح عرب الأندلس إزاء الشعر الشعبي ، كالأزجال التي أوردها كتاب

« المغرب في حلى المغرب » ، فلا يمكن أن ينتهى بهم الأمر أن يلغوا قواعد اللغة تمامًا في مثل هذا الشعر .

« ومن جانب آخر هذا النص لا يمكن أن يكون شعرًا لأنه ليس مقفى وقد لاحظ مالودى مولينا Malo de Molina وبحق ، أننا إذا اعتبرنا هذه العبارات شعرًا فإنها تنحى على محور خاصة ، غير معروفة لنا ، لأنها لا تسير على أى من البحور العربية المعروفة لنا ، إني أعتقد أن هذه القطعة ليست شيئًا آخر غير ترجمة لنص إسباني ، تمت في نهاية القرن الرابع عشر ، وفي هدى من نسخة خوان فرنانديث يمكن القول أن الذى قام بها يهودى يعرف اللغة العامية على نحو متواضع ، من خلال رحلاته في العالم الإسلامى ، وللامه باللغات المتكلمة هناك »^(١) .

حاول مننديث بيدال (١٨٦٩ - ١٩٦٩ م) أن يدرس الأمر من جديد في ضوء معلومات جديدة ، ففي عام ١٨٥١ م أعلن المركز بيدال أنه يعكف من زمن على دراسة مخطوطة فريدة في مكتبة دوق دى أوسونا تضم النص العربى للمريثة ، في كلمات عربية وحروف لاتينية ، وقام من جانبه ينشر هذا النص غير أن التاريخ الذى أعطاه له كان خاطئًا ، ولأنه نشر النص اعتمادًا على مخطوطة وحيدة فقد جاء مليئًا بالأخطاء ، ولم يستطع المستشرق جيايغوس Gayangos رغم تضلعه في العربية أن يتغلب عليها ، وحاول مالودى مولينا من جانبه أن يكتبها في رسم عربى فذهبت جهوده هباء . وقد وجد مننديث بيدال أن النص الذى عثر عليه المركز لا يوجد في مجموعة التاريخ التى ألفها خوان فرنانديث ، والتى نسخت عام ١٣٨٥ م ، وإنما يوجد في مخطوطة أخرى ترجع إلى نهاية القرن الرابع عشر الميلادى أيضًا . لقد شك دوزى في صحة وقدم النص العربى لأن العنود عليه لم يكن في مخطوطة عربية ، ولا حتى في نسخة « المدونة العامة » ، ومؤلفوها كما هو معروف كانوا يكتبونها وتحت أعينهم كتاب عربى يصف حصار بلنسية من قبل السيد ، ومن ثم فهم يعرفون نص المريثة . وقد وجدت -- أى مننديث بيدال -- أن المخطوطة التى ظنها

المركز جزءاً من تاريخ خوان فرنانديث ، ليست إلا مخطوطة « المدونة العامة » ، وقد بقي لنا منها القليل مما يشير إلى السيد ، وقد درست بقية مخطوطاتها ، وهما ثنتان ، فوجدت فيها كليهما نص الميثية العربي ، والمادة المتعلقة بحصار بلنسية . أى أن الميثية توجد في مخطوطات « مدونة التاريخ » الثلاث : الأولى ويرجع تاريخها إلى النصف الأول من القرن الرابع عشر ، ومحفوفة في دير الأسكوريال . والثانية ، توجد في المكتبة الوطنية بمدريد ، وترجع إلى النصف الثاني من نفس القرن . ثم الأخيرة ، وتوجد في المكتبة الملكية ، ويرجع تاريخها إلى النصف الأول من القرن الخامس عشر^(٢) .

وقفت القضية عند هذا الحد ، دون أن يتقدم أحد بالبحث خطوة أخرى إلى الأمام ، وكان أعقد ما واجه الباحثين معرفة الشاعر الذى أنشد الميثية ، أو تحديد شخصيته في القليل . لأن اسمه يرد في مخطوطات « المدونة » الثلاث بل وفي داخل المخطوطة الواحدة مرسوماً في كل مرة على نحو مخالف ، فهو Alfaraxi ، وثانية Alhugi ، وأخيراً Albataxi ، وهى أسماء مجهولة لنا تماماً ، وغير واردة فيما بين أيدينا من معاجم الأدباء والشعراء ، وكتب الأدب والتاريخ ، لكن الأسماء الثلاثة ترد دائماً مقترنة بأوصاف ثابتة ، فصاحبها فقيه وأديب وشاعر وفيلسوف ومؤرخ ولغوى ، فطن جيد الفهم والتفكير ، أحبه السيد وكان يُكثر من رؤيته ، وعينه حاكماً على مسلمى بلنسية ، فوحد أهلها وحافظ على أموالهم .

إلى أن جاء العالم الإسباني الجليل ، المستشرق خوليا ريبيرا Julian Ribera (١٨٥٨ - ١٩٣٤ م) ، وهو أصلاً بلنسى ، فحل طلاس هذه المشكلة المعضلة وكانت وجهة نظره أن هذه الأسماء الثلاثة هى لشخص واحد ، وما بينهما من خلاف إنما هو تحريف من النساخ أو المترجم ، وهو أمر يحدث كثيراً للأسماء العربية ذات الشهرة ، في الكتب الإسبانية القديمة ، فبغداد Bagdad ترد مكتوبة Belcad ، وزبيدة Zobeide زوج هارون الرشيد ترسم Seleyde ومن الجائز أن يحدث هذا لأسماء أقل شهرة ، وأكثر صعوبة

(٢) Menéndiz Pidal: Sobre Aluacxi Y la elogia árabe de Valencia, en " Homenaje a Codera", P. 393-409.

عند القراءة . ومضى يفتش عن شخص يجمع الصفات التي أشارت إليها « المدونة » ويرد اسمه بها محرّفاً ، وانتهى إلى أنه أبو الوليد الوقشي Abulgualid Aluacaxi نسبة إلى وقش Guacax قرية قريبة من طليطلة تحمل اليوم اسم Huecas وهو بتحريف بسيط يمكن أن يقرأ كما في « المدونة » . فالوقشي Alguacaxi يمكن أن تقرأ الوقشي Alguataxi أو البطشي Albataxi أو الوشي Alhugi أو حتى الفرشي Alfaraxi .

ويرى عكس دوزى ، أن النص الإسباني ليس ترجمة للنص العربي المرافق له ، وإنما هو ترجمة لمفهوم المراثية ، وأن النص العربي المرافق هو ترجمة للترجمة ، ويبنى رأيه على أن النص العربي الذى فى « المدونة » ليس شعراً ، والثابت أن المراثية أنشدت من فوق أسوار بلنسية شعراً ، فضلاً عن أنه نثر ركيك للغاية لا يمكن أن يكون أسلوب كاتب عظيم كالوقشي ، بل ولا حتى أسلوب عادى ، وأن الترجمة الإسبانية جميلة ، وخالية من الاضطراب الموجود فى النص العربي . إن كل كلمة عربية وضعت تحت اللفظ المقابل لها فى اللغة الإسبانية حتى لو اصطدم هذا مع بناء الجملة العربية ، فثلاً إذا كان الفاعل يسبق الفعل دائماً فى اللغة الإسبانية فهو كذلك فى الترجمة العربية على الرغم من أن النظم العادى للجملة العربية أن تبدأ بالفعل ثم يليه الفاعل ثم المفعول ، وبعض المعانى تقتضى دقة التعبير فى الإسبانية التعبير عنها بأكثر من كلمة ، فيترجمها فى العربية كذلك من غير ما ضرورة مثل y no Puede dar Flor يترجمها : « وليس تقدر تعطى نوار »^(٣) وهى عربية ركيكة للغاية لأن كلمة « لا يزهر » تعطى معنى الجملة كلها .

ومن الواضح أن الترجمة العربية قام بها رجل لا يحسن التحدث باللغة العربية ، ولعله كان كاثوليكيّاً استعان بمسلم يسأله عما يقابل الكلمات الإسبانية من أخرى عربية ، ويكتب ما يمليه عليه فى الحال ، أو لعل الكاثوليكي كان يعرف شيئاً من العربية : بعض الألفاظ ، وتركيب الجملة البسيطة ، وقام بالترجمة مستعيناً فى بعض الحالات بالقاموس ، والترجمة

(٣) انظر الفقرة رقم ١٠ من نص المراثية .

العربية فقيرة للغاية في القواعد واللغة ، ويستخدم المترجم للإضافة لفظ « متاع »^(٤) و « شوى » بدل قليل ، ولا يحسن من أدوات النفي إلا ليس ، ولم يستخدم ولا مرة واحدة أداتى النفي « لا » و « ما » ، مع أنها يستخدمان كثيراً في اللغة العامية ، ولا يعرف العطف بين الجمل ، وإنما يربط بينها على الطريقة الإسبانية .

في ضوء مخطوطات « المدونة » ، الثلاث قام السنيور ريبيرا بكتابة النص العربى المدون في حروف لاتينية بالحروف العربية على النحو التالى :

١ - بلنسية بلنسية جاءت عليك كسرة كثيرة أنت في وقت عن موتانك فإن كان يكون قدرك أن تفلت من هذا يكون عجباً كبير لمن يريك .

٢ - وإن أراد الله أن يعمل خيراً لموضع خص عن خير جاءك عن عمله إليك إن كنت أبداً مليحة ومسرورة وبهجة فشئ كان أذكره المسلمين ويشوقه .

٣ - وإن أراد الله بالجملة أن كتخسر من هذه المرة يكون عن ذنوبك الكبار وعن الجسر الكبير الذى كان معك بتجبرك .

٤ - أوائل أربعة حجار كبار الذى كنت عليها مبنية ها يريدوا يجتمعوا عن يعملوا عزاء عنك وليس يقدروا .

٥ - السور العظيم متاعك الذى بنى هؤلاء الأربعة حجارها يرتج . . . ويريد يقع أن قد خسر القهرة متاعه .

٦ - الأبراج العالية متاعك الملاح الذى ظهر من بعيد تسلى الفواد متاع أهلك شوى شوى تريد تقع .

٧ - الشرائف البيض متاعك الذى من بعيد كتشرق قد خسرت شرقها الذى كتظهر لشعاع الشمس .

٨ - الوادى المليح متاعك الكبير وادى الويار مع الأشياء الآخر الذى كنت منها جيد مخدوم قد خرج من عدو ويمشى اين ليس كان ليمشى .

(٤) يساوى في العامية المصرية لفظ « بتاع » ومازال مستخدماً في المغرب والجزائر .

- ٩ - سواييك الصافية الذى كثير كنتنفع أنت بها كترجعت منكدره وعن نقصان التنقية هى تمشى مال متاع حمى .
- ١٠ - الجنانك الملاح الفاكهة الذى عن حوليك السبع المسعور حفر له الأصول وليس تقدر تعطى نوار .
- ١١ - مروجك الملاح الذى يكون فيها النوار الكثيرة الملاح الذى كياخذ فيها أهلك سرور الكبير هى كانت ييست .
- ١٢ - مرسيك المليح الذى كتاخذ أنت منه كرامه الكبيرة يكون ناقص متاع الملاحة الذى كانت تجي منه .
- ١٣ - واقطاع من الكورة الكبار الذى كتسمى سلطنة من قديم النار قد أحرقتها وقد يصل إليك الدخان .
- ١٤ - ومرضك الكبير ليس يوجد بدوى والحكماء قد خسروا الياس من مرضك ليس يقدرؤا يدويك .
- ١٥ - بلنسية بلنسية هذا القول الذى قلت عليك قلتها بكسرة العظيمة ما فى قلبى . وتوجد فقرة منفصلة عن النص السابق ، ورسمها بحروف عربية على النحو التالى :
- ١٦ - إن مشيت شمالا يغرقنى الماء الكثير إن مشيت يميناً يكلنى الأسد إن مشيت يميناً يمتنى البحر إن رجعت لخلقى يحرقنى النار .
- بلنسية هذا قلت أنا لك إني ليس قدرت قلت لعاد الذى أخرب . . . (٥)

لم يكتف مؤلف « تاريخ إسبانيا العام » بالترجمة الإسبانية للمرثية الأندلسية ولا بترجمته ، وإنما أتبع كل فقرة إسبانية بشرح إسباني يوضح المقصود منها ، ولما كانت المرثية تنشر لأول مرة فى العالم العربى . وكانت ترجمتها العربية ركيكة وغير مفهومة ، فقد ترجمت النص الإسباني للمرثية مستعيناً بالشرح الإسباني على توضيح ما قد يكون غامضاً

من الإشارات ، دون تجاوز للنص نفسه ، لأن الشارح كثيراً ما يذهب إلى مفاهيم بعيدة غير مرادة من النص ، ويهمل أخرى واضحة فيه ، لأسباب تتصل باتجاهه السياسى وعقيدته الكاثوليكية :

- ١ - بلنسية ! . . . بلنسية ! . . . مصائب كبيرة تحدى بك ، أنت تحتضرين ، وإذا قدر لك النجاة ، فسيراه عجيباً من يعيش ويراك .
- ٢ -- وإذا أراد الله خيراً لهذا البلد ، فأملى كبير أن يتولاك برحمته ، فلقد كنت دوماً موطن الجمال والسرمد ، حيث يعيش المسلمون جميعاً فى بهجة ومتعة .
- ٣ -- وإذا أراد الله أنك تخسرين كل شئ هذه المرة ، فسوف يكون تكفيراً عن خطاياك الكبيرة واجترأئك الأثيمة . وما كنت عليه من تجبر .
- ٤ - العمدة الأربعة التى تنهضين عليها . يريدون أن يجتمعوا ليهدموها فيحزنوك ، وما هم بمستطعين .
- ٥ - سورك العظيم الذى بنى مع العمدة الأربعة ، ترتج حجارتها ، ويريد أن يقع بعد أن تضعضع أساسه^(٦) .
- ٦ - أبراجك السامقة الارتفاع ، الرائعة الجمال ، والتى تلوح من بعيد فتدخل البهجة على قلوب أهلك . تقع شيئاً فشيئاً .
- ٧ - شرفاتك البيضاء . تشرق من مسافات بعيدة ، فقدت أمانها عندما بدت لأشعة الشمس .
- ٨ - نهرك الجميل الفياض . نهر الوادى الأبيض ، وكل المياه الأخرى التى تسقيك بوفر . وتصدر عن ينبوع واحد . تمضى ولا تعود .
- ٩ - سوايقك الصافية التى ينتفع بها أناس كثيرون عادت كدرة ، لا أحد يعنى بنظافتها فتحولت إلى مياه حمئة .
- ١٠ - جنانك الجميلة . من حواليك مهملة ، عبثت الذئاب المسعورة بأشجارها فلم تعد تثمر شيئاً .

(٦) هذه الفقرة لم نرد ترجمتها الأسانية فى النص الذى بين يدي فأصلحتها على مقتضى السياق .

- ١١ - مروجك الرائعة ، ذات الأشجار الجميلة الكثيرة المثمرة ، ينجى أهلك ثمارها في سرور ، عادت يابسة .
- ١٢ - مرساك الجميل ، الذى تشرفين به كثيراً أصبح عارياً عن الجمال ، خالياً من السفن الكثيرة التى تعودت أن تنجى إليه .
- ١٣ - ضياعك الواسعة . وكنت تسميها « سلطنة » التهمها النيران ، ويصلك دخانها عالياً .
- ١٤ - لا يوجد دواء لمرضك العصى ، والأطباء يائسون . وليس فى وسعهم أبداً أن يعيدوا لك صحتك كاملة .
- ١٥ - بلنسية ! . . . بلنسية ! . . . كل هذه الأشياء التى عدتها لك أو من بها ، قد قلتها وألم أسيف يملأ قلبى (٧) .
- لم تكن مرثية الوقشى الضائعة والمجهولة لدينا تماماً كذلك فى عصرها . وإنما كانت بمضمونها وما أحاط بها من ملابس متداولة بين المسلمين والمسيحيين على السواء ، وليست « مدونة تاريخ إسبانيا » وحدها هى التى جاءت بها كلها أو بشئ من نصها ، إنما نجدتها شعراً إسبانياً كاملاً ودقيقاً ، فى الأغنيات الإسبانية الشعبية ، وبدأت تزدهر فى الجانب الكاثوليكي من الأندلس بعد سقوط بلنسية فى يد السيد . وجعلت من شخصيته بطلاً لا يقاوم ، تنسج حوله الأساطير وتحكى عنه المعجزات ، وهو شعر شعبي لا ينسب إلى قائل فرد . وليس له من صانع غير الشعب نفسه ، وحفظ شفاهاً بالرواية على طريقة الشعر الجاهلى - عبر أربعة قرون كاملة ، وفيما صاغ حول بطولات السيد احتفظ لنا بنص المرثية الأندلسية شعراً بالإسبانية . وكانت الرواية الشعبية فى احتفاظها بالمرثية الأندلسية مترجمة إلى القشتالية . أصدق تعبيراً فى المحافظة على روح الشاعر ، وأقرب إلى النص العربى متصوراً ، من النص النثرى الذى جاءت به « مدونة تاريخ إسبانيا العام » ، وقبل

(٧) النص الأساسى الذى قمت بترجمته لا يضم الفقرة السادسة عشرة ويوجد فى :

Andrés Piles Ibáñez: Valencia Árabe, tomo I, P. 297 ss., Valencia 1901.

أن نقارن بين النصين - يحسن أن أورد النص الشعري مترجماً ، وقد عثرت عليه منزوياً ضائعاً في ديوان يضم قصائد شعرية تحمل اسم « ديوان السيد » :

١ - ٢ - بلنسية ، بلنسية !

٣ - إذا لم يخزن الله من أجلك ، وأنت دائماً أهل لأن تسودى ، فإن شرفك سيتضاءل ، ومعه الراحة والهدوء ، وقد تعودنا أن نستمتع بها .

٤ : عمداً الرئيسية الأربعة . حيث ذهب المسلم ليجلس ، ويكي إن استطاع ، يريدون أن يجتمعوا ليهدموها .

٥ -- أسوارك العالية . . . ما أقوى الذين فوقها ! ، كثيرون يقاتلونهم ، ورأيهم جميعاً يرتعشون .

٦ - قلاعك . وقد تعود أهللك أن يتأملوها من بعيد ، وجلالها الرائع الصافي . عودهم أن يتأسوا بها . تهاوى شيئاً فشيئاً . دون أن يستطيع أحد إنقاذها .

٧ شرفاتك البيضاء . تلعب مثل البللور ، فقدت أمانها ، ومنظرها الجميل .

٨ - وجهك الفيض . نهر الوادي الأبيض . مع مياهك الأخرى ، تفيض من بنايعها .

٩ وجدوا لك ذات المياه الصافية ، عادت كدرة إلى الأبد . وعيونك وبنايعك جفت كلها .

١٠ - جناتك الخضراء المهسلة . لم تعد تثمر شيئاً ، وأشجارها وأعشابها رعتها حيوانات ضالة .

١١ مروجك . ذات المائة ألف زهرة ، لم تعد تعبق بأى أريج ، تماثل ذابلة وفي عصبية ، بلا لون ولا رائحة .

١٢ الاستغلال الشريف لشاطئك وبحرك ، عاد ملؤه الأذى والفضيحة .

١٣ الجبال والحقول والوديان وقد تعودت أن تأمرها ، دخان حرائقها أصبح يعمر

عينك .

١٤ - داؤك عصى وخطير ، وأمراضك عديدة ، ويئس الرجال من أن يعيدوا إليك صحتك .

١٥ - بلنسية ! ، بلنسية ! لعل الله أراد علاجك ، وفي أحيان كثيرة يعرف سلفا ما نبكى منه نحن الآن^(٨) .

يتفق النصان ، النثرى والشعرى ، في المعنى العام ، ويكمل ، أحدهما الآخر في بعض التفاصيل ، فنص « المدونة » يرى أن ما أصاب بلنسية كان عقاباً لها من الله على ما ارتكبه من آثام ، وهو معنى تكرر في مراثية طليطلة التي وصلتنا مجهولة القائل ، ورجحت أنها اعتماداً على التحليل الداخلى للنص أنها للوقشى نفسه صاحب هذه المراثية ، وقد عرضت لها من قبل^(٩) .

وأغفل نص « المدونة » شجاعة الذين كانوا يقاتلون فوق أسوار بلنسية دفاعاً عنها وعرضت له « الأغنية » ، وأضافت أن مقاتليهم من أعدائهم كانوا يرتعشون على الرغم من كثرتهم ، وجعلت « المدونة » عبث الذئاب المسعورة سبباً في خراب البساتين ، أما الأغنية الشعبية فكانت أكثر واقعية ودقة فعزته إلى رعى الحيوانات الضالة الجائعة فقدت من يُعنى بها .

هل كان الوقشى وحده هو الذى رثى بلنسية ، أم أن آخرين شاركوه نفس المشاعر والأحاسيس ؟ ولماذا غفل التاريخ الأندلسى عن مراثيتهم جميعاً فلم يعرض لها من قريب أو بعيد ، على حين عنى بمراثيات أخرى كثيرة ضاعت أسماء قائلها أو طواهم النسيان ، بينما بقيت قصائدهم نفسها تتردد على كل لسان ؟

التعليل ، فيما أرى ، أن السيد لم يكن غازياً يخيف دولة ، وإن كان قاسياً يرهب مدينة ، لأنه لا يمثل أمة طامعة ، ومطامحه شخصية ومحدودة ، ورغم تحويله لمسجد المسلمين الجامع إلى كنيسة ، تحت ضغط راهب فرنسى متعصب . هو جيروم دى بيريجور فلم يكن هو نفسه يخيا حياة كاثوليكية ، وكان يتكلم العربية بطلاقة ، وبين يديه يتنافس

Romancero del Cid, 207, Barcelona 1884.

(٨)

(٩) انظر ص ٢٢٩ وما بعدها من هذا الكتاب

الشعراء مسلمون ومسيحيون كل بلغته ، يشدونه قصائدهم التي يتغنون فيها بالحُب العذرى ، وعلى الرغم من بطشه بعلية القوم فى بلنسية وقتلهم حرقاً ، كان خط سياسته الواضح يستهدف إرضاء العامة من سكان المدينة واحتواءهم إلى جانبه .

مثل هذا الاتجاه خفف من وقع أحداث بلنسية على المسلمين الأندلسيين خارج المدينة ، ولم يكونوا يرون فيه خطراً عاجلاً أو قائماً ، ومن ثم لا يحظى احتلال بلنسية إلا بإشارات بسيطة فى المؤلفات العربية العامة ، فبينما - مثلاً - يخصص عبد الله بن زيرى ملك غرناطة ألفونسو السادس فاتح طليطلة بصفحات ضافية لا يشير إلى فتح السيد لبلنسية إلا فى سطور قليلة^(١٠) لكنه بالنسبة إلى أهل بلنسية نفسها كان خطراً ماحقاً ، فقد لاقى الناس جميعاً خلال حصاره لها أهوالاً من العذاب ، ولقى خاصتها بعد الفتح ألواناً من الذل ، ومن هنا كان أهل بلنسية وحدهم هم الذين بكوها ، وضاع بكائهم فيما ضاع من مؤلفات تدور حول محنة المدينة وسقوطها .

وإذا كانت المصادر العربية ، دون استثناء ، لا تشير إلى القصيدة من قريب أو بعيد ، فالمعلومات التى لدينا عن الشاعر منشد القصيدة ، بعد الاهتمام إليه ، جد شحيحة . وربما كانت أفضل ترجمة له بين أيدينا تلك التى أوردها ابن بشكوال فى كتابه « الصلة » ، فهو القاضى أبو الوليد هشام بن أحمد الوقشى ، ولد فى بلدة وقش عام ٤٠٨ هـ = ١٠١٦ م ، من محافظة طليطلة ، وتوفى فى دانية على شاطئ البحر الأبيض المتوسط ، جنوبى بلنسية ، عام ٤٨٩ هـ ، ١٠٩٦ م . وكان « أحد رجال الكمال فى وقته باحتوائه على فنون المعارف ، وجمعه لكليات العلوم » ، « ضليعاً فى النحو واللغة ومعانى الأشعار ، وعلم العروض وصناعة البلاغة ، شاعراً متقدماً حافظاً للسنن وأسماء نقلة الأخبار ، بصيراً بأصول الاعتقادات وأصول الفقه ، نافذاً فى علم الشروط والفرائض ، متحققاً بعلم الحساب والهندسة ، مشرفاً على جميع آراء الحكماء ، حسن النقد للمذاهب » .

وكان فى بلنسية عندما احتلها السيد ، وتولى رئاسة القضاء على أيامه ، وتخرج على يده

(١٠) عبد الله بن زيرى ، مذكرات الأمير عبد الله ، صفحات ٦٩ وما بعدها وص : ١٥٧ . طبعة دار المعارف ، بتحقيق لى

جلة من تلاميذ بلنسية وما صاقبها . وكانت له مكانة ملحوظة في المدينة ، لما اتسم به من فضائل أوجزها ابن بشكوال . وقد استطاع أن ينال ثقة السيد وأن يكون موضع تقديره ، ولعل ما كان بين القائد المحتل والقاضي المسلم من ود ونجاب ، لم يقع عند كثير من المسلمين موقع الرضا ، ولربما كانت الصلة بينهما عاملا من عوامل ضياع شعره وخبره ، ذلك أننا نجد في نهاية ترجمة ابن بشكوال إشارة غامضة لا تفصح عن شيء ، ولكنها تلقى على سلوك الرجل ظلا غير صاف ، يمكن أن يفسر في ضوء ما نعرفه عن علاقته بالسيد ، يقول : « وقد نسبت إليه أشياء ، والله أعلم بحقيقتها ، وسأله عنها ، ومجازيه بها » . وربما كان مفيداً أن ألمح إلى أن « المدونة العامة » ، وهى في غير ما نقلت عن المؤلفات العربية تفيض بالخرافات والأساطير ، أفاضت الثناء على الرجل ، وجعلت منه إنساناً ممتازاً ودوداً ، أخذ بالكاثوليكية فاعتنقها ، وزادت فجعلت منه راهباً لجأ إلى دير كاردينيا ، قريباً من بورغش ، وحيث كانت زوجة السيد وبناته من قبل ، وتفضلت عليه باسم مسيحي ، هو خيل دياث Gil Diaz ، ودفن هناك فيه بجوار فرس السيد الشهير . ويقول منينديث بيدال « إن هذا الخبر أسطورة خالصة ، لأن الوثائق توفى مسلماً ، ودفن في بلد مسلم ، وفي تاريخ معلوم للجميع » ، وكان له في دانية قبر معروف يُزار من قبل أصدقائه وعارفيه .

شعر الاستصراخ والاستغاثه

عادت بلنسية من جديد إلى يد المرابطين ، ولاية أندلسية مسلمة ، وبذهاب هؤلاء وجميـء الموحدين أصبح الأندلس الإسلامى جزءاً من إمبراطوريتهم الشاسعة ، تمتد من طرابلس فى الشرق إلى مشارف المحيط الأطلسى ، ومن لشبونة إلى السنغال ، وكان ذلك يلقى على كواهلهم أعباء ثقالاً فى الدفاع عن هذه الإمبراطورية المترامية ، وكانت الأندلس من بين مقاطعاتهم أضعف الجبهات وأحفلها بالخطر ، تماسكت بعد توضحيات كثيرة أيام خلفاء الموحدين الثلاثة الأول ، ثم تداعت أيام الرابع منهم ، محمد الناصر بن أبى يعقوب يوسف المنصور ، الذى تولى الخلافة من ١١٩٩ إلى ١٢١٥ م وظهر هذا التداعى فى صورة انهيار سريع بعد معركة العقاب^(١) وكانت قاصمة الظهر لدولة الموحدين فى الأندلس والمغرب معاً ، فقد خسر المسلمون المعركة ، وحصد الموت أبرياء المقاتلين والمتطوعة ، وبلغ الشهداء عدداً لم تعرفه أية معركة أخرى فى تاريخ الإسلام ، حتى أن السائر فى ريف المغرب كما يقول ابن أبى زرع كان يقطع المسافات الطويلة دون أن يرى رجلاً ، لأن زهرة الرجال راحت صرعى ذلك اليوم الأسيف .

ويبدو أن الذهول تغشى عقول المسلمين بعدها ، وقد استحسن المقرئ ، فى كتابه نفع الطيب ، أبيات أبى إسحاق إبراهيم بن الدباغ الإشبلى ، لأنها تصور هذه الحالة أفضل تصوير :

وقائلة أراك تطيل فكراً كأنك قد وقفت لدى الحساب
فقلت لها أفكر فى عقاب غدا سبباً لمعركة العقاب

(١) معركة العقاب وتسمى فى الأسبانية معركة Las Navas de Tolosa كانت بين الموحدين وجيوش الكاثوليك مجتمعين من ملوك قشتالة وليون ونبرة وأرجون ، تساعدهم قوات أجنبية ، وكان البابا وراء ترتيب الخطة وجمع كلمة هؤلاء الملوك ومدتهم بالمساعدة ، كما بارك الجيوش الذاهبة إلى ساحة القتال ، وقد جرت المعركة فى ١٦ يولية ١٢١٢ م .

فما فى أرض أندلسٍ مقامٌ وقد دخل البلا من كل باب
بعد معركة العقاب تقاسم ملوك الكاثوليك جبهات الأندلس ، وكان شرقيّه من
نصيب خاتمة الأول Jaime I (جاقة فى المصادر العربية) الملقب بالكونكستادور
El Conquistador أى الفاتح ، فقد احتل جزر ميورقه ومنورقه وإيبسة ، ثم اتجه
بعدها إلى بلنسية ، ورابط قريباً منها فى عام ٦٣٤ هـ = ١٢٣٧ م ، وأحس أبو جميل
زيان أميرها أنه لن يستطيع الثبات وحده . فقرر لإرسال سفارة إلى أبى زكريا الحفصى
صاحب أفريقية ، أبى تونس الحالية ، يطلب منه العون والنجدة ، وندب لها ابن الأبار
(أبا عبد الله بن أبى بكر القضاعى) (٢) . الشاعر والأديب والمؤلف ، صاحب كتاب
« الحلة السراء » و « تكملة الصلة » و « تحفة القادم » وغيرها .

آثر ابن الأبار أن يكون حديثه عن بلده وطلب الغوث من صاحب أفريقية شعراً ،
وأفرغ فى قصيدته كل ما يملك من شاعرية وفن ليثير نخوة الأمير ، وليبرهن فى نفس الوقت
على أن ما فى الأندلس من شعراء ليسوا دون الآخرين قامة . وحتم موضوع القصيدة ألا
تكون كالمرأى السابقة فأولئك يكون فحسب ، أما هو فيبكي ويستنجد ، ومن ثم بدأها
بدعوة حارة إلى الأمير الحفصى أن يدرك الأندلس بجيوشه ، وأن يعينه على النصر فى
معركته . وأن ينقذ دولة الإسلام فيه مما تعانیه :

أدركُ بخيلك خيلَ الله أندلساً إن السيل إلى منجاتها دَرَسَا
وهبَ لها من عزيزِ النصر ما التمت فلم يزلْ منك عزِ النصرِ مُلْتَمَسَا
بالجزيرة أضحى أهلها جزراً للحادثاتِ وأمسى جُدّها نَعْسَا
وبعد هذه المقدمة القصيرة بدأ يقدم صورة لما يجرى فى أرض الجزيرة بعامة : طوقت
المصائب أهلها . وأحالت جدهم تعاسة . وتقاسم الروم عقائلها . وعرض لما يجرى فى
بلنسية وقرطبة بخاصة ، مما يميمت كل غيور كسداً . لقد حل بها الشرك ، ورحل عنها

(٢) انظر ترجمته فى

● المقبرى ، ضح الطيب . ج ٢ ص ٥٨٩ . ٥٩٣ . طبعة احسان عباس .

● ابن شاعر الكنى . فوات الوفيات ، ج ٢ ص ٤٥٠ . القاهرة ١٩٥٣ .

الإيمان ، وحولت مساجدها إلى كنائس . وخلفت فيها دقات الأجراس نداء المؤذن ، ولم تعد موضعاً للعلم والمدارسه وبكى حدائقها المورقة . ومربعها النظرة ، وأيامها الخوالي : تقاسم الروم . لانا لت مقاسمهم إلا عقائلها المحجوبة الأنسا وفي بلنسية منها وقرطبة ما ينسف النفس أو ما يتزف النفسا مدائن حلها الإشرأك مبتسماً جذلان ، وارنحل الإيمان مبتسسا باللمساجد عادت للعدا بيعاً وللنداء غدا أثناءها جرساً لحنى عليها إلى استرجاع فائتها مدارساً للمثاني أصبحت درسا كانت حدائق للأحداق موقنة فصوح النضر من أدواحها وعسا فأين عيش جنيناه بها خضراً وأين عصر جليناه بها سلسا ثم عدد ما فعل الطاغية بأرضها ، ليجعله تمهيداً لدعوة الأمير الحفصى إلى الإسراع في عونها . وأن يعي بها من معالم الإسلام ما طمس الأعداء ، كما أحياء دعوة المهدي في أفريقيا . ونصر الحق فيها . وقام بأمر الله غير متردد . وانتصر على دعاة التجسيم ، ويصف رحلته إليه عبر البحر عجلاً . رغم الأنواء والأمواج ، ويعدد مآثر الأمير ، ويمدحه بما كان يوصف به قرناؤه في ذلك الزمان من عزيمة وعدل وإحسان وشجاعة ، في آيات طويلة تجاوز ثلث القصيدة :

محا محاسنها طاغ أتيح لها	مانام عن هضمها حيناً ولا نعسا
نحلا له الجو فامتدت يدها إلى	إدراك مالم تطأ رجلاه مختلسا
وأكثر الزعم بالتثليث منفرداً	ولو رأى راية التوحيد مانيسا
صبل حبيلها أيها الموف الرحيم فما	أبقى المراس لها حبلاً ولا مرسا
وأحيى ما طمست منها العداة كما	أحييت من دعوة المهدي ما طمسا

هذى رسائلها تدعوك من كتب	وأنت أفضل مرجو لمن يشا
وافتك جارية بالنجح راجية	منك الأمير الرضى والسيد الندسا
خاضت خضارة يعيلها وينفضها	عبابه فتعاني اللين والشرسا

وربما سبحتُ والريحُ عاتيةً كما طلبتَ بأقصى شدةِ الفرسا
تؤمُّ يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص مقبلةً من تربيهِ القدس
ملكٌ تقلدتِ الأملاكُ طاعتهُ دينًا ودنيا فغشاها الرضا لبسا

ويختتمها منادياً الأمير بأن يقدم ، ففي إقدامه حياة الأندلس ، وإن يرسل لها الجيوش
ويطهرها من الشرك ، ويقتص من ملوكها «الصفير» ، ويومئ إليه أن تكون الجبهة
الشرقية في الأندلس مقصد عونه - وكانت هناك جبهات أخرى كثيرة تحتاج إلى هذا
العون - ومن يدري فلعل نهاية الأعداء تكون على يديه :

يا أيها الملكُ المنصورُ أنتَ لها علباءُ توسعُ أعداء الهدى تعباً
وقد تواترت الأنباءُ أنك من يحيى بقتل ملوكِ الصفيرِ أندلساً
طهرَ بلادك منهم أنهم نجسٌ ولا طهارةَ مالم تغسل النجسا
وأوطئ الفيلقَ الجرار أرضهم حتى يبطأئ رأساً كل من رأساً
وانصر عبداً بأقصى شرقها شرقاً عيونهم أدمعاً تهمل زكا وخسا
هم شيعَةُ الأمرِ وهى الدار قد نهكت داءً متى لم تباشر حسمه انتكسا
فاملاً هنيئاً لك التأيد ساحتها جرماً سلاهباً أو خطيةً دعسا
واضرب لها موعداً بالفتح ترقبه لعل يوم الأعادى قد أتى وعسى (٣)

كان ابن الأبار في قصيدته صادق العاطفة ، يتحدث عن وطنه الكليم ، ويستحث
بالكلمة المنغومة أميراً بعيداً لينقذه ، فجاءت أفكاره مرتبة ونظمه محكماً ، وإن شابه شيء
من صنعة تتمثل فيما تناثر بين أبياته من ألوان البديع ، وخالف من قبله في أشياء اقتضتها
طبيعة الموقف ، فلم يعرض لما درس من ممالك وديار وأمم على طريقة ابن عبدون ، ولم
يجعل الغزو عقاباً لأهلها على معاصي اقترفوها كما صنع رائي طليطلة من قبل ، والوقشي في
رثاء بلنسية على أيام السيد ، ولم ينح على أهله باللائمة ، يتهمهم بالعود ويصممهم

(٣) يوجد النص الكامل للقصيدة في : المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٤ ص ٤٥٧ وما بعدها .

بالجن ، لأن ذلك لا يخدم هدفه من إثارة الأمير ودفعه إلى نصرته الأندلسيين ، ولأن بلنسية لم تكن سقطت بعد في يد الكاثوليك .

وزاد على سابقه ففصل ما أجملوا ، ولم يقنع بالحديث عن المساجد التي أصبحت كنائس ، وإنما تحدث عن الأجراس التي خلفت دقاتها في المساجد أصوات المؤذنين ، ونعى - وهو الأديب الشاعر - خلق العلم التي توقفت فيها ، وكانت عامرة بالشيوخ والطلاب ، وتشير قصيدته إلى معنى جديد هو تأكيد وشائج القرى والتضامن بين الأندلس والمغرب ، وحق المستضعف منها أن يطلب العون من الآخر كلما ضيق أو حاق به الخطر . ومن القصيدة كلها يبدو الجزء الخاص بمدح الأمير الحفصى - ويشغل من أبياتها الثلث تقريباً - حافلاً بالصناعة ، واضح التكلف ، لا ينبض بأية أحاسيس حقه أو مشاعر صادقة ، وما كان يتأتى لابن الأبار أن يسلك غير هذا النهج ، فهو غريب عن تونس ، قليل العلم بأحوال أميرها ، لا يعرف من أمره شيئاً ، ولا يربطه به من الود والأحداث ما يثير ويلهم ، ولم يكن وراء رحلته مطامع شخصية تعود عليه بالنفع وتسوق إليه شياطين الشعر ، وإنما كان رسول وطنه أجاد في تصوير حاله ومأساته ، فلما تجاوزها إلى الأمير قال عنه ما يمكن أن يقوله أى شاعر عن أى أمير ، فهو طلق الحيا ، ماضى العزيمة ، كأنه البدر ، عادل ، محسن ، مبارك هديه ، نور الله بالتقوى بصيرته ، وطهر سيفه ، وصاغ من ساطع النور جوهره . ولعل ابن الأبار عبر البحر طالباً النجدة وهو كاره في دخيلة نفسه ، لأن هذه الفترة من حياة الأندلس كانت قمة ازدهاره الثقافي والعلمي ، فامتلاً الأندلسيون بها زهواً وأنفة وتكبراً ، وأحسوا أنهم أعلم من غيرهم وأقدر ، وأولى بالتكريم ، وأجدر بالعون من غير طلب له ولا إلحاح فيه .

هزت قصيدة ابن الأبار من الأمير عطفه ، وحركت جنانه ، ولشغفه بها وموقعها من نفسه أمر شعراء بمجاوبتها ، وحقق ابن الأبار هدفه من إنشادها ، فقد تحمس الأمير الحفصى لمعاونة شركائه في الدين ، فأرسل إلى بلنسية أسطولاً مشحوناً بالمال والعتاد والإقوات ، ووصل الأسطول أثناء حصار المدينة ، فحاول النزول في «جراو» ، موضع قريب من بلنسية ، في الرابع من محرم عام ٦٣٦ هـ = ١٨ من أغسطس ١٢٣٨ م ، ولكنه

وجد الموضع حافلا بجند الكاثوليك فأرسل قائد الحملة أبو يحيى بن أبي حفص عمر الهنتاني المعروف بالشهيد إلى أبي زكريا الحفصى يعلمه بال الحال ، واتجه هو بالسفن إلى دانية وأرسى فيها في الثاني عشر من محرم ٦٣٦ هـ = ٢٦ من أغسطس ١٢٣٨ م ، وترك لأهلها الطعام والسلاح للذين كانوا يحملها ، وعاد بالمال لأنه لم يجد مسئولاً يتسلمه .

استمر حصار بلنسية قائماً ، وكل يوم يزداد ضراوة حتى « نفذت الأقوات واستولى الجوع وضعفت القوى وأكلت الجلود والزقوق » ، وتغشى المسلمين يأس قاتل ، فرأى أبو جميل زيان أمير بلنسية أن يفاوض خاتمة الأول على تسليم المدينة ، وكان رسوله و كاتب العقد هو ابن الأبار ، ونص في الاتفاق على أن يتسلم الملك الكاثوليكي - أو الطاغية كما ينعتة ابن الأبار - المدينة سلماً لعشرين يوماً ، ينتقل أهلها أثناءها بأموالهم وأسبابهم . « وابتدىء بضعة الناس وسُيروا في البحر إلى نواحي دانية ، واتصل انتقال سائرهم برّاً وبحراً ، ودخلها الروم صبيحة الجمعة السابعة والعشرون من صفر ٦٣٦ هـ = سبتمبر ١٢٣٨ م .

وذهب ، وربما إلى الأبد ، درّة مدن الأندلس ، وكبراهها على شاطئ البحر الأبيض المتوسط .

لكن أمل المسلمين في النصرة لم يذهب بضياع بلنسية ، فبقى من الشعراء من يستنهض عزائم المسلمين في الأندلس وفي الشمال الأفريقي لاستردادها ، وحفظ لنا المقرئ واحدة من قصائد هؤلاء الشعراء ، طويلة النفس مجهولة القائل ، توجه بها صاحبها إلى أبي زكريا عبد الواحد بن أبي حفص أمير تونس الذي أنشده ابن الأبار قصيدته السابقة ، وهي في تسعين بيت ، وحين درست النص للمرة الأولى انتهيت إلى أن قائلها واحد ، وأن مناسبتها كانت بلنسية ، فالشاعر لا يشير إلى غيرها من نكبات المسلمين العديدة ، التي صحبت أو سبقت سقوط عاصمة شرق الأندلس وكبرى مدنه ، ثم رجعت على استحياء أن تكون لابن الأبار نفسه ، لتوافق النعم ، وتقارب الإيقاع . فالمناسبة واحدة ، وتوجهتا بالنداء إلى رجل واحد ، ومطلع هذه قريب من مطلع تلك ، ونداءات الاستغاثة ، وصيحات الاستنفار قسمة بين القصيدتين ، غير أني ، في غيبة الشواهد الحاسمة ، لم أقطع بهذه

النسبة . وفي إحدى زيارتي للمغرب ، وترددى على خزانة القصر الملكي الحافلة بكل جليل ونادر من التراث الأندلسي ، اطلعت على مخطوطة ديوان ابن الأبار ، وهى فريدة ووحيدة ، وكانت مجهولة تماماً حتى زمن قريب ، وحين تصفحتها عثرت فيها على القصيدة نفسها كاملة ، وإذن فهى له فعلاً ، ومثله ، ومثلها ، لا يسقط اسمه من الذاكرة فى سهولة ، ولعل وراء إهمال المقرئ نسبتها إلى صاحبها سبباً آخر غير النسيان .

توجه ابن الأبار فى مطلع قصيدته هذه ، وأراها تالية لتلك تاريخاً ، إلى الأمير الحفصى بأن الأندلس تناديه وتأمل أن يستجيب لها ، ومحطم ما بها من طواغيت الصليب ، لأنها تستصرخه النجدة وتنتظر من فرسانه مدداً تدفع به أرزاءها ، وأن بلنسية على نأياها عنه داره ، يرجو المتخلفون بها نصرته ، كما وجد النازحون من أهلها عنده المأوى :

نادتك أندلسُ قلبٌ نداءها	واجعل طواغيت الصليب فداءها
واشدّد بجلبك جرد خيلك أزرها	تردد على أعقابها أرزاءها
هى دارك القصوى أوت لايالة	ضمنت لها مع نصرها إيواءها
ويها عبيدك لإبقاء لهم سوى	سبل الضراعة يسلكون سواءها
دفعوا لأبكار الخطوب وعونها	فهم الغداة يصابرون عناءها

ثم يتجه إلى الأمير ، ويمهد لذلك بيت واحد يقول فيه ، إن مصير الإسلام فى الأندلس إلى زوال إذا لم تسعد بفتح جديد يعيد لها ما فقدت ، وأن آمالها تعلقت بيجي يبقى للإسلام بها حياته ، وعليه أن يستجيب لندائها :

تلك الجزيرة لا بقاء لها إذا	لم يضمن الفتح القريب بقاءها
طافت بطائفة الهدى آمالها	ترجو بيجي المرتضى إحياءها

ومن الأمير إلى حديث طويل عن بلنسية وما يثيره تذكراها من أحزان وأشجان ، وقد حال الكاثوليك بين أهل المدينة ومعاهدهم التى شبوا فيها ، ومساجدهم ذات المدارس

العامة بالعلم ، وقد أصبحت كنائس تدق أجراساً ، ومصانعها المعطلة تبدو مع الصباح متوقفة خاوية كما لو كان الليل يلغها :

يُمرى الشئون دماءها لا ماءها	إليه بلنسية ! وفي ذكراك ما
شب الأعاجمُ دونها هيجاءها	كيف السبيلُ إلى احتلال معاهد
نسخت نواقيسُ الصليبِ نداءها	بأبي مدارس كالطلول دوارس
فيخاله الرائي إليه مساءها	ومصانع كسف الضلال صباحها

ويصف حال الكاثوليك في بلنسية ، ويقول للأمير إنه سبق أن سمع أنباء بلنسية ، ولكنه يعيدها عليه لعل في ذلك إنقاذاً لبنينا ، ثم يدعوه إلى أن يجرّد سيفه لفتحها وإخراج الأعداء منها :

عجباً لأهل النار حلوا جنةً	منها تمد عليهم أفياءها
مولاي هاك معادة أنباءها	لتنيل منك سعادة أبناءها
جرّد ظباك لمحو آثار العدا	تقتل ضراغمها وتسبب ظباءها

ثم يتوجه إلى المسلمين جميعاً فيما وراء البحر يدعوهم أن يهبوا لنصرة الأندلس ، فإن العدو يطوقها من أطرافها يبغي الاستيلاء عليها كلها ، وأن استرداد بلنسية وبالتالي شرق الأندلس الشمالى ، يجعل من البحر الأبيض بحيرة عربية :

هَبُوا لها يامعشر التوحيد قد	حان الهبوبُ وأحرزوا عليهاها
أولوا الجزيرة نُصرةً إن العدا	تبغى على أقطارها استيلاءها
نُقِصَتْ بأهل الشرك من أطرافها	فاستحفظوا بالمؤمنين نماءها
خوضوا إليها بحرهما يصبح لكم	رَهْوا وجُوبوا نحوها بيداءها

وينتقل إلى مدح الأمير ، فانتظاره ترقب للفرصة السانحة ويبشر الأندلس الصابر المنتظر بمجيئه ، وأن شفاءه سيكون على يديه ، ويعدد مآثره على نحو ما عهدنا في قصيدته الأولى : فنوره يضئ الدنيا ، وقوته تخضع لها الملوك الجبابرة ، ويده قابضة على البسيطة ، وأن الأرض والزمان ضاقا عن جلاله ، وهو أعلى من النجوم ، راسخ كالطود ، كريم كالغيث ، نبيل المحتد :

وَحَسِبَهَا أَنَّ الْأَمِيرَ الْمُرْتَضَى مَتَرَقِبٌ بِفَتْوحِهَا آثَاءَهَا
 بُشْرَى لِأَنْدَلُسٍ تَحِبُّ لِقَاءَهُ وَيَحِبُّ فِي ذَاتِ الْإِلَهِ لِقَاءَهَا
 مَلِكٌ أَمَدَ النَّيْرِينَ بِنُورِهِ وَأَفَادَهُ لِأَلَاؤِهِ لِأَلَاءِهَا
 وَسِعَ الزَّمَانَ فَضَاقَ عَنْهُ جَلَالُهُ وَالْأَرْضُ طُرَا ضَنْكُهَا وَفَضَاءُهَا
 كَالطُّودِ فِي عَصْفِ الرِّيحِ وَقَصْفِهَا لَا رَهْوَها يُخْشَى وَلَا هَوِجَاءُهَا
 وَيَخْتَمُ الْقَصِيدَةَ مَعْتَذِرًا لِلْمَلِكِ بِأَنْ أَنْعَمَ لَا تَحْصَى ، وَفَضَائِلُهُ لَا تَعُدُ ، وَأَنْ الْقَوَافِي
 تَقِفُ دُونَ تَصْوِيرِهَا عَاجِزَةٌ ، وَيَأْمَلُ مِنْهُ أَنْ يَصْنَعَ إِلَيْهَا ، وَأَنْ يَغْضَى عَنْ هَفَوَاتِهَا :

صَفْحًا جَمِيلًا أَيُّهَا الْمَلِكُ الرِّضَى عَنْ مَحْكَمَاتٍ لَمْ نَطِقْ لِإِحْصَاءِهَا
 تَقِفُ الْقَوَافِي دُونَ حَسِيرَةٍ لَا عِيَّهَا تُخْفِي وَلَا إِعْيَاءُهَا
 فَلَعَلَّ عَلَيْكُمْ تَسَامُحٌ رَاجِيًا لِإِصْغَاءِهَا وَمُؤْمَلًا لِإِغْضَاءِهَا

والقصيدة طويلة ، في تسعين بيت ، كثيرة الصناعة من جناس وطباق ، يمل الإنسان قراءتها ، واعتمد ابن الأبار في أغلب معانيها على قصيدته الأولى ، واستخدم الكثير من إلفاظها ، مثل : مولى ، ورحيم ، وعقائل ، والمدارس ، وحشاشة ، وغيرها ، وزاد معاني قليلة اقتضتها طبيعة الأحداث نفسها ، فهو يستحث الأمير الحفصى النصر ، ويشكر له إيواء النازحين من بلنسية بعد أن استولى عليها خاتمة الأول ، ذلك أن أسرا أندلسية عريقة ، بعيدة الأثر في تاريخ الأندلس السياسى والثقافى قد نزلت أرض تونس بعد ضياع مسقط رأسهم ، فوجدت كثرتهم من أهله برا وعطفاً ومواساة ، واضطربت الأمور بآخريين فكان حظهم تعساً ، وإقامتهم ضيقاً ، وأشار إلى مصانع بلنسية وقد توقفت فشابه صباحها مساءها ركوداً وصمتاً ، وأبرز فكرة أن العدو لن يقنع ببلنسية ، وإنما يطمع في غزو الجزيرة كلها ، وأن إنقاذها منه يبدأ باسترداد ما استولى عليه .

لم تؤد استغاثة ابن الأبار الثانية إلى شئ ، ولا نسمع له بعدها شيئاً عن وطنه ، ويبدو أن اليأس أو الخوف ، أو هما معاً ، سيطرا عليه ، فترك الأندلس نهائياً ، ورحل إلى تونس ، ولمع فيها كاتباً وشاعراً ومؤلفاً ، وكانت خاتمة حياته مأساة قاصمة ، فقد حيكت

حواله الدسائس ، ووشى به إلى الأمير ، وحكم عليه بالموت قعصا بالرماح ، وسط محرم من سنة ٦٥٨ ، ثم أحرق شلوه ، وأحرقت معه كتبه وأوراق سماعه ودواوينه .

كان سقوط بلنسية من بعد طليطلة بداية انحسار الإسلام أمام جحافل الكاثوليكية الزاحفة من الشمال ، تدعمها المساعدات الأجنبية من كل العالم المسيحي ، ومن ورائها البابا بكل تعصبه ونفوذه وهيئته ، فانهارت الجبهة الشرقية وبدأت قواعدها تسقط واحدة وراء أخرى ، فسقطت مرسية Murcia عام ٦٤٠ هـ - ١٢٤٣ م ، وجيان Jaén وشاطبة Jativa في ٦٤٤ هـ - ١٢٤٦ م ، ولم يكن حظ وسط الأندلس خيراً من شرقية ، فسقطت قرطبة Cordoba ، عاصمة الخلافة القديمة في يد فرناندو الثالث Fernando III وبعدها أصبح الطريق مفتوحاً أمامه إلى إشبيلية Sevilla كبرى مدن تلك الجهة ، وعاصمة الدولة على أيام المرابطين والموحدين ، فحاصرها براً وبحراً ، فانهارت أمام الجوع واستسلمت في ٢٢ من ديسمبر ١٢٤٨ = ٦٤٥ هـ ، وباستيلائه عليها ، إلى جانب قرطبة ، استحق من مواطنيه لقب القديس El Santo ، وهكذا لم يأت متصف القرن السابع الهجري ، الثالث عشر الميلادي ، حتى كانت معظم بسائط الأندلس وقواعده الهامة قد سقطت في قبضة الدول الكاثوليكية ، خلال ظروف دامية من الحن والاختلافات والفوضى والشقاء ، وانكشبت رقعة الإسلام في الأندلس ، وكانت تضم على أيام المنصور العظيم ثلاثة أرباع الجزيرة ، إلى حيز ضيق يقع في أواسط جنوبي الأندلس ، فيما بين نهر الوادي الكبير Guadalquivir والبحر في الأندلس ، واستطاعت في كنف المحنة وغمر الفوضى أن توطد دعائمها وأن تطاول التلاشي أكثر من مائتي عام .

وخلال حركة الجزر هذه توقف شعر الاستصراخ أو كاد ، وحل مكانه نثر مسجوع سخيف ، يفتعله الكتاب في الرسائل الرسمية ، طافح بالزينة المفتعلة ، والصناعة المنهكة ، لا يحرك مشاعر ولا يثير انفعالا ، ولا يحسن تصوير الأحداث ، وانكفأت مملكة غرناطة على نفسها تواجه مصيرها بمفردها ، فالمغرب ليس أفضل حالا ، ومصر الساعد في لحظات الشدة لكل العالم الإسلامي خرجت من الحروب الصليبية منهكة القوى ، ومالبت اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح وتحول التجارة إليه أن أتى على ازدهارها

الاقتصادي ، وخلا الجو لصغار الأمراء العابثين في مملكة غرناطة ، يتعاونون مع العدو .
ويتآمر الابن على أبيه . والأخ على شقيقه . ويتقاتلون بجيوش أجنبية ، ويدفعون الجزية
لأعدائهم عن يد وهم صاغرون ، نعم نلمح بينهم واحدا أو اثنين يرقان وسط الظلام
الغامر ، فيحييان موات القلوب ، ويجددن غائر الأمل ، ولكن إلى حين ،
وهيأت ! . . .

وإذا لم يستصرخ الشعراء من حولهم من المسلمين يأساً أو احتقاراً أو جهلاً ، فقد
وجدت الحنن نفسها وكانت فادحة وقاصمة ، من يخلدها في شعر مُبْكٍ حزين ، وكان
شاعر النكبة يُحق هو : أبو البقاء الرندي ، وسنأتى على حياته ، وندرس نونيته في الفصل
التالي .

أبو البقاء الرندى ونونيته فى رثاء الأندلس

○ عصر وشاعر :

جاء أبو البقاء مع آخر أيام الموحدين فى الأندلس ، وعاصر وقعة العقاب^(١) المشؤمة على حد تعبير المقرئ ، وجرت عام ٦٠٩ هـ = ١٢١٢ م ، وترد فى المدونات الإسبانية تحت اسم Las Navas de Tolosa ، وكانت هزيمة الموحدين فيها ساحقة ، وأدت إلى طردهم من الأندلس بعد أن ضعفت قوتهم ، وعجزوا عن حمايته ، وتراجعوا أمام النصارى فى شماله ، وتركت صدى أليما على امتداد العالم الإسلامى كله ، وكانت فى حقيقتها لقاء بين المسيحية والإسلام .

كان الجيش المسيحى فيها بقيادة ألفونسو الثامن ملك قشتالة ، ويضم جنودا من أرجون بقيادة ملكها ، وجاءت نبرة بملكها أيضا ، والبرتغال بفرق من فرسان المعبد ، إلى جانب جماعات من الصليبيين الفرنسيين والإيطاليين ، ومن وراء هؤلاء جميعا البابا إنوسينسيو الثالث ، يشجع ويخطط ، يهب الجنة ، ويمنح البركات . وكان يقود الجنود المسلمين الملك الناصر بنفسه ، محمد بن المنصور ، أمير الموحدين ، وبلغ عددهم ستة مئة ألف ، فدخله الإعجاب بكثرة من معه ، وأخطأ التدبير ، فكانت الدائرة عليه ، وخلا بسببها أكثر المغرب من السكان ، واستولى النصارى على أكثر الأندلس ، ولم ينج من الست مئة ألف مقاتل غير عدد يسير جدا ، وعاد الناصر بعدها إلى مراكش ، وفيها مات كمدًا عام ٦١٠ هـ - ١٢١٤ م ، « ولم تقم بعدها للمسلمين قائمة تحمد » .

كانت الهزيمة ساحقة إذن ، وحاول المؤرخون المسلمون أن يتبينوا أسبابها علميا ، فردها

(١) مكان قرب حصص سالم بين جيان وقلمع راج

عبد الواحد المراكشي في كتابه « المعجب في تلخيص أخبار المغرب » إلى اختلاف قلوب الموحدين ، لأن الأمير تأخر في دفع مرتبات الجند ، وخصوصاً في هذه السفرة ، فخرجوا إلى الحرب وهم كارهون « فبلغني من جاعة منهم ، أنهم لم يسلوا سيفاً ، ولا شرعوا رمحاً ، ولا أخذوا في شيء من أهبة القتال ، بل انهزموا لأول حملة الإفرنج عليهم ، قاصدين لذلك ، وثبت أبو عبد الله هذا (يريد الناصر أمير الموحدين) في ذلك اليوم ، ثباتاً لم ير للملك قبله ، ولولا ثباته لاستؤصلت تلك الجموع كلها قتلاً وأسرًا .

ويردها الحميري في كتابه « الروض المعطار » ، والمقري في كتابه « نفح الطيب » ، إلى أن الأمير أخطأ التدبير حين أساء إلى الأندلسيين ، وهم العارفون بقتال الإفرنج ، استخف بهم ، وشق بعضهم ، ففسدت النيات ، وتفرقت الكلمة ، ويضيف ابن خلدون إلى هذا كله سبباً آخر ، وهو خيانة ملك ليون حليف الناصر ، وتحليه عنه في اللحظة الحرجة . أما النصاري ولم يكونوا يحلمون بنصر كهذا فأرجعوا الأمر كله إلى المعجزات : فأحد الرهبان الذين شاركوا في المعركة ، وقاتل فيها ، كان يرفع الصليب ، وتوجهت إليه شتون سهماً فلم تصب منه مقتلاً ، وأحد الفلاحين كان يتقدم المقاتلين يقودهم ويرشدهم ، وبعد أن أدى دوره في المعركة اختفى ولم يظهر له أثر ، وكان الله يرد نيران المسلمين عليهم ، ويذكر المؤرخون الفرنسيون أن النصر يعود إلى عذراء روكامدور ، وجاءت من فرنسا بمعجزة وكانت وراء الانتصار ، وأن الصليب ظهر في السماء طوال أيام القتال ، وأن راهباً شق طريقه وسط الجيش الإسلامي يحمل صليب المطران دون أن يصيبه أذى ، وأن قتلهم في المعركة يتراوحون بين ٢٥ و ٥٠ قتيلاً ، وأن المثنى ألف مسلم الذين قتلوا في المعركة لم تسح منهم نقطة دم واحدة .

كان أبو البقاء في الثامنة من عمره تقريباً حين حدثت وقعة العقاب ، وليس ثمة شك أن صدى المهانة التي لحقت بالمسلمين ظل يتردد بعدها لسنوات طويلة ، وأن فداحة أحداثها اختلطت مع الأيام بالأساطير والقصص ، وتسرب ذلك كله إلى أعماقه ، فكان إحساسه وجيله بالمأساة أينما فادحاً ، وزاد من قسوة ذلك أنها كانت الخطوة الأولى في طريق طويل انتهى بسقوط دولة الإسلام في الأندلس .

وشهد في شببته أبا عبد الله محمد بن يوسف بن هود الجذامي يحاول في مدينة مرسية وما حولها عام ٦٢٥ هـ = ١٢٢٧ م ، أن يجمع شمل المسلمين ليواجه بهم النصارى في الشمال ، فلم يسعفه الحظ ، ولم تواته الفرصة ، وفي ذلك الوقت كان القشتاليون يقيمون زعيماً مسلماً ليحارب زعيماً آخر مسلماً أيضاً ، فيتحطم الاثنان معاً ، فوضعوا ثقلهم إلى جانب محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الأحمر ، وهو عرني أصيل ، من قبيلة الخزرج الشهيرة في المدينة ، فأقام لنفسه دولة حول غرناطة ، أتيح له فيها إلى حد ما أن يُحيي عظمة إشبيلية على أيام بني عباد ، وظلت غرناطة على مدى قرنين ونصف من الزمان حامية حمى الإسلام في صراعه الدفاعي ضده قوة المسيحية الصاعدة في الأندلس .

وأمضى أبو البقاء زهرة حياته في عهد الأمير محمد (١٢٣٢ - ١٢٧٣ م) ، وكان يلقب بالغالب بالله ، وهو الذي أسس الدولة ، وأقام دعائمها ، وجعل غرناطة عاصمتها ، وبني الحمراء ذات الشهرة العالمية على أنقاض قلعة أموية قديمة ، وعاصر شيخاً تجاوز السبعين من عمره اللقاء الحاسم بين الأندلسيين والمرينيين من جانب ، والقشتاليين بقيادة دون نونيو دي لارا Don Numo de Lara صهر ألفونسو العاشر الملقب بالعالم ، ملك قشتالة ، من جانب آخر . وكان المسلمون بقيادة السلطان المريني أبي يوسف يعقوب الذي باشر القتال بنفسه وجعل ابنه على المقدمة ، وكان انتصار المسلمين في الموقعة حاسماً ، أعاد إلى أذهان الأندلسيين ذكريات موقعي الزلاقة والأراكة المجيدتين لقد هزموا الجيش القشتالي ، وتشتت جنده ، وقُتل قائده ، ولكن ما عجز القشتاليون عن تحقيقه في ميدان الحرب حققوه عن طريق الدسيسة في مجال السياسة ، فأوقعوا بين الأميرين الغرناطي والمريني ، غير أن عقلاء المسلمين سرعان ما انتبهوا إلى الأمر ، وتجاوزوا دفاعاً عن وجودهم عما وقع بين الأميرين من خلاف ، وتفاهم المغاربة والأندلسيون ، وأصبحت مألقة قاعدة لبنى مرين ، ومحطاً لقواتهم التي تعبر إلى الأندلس مجاهدة ، ونزحت مجموعة من خيرة المغاربة للإقامة فيه لتكون على أهبة الاستعداد دوماً ، ودخلت التاريخ تحت اسم مشيخة الغزاة ، وكان رئيسها يعرف باسم « شيخ الغزاة » .

ومع ذلك يؤخذ على محمد الأول مؤسس مملكة بني نصر ، أنه كان يذهب في مهادنة

النصارى واتقاء شرهم حداً مهيناً ، يدفع لهم الجزية ، ويأخذ رضى صاحب قشتالة فيما يفعل ، ويعينه بالجند والسلاح حين يقاتل غيره ، وفى سنة ٦٤٣ هـ = ١٢٥٤ م صالح ملك قشتالة ، وعقد معه معاهدة سلم تنازل بمقتضاها عن عدد من المدن والحصون والقلاع ، من بينها جيان ، وشريش ، والقلعة ، والمدينة ، وغيرها .

فإذا تركنا الحرب والسياسة إلى الفكر والأدب والثقافة ، وجدنا الموحدين يقفون إلى جانبها ، ويشجعون عليها ، وإن اهتموا بالعلوم العملية والفلسفية بخاصة ، فازدهر الطب على أيامهم ، وأنشأوا المدارس الحربية ، وعرف الأندلس عدداً من علماء النبات ، وشهدت الفلسفة أوج عصرها ، أنه العصر الذى عاش فيه ابن باجة وابن طفيل وابن رشد ، ومن بين أروع ما حققوه فى هذا المجال وسبقوا إليه الدعوة إلى التزام المفكر بمنهج فكرى معين ، يصدر عنه فيما يقول ويعتقد ويدعو ، لا يحيد عنه مع الهوى ، ولا يميل به مع الريح ، فقد أخذ علماء الأندلس ، فيما يروى بن خلدون على الغزالي ، « أنه خلط النهاية بالبداية ، فصارت كتبه أقرب إلى التصيل منها إلى الهداية » ، ويزيد ابن طفيل الأمر تفصيلاً فيقول : « وأما أبو حامد فإنه مضطرب التأليف ، يربط فى موضع ويحل فى آخر ، ويتمذهب بأشياء ويكفر بها »^(٢) ، ويأخذ عليه ابن رشد أنه « لم يلتزم طريقة فى كتبه ، فزاه مع الأشعرية أشعرياً ، ومع المعتزلة معتزلياً ، ومع الفلاسفة فيلسوفاً ، ومع الصوفية صوفياً ، حتى كأنى به :

يوماً يمان إذا لاقيت ذا عيني وإن لقيت معدياً فعدنان »^(٣)

وبقى الأدب فى الذروة فناً ، وإن أدى به الترف إلى الانحطاط فى بعض ما عالج من موضوعات ، وانهارت سلطة الفقهاء على أيام الموحدين ، ومنعوا جملة من التدخل فيما لا يعينهم من شئون الدولة ، ثم أخرجوا من الأندلس^(٤) ، غير أن الإسلام الأندلسى ،

(٢) فصل ابن طفيل انهامه هذا ، ومن أرادته كاملاً فليرجع إلى : ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج ٣ ، ص ٦٥ ، تحقيق محمد عبد الله عان ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٦٦ .

(٤) لدراسة هذه القضايا تفصيلاً يمكن العودة إلى : الدكتور حكمة على الأوسى ، الأدب الأندلسى فى عصر الموحدين ، القاهرة

على حد تعبير غرسية غومث ، « كان يأكل آخر زاده »^(٥) .
 واختلفت مملكة غرناطة في هذا المجال عما سبقها ، فقد غادر الأندلس كثيرون قبل قيامها ومعه ، تناثروا في أفريقية أو المشرق ، يبحثون عن الأمن وراحة البال ، أو يطلبون الشهرة ونباهة الذكر ، وجاءها مئات آخرون من العلماء والفقهاء والأدباء ، وفدوا من مختلف المقاطعات التي سقطت في يد النصارى ، ولكن الأندلس كان قد أوفى على غايته ، إجادة وإبداعاً وأصاله ، فظلوا يعيشون على تراث الأعصر الذاهبة ، يفصلون الجمل ، ويحملون المبسوط ، ويحررون الهوامش على الشروح ، وأصبح الشعر بعامة « معانيه شاحبة ومعروقة ، غير أن أشكاله الرائعة لم يصيبها أى تلف . نعم ، لم يبق ثمة عسل في الشهد ، ولا زهور حوله ، ولكن بعض نخلات تخلفت ، تمسح الخلايا الفارغة وتلمعها ، على نحو لم يحدث يوماً^(٦) » ، وكان أبو البقاء واحداً منها .

جاء أبو البقاء واسطة العقد بين جيلين من الشعراء : مجموعة سبقته تنسب إلى عصر الموحدين ، وأبرز شعرائها أبو جعفر بن سعيد وحفصة الركونية ، وعرضنا لها في موضع آخر من هذا الكتاب ، وأبو بكر بن زهر ، المتوفى ٥٩٦ هـ = ١١٩٩ م ، واشتهر وشاحاً أكثر منه شاعراً ، وأبو بحر صفوان من إدريس ، صاحب كتاب « زاد المسافر » والمتوفى عام ٥٩٨ هـ = ١٢٠٢ م ، وآخرون كثيرون مقلون شعرا ، أو ضاع إبداعهم مع الزمن ، أو في مرتبة غير عالية منه . وبين طبقة أخرى تلت ، وكان لها طابع أنغامه في الموسيقى ، وتلتقى معه في عدد من الموضوعات دارت حولها قصائدهم ، وفي مادة التصوير نفسها . بعضهم يقف معه على خط واحد ، والآخرون سبقوه ، على الأقل في ضوء ما وصلنا من شعره ، وهم ليسوا كثيرون على أية حال ، ونجى في مقدمتهم ابن خاتمة شاعر ألمرية ، وخصته المستشرقة الإسبانية الفاضلة الدكتورة سوليداد خيبرت Soledad Gibert بدراسة عميقة

(٥) الشعر الأندلسي الترجمة العربية ، ص ٦٥ ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٦ .

(٦) غرسية غومث ، مع شعراء الأندلس والمتنى ، ترجمة د . اللاهر أحمد مكى ، ص ٢٢٨ ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ،

وجيدة ، وترجمنا نصها إلى العربية في هذا الكتاب ، وابن زمرك^(٧) ، وابن الخطيب أخيراً ، وبعد هؤلاء الثلاثة بدأت شمس الشعر الأندلسي ، مع دولة الإسلام نفسها ، تنحدر نحو الغروب .

أما الذين عاصروهم من الشعراء فعلاً فهم : أبو عبد الله محمد بن أدریس المعروف بمرج الكحل ، المتوفى عام ٦٣٤ هـ = ١٢٣٦ م ، وابن سهل الإشبيلي ، المتوفى عام ٦٤٩ هـ = ١٢٥١ م ، وعلى بن سعيد المغربي ، المتوفى ٦٧٣ هـ = ١٢٧٤ م ، وكان إلى جانب الشعر مؤرخاً ومؤلفاً ، وثمة آخرون كانت تصطبغ بهم الحياة في إشبيلية ، عاصمة الموحدين ، وأرجح أنه التقى بهم ، أو ببعضهم في الأقل ، ورندة لا تبعد كثيراً عن إشبيلية . وعاصر أيضاً ابن الأبار الشاعر والمؤرخ ، وصاحب قصيدتي الاستصراخ اللتين عرضنا لهما من قبل ، ولا أظنها تلاقيا ، لأن ابن الأبار من بلنسية ، وفارق الأندلس إلى تونس مع سقوط مدينته في يد النصارى عام ٦٣٦ هـ = ١٢٣٨ م ، وأرجح أن أبا البقاء عرف قصيدتيه ، إن لم نقل الكثير من شعره ، وأنه استوحاهما في نونيته التي سنعرض لها فيما بعد .

○ مصادر دراسته :

حتى زمن قريب كان أبو البقاء الرندي شاعراً مغموراً لا يتحدث عنه الناس إلا حين يذكرون نونيته ، فإذا تحدثوا وقفوا عندها معجبين متأثرين أو ناقدين مقومين ، أو محللين يستخرجون النتائج والأسباب ، ولا يتجاوزونها إلى حياته نفسها لأنهم لا يعرفون عنها إلا القليل . وربما كان المقرئ مسئولاً عن هذا إلى حد بعيد ، فرغم أنه أورد قصيدته كاملة ، في كتابيه **نفح الطيب** ، **وزهر الياض** ، ونقل عنه أحياناً أخرى متفرقات ، وجاء له بقصيدة ثانية مطولة ، لم يشر إلى حياته بحرف واحد ، وحين يسكت المقرئ صاحب الموسوعة الأندلسية الكبرى يختدئ الناس خطاه مسلمين .

(٧) : لما كانت أفضل دراسة لابن زمرك . حتى هذه اللحظة . هي التي قام بها غريغور غوث ، وترجمناها إلى العربية ، انظر :

مع شعراء الأندلس والمثنى . دار المعارف . القاهرة ١٩٧٨ .

كان المؤرخ المصرى الكبير الأستاذ محمد عبد الله عنان أول من حاول أن يمزق حجب الصمت حول هذا الشاعر الأندلسى ، فتحدث مطنبا عن عصر الرجل ، وموجزاً عن حياة الشاعر ، فى الجزء الأول من كتابه « نهاية الأندلس » ، وهى خطوة كان من الضرورى أن تتلوها خطوات ، فى ضوء ما ينشر من مخطوطات كانت مغمورة ، أو ينتهى إليه البحث العلمى من كشوفات ، غير أن الأمر وقف عند دراسة الأستاذ عنان ، ولم يتجاوزه أحد ، إذا استثنينا تعريفاً موجزاً بالشاعر ، وتعليقات مفيدة على قصيدته ومؤلفاته ، أتى بها الباحثة المغربى الأستاذ عبد الله كنون ، عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، وهو يعرف بكتاب أبى البقاء « الوافى فى نظم القوافى » ، فى مقال له بصحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية فى مدريد^(٨) .

والترجمة الوحيدة الوافية نسبياً لأبى البقاء ، أوردها ابن الخطيب فى كتابه الإحاطة فى أخبار غرناطة ، المجلد الثالث بتحقيق محمد عبد الله عنان ، ونشر فى مصر للمرة الأولى عام ١٣٩٥ هـ = ١٩٧٥ م ، واعتمد فيها ابن الخطيب على جانب مما أورده ابن الزبير ، المتوفى عام ٧٠٨ هـ = ١٣٠٨ م ، فى كتابه « صلة الصلة » ، وعلى ابن عبد الملك ، المتوفى عام ٧٠٣ هـ = ١٣٠٥ م ، فى كتابه « الذيل والتكملة لكتاتى الموصول والصلة »^(٩) ، وأتى على أخبار تتصل بحياته ، وبمقتطفات عديدة من شعره ، لا نجد لها فى نسخة الذيل التى بين أيدينا . لأن ترجمة أبى البقاء فيها غير كاملة . سقط آخرها . وعدد آخر بعده من التراجم^(١٠) .

(٨) المجلد السادس . ص ٢٠٥ - ٢٢٠ . عام ١٣٧٨ هـ - ١٩٥٨ م .

(٩) الكتاب فى ثلاثة أجزاء . نشر لى بروفيسال الجزء الثالث منه . فى الرباط عام ١٣٥٦ هـ - ١٩٣٧ . وهو متور الأول . وعثر أخيراً على هذه الأوراق المبتورة . وأوراق من الوسط والآخر . فى مكتبة القرويين بفاس ، وتعمل نعييس الكتاب على الحزنة . ولكنه احتار منها من القهقى والاعتداد . وتعمل هذه الأوراق تاريخ نسخ الكتاب وهـ ٦٩٧ هـ - ١٢٩٧ م . أى فى زمن المؤلف . ولا يسجد المؤرخ المغربى عبد السلام بن سودة المرى أن تكون نخط المؤلف ذاته . ويحدد دار الكتب المصرية النصف الأول من الجزء الثانى بخطها .

الجزء الثانى من المؤلف . دليل مؤرخ العرب الأقصى . ص ١٠٧ - ٢٧٧ . الطبعة الثانية . الدار البيضاء . ١٩٦٠ م .

(١٠) توجد مخطوطاته موزعة على عدد من مكتبات العالم . ومن سنوات بدأ الدكتور احسان عباس فى نشر ما تيسر له منها ، نشر السد الخامس كاملاً . والقسم الثانى من السفر الأول بتحقيق الدكتور محمد شريفة . وقسم من السفر الرابع .

○ حياته :

نعرف مما أورده لنا ابن الخطيب أن أبا البقاء ولد في محرم من سنة ٦٠١ هـ = سبتمبر ١٢٠٤ م ، وتوفي عام ٦٨٤ هـ = ١٢٨٥ م ، يذكر ذلك صراحة ، وليس مع النص اجتهاد ، أى أنه عاش قريباً من اثنين وثمانين عاماً ، أدرك معها أوائل إمارة محمد الثاني ، وطالت حياته حتى لامست القرن الثامن الهجرى ، وشهد من الدولة أيام استقرارها ، وإن لم تكن على ما يتمنى لها الأندلسيون من القوة والثبات .

واسمه كاملاً ، اعتماداً على ابن الخطيب أيضاً : صالح بن يزيد بن صالح بن موسى بن أبى القاسم بن على بن شريف النفزى ، ويُكنى عنده أبا الطيب ، ويكنيه المقرئ أبا البقاء ، وهى الكنية التى اشتهر بها ، وشرقت وغربت رفق نوبته . ويبدو أن له أكثر من كنية ، ولم يكن وحيداً فى هذا ، فقد أشار ابن الخطيب إلى والده فى موضعين ، كناه بأبى الحسن فى واحد ، وكناه بأبى خالد فى الثانى منهما : ونعرف من هذا النسب أنه نفزى ، ونفزة قبيلة من البربر ، ولكنها تذهب بأنسابها إلى حمير فى اليمن .

ونعرف من لقبه أنه من رندة ، وهى مدينة قديمة ، على قمة جبل مرتفع ، بها آثار كثيرة ، ويشقها نهر ينسب إليها ، وتحيط بها الوديان من كل جانب ، وأتاح لها ذلك كله أن تكون فى أحوال كثيرة شبه مستقلة ذاتياً ، وقامت فيها خلال عصر الطوائف ، كغيرها من كبريات المدن وإن لم تكن كبيرة ، إمارة مستقلة على رأسها بنو إفران ، وهم ينحدرون أيضاً من أصول بربرية ، ودام حكمهم لها عشرين عاماً . وخلال الدولة النصرانية كان هناك من يلوذ بها ثائراً أو هارباً أو متوثباً ، ومن بين كل مدن الأندلس لما تزل تحتفظ فى حاضرها المعاصر بروح عربى واضح ، فى المباني والشوارع وحياة وأخلاق الناس ، وزرتها أكثر من مرة ، فما أحسست بما أحس به المتنبى قبل أكثر من ألف عام وهو يزور شعب بوان .

(١١) الدليل والتكلمة ، بقية السفر الرابع ، نشر احسان عباس ، الترجمة رقم ٢٦٣ ، ص ١٣٦ - ١٣٩ .

وحياة أبي البقاء ، حتى وهو في طور الرجولة ، وتحت أضواء الشهرة ، تجيء غامضة ومجملة ، فلا نعرف شيئاً عن أسرته ، أبيه وأسلافه من قبل ، ولا عن بنيه وزوجه ، والحنان العائلي غائب في شعره تماماً ، ونعرف من الإشارة إلى شيوخه ، وسنعرض لهم فيما بعد ، أنه أمضى شطراً من صباه في إشبيلية يدرس على الدباج وابن الجلد ، وأقام بمالقة زمناً درس فيه على ابن الفخار الشريشي ، وقرأ على ابن الزبير صاحب كتاب « الصلة » ، وتلقى العلم في غرناطة على ابن قطرال وابن زرقون ، وظل يتردد على عاصمة الإمارة حتى بعد أن نضج وتجاوز مرحلة الطلب ، يسترفد ملوكها ، وينشد أمراءها ، ويذكر أبو عبد الله اللوشي ، شيخ لسان الدين بن الخطيب ، أنه نظم قصيدته التي مطلعها :
أواصلتي يوماً وهاجرتي ألفاً وصالك ما أحلى ، وهجرك ما أجفاً^(١)

باقترح السلطان يعارض قصيدة ابن هاني ، وأمره ألا يخرج من بساتين القصر الملكي قبل أن يكملها . وقد جاء في طالعة كتابه « الوافي في نظم القوافي » : « قال الشيخ الجليل ، الفقيه القاضي أبو الطيب . . . » ، واستنتج منها العالم المغربي الأستاذ عبد الله كنون أنه ولي منصب القضاء ، ولا أراه حتماً ، فقد يلحق به اللقب وجاهة ، أو لأن الذين حوله يقصدونه لحل مشاكلهم إخواناً ووداً ، دون أن يكون قد ولي المنصب رسمياً .

وندرك من أشعاره أن حياته لم تكن سهلة ميسرة ، ولا تسير على وتيرة واحدة ، وإنما تعاورتها لحظات سعيدة وأخرى مضيئة ، وتوارد عليه النجاح والإخفاق فتغزل سعيداً ، وشكا الليل مهموماً ، والغز في أشعاره خلى البال يتسلى . ونفهم من شعره أنه كان يتردد على السلطان محمد الغالب ويمدحه ، وأن جفوة قامت بينهما ، وأنه ابتعد عن البلاط النصري زمناً ثم عادت الأمور إلى طبيعتها ، واتصل مدنيته من جديد :

نأيت عنه اضطراراً ثم عدت له كما اقتضى المبرمان الحل والسفر
فإن قضى الله أن يقضى به أمل فحسبي المحسبان الظل والثر

(١٢) وهي قصيدة طويلة ، وأوردها ابن الخطيب كاملة ، انظر : الإحاطة ، ج ٣ ، ص ٣٦٤ ٣٦٥ . والفقرة الخامسة بشعر أبي البقاء من هذه الدراسة

ويبدو أنه تغرب كثيراً ، ونلمح هذا واضحاً في شعره ، وسنعرض له حين نتحدث عن شاعريته ، وتعرض لأزمات مالية قاهرة ، وعانى من الفقر أشده ، وتمنى الموت على حياة هذه حالها ، واكتشف أن المال يستر العيوب ، وأن الفقر يكشفها :

وقد لذ الحماّم وطابَ عندي وعيشي لا يلدُّ ولا يطيبُ
لَحَى اللهَ الضرورةَ فهي بلوى تهين الحرَّ والبلوى ضروب
رأيتُ المالَ يسترُ كلَّ عيبٍ ولا تخفى مع الفقرِ العيوب
وفقدُ المالِ في التحقيقِ عندي كفقْدِ الروحِ ذا من ذا قريب

وهي غربةٌ ليس مردّها أيام الطلب في إشبيلية أو مالقة ، وإنما جاءتْه أواخر حياته فيما يبدو ، لأننا نجده في القصيدة نفسها يحن إلى الصبا ، وإلى الشباب على السواء ، وأثارها في نفسه حادث لم يفصح عنه :

ومما هاجَ أشواقُ حديثِ جرى فجري له الدمعُ السكوبُ
ذكرتُ به الشبابَ فشقَّ قلبي ألم تر كيف تنشقُّ القلوبُ
على زمن الصبا فليكن مثلي فما زمنُ الصبا إلا عجيب
جهلتُ شبيبتي حتى تولّتْ وقد رُ الشئ يُعرفُ إذ يغيب

ويبدو أنه كان في غربته يلتمس عيشاً أفضل لم يبلغه ، وحياة أطيب لم تواته ، فهو يعتذر لنفسه بأنه لم يدع من جهده شيئاً ، وأن أمور العيش لا تخضع لمنطق ولا تجري على قياس ، وأن العاقل بها لاحظ له ، كأنها تعادى كل أريب ، وأن الحظ وراء كل نجاح ، ومع غيبته تصبح حسنات المرء سيئات :

وقد أجهدتُ نفسي في اجتِهَادٍ وما إن كلُّ مجتهدٍ مصيبُ
وقد تجرَى الأمور على قياسٍ ولو تجرَى لعاش بها اللبيب
كأن العقلَ للدنيا عدوُّ فما يقضى بها أربابُ أريبُ
إذا لم يُرزق الإنسانُ بحُجَا فما حسناته إلا ذنوبُ

ولكن . . أين كانت غربة أبي البقاء هذه ؟ لم يفصح عنها ، غير أننا نعرف أنه عاش في مدن مملكة غرناطة الكبرى كلها ، إشبيلية ومالقة وغرناطة ورندة ، طالِباً أو ناشئاً أو

مترددا ، وفي كل الحالات كان يتحرك رجلاً على رقعة صغيرة في أيامه ، هي كل ما بقي للمسلمين في الأندلس ، ولا يعد معها في حركته غريباً يشكو ، أو نائياً يحن ، لأنها في أقصى أطرافها على مسافة أيام قليلة من أى مكان يشاق إليه . وقد نفهم من اعتذاره للسلطان في أبيات سبقت بأن الغربة هي التي نأت به بأنه كان خارج بلاده ، وهو ما يمكن أن نفهمه أيضاً من الأبيات التالية يتحدث فيها عن نفسه غريباً يحن إلى بلاد لا يضع بها الأديب ، رائقة الطبيعة ، طيبة الهواء ، خلف فيها حبه وقلبه ، وإذا استثنينا هذا الأخير ، فبلاد الأندلس كلها سواء في ألوان الطبيعة وتقدير الأديب :

ألا ذكر الإله بكل خير بلاداً لا يضع بها أديب
بلاد ماؤها عذب زلال وريح هوائها مسك وطيب
بها قلبي ، الذي قلبي المعنى يكاد من الحنين له يذوب

أين كان إذن ؟ بدءاً أستبعد أنه ذهب إلى الجانب المسيحي من الأندلس ، رغم أن العلاقات السياسية بين غرناطة وجيرانها كانت في فترات كثيرة قوية ومسالمة ، والجزيرة التي كان يدفعها محمد الغالب لقشتالة جعلت منه تابعاً لها من حقه أن يكون عضواً في برلمانها ، (الكورتس Cortes) ، ومن حقه أن يحضر اجتماعاته ، ورغم أن هذه البلاد كانت حتى تلك اللحظة عامرة بالمسلمين الذين حملوا اسم المدجنين Los Mudejares ، ويسهمون بنشاط فعال في حركة الحياة اليومية ، من اقتصاد وزراعة ومعمار وفن وثقافة ، بعيداً عن السياسة ومشاكلها ، لأن قصيدته هذه ، وواقع حياته بعدها ، لا يشي بشيء من هذا على الإطلاق .

لم يسبق إذن إلا أن نفترض أنه عبر المضيق إلى العداوة الأخرى ، إلى مغرب بني مرين ، أرجح هذا حدساً وليس معنى من الوثائق ما اعتمد عليه ، ولا من الإشارات ما يدعم ظني ، غير ما استنطقته من أبياته السابقة ، ومن ظاهرة أخرى لا أجدها ، ولم يجد غيري ، تفسيراً ، وهي أن نونية أبي البقاء ، وفي مجملها إدانة لحكام الأندلس وتخريف عليهم ، لم ترد ، كما سنرى ، في أى مصدر أندلسي رغم شهرتها ، وكان كتاب الذخيرة السنية ، في تاريخ الدولة المرينية ، العبد حقيقه « المصدر الوحيد الذي جاء بها كاملة ، وهو

كتاب مغربي مؤلفا ومادة ، وعنه نقلها المقرئ التلمساني ، وهو مغربي أيضا . أترأه باح بها هناك ألما ممضا لم يستطع أن يتفوه به هنا ؟ ربما . ومع ذلك ، فما أراه مجرد ظن ألقى به ، دار بخاطري ، لم أستطع له طردا ولا نفيا ولا تأكيدا ، وأدع الوثائق ترجح أو تؤكد في قابل الأيام أحد الاحتمالين .

وصفوة القول في أبي البقاء ، أوجزها لنا ابن الزبير ، وكان أستاذا له على نحو ما : « كان في الجملة معدودا من أهل الخير ، وذوى الفضل والدين » ، ويضيف ابن عبد الملك : وكان نبيل المقاصد متواضعا ، مقتصدًا في أحواله .

○ شيوخه :

يلعب الأستاذ دورا كبيرا في حياة الطالب ، توجيهها نحو منهج محدد ، وترغيبا في مادة معينة ، وإثارا لسلوك خاص ، وذلك حين يملك الأستاذ وسائل التأثير من العلم والاستقامة وحب الطلاب ، يكون أهلا للاحتذاء ، وأراه مفيدا هنا أن نعرف شيئا عن شيوخ أبي البقاء ، وقد جهلنا الكثير عن حياته ، وسنلمح من سلوكهم ، ومن مواقفه وإبداعه ، أنهم تركوا فيه أثرا باقيا .

أورد لنا ابن الخطيب طائفة من شيوخ أبي البقاء ، ولا نعرف على التأكيد إذا كان قد جاء بهم على سبيل الحصر ، أو جاء بالكبار منهم إجمالا ، ولم يقدم لنا ماذا درس هؤلاء ، وماذا تلقى الطالب على أيديهم من مواد ، وأول ما يذكر منهم أبا الحسن يزيد ، والد أبي البقاء ، وهو أمر بدهي ، ولكني لم أجده ذكرًا في أى من المصادر الأندلسية الأخرى ، ويبدو أن مشيخته لابنه اقتصر على تعليمه الابتدائي ، مما درج الأطفال في الأندلس على تعلمه في الكتاب ، على يد معلم خاص ، أو من آياهم أنفسهم ، إذا كانوا على شيء من ثقافة ، وهو ما لا يعدو القراءة والكتابة وتجويد الخط ، وحفظ أجزاء من القرآن الكريم ، وشيء من الشعر ، وقليل من النحو .

والثاني من شيوخ أبي البقاء هو الدباج ، هكذا ذكره ابن الخطيب ، دون كنية تسبقه أو لقب يلحق به ، ولكنه لا ينصرف حين يبيئ هكذا إلا إلى أبي الحسن علي بن جابر

للخمي الإشبيلي ، وُلد سنة ٥٦٦ هـ = ١١٦٩ م ، وكان علماً في إشبيلية ، أديباً وعالمًا وصالحًا ، وأماما في فنون العربية ، يقرأ كتاب سيوبه ، والقراءات السبع ، وشهر بتدريس كتب الأدب ، كالكمال للمبرد ، ونوادر أبي علي القالي ، وما أشبه ذلك . وتعلم عليه عدد من شعراء الأندلس وكتابه ، من بينهم علي بن موسى ، مكمل كتاب « المغرب في حلى المغرب » ، ومؤلف كتاب « المقتطف من أزهار الطرف » ، و « الغصون اليبانة في شعراء المائة السابعة » ، و « المرقص والمطرب » ، « الطالع السعيد في أخبار بني سعيد » و « رايات المبرزين » وغيرها . ومن تلاميذه أيضًا الشاعر الرقيق ابن سهيل الإشبيلي .

وكان إلى جانب هذا أستاذًا فكها ، لطيف المعشر ، حلو الروح ، قريباً إلى نفوس طلابه ، يتندر معهم ، ويصحبهم للزهة خارج إشبيلية ، وينشدهم شيئاً من أشعار لطيفة تحيي عفو الخاطر ، فيها ظرف ورقة ، وبريئة من أوزار شعر العلماء في سخفه ونظمه ورتابته ونقل دمه ، وذات يوم خرج يتنزه مع طلابه ، وأحضرت لهم مجينات (١٣) « ماخبا نارها ، ولا هداً أوراها ، فما خام عنها ولا كف ، ولا صرف حرّها عن اختصابها البنان والكف ، فقال فيها :

أحلى مواقعها إذا قُربتْها وبخارها فوق الموائد سام
إن أحرقتْ لمسا فإن أوارها في داخل الأحشاء بردُ سلام

« وقال أحد تلامذته لغلام جميل الصورة : بالله أعطني قبلة تمسك رمق ، فشكاه إلى الشيخ وقال له : ياسيدي ، قال لي هذا كذا ، فقال له الشيخ : وأعطيته ما طلب ؟ ، فقال : لا ، فقال له : ما هذه الثقاله ، أما كفك أنك حرمته حتى تشكي به أيضاً ! . وكان يتذوق الشعر الجيد ، يطرب لسماعه ، ويشجع على قوله ، وكان الشاعر الوشاح أبو بكر ابن الصابوني ينشده موشحاته ، يسمعها منه غير مطنب ولا معلق ، فلما أسمعته الدور التالي من موشحة له ، صاح به مردداً « لله درك ! » ، والأبيات رقيقة حقاً :

(١٣) المجينات نوع من العجائن المحشوة بالجلين ، ثم تنضج على النار وتأكّل ساخنة ، وكانت ذائعة في الأندلس ، وتتردد كثيراً في الشعر الأندلسي .

قسماً بالهوى لذي حجرٍ ما لليل المشوق من فجرٍ
خَمَدَ الصبحُ ليس يطردُ
مالـليـلٍ فما أظنُّ غَدُ
صحَّ بالـيلُ أنَّك الأبدُ

أو تَفَضَّتْ قوادم النسرِ فنجومُ السماء لا تسرى

وقد أعجب على بن سعيد بالبيتين التاليين من شعر شيخه ، فأوردهما له في الكثير من كتبه ، كالمغرب ، ورايات المبرزين ، والقدح المعلى ، وربما في غيرها ، وعنه بالتأكيد نقلهما المقرئ في نفع الطيب :

لمّا تبدتْ وشمسُ الأفقِ بادية أبصرتْ شمسين من قُربٍ ومن بُعدٍ
من عادة الشمس تعشى عينَ ناظرها وهذه نورها بَشَقَى من الرمدِ
وأورد له الرعيني الإشبيلي الأبيات التالية ، في الترجمة التي خصه بها في برنامجهِ :

ما جاء عفوًا فخذهُ وما أبى فتجَنَّبْ
ولا تَرُدْ كُلَّ مرعى ولا تَرُدْ كُلَّ مشربٍ
فربما لَدُ طعم وفيه سُمٌ مُقَشَّبٌ

وهي أبيات كما ترى من الحكم المنظومة ، وأورد له ابن عبد الملك في الذيل والتكملة أبياتاً أخرى ، وبعضها يتكرر في المصادر التي عرضت له ، ويغلب على جانب كبير منها طابع شعر العلماء .

وكان إلى جانب هذا شيخاً جليل القدر ، مشهوراً بالفضل ، قدمه أهل إشبيلية للصلاة بهم في جامع العدبس ، وهو من المساجد الكبيرة والشهيرة ، وتوفي في آخر حصار إشبيلية ، يوم الأربعاء لتسع بقين من شعبان ، عام ٦٤٦ هـ = ١٢٤٨ م ، وكان من دعائه ألا يخرج عنها . وألا يمتحن بما امتحن به من عاش بعده عند إخراج العدو لأهلها ، فكانت وفاته قبل استيلاء العدو عليها بتسعة أيام ، ولم يحضر الصلاة عليه إلا ثلاثة نفر ، لما حل بالناس يومئذ من الموت وباءً وجوعاً . ويقول ابن السراج إنه توفي عند دخولهم لم يمهل ، ودُفن بداره ، وحُفر قبره بالسكاكين استعجالاً لمواراته ، واشتغلاً عن التماس

آلات الحفر بهول اليوم . ويرى ابن الأبار في كتابه التكملة أنه « توفي بعد دخول الروم البلد . صلحاً بنحو من ثمانية أيام ، هاله نطق النواقيس ، وساءه خرس الأذان ، فما زال يتأسف ويضطرب إرتماضاً لذلك إلى أن قضى » . وهى رواية يوهن من أمرها أن تحويل مساجد إشبيلية إلى كنائس لم يحدث لحظة الفتح مباشرة ، وإنما جاء تدريجاً مع الزمن ، وأن الأذان لم يختف دفعة واحدة ، لأن المسلمين ظلوا فى المدينة سكاناً لزمن طويل .

وثالث الشيوخ ، بترتيب ابن الخطيب ، هو ابن الفخار ، أورد اسمه هكذا ، ثم ترجم له فى مكان آخر من الإحاطة ، وأعطى عنه معلومات لا بأس بها ، واسمه : محمد ابن عبد الرحمن . . بن الفخار الجذامى ، ويكنى أبا بكر ، وأصله من مدينة أركش Arcos . وهى حصن أندلسى قديم على نهر لكه ، على مقربة من مدينة شريش ، ولما استولى العدو على قصبتها خرج منها إلى هذه ، فاستوطنها ، وقرأ على كبار شيوخها وهم كثير ، وروى عن علمائها وهم جلة ، ثم أقربها ، ولما استولى العدو عليها لحق بالجزيرة الخضراء فقرأها ودرّس ، ثم عبر المضيق إلى سبتة وصنع بها الشيء نفسه ، يتعلم ويعلم أيا من يمضى ، ورجع إلى الأندلس ثانية ، وذهب إلى غرناطة ، فأخذ عن علمائها ، ثم استوطن مالقة فى نهاية المطاف ، وتصدر للإقراء بها .

كان ابن الفخار متنوع المعارف ، من فقه وعربية وقراءات وأدب وحديث ، عظيم الصبر ، مُستغرق الوقت ، يدرّس من لدن صلاة الصبح إلى الزوال . ثم يسند ظهره إلى طاقة المساجد بعد ذلك فيقرئ وتأتيه النساء من خلفه للفتيا ، فيفتيهن إلى نصف ما بين العصر والعشاء الأولى ، ثم يأتي المسجد الأعظم بعد الغروب ، فيقعد للفتيا إلى العشاء الآخرة ، من غير أن يقبل من أحد شيئاً ، ومارئى فى وقته أورخ منه . وكان يتخذ رومية مملوكة ، لا يشتمل منزله على سواها . فإذا أنس منها الضجر للحصر وتمادى الحجاب أعتقها . وأصبحها إلى أرضها .

وكان مغرمًا بالتأليف . فألف نحواً من ثلاثين كتاباً فى فنون مختلفة ، فى التفسير والحديث والقراءات والفتوى والنحو ، ويستأهل الإشارة من بينها كتابه « الجواب المختصر المدوم فى تحريم سكنى المسلمين ببلاد الروم » .

ولمّا كان شاعراً ، وشعره كثير ، وفيما يرى ابن الخطيب « غريب النزعة ، دالٌّ على السذاجة ، وعدم الاستجابة والشعور ، والغفلة المعربة عن السلامة ، من ارتكاب الحواشي ، واستعمال الألفاظ المشتركة التي تنسبت بها أطراف الملاحن والمعارض ، وولع كثير من أهل زمانه بالرد عليه ، والملاح بما يصدر عنه » ، ولم يورد له ابن الخطيب غير أبيات ثلاثة في وصف الوردة ، رآها خير ما عنده ، وأراها نظماً مصنوعاً ، ثم بيتين من الشعر ، قالهما ولما يزل طالبا في شريش ، أنشدتهما في فتي وسيم في حانوت سراج ، يقابل باب المسجد ، يرقم جلدة كان في يده ، وألح عليه الطلبة ألا يبرح الباب قبل أن يقول فيه شيئاً فأنشدتهما :

وربّ معذّر للحب داعٍ . يروق بهاء منظره البهيج

وشي في وجنتيه الحسنُ وشياً . كوشى يديه في آدم السروج

ونشأت بينه وبين فقهاء مالقة خصومة ، في أمور أدى إليها اجتهاده في مناط الفتوى ، وعقد لهم أمير المسلمين بالأندلس مجلساً ، فظهر عليهم ، وتجلّى في إقحامهم ، وكانت محنة خلصه الله منها ، وبلغ من تعظيم الناس إياه ، وانحيازهم إليه ، مبلغاً لم ينله مثله ، وانتفعوا بتعليمه ، واستفادوا من أدبه ، على نسكه وسذاجته .

ويصفه ابن الخطيب في كتابه « عائد الصلة » بأنه « كان رحمه الله خيراً صالحاً ، شديد الانقباض ، مغرقاً في باب الورع ، سليم الباطن ، كثير العكوف على العلم والملازمة ، قليل الرياء والتصنع » . وتوفي بمالقة عام ٧٢٣ هـ = ١٣٢٣ م ، وكانت جنازته مشهورة .

ورابع شيوخه ابن قطرال ، وكالعادة لم يزد ابن الخطيب عن هذا شيئاً ، لكنه ترجم له في الأحاطة في مكان آخر من الكتاب ، أورد اسمه كاملاً : محمد بن علي بن محمد . . . بن قطرال الأنصاري ، وذكر أنه من مراکش ويكنى أبا عبد الله ، ويعرف بابن قطرال . وأورد قائمة وافية بشيوخه في المغرب والأندلس ، ولم يشر إلى مجالات تخصصه ، وأشار إلى أن شعره كثير بديع . غير أنه لم يورد منه شيئاً ، سوى بيتين مصنوعين رد بهما على بيت من الشعر كتب له به القاضي أبو بكر بن شبرين ، ويبدو أن أبا البقاء لقيه وتلقى عنه حين

جاء غرناطة لمدة ليست طويلة فيما يبدو ، ويصفه ابن الخطيب في « عائد الصلة » ، بأنه : « كان رحمة الله فاضلاً صوفياً ، عارفاً ، متحدثاً ، فقيهاً ، زاهداً ، تجرد عن ثروة معروفة ، واقتصر على الزهد والتخلي ، وملازمة العبادة ، والغروب عن الدنيا ، وله نظم رائق ، وخط بارع ، ونثر بليغ ، وكلام على طريقة القوم ، رفيع الدرجة على القدر » . وشرح قصيدة ابن سهل الإشيلي ، « وتجول في لقاء الأكابر على حال جميلة من إثارة الصمت ، والانقباض والحشمة » ، ورحل إلى المشرق حاجاً عام ٧٠٣ هـ = ١٣٠٣ م ، ثم توفى هناك بحرم الله ، عاكفاً على الخير وصالح الأعمال ، معرضاً عن زهرة الحياة الدنيا ، عام ٧٠٩ هـ = ١٣٠٩ م

وخامس شيوخه أبو الحسين^(١٤) بن زرقون ، ولم يورد عنه ابن الخطيب شيئاً ، ولكن الرعيني في برناجه أورد له ترجمة لا بأس بها ، فهو محمد بن محمد بن سعيد بن أحمد بن سعيد بن عبد البر الأنصاري . ويصفه ابن الأبار في كتابه « التكملة » ، بأنه « كان فقيهاً مالِكياً حافظاً مبرزاً ، متعصباً للمذهب قائماً عليه ، حتى امتحن بالسلطان من أجله ، واعتقل مدة بسبته » .

وكان من مفاخر إشبيلية ، وبها ولد عام ٥٣٩ هـ : ١١٤٤ م ، وكتب في شبيبته لأحد ولاة إشبيلية ، وتولى القضاء في بعض مدنها .

كان يدرس الحديث ، وله تأليف في الجمع بين الصحيحين ، وآخر في « تهذيب المسالك لمذهب مالك » ، وتأليف كبير سماه « المعلى في الرد على المخلى والمجلى » ، وكان يقرئ قصيدة ابن عبدون في بكاء بني الأفتس ، ويحدث بها عن أبيه ، عن ناظمها ، ويدرس المقامات ، فقد كان مليئاً من الأدب ذاكرة له ، واختصر كتاب الأموال لأبي عبيدة .

وكان من أحسن الناس خلقاً ، وأجملهم إشارة ، وأشدهم تواضعاً ، وكف بصره في آخر عمره ، وتوفى على أحسن عمل من تدريس العلم . ضحوة يوم السبت ٤ من شوال

(١٤) في الإحاطة ٣ ، ص ٣٦٠ ، أبو الحسن . وهو خطأ .

سنة ٦٢١ هـ = ١٢٢٤ م ، بداره التي وُلد فيها ، وحُبس جملة من ماله في سبيل الخير ، ودفن في قبلة مسجد إقرائه .

السادس والأخير من شيوخ أبي البقاء هو أبو القاسم بن الجلد ، وجاء به ابن الخطيب على هذه الصورة مختصراً ، وبيت بنى الجلد أصحاب نباهة وذكر في إشبيلية ، منهم الكتاب والشعراء والفقهاء ، ومن تولى الوزارة والخطط والقضاء ، ولكني لم أجدهم يعنيه ابن الخطيب ترجمة فيما بين يدي من المصادر ، على حين تتوارد أسماء أسلافه كثيراً في المصادر الأندلسية المتعددة ، كالمغرب في حلى المغرب لابن سعيد ، والمعجب لعبد الواحد المراكشي ، ومؤلفات ابن الخطيب نفسه ، ونفح الطيب للمقرى وغيرها . وأشك في أن أبا القاسم هذا ، الذي كان أستاذاً لأبي البقاء ، دون ترجمة ، ولعلها فيما لم يطبع من كتب ابن الخطيب وغيره ، أو فيما عبثت به يد الزمان من تراث الأندلس فلم تصلنا .

من تاريخ هؤلاء الشيوخ ندرك أنهم كانوا يدرسون كل العلوم التي يقبل عليها طلاب عصرهم بعامة ، وعليها عماد الثقافة ، وفيها حاجة الإدارة ، وهي علوم الشريعة من فقه وتفسير وحديث ، وعلوم اللغة من نحو وصرف وأدب ، وأنهم جميعاً يقرضون الشعر ، وبعضهم تميز فيه على نحو ما ، وأرجح أن أبا البقاء أخذ بحظه من هذه العلوم كلها ، ولكنه تجلّى في مضمار الأدب بعامة ، وفي الشعر منه على نحو خاص .

○ مؤلفاته :

لم يكن أبو البقاء شاعراً فحسب ، وإن اشتهر بهذه الصفة ، وإنما أسهم في جوانب أخرى من ثقافة عصره ، فألف جزءاً على حديث جبريل ، مجهول المكان في يومنا هذا ، وصنف في الفرائض وأعمالها مختصراً نافعاً ، وله كتاب كبير سماه « روضة الأنس » ونزهة النفس » ، كتبه برسم السلطان محمد بن يوسف بن الأحمر مؤسس مملكة غرناطة ، ولا أعلم أن الكتاب موجود ، ولكن لسان الدين بن الخطيب نقل فقرة منه في كتابه الإحاطة ، وكانت ردّاً على رسالة مداعبة بعث بها إليه مواطنه أبو بكر البرذعي يصف فيها

جارية رآها بسوق الرقيق وصفاً حسياً يتناول ما فتنه من جمالها ، وكيف أنها استولت على لبه ، وأخذت بمجامع قلبه ، ثم « جاء فتى صادق في حبه ، لا يبالي بفساد ماله في صلاح قلبه ، فعد المال عدواً ولم يجد من التسليم بداً » .

وذكر أبو البقاء في مقدمة هذه القصة أنها مما يتعلق بالباب الذي وردت فيه ، ولم يعقب ابن الخطيب على النص بشيء ، ولا نعرف أكيداً هل كان هذا الباب من الكتاب يدور حول الرقيق بعامة ، أم عن الجمال الإنساني وما يتعلق به من غزل وحب واشتهاء ، وأرجح في ضوء جملة وردت بآخر النص أنه كان عن « الفكاهة » ، فهو يسلم على صاحبه « ما كانت الفكاهة من شأن الوفا ، والمداعبة من شيم الظرفا » . والرسالة مسجوعة على نهج النثر في ذلك العصر ، ومتخففة تُعجب وتُسلى ، ولم يتجاوز رد أبي البقاء عليها القضية نفسها موضوعاً ، ولا السجع أسلوباً واستخدم مواهبه في رسم صورة أخرى للجارية ، يقابل بها تلك ، تزخر بألوان البديع ، وزاد عليها نصيحة لصاحبه بأنه « لا ينبغي لمن قلبه رقيق ، أن يدخل سوق الرقيق ، إلا أن يكون قد جمع بين المال والجمال ، يتنافس في العالى ، ويسترخص بالثمن العالى » .

الكتاب إذن ، فيما أرجح ، من الكتب التي تستهدف الإمتاع والتسلية ، بالحكايات المتخيرة من التراث القديم ، أو الملتقطه من الحياة المستحدثة ، وهي أصدق في تصويرها للمجتمع ذوقاً واهتمامات من كتب التاريخ نفسها وقل ما تعنى بغير ما يدور في فلك الحاكمين .

أما كتابه الذي وصلنا فعلاً فهو « الوافي في نظم القوافي » ونجد في بعض المخطوطات لفظ « الكافي » بدل « الوافي » ، و « علم » بدل « نظم » ، ووصلنا في عدة مخطوطات أعرف منها أكيداً .

○ مخطوطة ضمن مجموع ، في الخزانة العامة بتطوان ، تحمل رقم ٤٩١ . وتقع في ٨٣ ورقة ، من الحجم المتوسط ، ومسطرتها ٢٦ سطرا . وخطها مغربي واضح . صحيح في الجملة ، ولم يسم ناسخها نفسه ، ولا ذكر تاريخ النسخ في آخره .

○ وثانية محفوظة في الخزانة العامة بالرباط ، عاصمة المغرب ، تحت رقم ١٧٣٠ ك ،
وهي قديمة ، وتقع في ١٨٧ صفحة كبيرة ، وكتبت في خط مغربي جميل .
○ وثالثة توجد في دار الكتب المصرية ، في المكتبة التيمورية ، تحت رقم ٦٠٣
أدب ، وجاءت في ١٨٨ صفحة ، وكتبت بخط أندلسي ، ويرجع تاريخها إلى عام
٧٣٨ هـ ، أي بعد وفاة المؤلف بأربعة وخمسين عاماً لا غير ، وأراها أقدم النسخ الثلاث .
○ وثمة مخطوطة رابعة توجد في مجمع التاريخ الملكي الإسباني ، تحت رقم ٤٨ ،
وآلت ملكيتها إليه من مجموعة المستشرق الإسباني بسكوال جيانجوس ، ولم أتوصل إلى
رؤيتها ، لأن المجمع درج من سنوات على أن يحجب مخطوطاته عن الدارسين العرب ،
ومن ثم فلا أستطيع أن أقدم وصفا لها .
وأشار المؤلف صراحة في مقدمة الكتاب إلى أن اسمه « الوافي في نظم القوافي » ،
وقسمه على أربعة أجزاء .

كسر الجزء الأول منها على أربعة أبواب : تحدث في أولها عن فضل الشعر ، ومن تكلم
به ، وأثاب عليه ، وفي الثاني عن الشعراء وطبقاتهم ، وجعلهم أصنافاً ثلاثة : جاهليين
ومخضرمين وإسلاميين . وقسم هؤلاء إلى ثلاثة : مُحدث ، ومولد ، وبعد ذلك كل عصر
ينسب إليه أهله . وفي الثالث عن عمل الشعر وآدابه ، وفيه أخبار طريفة مما يدخل في باب
البديهة والإجازة والمأطلة . وفي الرابع عن أغراض الشعر وأبوابه ، وحصرها في ثمانية
أنواع : النسيب ، والمدح ، والتهنئة ، والثناء ، والاعتذار ، والعتاب ، والذم . وأورد في
كل قسم منها ما يناسبه من تعريف أو تقسيم ، ونماذج من قصائد الشعراء المتقدمين عنه ،
والمعاصرين له ، ومن شعره هو على الخصوص .

وأوقف الجزء الثاني على محاسن الشعر وبديعه ، وجاء في أربعين باباً هي : الابتداء ،
والانتهاء ، والاستطراد ، والمطابقة ، والمقابلة ، والمناسبة ، والتشبيه ، والاستعارة ،
والتخييل ، والتفريع ، والتوجيه ، والتمثيل ، والتمثيل الذي قبله نوع من التشبيه ،
والتجنيس ، والمضارعة ، والترديد ، والتصوير ، والاتباع ، والتبديل ، والتضمن ،
والاطراد ، والتفسير ، والمبالغة ، والتتميم ، والتسهم ، والتحرز ، والاتلفات ،

والتحريف ، والاستثناء ، والاستدراك ، والقلب ، والتصحيح ، والترصيع ،
والتسجيع ، والتسميط ، ولزوم ما لا يلزم ، والتفصيل ، والتختيم ، واللغز .
ودرس في الجزء الثالث عيوب الشعر ، وردّها إلى ثلاثة أنواع : الإخلال ،
والسرقة ، والضرورة . ولم يخص الإخلال بفصل مستقل ، وإنما جعله تسعة أضرب تكلم
عليها واحدا فواحدا ، وعقد للسرقة ثلاث فصول : في ضروبها وألقابها ، وفي مراتب
الأخذ ، وفيما يشبه السرقة وليس منها ، وتحدث في آخر هذا الجزء عما يجوز في الشعر لغير
ضرورة .

أما الجزء الرابع والأخير ، فأوقفه على حد الشعر والعروض والقافية ، وفيه فصل في
ألقاب البيت تختلف باختلاف أحواله ، وفصل في أنواع الشعر وألقابها ويعنى بها عروضه .
ورأى أنها أربعة وعشرون بحراً : خمسة عشر قديمة تكلمت بها العرب ، وتسعة محدثة
ولدها المحدثون . وقد تكلم على البحور القديمة المعروفة ، أعاريضها وضروبها ، وما يعرض
لها من زحافات وعلل ، وختم ذلك كله بذكر الأجزاء التي يتركب منها كل بحر منظومة في
شطر ، وشطر آخر من عمله ، يبين فيه اسم البحر نفسه ، كقوله في بحر الطويل :

ومثلُ طويلِ الشعرِ ما أنا قائلُ فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلُ

وأنى بعد ذلك على الأوزان المحدثّة ، وهى : الوسيط ، والوسيم . والمعتمد ،
والمتند ، والمسرّد ، والمطرّد ، والخبب ، والفريد ، والعميد . وذكر أجزاء تفاعيلها
وأمثلتها . ثم فصل القول في القافية . وختمه بآخر أتى فيه على عيوب الأعاريض
والقوافى .

ولكن أهمية الكتاب لا تقف عند هذا الحد . فهو ينثر خلاله كثيراً من أشعار
معاصريه ، وبعضها يكاد يكون المصدر الوحيد عنها^(١٥) . وحكايات عنهم ، وأخبار
ومساجلات تتصل بالموضوع الذى يكون فيه .

(١٥) انظر مثلاً : غرسة عومث ، مع شعراء الأندلس والسنن ، ص ٨٠ . ترجمة الدكتور الطاهر أحمد مكي . الطبعة الثانية .

ويشير الذين ترجموا له إلى أن له « مقامات » بدیعة ، فى أغراض شتى ، ولكنها لم تصلنا فىما أعرف . وقد يكون المراد فىها ما كتبه مسجوعاً فى كتابه « روضة الأنس » ، ذلك أن الأندلسيين وغيرهم يطلقون أحياناً اسم « مقامة » على كل نص مسجوع .

○ دیوانه :

يقول ابن الزبير عن شاعرية أبى البقاء الرندى ، وكان أستاذاً له على نحو ما : « شاعر مجيد فى المدح والغزل » . ويذكر عنه ابن عبد الملك فى كتابه « الذيل والتكملة » ، وأجازه أبو البقاء فى رواية ما ألفه نظماً ونثراً : « كان خاتمة الأدباء بالأندلس ، بارع التصرف فى منظوم الكلام ومنثوره » . ويقول أيضاً : إن نظم أبى البقاء ونثره مدون . ولكن شيئاً من ذلك لم يصلنا ، فيما أعلم . ونعرف منه أخيراً ، أن أبا البقاء أودع جملة وافرة من نظمه فى كتابه « الوافى » ، وأورد منها فى كتابه « الذيل » قصيدة من أربعة عشر بيتاً ، أوردها أبو البقاء هناك فى باب التشبيه ، ومطلعها :

عللانى بذكر تلك الليالى وعهود عهدها كاللآلى

ونقل له قصيدة أخرى ، من باب التشبيه أيضاً ، فى ثلاثة عشر بيتاً ، ومطلعها :

وليل صباية كالدهر طولاً تنكّر لى وعرفه التمام

وبعد القصيدة أصاب مخطوطة « الذيل » خرم سقطت معه بقية ترجمة أبى البقاء ، ويعسر علينا أن نتنبأ بما فقدنا مع ضياعها . ولكن الأبيات على أية حال من قصيدة طويلة فى مدح السلطان محمد بن الأحمر ، وجاء بها ابن الخطيب كاملة ، وهى فى خمسة وأربعين بيتاً ، ومطلعها :

سرى والحب أمر لا أيرام وقد أغرى به الشوق والغرام

وأورد له ابن الخطيب جملة من شعره ، تبلغ الستة والعشرين ، ما بين قصائد ومقطوعات . أقلها فى بيتين . وأطولها فى ستة وأربعين بيتاً ، وقال عنه : إنه كثير ، « سهل المأخذ . عذب اللفظ ، رائق المعنى ، غير مؤثر للجزالة » .

وأورد له المقرئ ، فى كتابيه **نفح الطيب** وأزهار الرياض ، قصيدته النونية كاملة ، واختص بذلك ، نقلا عن الذخيرة السنية ، وسندرسها مستقلة وتفصيلا فيما بعد ، ثم قصيدة طويلة فى خمسة وثلاثين بيتاً ، جاء بها فى نفح الطيب فحسب ، ومطلعها :
 سلم على الحى بذات العراز وحى من أجل الحبيب الديار
 واختار ابن الخطيب أبياتاً عشرة منها أعجبه ، من مقدمتها الغزلية ، وقدم لها بأنها « مغربة فى الأحسان » . أما الأبيات الأخرى التى أورد لها المقرئ ، وهى بيتان فى وصف البحر ، وبيتان فى وصف سكينة الكتابة ، وبيتان فى وصف المقص ، وستة أبيات فى الغزل ، وثلاثة فى وصف غلام ، وأراه نقلها كلها من الإحاطة ، لأنه حرر كتابه النفح فى القاهرة ، وكان ابن الخطيب قد أوقف بنفسه نسخة من كتابه فى حياته على طلاب العلم فى مصر ، واطلع عليها المقرئ وأفاد منها .

○ مدائح :

ثلاث قصائد مما وصلنا فى مدح السلطان محمد بن الأحمر ، وهى من النظم الجميل ، على نحو ما نجد عند معاصره ابن زمرك ، فكأنها يغترفان من ينبع واحد ، الأولى فى ٤٦ بيتاً ، ومطلعها :

سرى والحب أمر لا يرام وقد أغرى به الشوق والغرام
 ويبدوها بمقدمة غزلية ، يناجى فيها محباً فارق ، ويشكو ليلاً طال ، ويملؤها بكل ما فى طاقته من صور جلها معاد مكرر ، وإن جاءت فى إيقاع جميل محب ويخلص منها بعد أربعة وعشرين بيتاً إلى مدح الأمير ، بما اعتاده شعراء هذه الفترات ، وكل فترة فى الحقيقة ، فالشمس كوجهه سطوعاً ، وهو يشبه البدر ملاحة وتماها ، شجاع مقدم ، عريق من بنى نصر الكرام ، الذين ينتسبون فى الأنصار الذين نصروا الرسول وآووه ، وهم الذين قادوا الجيوش ، ومنجوا الجزيرة الأمن ، وبالأمر محمد عز الدين . وقويت شوكة الإسلام ، وقد تلتقى فى القصيدة بصورة طريفة ، حين يمدح الأمير بالجوهر والسقاء ، إذا قلنا إن فى يده غماماً ، بنحسنا حق اليد . وضللنا الغمام :

إذا ما قيل في يده غمامٌ فقد بُخستْ وقد خُلعَ الغمامُ
وأحياناً يمضى بالصورة إلى لون من المبالغة المنفرة ، تذهب بالمعنى . وتترك في النفس
عكس ما يريد من تصوير :

إذا ما ضاقت الدنيا بِحُرِّ كَفَاهُ لَثْمٌ كَفَّكَ وَالسَّلَامُ
والقصيدة الثانية في المديح أتى بها المقرئ كاملة في **نفح الطيب** . ولم يشركها هو حاله
كثيراً إلى المصدر الذي نقلها عنه ، وجاءت في خمسة وثلاثين بيتاً ، بدأها بمقدمة طليقة
شغلت خمسة عشر بيتاً ، سلم فيها على الحى ، وحيا الديار ، جاء بذلك في بيت واحد
تجاوز بعده الإيقاع الجاهل ليدافع عن العشاق ، وَيَجِبُهُ من لاهمهم ، ويدعوا إلى حياة
أيقورية ، لأن العيش لمن رame ، وليالى الأُنس قصار ، وبين الكأس والوصل يجب أن
تمضى الحياة ، وتغزل بطي غرير تعذب في حبه ، وفارق النوم في فكره ، ورغم أن
الآيات محافظة ، جاءت تقليداً لنهج ملتزم ، إلا أنها معنى وصورة تعكس في هذا النطاق
روحاً أندلسياً خالصاً .

واختار ابن الخطيب الآيات التي تلى هذه المقدمة ، وعددها عشرة ، أعجب بها ،
ورآها « مغربة في الإحسان » ، رغم أنها تنضح افتعالاً وصناعة ، فهي تصف معركة
ضارية بين الليل والنهار ، حين تفجر الصبح ، وانهمز الليل ، وأسمرت الشهب هاربة ،
وانزوى السها خيفة . وثار النجم ، وشابت نواصى الدجى ، وطارح النسر أخاه ، وغير
السفر من القمر . فصار في آخر الشهر كأن عنقوداً ثنى به ، أو عرجونا تدلى ، وكأن الثريا
تسبكه دينارا ، وكفها يقتل منه سوارا ، وتحكم الفجر في الظلمة فجار عليها ، وتلقى
الصبح المشتاق إليه . فسعد به . كما يسعد المرء بإقبال الدنيا ، بعد أن ذاق ذل الفقر :

وليلة نَبَّهْتُ أَجْفَانَهَا والفجرُ قد فَجَّرَ نَهْرَ النَّهَارِ
والليلُ كالمهزومِ يوم الوغى والشعبُ مثل الشهبِ عند الفرار
كأننا استخفي السها خيفةً وطولَبَ النجمُ بثارٍ فثار
لذلك ما شابت نواصى الدجى وطارَحَ النسرُ أخاه فطار
وفي الثريا قمرٌ سافرٌ عن غرةٍ غيرٍ منها السفار

كأن عنقودا تشى به إذ صار كالعرجون عند السرار
 كأنها تسبك دينارها وكفها يفتل منه السوار
 كأنما الصبح لمشتاقه عز غنى من بعد ذل افتقار
 كأنما الشمس وقد أشرقت وجه أبى عبد الله استنار

واستغنى ابن الخطيب عن تكملة أبيات المدح التالية للبيت الأخير ، لأن هذه تحفل
 على أية حال بعدد من الصور البلاغية ، وهى مفتعلة ، ومنحوتة ، ولكنها صور فى نهاية
 والمطاف ، أما التى أعرض عنها فقد خلت حتى من الصناعة ، مجرد نظم لا فن فيه
 ولا روح ، من مثل قوله :

محمدٌ محمدٌ كاسمٍ شخص له فى كل معنى يُشار
 اليمن من يمينه حكم جرى واليسر من شيمته تلك اليسار

ويشغل هذا السخف من القصيدة عشرة أبيات كاملة ، تدور حول مدح الأمير بأنه
 من لحم وبه تزهو ، وفرع من قيس وإليه تنتمى ، وأنه أجود من البحر ، يدور معه السعد
 حيث دار ، ويختمها بهذا البيت :

الحافظ الله وأسماؤه لذاك الجارِ وذاك الجوار

واختيار ابن الخطيب لما سجل منها ، يومئ إلى أنه فى كتابه « الإحاطة » كان يتذوق
 ما يدون من شعر ، وليس حاطب ليل يجرى قلمه بأى قصيد تجرى عليه عيناه .
 وقصيدة المدح الثالثة ، والأخيرة ، جاءت فى سبعة وعشرين بيتاً ، بدأها بمقدمة
 غزلية راقية ، محكمة النظم ، فلا حشو فى ألفاظها ولا زيادة ، جميلة الإيقاع ، فلا نشوز
 فى موسيقاها ولا اضطراب ، تميل إليها النفس ، وتعلق سريعاً بالذاكرة ، وأعجب بها
 ابن الخطيب كثيراً ، وقال عنها إنها ذات نزعة غريبة ، وسبق بها غيره .

ياطلعة الشمس إلا أنه قرأ أما هواك فلا يبقى ولا يذر
 كيف التخلّص من عينيك لى ومتى وفيهما القاتلان : الغننج والخور
 وكيف يسلى فؤاد عن صبابته ولو نهى الناهيان : الشيب والكبر
 أنت المني والمنايا فيك قد جمعت وعندك الحالان : النفع والضرر

ولى من الشوق مالا دواء له ومنك لى الشافيان : القرب والنظر
 وفى وصالك ما أبقي به رمقى لو ساعد المسعدان : الذكر والقدر
 وكان طيفُ خيالٍ منك يقنعنى لو يذهب المانعان : الدمع والسهر
 يانايا لم يكن إلا ليملكنى من بعده المهلكان : الغم والغيرُ
 ما غيبتَ إلا وغاب الجنس أجمعه واستوحش المؤنسان : السمع والبصر
 بما تُكنُّ ضلوعى فى هواك بمن يعنو له الساجدان : النجم والشجر
 أدركُ بقية نفسٍ لست مدركها إذا مضى الهاديان : العين والأثر
 وقد انتقل من المقدمة إلى مقصده فى سهولة دون افتعال ، وألحق بها مدح السلطان ،
 وهو غايته ، دون جفاء ، يكتنيه أبا عبد الله ، ولا تفترق المعانى هنا عما فى قصيدته الأولى ،
 وإن اتخذت صوراً مختلفة ، وسار فى بنائها على نهج مغاير ، كالذى نلاحظه فيما أوردنا من
 مقدمتها ، فالأمير كرم يهب الخيل آلاًفاً ، شجاع فارس الجمع عند اللقاء ، أسد عند
 الخطر ، وربما كان المعنى الجديد الذى وقع عليه ، وقل ما يعرض له الشعراء فى
 أمداحهم ، أن رعيته باتت فى أمان ، فما يخشى الناس فى حياتهم راحلين أو مقيمين شيئاً :
 تأمن الناس فى أيامه ومشوا كما مشى الصاحبان : الشاة والثمرُ
 وزال ما كان من خوفٍ ومن حذرٍ فما يرى الدائتان : الخوف والحذرُ
 لا جديد من المعانى فى مدائح أبي البقاء ، وإن جاءت بعض أبياتها فى ثوب قشيب ،
 وفى صورة تختلف عما عند غيره من الشعراء ، إن الشاعر والشعر هنا ، وربما فى عصور
 كثيرة ، لا يتجاوز غالبا وصف الممدوح بصفات عامة ، مبالغ فيها ، يمكن أن يلبسها
 الشاعر لمن يريد . دون عناء كبير . وليس وراءها دافع قوى من عاطفة أو حب أو شكر ،
 ومن ثم جاءت باردة روحاً ووقعاً ، لا تثير فى النفس شيئاً ، لأنها صدرت عن نفس
 خاوية غير مستثارة حقاً .

○ تغزله :

نلتقى بشعر الغزل عند أبي البقاء على ضربين ، تقليدًا يحى فى مقدمة قصائد المديح ،

وعرضنا له من قبل ، وقلة من الشعراء فحسب تتخفى وراء هذه المطالع ، لأسباب اجتماعية أو دينية ، فتتغزل حقاً ، وتعبر عن عاطفة مشبوبة ، ولكنها توهم غيرها بأنها تحتذى نهجاً متبعاً ، أما الكثرة الغالبة فيجئ غزلها في هذا المقام صناعة خالصة ، وأحال مقدمات أبي البقاء من هذا اللون .

والضرب الثاني مقطعات غزلية خالصة ، بعضها لا يمكن الجزم بصفته هذه ، فقد يكون مطلعاً لقصائد اختارها الجامع أو المدون لأنها أعجبت ، وأعرض عن بقية القصيدة لأنها لم ترضه أفكاراً أو شكلاً ، ويبدو ذلك واضحاً حين يسبقها بقوله : « قال في . . . » ، والبعض الآخر يشير صراحة إلى أنها مقطوعة ، وفي هذه الحالة يكون الشاعر قد استهدف بها التغزل بدءاً ، وتعبيراً عن مشاعر مكنونة ، أو إظهاراً لقدرته على النظم في هذا المجال أحياناً .

وتدور معانيه في الغزل حول محاور عديدة ، منها : أن يهجره الحبيب فيطول ليله كأنه سرمد ، أو يقبل عليه فيمضي الليل كأنه لحظة . وجاء المعنى الأول في أبيات ستة صور فيها حاله ، وأشواقه ملتبة ، وأدمعه متدفقة ، وصبره نافذ ، وتحس معها أنها غير كاملة ، وربما كانت مطلعاً لقصيدة ذهب آخرها ، لأنك مع البيت الأخير منها تتوقع أن يقول شيئاً لم يجئ ، وأن يمضي بك إلى فكرة مقنعة ، ولكنه يقف بك حيث انتهى جلده :

أطال	ليلي	الكمد	فالدهر	عندي	سرمد
وما أظنُّ	أنه	للي	للة	الهجر	غد
يانأما	عن	لوعني	عوفيت	مما أجد	
أرقد	هنيأ	إنني	لا أستطيع	أرقد	
لواعج	ما تنطفي	وأدمع	تضطررد		
وكبدى	كبد	الهوى	وأين	منى	الكبد
ولا تسل	عني	جلدي	والله	مالي	جلد

أو يصف في بيتين حال متم تشير الشفقة ، كثر عليه العشاق فضاع بينهم ، وكأننا أراءد

أن يشارك شعراء عصره حتى في الشذوذ فوصف لنا غلاماً في أبيات ثلاثة ، وهي المقطوعة الوحيدة التي وصلتنا في شعره من هذا اللون ، وتعكس خصائص الشعر الأندلسي في مرحلة توهجه ، حين جعل من جمال الطبيعة والجمال الإنساني شيئاً واحداً ، ويتراسلان الخصائص والصفات ، ولكنه اكتفى بأن يصف ، وأن يقف عندما رأى ، وأن يقول إن جمال الغلام يعجب عشاقه ، أما هو فلم يتجاوز الحديث عنهم وعنه ، وهو شيء يُحمد له على أية حال :

وإني وقد زانه جمالٌ فيه لعشاقه اعتذارُ
ثلاثةٌ مالها مثالُ الوجه والخد والعدار
فمن رأى رياضاً الورد والآس والبهار

وأخيراً نجد له أبياتاً ثلاثة في وصف امرأة خارجة من الحمام ، عدّها ابن الخطيب من النسيب وأراه محققاً . وهي صورة نادرة قل أن نجد لها شبيهاً في الشعر الأندلسي ، ولو أن معاصره ابن خاتمة عرض لمثلها في صورة أخرى ، فقد تشفع عند القاضي في أبيات عذبة رقيقة ، في شأن جارية عزرها القاضي لأنها أخذت حمامها من غير إزار^(١٦) ، وأبيات أبي البقاء لا تقل عنها عذوبة وعفوية :

برزت من الحمام تمسح وجهها عن مثل ماء الورد بالعنّاب
والماء يقطر من ذوائب شعرها كالطلّ يسقط من جناح غراب
فكأنها الشمس المنيرة في الضحى طلعت علينا من خلال سحب

وكان أبو عثمان ، سعد بن ليون التجيبي ، شيخ لسان الدين بن الخطيب ، ينشد الأبيات التالية في مدينة المرية ، من شعر أبي البقاء . وعنه أوردتها المقرئ في « نفح العليّ » . ولم يوردها لسان الدين بن الخطيب في الإحاطة ، وهي من الغزل الرقيق حقاً ، بسيطة وسهلة . وغنية عن أي شرح أو تمهيد :

أيها العاذلُ بالله اتندُ لك قلب في ضلوعي أو كبْدُ

(١٦) الط : مدهش رقم ٣٦ من ١١٥ من هذا الكتاب .

هي أجفاني فذرها تنهمي هي أحشائي فدعها تتقد
لا تظن الحب شيئاً هيناً ليس في الحب قياس يطرد
أنتَ خلو وأنا صبٌّ شجٌّ فإذا حدثت عني قل وزد
فاترك اليوم ملامى إنه يُترك الشيء إذا لم يفد
أنا أسلو عن حبيبي ساعة يا عدولي ، قل هو الله أحد

كان حظ أبي البقاء من الغزل في شعره قليلاً للغاية ، على الأقل فيما وصلنا منه ، وربما مرد ذلك أن غزلياته ضاعت فيما ضاع له من شعر ، أو لأن الظروف الاجتماعية حوله لم تتح له أن يعبر عن مكنون عاطفته ، فلا أخال فنانا لا تستهويه المرأة جميلة أو أنثى ، في عصر كانت هي أجمل ما فيه ، وملهمة أى إبداع ، ومن يدرى ، ربما يمكن السبب في أنه واجه الحياة فقيراً ، وأمضاها مكدودا ، فشغلته ضرورات العيش عن دواعي الهوى ، وأنضبت في أعماقه ينابيع الغزل .

○ شعر الوصف :

ويجئ عنده إدراكاً خارجياً لما كان يرى ، وربما صنعه مهارة وجريا على سنن الشعراء في عصره ، حتى لا يكون دونهم ، يصف النهر في أربعة أبيات ، لا يخرج فيها عن المعتاد من الأوصاف الأندلسية ، فالزهور تحف به . ويسيل على مثل الجبان ، كالسيف سل من غمده ، وكسر النسيم صفحته ، وصافحت الأدواح سطحه ، ثم يصف البحر في بيتين :
البحرُ أعظمُ مما أنت تحسبه من لم ير البحر يوماً ما رأى العجبا
طامٍ له حَبَبٌ طافٍ على زَرْقٍ مثل السماء إذا ما ملئتُ شهباً
ويصف الجيش تحرك لمعركة ، الجنود المدرعين . والقضب تعلوها الرايات ، فرحين ببقاء العدو ، ليوث لا يخافون ، سيوفهم ماضية ، قاتلوا حتى انتصروا ، وتركوا العدو وراءهم ، وقد ارتاع ناقوسه ، وبكى صليبه . وأصبحوا خبيرا من الأخبار :
وارتاع ناقوسٌ بنخل لسانه وبكى الصليبُ لذلة الكفار
ثم انتشوا عنه وعن عباده وقد أصبحوا خبيرا من الأخبار

ويصف السيف والقلم ، ويجرى مفاخرة بينهما ، وسكين الدواة ، والورد ، والخيرى ، وكان شائعاً ومحبوباً وتغنى بوصفه كثيراً شعراء مملكة غرناطة ، والريحان والرمان والجزر . وكلها تجىء فى مقطوعات قد تكون بيتاً أو بيتين أو أكثر ، ولكنها لا تتجاوز الستة أبيات ، ويبدو فى بعضها على الأقل أنها مأخوذة من قصائد أطول منها ، أعجب بها ابن الخطيب فانتزعها ، وترك ما عداها ، وربما كان وصف السيف أجملها :

وأبيضُ صبيغ من ماءٍ ومن لهبٍ على اعتدال فلم يَحْمَدُ ولم يَسْلُ
ماضى الغرار يهاب العمرَ صَوْلَتُهُ كأنما هو مطبوعٌ من الأجل
أبى من الوصل بعد الهجر منظره حُسْنَا وأقطعُ من دينٍ على مال (٩)
وأسمر ظن ماكل سابعة فخر لاض كالأثم يستشفى من النهل (٩)
هام الكماء به حباً ولا عجبٌ من لوعةٍ بليح القدِّ مُعتدل
إذا الطعين تلقاه وأرفعهُ حسبه عاشقاً ييكى على طلل

وأورد ابن الخطيب أيضاً أبياتاً جميلة لأبى البقاء ، فى وصف ساقية وحديقة ، انتزعها من قصيدة مطولة فيما يقول ، ولا يوحى جوها بأنها كانت مقدمة لقصيدة مدح ، ووصفه بأنه « تفنن فيها » ، ويبدو أن بعض كلماتها أصابه التحريف فى المخطوطة أو النسخة المطبوعة (١٧) فلا نكاد نتبين المراد منها إلا بجهد ومشقة ، وبخاصة أنها تزدهم بالصور البلاغية البعيدة المطارح ، ومثلها يعسر تبين المراد منه ما لم يلمح الراوى بدءاً إلى ما يتحدث عنه الشاعر أو يصفه ، ومع ذلك يمكن أن نفهم من الأبيات أنه يتحدث عن ساقية ، صوتها أجمل من العود ، تسقى وهى تجرى ، وتجرى وهى تسقى ، نجر النهر كوشاح أبيض ، يرف على حافته الزهر ، وتهز الأدواح ككائب خضراء ألويتها بفضاء ترتفع فوق أغصان سمراء .

لقد رماها قزحُ بألوانه ، فجردت سواقبها السيوف على ماء النهر ، وهب النسيم فجفف ما على الزهر من طل ، وبدأ الروض وكأنه صحيفة مكتوبة ، أشجاره قائمة كالألفات ،

(١٧) الاحاطة ، ج ٣ ص ٣٧٠ ، بتحقيق محمد عبد الله عنان .

وسطحها في صفرة التبر ، وبدت زهرة الأقحوان كخاتم من فضة تزينه فصوص من ذهب ، وتناثر الطل حول النرجس الغض فكان كالعيون يترقق الدمع في أجفانها ، واختار « الخيري » أن يعبق بشذاه ليلاً كالعشاق ، لأن الليل أكرم للسر ، على حد تعبير ولادة بنت المستكفي :

وغانية يُغنى عن العود صوتها وجارية تسقى ، وساقية تجرى
بحيث يجر النهر ذيل مِجْرَةٍ يرف على حافات الزهر كالزهر
وقد هزت الأدواح خضر كئابٍ بألوية بيض على أسل سمر^(١٨)
رمى قرحُ نبلا إليها فجردت سيوفاً ، سواقيا على دارع النهر
وهبت صبا لجِدٍ فجرت غلائلا تخفف دمعَ الطل عن وجنة الزهر
كان بصفح الروض وَشَىْ صحيفةً وكالألفاتِ القضبُ ، والطرسُ كالنهر
كان به النرجس الغضُّ أعينُ ترقرق في أجفانها أدمع القطر
كان شذا الخيري زورة عاشقٍ يرى أن جُنَحَ الليل أكرم للسر
الآيات بديعة التصوير ، تكثر فيها الصور البلاغية ، وبعضها جديد من صنع أبي البقاء ، كتشبيه شذا « الخيري » يعبق ليلاً بزيارة العشاق لا تتم إلا في الظلام ، أو تشبيه زهر الأقحوان بخاتم من فضة . ولكن ؟ . . أين هو من هذا كله ؟ بماذا أحس ؟ ما صدى هذا الجمال في نفسه ؟ لا يشئ بشئ من حقيقة مشاعره ، والحق أنه ليس فرداً في هذا الطريق ، فجل شعراء العربية يقفون على الحياض بإزاء جمال الطبيعة حين يعرضون لها ، غير أنه تجافى عادة أندلسية شائعة ، فرفاقه في وطنه لا يتحدثون عن الرياض إلا ويعرضون للشراب في ظل أشجار ، وبين طيب هوائها ، ولا يذكر الشراب إلا ومعه السقاة والصبايا الفاتنات ، وقد يجمعون إلى هذا كله الموسيقى والغناء . أم تراه كان يقصد بدءاً أن يصف الساقية فحسب ، مهارة وإظهاراً لمقدرته ؟ لا يمكن الجزم بشئ من هذا ، في غيبة بقية القصيدة ، وقدم لها ابن الخطيب بأنها من المطولات .

(١٨) في الأصل :

« وقد هزت الأدواح خضر كئاب » ، ولا أنراه مهوماً .

○ همومه إنساناً :

وثمة أبيات تتصل بهجوم الشاعر الإنسانية ، وصلاته الاجتماعية ، تجيء أيضاً في مقطوعات قصيرة ، لا يمكن القطع بأنها كذلك في الأصل ، لأننا نعتمد فيها على ابن الخطيب ، وهو يتحم ذوقه فيما يختار ، ولعله التقطها من قصائد مطولة لم تعجبه ، وعرفنا فيما سبق أنه وصم أبا البقاء شاعراً بأنه « غير مؤثر للجزالة » وكانت محبة إلى أديب غرناطة الكبير ، فأبو البقاء يشكو ، في بيتين ، أخوة السوء لا نفع فيهم ، ويورد في بيتين آخرين أنه عجم الزمان ، وعرف أهله ، فإذا هم يقلون عند الفزع ويكثرون عند الطمع ، كلامهم كثير ، وإقبالهم على الدراهم شديد :

ولقد عرفتُ الدهر حين خبرتهُ وبلوتُ بالحاجاتِ أهلَ زمانِ
فإذا الأخوة باللسان كثيرةٌ وإذا الدراهم مِثْلُ الإنسانِ

أو يدعو ، في بيتين ، إلى الصبر ، ويبشر به ، لأن الدهر يقبل ويدبر ولا يبق على حال . ويحدثنا أخيراً عن الموت ، وقلة من الشعراء تتحدث عنه كظاهرة ، وانفعالاته ، لأنه تجربة لا تحدث إلا مرة واحدة في العمر ، وحين تحدث يكون صاحبها عدماً ، لا يحس ولا يشعر . بالنسبة لنا على الأقل ، وأن تعيش التجربة تخيلاً ، أو تردت إليها تصوراً ، يتطلب الأمر حين تكون شاباً حالة نفسية معتمة ، أو واقعاً اقتصادياً ضاغطاً ، تصبح الحياة معه عبثاً مضيئاً تود التخلص منه ، أو أن تتقدم بك السن ، وتشرف على النهاية ، فأنت على بعد خطوات من الموت لا مجال ، وذلك ما نراه مع أبي البقاء ، فقد امتدت به الحياة ، وحين دنت ساعته تحدث عن الموت حديث الواعظ ، فما بعده عسير ، وطاعات المرء هي التي تحسب له ، ويدعو غيره لأن يعرض عن اللذات ، وأن يتعظوا ، ويتبعوا أوامر الله ، كل من على الدنيا رجل ومضى ، حتى الملوك ، ولم يحمل أى منهم غير كفته ، ولم يخز من أرضها غير قبره :

الموتُ سرُّ الله في خلقه وحكمةٌ دلت على قهره
ما أصعب الموت وما بعده لو فكّر الإنسان في أمره

أيام طاعات الفقى وحدها هى التى تحسب من عمره
لا تُلهك الدنيا ولذاتها عن نهى مولاك ولا أمره
وانظر إلى من ملك الأرض هل صح له منها سوى قبره
ثم يرثى نفسه ، يكتب شاهده الذى سيوضع على قبره ، ينظمه شعراً ، ويطلب فيه
من صحبه ، ومن يمر عليه ، أن يطلب له الرحمة ، وأن يدعو له بالمغفرة ، فما أشد حاجته
إليهما :

خلي بالود الذى بيننا اجعلا إذا مت قبرى عرضة للترحم
عسى مسلم يدنو فيدعو برحمة فإني محتاج للدعوة مسلم

وهى فكرة نجدها عند ابن الزقاق^(١٩) أيضاً ، ولو أن هذا اعترف ، وذكر صحبه بأنهم
أمضوا حياة هنيئة ، وأن دنياهم كانت رائقة العيش - فياضة بالصفاء والمتع .
وما نقل إلينا من شعر أبى البقاء خال من أى نبض عائلى ، صحيح أن قلة من الشعراء
تحدثوا عن زوجاتهم ، ولكن الكثيرين منهم تحدثوا عن آبائهم وأمهاتهم ، وبخاصة إذا
كانوا فى حالة اجتماعية مرموقة ، وإنما يصمتون عنهم إذا جاءوا من غمار الناس ، فليس فى
أنسابهم ما يزهون به . أترى صمت عنهم أبو البقاء لأنهم كانوا من هذا القبيل ؟ ربما .
ولكن لماذا صمت عن بنيه أيضاً ؟ .

○ فنه الشعرى :

من الظلم الواضح ، ومما يخاف قواعد النقد الحقة ، أن نقوم شاعراً فى ضوء بعض
شعره ، وربما كان أقله ، وفى غيبة الكثير الذى أبدعه ، وربما كان أجوده ، وهو ما ينطبق
على أبى البقاء تماماً ، ولا يشفع له ، ولا يصلح عذراً لنا ، أن ما وصلنا من شعره كان فى
جملته اختيار عالم أديب ، وهو ابن الخطيب ، لأن الاختيار يعكس ذوق المختار ، فى

(١٩) انظر الفصل الخاص بابن الزقاق فى : غرسة غوث : مع شعراء الأندلس والمغرب ، ترجمة الدكتور الطاهر أحمد مكي ،
الطبعة الثانية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٨ .

نطاق بيئته ومزاجه وعصره وظروفه ، ولا يعنى بالضرورة أن ما اختار له أفضل ما قرأ أو سمع من إبداعه ، إلى جانب أن ابن الخطيب نفسه لم يكن مجرد مؤرخ كاتب ، أو أديب شاعر ، وإنما كان قبل هذا وزيراً أول ، ورجل دولة مسئول ، ويضع في اعتباره هذه الجوانب كلها حين يختار أو يكتب ، وما أكثر ما ألح فحسب ، أو صمت تماماً ، أديب غرناطة الكبير . ولكن ذلك لا يحول دون أن نبدي ملاحظتنا على القليل الذى بين أيدينا ، وأن نقول رأينا في ضوءه ، وهو رأى قابل للتغيير إن جد مع الزمن ما يجعل مراجعته ضرورة .

أول ما يلفت النظر في شعر أبى البقاء هذه اللغة البسيطة السهلة ، تكاد أن تكون عامية . مما يجرى على ألسنة الناس عادة ، وهو أمر لا يجئ عنده عن عجز أو تقصير ، لأن بعض مقطوعاته التى آثر فيها جانب الصناعة ، حفلت بالألفاظ المعجمية ، وإن جرت بين أنداده من شعراء عصرى الخلافة والحجابه بوجه خاص ، وإذن فهو يسلك هذا الطريق اقتناعاً منه ، وإثارة له . وليس مساقاً إليه . ويدعم رأى هذا أننا لا نقع في كل ما لدينا من شعره على لفظ واحد غير عربى ، رغم أنه عاش فترة المد والجزر العنيفة بين الإسلام والمسيحية على بطحاء شبه الجزيرة ، وهو تجاذب يتجاوز الحرب إلى الاجتماع والاقتصاد ، وحتى الثقافة ، على السواء ، ومع ذلك ليس ثمة لفظ رومانى واحد في أى من قصائد أو مقطوعات أبى البقاء .

يميل أبو البقاء إلى الألفاظ الجارية ، ويؤثرها على غيرها ، وإن أدت هذه المعنى نفسه ، وجاءت في ذات الإيقاع ، فهو يستخدم كلمة « بخت » ، بدلا من « حظ » ومعناها واحد ، ووزنها العروضى واحد ، وذلك في قوله :

إذا لم يُرزق الإنسانُ بختاً فما حسناته إلا ذنوب

وقد يجئ شطر البيت كله من هذا الكلام الدارج :

ولا تسَلْ عن جَلْدِي واللّه مالى جَلْدٌ

ولو أن شعراء عصره أوغلوا في القديم ، وآثروا الألفاظ الصعبة ، على طريقة ابن هاني أو ابن دراج القسطلي . لفسرت موقفه بأنه كان رد فعل ضد هذا الإيغال ، ولكن شعراء

عصره كانوا ، فى الحق ، على مقربة منه فى لغتهم ، وإن لم يهبطوا بها حيث اختار أبو البقاء أن يكون ، وإذن فهى طبيعة العصر نفسه .

أتراه كان يكتب لأبناء زمنه ، لا يهيمه من يأتون بعد ، وليس فى حسابانه من ذهبوا من قبل ، وأن أبناء زمنه شغلوا وسط عواصف السياسة الهوج عن العربية وإجادتها والفصحى وغريبها ، وإثارة ما جزل من ألفاظها ؟ . افتراض يقف فى طريقه أن الشعوب فى لحظات المحن تحرص أكثر من أى وقت آخر على مقوماتها الأساسية من لغة ودين وتقاليده وعادات ، ونجد الحرص على اللغة واضحاً فى انتشار فن المقامات والرسائل المسجوعة ، وكتابتها فى صناعة فنية محكمة ، لا تتأق إلا لمن يجيد العربية وتمكن من أسرارها ، وقد شارك أبو البقاء فى هذه اللعبة بكتابه « روضة الأنس ، ونزهة النفس » ، ويصفه ابن الخطيب بأنه كان كبيراً . وأخيراً فإن موقف المسلمين فى الأندلس فى فترة إيداع أبي البقاء ، لم يكن ساء إلى حد ينسى المسلمين لغتهم ، وفى نونيته نفسها شاهد على ما أقول . ومن هنا أرجح أن أبا البقاء أثر السهولة فناً ، وارتضى لشعره أن يجىء لغة فى مرتبة وسط ، يصبح فيها زاد المتعلم ، وغنوة الأمى .

يكثر أبو البقاء من استخدام التشبيه ، وأحياناً يجىء عنده قلقاً ، يصطدم آخره بأوله ، فالجنود المسلمين يذهبون إلى القتال مهتللين ، فرحين بقاء العدو ، فإذا مضيت مع الصورة إلى نهايتها ، وجدته يشبه هذه الوجوه بالقمر :

مهتللين لدى اللقاء كأنهم خلقت وجوههم من الأقمار
والقمر يرتبط فى ذهن القارئ العربى ، منذ كان هناك شعر وأدب ، بنجال وجه المرأة ، به تشبه ، وبين جماله وجالها نوازن ، ولا أراه يثير غير السخرية أن تصف جنوداً ذاهبين إلى القتال بأنهم أقمار .

ومثله أيضاً ، حين يصف السيف ، فيشبه من أصابته طعنة منه فأرعفته ، وأسالت دمه ، بأنك تحسبه عاشقاً يئس على طلل ، والصورة هنا لا تستقيم ، وشتان ما بين صريع فى حرب أو نزال ، يفيض داخله بالقهر والذل والهزيمة ، وبين عاشق يفيض صبابه ، ويقف على ربع حبيب ، يسترجع ذكريات مضت ، نشوى بالسعادة والرضا :

إذا الطعينُ تلقاه وأرعه حسبه عاشقا يكي على طلل
ونجد ذلك التناقض النفسى أيضاً حين يصف الماء يقطر من ذوائب شعر أسود جميل ،
لامرأة خارجة من الحمام ، بأنه كالطل يسقط من جناح غراب ، وحتى مع افتراض أن
الجارية كانت تقص شعرها على نحو « غلامى » ، وهى طريقة شاعت فى الأندلس زمنًا ،
على نحو ما عليه الحال فى عصرنا ، إلا أن لفظ الغراب لا يستخدم ، ولا يثير ، فى العصر
الوسيط ، وحتى قريب من أيامنا ، وفى بوادينا حتى الآن ، غير التشاؤم والقلق ، وتوقع
الشر .

فإذا تركنا الجانب السلبي من فنه ، إلى ما هو إيجابى وجديد عنده ، وجدناه فى قصيدة
المديح الثالثة ، التى توجه بها إلى السلطان محمد الغالب ، وعرضنا لها فيما سبق ، يسير على
نهج جديد فى نظمه ، لحظه ابن الخطيب نفسه ، فقدم لها بقوله : « ومن نزعاته العجيبة
قوله ، وقد سبق إلى غرضه غيره » . ويقوم الجديد فيها على أن الشطرة الثانية من كل
بيت ، فى القصيدة كلها ما عدا المطلع ، تتكون من جملة اسمية خبرها شبه جملة مقدم ،
والمبتدأ مثنى مؤخر ، أو فعلية وفاعلها مثنى ، وفى الحالين يُبادل من المبتدأ أو الفاعل
مضمونه مفردين معطوفا أحدهما على الآخر ، لا يشذ فى ذلك ولا مرة واحدة ، وهى
ظاهرة إن دلت على التمكن والمقدرة فإنما تدل فى الوقت نفسه على أن الصناعة بلغت عنده
غايتها .

ويستخدم المحسنات البديعية قليلاً ، على غير عادة الشعراء فى عصره ، ونجد منها عنده
« اللف والنشر » ، كما فى الأبيات التى يصف فيها غلامًا ، وذكرناها من قبل ، والطباق
أحيانًا ، ويستخدم الجناس نادرًا .

ولم يشر أحد من ترجموا له أنه عنى بالموشحات ، أو أبدع فيها شيئًا ، أو أعارها جانبًا
من اهتمامه ، وهى ظاهرة لافتة للنظر ، فقد بلغ هذا الفن فى عصره ، والعصور التى
سبقتة ، قمة توهجه ، شيوعًا وفنًا وإقبالًا ، ومن يدرى ، فربما قال فيها شيئًا ولم يصلنا .

○ نونية أبي البقاء :

أروع شعره على الإطلاق ، وتنجىء في مقدمة القصائد التي عرضت لمثل هذا اللون من الأحداث ، والقاعدة النقدية تقرر : « إذا أراد الشاعر أن يبكيها فعليه أن يبكي أولاً » ، ومن الواضح أن أبا البقاء بكى صادقاً وعميقاً ، لأن قصيدته تثير الشجى في نفس كل من يقرأها أو يسمعها ، ولم تفقد شيئاً من جدتها وتأثيرها حتى يومنا ، وحين تعود إليها ثانية بعد قراءتها ، تحس كأنك تقرأها للمرة الأولى ، لقد استطاع شاعر الأندلس أن ينقل إلينا تجربته كاملة ، في إيقاع شجى ، ذى تأثير عجيب .

أول ما يعرض لنا ونحن ندرس النونية إهمال المصادر الاندلسية التي بين أيدينا إهمالاً كاملاً لها ، لم تشر إليها من قريب أو بعيد ، فضلاً عن أن تأتى بها كاملة ، أو بأبيات مختارة منها ، رغم أنها ترجمت لأبي البقاء ، واختارت له بعضاً من أشعاره ، إذا كانت محدودة عند ابن عبد الملك وابن الزبير ، فهي كثيرة ومتنوعة عند ابن الخطيب .

وكان المصدر الذى أوردها كاملة مغربياً ، وهو كتاب « الذخيرة السنية » ، لمؤلف مجهول ، ويتحدث عن فترة كان فيها بنو مرين على أوثق الصلات بمملكة غرناطة ، فى حالى التحالف والاختلاف على السواء ، ونقلها لنا المقرئ كاملة فى كتابه « نفح الطيب » و « أزهار الرياض » ، وكعادته كثيراً لم يشر إلى المصدر الذى نقل عنه ، وأرجح أنه نقلها عن الذخيرة أيضاً .

ومؤلف « الذخيرة » مجهول ، ولكننا نعرف أنه عاش فى عصر السلطان أبى سعد المرينى ، وحكم من ٧١٠ إلى ٧٣١ هـ - ١٣١٠ - ١٣٣١ م ، أى أنه ألف كتابه بعد ستة وثلاثين عاماً ، على الأقل ، من وفاة أبى البقاء ، وأكبر الظن أنها تعاصرا ، وسبق أن ألحقت فى هذه الدراسة إلى احتمال أن يكون أبو البقاء قد عبر المضيق إلى المغرب فى وقت نجهله ، وربما كان بعد إنشاد القصيدة ، شيخاً تجاوز الستين من عمره ، ولزم من كان قصيراً على التأكيد ، غير أنى لا أعتقد أنه لقي مؤلف كتاب « الذخيرة » ، لأنه فى هذه المرحلة لم يكن يعدو أن يكون طالباً فتياً يتردد على حلق الدرس ، ولعل الأقرب إلى التصور أن

القصيدة بموضوعها المثير ، وإيقاعها الجميل ، سواء أكان صاحبها هو الذى حملها ، أم عبرت البحر بنفسها ، شقت طريقها إلى أسماع وقلوب جمهرة المسلمين فى الأندلس والمغرب على السواء .

ويذكر صاحب الذخيرة السنية أن أبا البقاء أنشدها بمناسبة نزول محمد الغالب سلطان غرناطة عن عدد كبير من القواعد والحصون الأندلسية للملك قشتالة عام ٦٦٥ هـ = ١٢٦٧ م ، وهى أحداث ثابتة تاريخياً ، أى أن أبا البقاء قالها وهو فى الخامسة والستين من عمره تقريباً . ومن المؤكد أن السلطان ضاق بها ، وعمل على حصارها ، فهى تندد بالقواعد التى سقطت على عهده فى يد المسيحيين ، وتستثير جمهرة المسلمين فى الأندلس وخارجها ، لاستعادة ما ذهب والدفاع عما يوشك أن يذهب ، والقواعد الكبرى التى ندبها فى قصيدته هى : إشبيلية ، وقرطبة ، ومرسية ، وشاطبة ، وجيان ، وكلها سقطت بين عامى ٦٣٥ و ٦٥٠ هـ = ١٢٣٧ - ١٢٥٢ م ، إلى جانب مئات من الحصون والقرى ، وإذن فهى تدينه دون أن تعرض له ، وتجعله مسئولاً دون أن تذكر اسمه ، وليس ثمة شك فى أن أحفاده كانوا أحرص منه على عدم تداولها بين الناس ، وكان ابن الخطيب وزيراً أول لهم ، وليس بوسعهم أن يضمن كتبه شيئاً لا يرضون عنه ، ولا أرى سبباً آخر لإهمال ابن الخطيب لها ، رغم الترجمة المستفيضة ، والأشعار العديدة ، التى خص بها أبا البقاء ، ولا يرد فى الحاضر أنه لم يسمع بالقصيدة ، وهى جميلة تسترعى الانتباه ، وتعلق بالذاكرة ، وكانت متداولة بين الناس ، وابن الخطيب ذواقة فى الشعر ، موسوعى الثقافة ، ومثلها لا يخفى عليه .

كان أبو البقاء مهياً نفسياً وثقافياً لأن يبدع قصيدة حول هذه القضية ، بمثل هذا المستوى ، فقد درس على أستاذه ابن زرقون قصيدة ابن عبدون فى رثاء بنى الأفطس ، وعاصر ابن الأبار صاحب قصيدتى الاستصراخ ، وكل هذه القصائد درسناها من قبل ، - وارتبط عاطفياً بمعظم المدن التى سقطت ، إن لم يكن بها كلها ، وله فيها ذكريات من أيام الطلب أو ما بعدها . فلا غرو أن تفجرت أبياته من نفس كلمة وفؤاد مخزون . /

استهل أبو البقاء قصيدته بتقرير قاعدة إنسانية مستمدة من واقع الحياة نفسها ومؤداها أن كمال أى شىء بداية نهايته ، ما يكاد يبلغ ريعان شبابه حتى تدركه الشيخوخة فتضعفه وهنا على وهن ، حتى تسلمه إلى الفناء ، وهو أمر يصدق على الحضارات والأمم كما يصدق على الأفراد . فلا يغرن إنسان جبروته مهما عظم ، ولا تبطن أمة قوتها مهما بلغت ، فسبيل ذلك كله إلى فناء . . كله إلى زوال .

ويضرب الأمثال لما قرره : ذهب ملوك اليمن فما بقي لهم تاريخ ، وأنى الزمان على حصون إرم فما أبقى منها على حجر ، وذهب بحكم ساسان وكسرى ، وبملك سليمان ومدنخرات قارون ، أنى عليهم جميعاً فما عادوا غير تاريخ يروى شاحباً ، أشبه بحلم رآه نائم فما يتذكر منه إلا بقايا باهتة ، وفجائع الدهر ألوان ، وكل ذهب بسبب ، وفنى فى ظروف تغاير الآخر ، ولكل حادث أحوال تخفف من وقعه ، أما فجيرة الإسلام فى الأندلس فقاصمة .

وفصل ما أصاب الأندلس : لقد ذهبت الجزيرة بما لو سقط على أحد لذهب به ، أو على ثهلان لهدّه ، لقد سعدت بالإسلام وارتقت ثم أصابتها العين ، وتوالت عليها البلايا ، وانحسر الإسلام عن أقطارها ومدنها ، عن بلنسية ومرسية وشاطبة وجيان قرطبة وإشبيلية ، وهى قواعد الإسلام الحصينة ، ومدنه الزاهرة .

ويصور أسف الناس الحزين على بلاد عسها الكفر ، وأقفر من الإسلام ، وصارت مساجدها كنائس ، تزخر بالنواقيس والصلبان ، بعد أن كانت عامرة بالعلم والإيمان ، مما يبكى حتى الجهاد من محاريب ومنابر ، ويذكر بقايا المسلمين فيما ظل لهم من مدن ، وغفلوا عن الأحداث فما يتعطلون بها ، والعدو من حولهم متربص بهم ، ويحث أولئك الذين اطمأنوا على دنياهم الواسعة ، فى مملكة غرناطة المزدهرة ، أن يكون لهم فى ذهاب إشبيلية عظة ، وكانت قبل دنيا عريضة من اللهو والترف واقتناص الملذات . إن فجيرة الإسلام فى الأندلس أنست الناس بهولها كل ما أصابهم قبل من كوارث وفى أى مكان ، وستعلو عن النسيان على امتداد الزمان .

ثم يتجه إلى مسلسى أفريقية ، أصحاب الخيل الضامرة الدريرة كأنها عقبان ،

والسيوف المرفهة تلمع كأنها نيران ، يعيشون في أمن ورغد ، وتظلمهم أوطان عزيزة منيعه ،
يسألهم مستنكرا : ألم تسمعوا بما أصاب الأندلس من كوارث ومحن أضحت حديث
الركبان ، وقتلى الإسلام وأسراه على أرضه يثنون فما يستجيب لهم إنسان ، وهم أخوة
لهم ، أليس فيكم أبى يثور لما أصاب قومه ، ويعينهم على دفع الشر ، ورد العدوان .
ويختم القصيدة بوصف ما أصاب المسلمين في أحداثهم الرهيبة : أحال الكفرة عزهم
ذلا . وجعلوا أحرارهم عبيدا ، وتشابهت عليهم السبل فهم حيارى لا يدرون
ما يصنعون . ويفصل حالهم وهم يباعون رقيقا ، يحال بين الأم وطفلها ، ويباع كل منها
لسيد ، وصبايا فانتات جسيلا ، في زهوة الشباب ، يقودهن العليج للمكروه وقد
أسرهم في الحرب ، أو اشتراهن رقيقا من السوق ، وكلهم يبكى ، فيذيب بكاها القلوب
حزنا وكهدا .

○ نص القصيدة :

لكل شيء إذا ما تم نقصان	فلا يُغَرُّ بطيب العيش إنسان
هي الأمور كما شاهدتها دُول	من سره زمن ساءته أزمان
وهذه الدار لا تبقى على أحد	ولا يدوم على حال لها شأن
يمزق الدهر حتما كل سابعة	إذا نبت مشرفات وخرصان
ويتنقى كل سيف للفناء ولو	كان ابن ذى يزن والغمد غمدان
أين الملوك ذوو التيجان من يمن	وأين منهم أكاليل وتيجان
وأين ما شاده شداد في إرم	وأين ماساسه في الفرس ساسان
وأين ما حازه قارون من ذهب	وأين عاد وشداد وقحطان
أق على الكل أمر لا مرد له	حتى قضوا فكان القوم ما كانوا
وصار ما كان من ملك ومن ملك	كما حكى عن خيال الطيف وسان
دار الزمان على دارا وقاتله	وأم كسرى فما آواه ليوان
كانما الصعب لم يسهل له سبب	يوما ولا ملك الدنيا سليمان

فجائعُ الدهر أنواعٌ متنوعةٌ وللسلطانِ مسراتُ وأحزان
وللحوادثِ سلوانٌ يسهلُها وما لى حلٌ بالإسلامِ سلوان

دهى الجزيرة أمرٌ لا عزاءَ له هوى له أحدٌ وانهد ثيلانُ
أصابها العينُ فى الإسلامِ فامتحنَتْ حتى خلَّتْ منه أقطارُ وبلدانُ
فاسألْ بَلْتَسِيَةَ ما شأنَ مُرْسِيَةَ وأين شاطِئَةُ أم أين جِيَّانُ
وأين قرطبةُ دارُ العلومِ ، فكم من عالمٍ قد سما فيها له شانُ
وأين حمصُ وما تحويه من نُزْهِ قواعدُ كَنَّ أركانَ البلادِ فما
تبكى الحنيفةُ البيضاء من أسفٍ على ديارٍ من الإسلامِ خالية
حيث المساجدُ قد صارت كنائسَ ما حتى المحاريبُ تبكى وهى جامدةُ
يا غافلاً وله فى الدهرِ موعظةُ وما شياً مرحاً يلهيه موطنه
تلك المصيبةُ أنستَ ما تقدمها فبينَ إلا نواقيسُ وضلبانُ
حتى المنابرُ ترقى وهى عيدانُ إن كنتَ فى سِنَةِ فالدهرِ يقظانُ
أبعدَ حِمَصٍ تغرِ المرةَ أوطانُ وما لها مع طولِ الدهرِ نسيانُ

ياراكبينِ عتاقَ الخيلِ ضامرةٌ كأنها فى مجالِ السبقِ عقبانُ
وحاملينِ سيوفِ الهندِ مرهفةٌ كأنها فى ظلامِ النقعِ نيرانُ
وراعتينِ وراءَ البحرِ فى دعةٍ لهم بأوطانهم عزٌ وسلطانُ
أعندكم نباٌ من أهلِ أندلسٍ فقد سرى بخديثِ القومِ ركبانُ
كم يستغيثُ بنا المستضعفون وهم قتلَى وأسرى فما يهترِ إنسانُ
ماذا التقاطعُ فى الإسلامِ بينكم وأنتمُ ياعبادَ اللهِ إخوانُ
ألا نفوسُ أبياتٍ لها همٌّ أما على الخيرِ أنصارُ وأعوانُ

يامن لذلة قومٍ بعد عزهمُ أحال حالهمُ كُفّرُ وطغيان
بالأمس كانوا ملوكًا في منازلهمُ واليوم همُ في بلادِ الكفرِ عبدانُ
فلو تراهم حيارى لا دليلَ لهمُ عليهمُ من ثيابِ الذلِ ألوان
ولو رأيت بكاهم عند بيعهم هالكُ الأمرُ واستهوتك أحزان
يارب أم وطفلٍ حيلَ بينهما كما تفرقُ أرواحُ وأبدان
وطفلة مثل حسنِ الشمسِ إذ طلعتُ كأنما هي ياقوتُ ومرجان
يقودها العليجُ للمكروه مكرهه والعينُ باكيةٌ والقلبُ حيران
لمثل هذا يذوب القلبُ من كمدٍ إن كان في القلبِ إسلامٌ وإيمان

○ تعليق على القصيدة :

قيض لمرثية أبي البقاء من الشهرة والذيع ما لم يقيض لمرثية أخرى . وهى شهرة مردها الصدق الذى تحتويه ، وحرارة العاطفة التى تجرى بين أبياتها ، قالها مكلومًا يخاطب الأندلسيين من قومه ، والمسلمين أنى وجدوا ، ولم يتوجه بها إلى أمير ، ولم ينشدها فى بلاط . ومع أن الجديد فى مضمونها قليل ، إلا أن هذا القليل يرجح فى ثقله وقيمته كل ما تضمه القصائد الأخرى ، لأنه يمس جانبًا إنسانيًا يستدر شفقة أسمى القلوب ، وأشدّها جمودًا وضراوة . وهو يفعل ذلك فى واقعة بسيطة مؤثرة ، ولعله شاهد بعض ، أو كثيرًا . مما وصف ، فهو يلتقط صوره من عمق المأساة ، تنم على ذلك بعض عباراته السهلة والصادقة فى الوقت نفسه ، مثل : « ولو رأيت بكاهم عند بيعهم ... » ، فليس أسمى على الحر من أن يباع عبدًا ، أو وصفه للطفلة يقودها العليج ، أو الأم تباع لسيد وطفلها لسيد آخر ، فليس أسمى ولا آلم من فراق جبرى ، لا تعرف له نهاية ، بين أم وطفلها ، تودعه وتعلم أنها قد لا تعود إلى رؤيته أبداً ، ومنظر فتاة فاتنة ، لا يد لها فى الحرب ، تساق للمكروه مكرهه دون أن تستطيع دفعًا لمغتصبها . ومثل هذه المشاهد الحزينة المؤثرة كانت تحدث على التأكيد فى أية معركة يخسرها المسلمون فى الأندلس ، ولكن أبا البقاء أول من عرض لها . واغناها سبيلا لإثارة حمية المسلمين فى الأندلس وأفريقيا على السواء .

وما عدا ذلك من معانٍ شريك فيها لمن سبقوه أو فاقهم في الإيجاز ، والبعد عن الحشو الممل ، وجاء في قصيدته ذات الاثنتين وأربعين بيتاً بكل المعاني ، وبأكثر منها ، التي جاءت في مرثية طليطلة المجهولة القائل ، أو ما قاله ابن الأبار في بلنسية ، وحين استعبر الماضي لم يحاول ، كما فعل ابن عبدون من قبل ، أن يجعل منها معرضاً لعلمه الواسع ، وإنما قنع بأمثلة قليلة ، في أبيات محدودة ، وأفكاره مرتبة ترتيباً بديعاً ، واستطاع أن يلون عباراته ، وأن يعطيها إيقاعاً يميزها عن سواها رغم تشابه المضمون ، وكانت هذه الحكم ، تدور حول الاعتبار بما مضى ، خير مدخل مهد به الشاعر لموضوعه ، ثم انتقل منه إلى حادثه الخاص .

وأكد أبو البقاء . شأن غيره في هذا ، على الطباق النفسى والتصويرى في القصيدة ، لتبدو المفارقة واضحة ومثيرة ، يصور ما كانت عليه المدن الذاهبة وما آلت إليه ، ويبرز ما تعرضت له المقدسات الإسلامية من امتحان : المساجد التي أصبحت كنائس ، والنواقيس التي حلت مكان الآذان ، والأعراض التي استيحت علانية . وعبر القصيدة كلها لا تجد بيتاً قلقاً ، ولا كلمة زائدة ، ولا لفظاً نائياً ، وكان أبو البقاء مستجيباً في إنشاد القصيدة لإحساس ذاتى غامر ، ومن هنا خلت أبياته من أية صناعة لفظية ، وكانت طابع كل من سبقوه .



وحين طار ذكر هذه القصيدة ، وتداولها الناس في الأندلس وأفريقيا على السواء ، ووجدوا فيها صدقاً واقعهم صادقاً أضافوا إليها . مع الزمن ، أبياتاً تتحدث عن مدن أخرى استغلب عليها الكاثوليك ، مثل بسطة . والمرية ، ومالقة ، ووادي آش ، وغرناطة ، وكلها سقطت في أيديهم بعد موت أبي البقاء . وهى أبيات . إلى جانب استحالة أن يكون أبو البقاء قائلها تاريخاً . دون القصيدة روحاً وفناً وإثارة ، ولحظ ذلك المقرئ في نفح الطبيب ، فعقب على القصيدة بعد أن أتى عليها كاملة : « انتهت القصيدة الفريدة ، ويوجد بأيدي الناس زيادات فيها ذكر غرناطة وبسطة وغيرها مما أخذ من المدن بعد موت صالح بن شريف . وما اعتمدته منها نقلته من خط يوثق به على ما كتبه ، ومن

له أدنى ذوق علم أن ما يزيدون فيها من الأبيات ليست تقاربها في البلاغة ، وغالب ظني أن تلك الزيادة لما أخذت غرناطة وجميع بلاد الأندلس ، إذ كان أهلها يستهضون همهم الملوك بالمشرق والمغرب ، فكان بعضهم لما أعجبه قصيدة صالح بن شريف زاد فيها تلك الزيادات ، وقد بينت ذلك في « أزهار الرياض » فليراجع .

ولكن نسخة « أزهار الرياض » التي بين أيدينا ليس فيها أية إشارة إلى هذه الأبيات ، ونحن ندين بالفضل في معرفتها إلى العالم المغربي الأستاذ عبد الله كنون ، فقد نشرها في « صحيفة المعهد المصري » في مدريد ، على ما أشرنا إليه في البدء ، نقلاً عن قطعة مخطوطة متداخلة من أزهار الرياض والنفح معاً ، توجد ضمن مجموع قديم في خزائنه الخاصة . فالأبيات التالية جاءت بعد البيت : « وأين حمص وما تحويه من نزه . . » في القصيدة الأصلية :

وأين غرناطة دار الجهاد فكم	أسدى الشدى وهم في الحرب فرسان ^(٢٠)
وأين حصارها العليا وزخرفها	كأنها من جنان الخلد عدنان
والماء يجرى ساحات القصور بها	قد حف جدوها زهر وريحان
وأين جامعها المشهور كم تليت	في كل وقت فيه به آى وقرآن
وعالم كان يهدى للجهول هدى	مدرس وله في العلم صبيان
وعابده خاشع لله مبتهل	والدمع منه على الخدين طوفان
ووادى شلين يخكى في تحشه	سيوف هند لها في الجو لمعان
وأين بسطة دار الزعفران فهل	رأى شبيهاً لها في الحسن إنسان
كذا المرية دار الصالحين فكم	قطب بها ، علم غوث له شان
وأين مالقة مرسى المراكب كم	أرست بساحلها فلك وغربان
وكم بداخلها من شاعر فطن	وذى فنون له حدق وتبيان
وكم خارجها من متره فرج	وجنة حولها زهر وبستان

(٢٠) : « ذى في الأصل واعلمها أسد الشرى » . ويبقى المعنى مع ذلك غير تام .

وأين جارتها الزهرا وقبتها وأين ياقوم أبطال وفرسان
وكم شجاع زعيم في الوغى بطلٌ بدا له في العدا فتكٌ وإمعان
وكم جُدلتْ يدهُ من كافر فغدا تبكيه من أرضه أهلٌ وولدان
وودى آش غدت بالعرَّ عامرةً وردَّ توحيدها شركٌ وطغيانٌ
وجاء في المخطوطة نفسها زيادة بيت بين قوله « تلك المصيبة » وقوله « يارا كبين »

ونصه :

يا أيها الملك الحمراء رأيته أدرك بسيفك أهل الكفر لكانوا
وفي الختام ألحق بالقصيدة الأبيات الثلاثة التالية :

هل للجهاد بها من طالب فلقد تزخرت جنة المأوى بها شان
والشوق للحوار والولدان نحوكما^(٢١) فازت لعمري بهذا الفضل شجعان
ثم الصلاة على المختار من مضير ما هب ريح الصبا واهتز أغصان
ويذكر الشهاب الخفاجي ، المتوفى عام ١٠٦٩ هـ - ١٦٥٨ م ، دون أن يشير إلى
المصدر الذي اعتمد عليه ، أن شاعراً اسمه يحيى القرطبي شهد آخر صفحة من تاريخ الدولة
الإسلامية في الأندلس ، فنظم قصيدة على نسق قصيدة الرندي فاختلفت بها ، غير أني لم
أعثر للشاعر أو قصيدته على أثر فيما هو منشور من المصادر الأندلسية .

○ بين التأثير والتأثر :

إذا تركنا ما للقصائد الأندلسية الشبيهة من صدى في نونية أبي البقاء . وسبقته
أو عاصرته ، فنن المفيد أن نذكر أيضاً أن أنغامها وجوها بعكس صدى . لا يقل
وضوحاً ، لنونية أبي الفتح البستي ، المتوفى عام ٤٠١ هـ - ١٠١٠ م ، وهي مثل قصيدة
أبي البقاء ، شرقت وغربت على أيامها ، ونالت شهرة عريضة ، وسجلتها مخطوطات
عديدة ، وكانت موضع شروح كثيرة ، وانفقا في عدد من المخطوط الرئيسية ، وإن اختلفا
في الدافع والمناسبة ، ومطلع قصيدة أبي الفتح :

زيادة المرء في دنياه نقصانٌ وربحهُ غير محضٍ الخيرِ خسران
كما أن أحمد شوقي ، المتوفى عام ١٩٣٢ ، عارض قصيدة أبي البقاء في نونيته
الرائعة ، التي قالها في ذكرى محنة دمشق على يد الاستعمار الفرنسي ومطلعها :
قمّ ناجٍ جلتى وانشدُ رسمَ من بانوا مشّت على الرسمِ أحداثٌ وأزمانُ
ولكن أمير الشعراء ، كما هو متوقع منه ، حلق في سماء الشعر عالياً ، وترك الكل دونه
على الأرض ، بما فيهم أبو البقاء .

ولم تقف شهرة مراثية أبي البقاء عند العالم الإسلامي وإنما جازت شهرتها إلى العالم
الكاثوليكي في الأندلس . ويرى الدكتور ليون كارلونيرو إى سول (Léon Carlonero y Sol) ،
وكان يعمل أستاذاً للغة العربية في جامعة إشبيلية في أواخر القرن الماضي ، أن مراثية الشاعر
الإسباني خورخي منريكي (Jorge Manrique) (١٤٤٠ - ١٤٧٩ م) في رثاء والده ، متأثرة
إلى حد كبير بقصيدة أبي البقاء الرندی . وأن الشاعر الكاثوليكي لابد أن يكون قد عرف
قصيدة الشاعر المسلم . في نصها العربي أو مترجمة إلى الإسبانية ومتداولة شفاهاً ، مع
مراعاة الفارق في الدافع إلى كل منهما . ويشاركه في هذا الرأي خوان
باليرا (Juan Valera) من كبار أدباء الإسبان في العصر الحديث (١٨٢٤ - ١٨٠٥) ؛
وقد قام باليرا بترجمة مراثية أبي البقاء إلى اللغة الإسبانية ، نقلاً عن الترجمة الألمانية ، على
نفس الوزن الذي نظمت فيه أشعار خورخي منريكي .

ونظرة عابرة إلى قصيدته الشاعر الإسباني يتبين منها المرء أن ثمة أمرين كان فيهما مقلداً
للشاعر العربي على التأكيد . الأول هو الحديث عن تلون الحياة ، وارتفاعها وانخفاضها ،
وتعاور الحزن والسرور على الإنسان ، وثانيهما استمداده العبرة من التاريخ واتخاذها
شاهداً . ولو أن الشاعر الإسباني استمدّها من تاريخ أمته قديماً وعلى أيامه ، من ملوك
الرومان والقوط في الماضي . والإسبان المعاصرين له ، على حين انحصرت إشارات الشاعر
العربي في ملوك الشرق القديم . والجدير بالذكر أن عدد فقرات القصيدة الإسبانية تساوي
عدد أبيات قصيدة أبي البقاء . وبعيد عن التصور أن الأمر جاء صدفةً واتفاقاً .

ولكى تكون لدى القارئ العربى فكرة عن قصيدة خورنخى مزريكى ، أورد ترجمة
لطلعها إلى العربية :



نُبِّه النفسَ النَّائِمةَ ،
وأيقظ العقلَ وأشعُ فيه النشاط ،
متأملاً ،
كيف تمضى الحياة ،
وكيف يجيء الموت
صامتاً .
يا للسرور ، كم هو خفيف فى ذهابه ،
مؤلمٌ عند تذكر ساعاته ،
وكيف يبدو لنا
أن أى زمنٍ مضى
خيرٌ من الحاضر .
وفى لحظةٍ ، نرى الحاضرَ ماضياً ،
ومنتهاً ،
ولو حكمتنا فى فطنة
لاعتبرنا ما فى ضمير الغيب
ماضياً .
لا ينخدعن أحدٌ أبداً
ظاناً أن الدوام حتم
لما يؤمله ،
لأن ما رآه لم يدم ،
وكل شئٍ عليه أن يمضى

عبر نفس الطريق ! .
حياتنا أنهار
تمضى لتصب في بحر ،
هو الموت .
إلى هناك يذهب السادة ،
توا لكي ينفوا
ويتلاشوا .
هناك الأنهار الفيضة ،
والأنهار الجارية ،
والأنهار الضحلة ،
لحظة وصولها تصبح متساوية ،
كالذين يعيشون من سواعدهم
يتساوون مع الأغنياء .

عاشت مملكة غرناطة زهاء قرنين من الزمان بعد عصر أبي البقاء ، وبها لاذت الحضارة الإسلامية في شبه الجزيرة ، لكن الجاهير فقدت حيويتها كجاعة مؤثرة ، وإن تميزت ببطولات فردية مناضلة ، تحاول بعزم أن تؤخر النهاية القاصمة ، وفقدت القيادة الموجهة الحازمة ، فكان الأمراء والحكام دون مستوى الأحداث تفكيراً وشجاعة وخلقاً وعناداً في النضال ، يستخدمون العدو لتحطيم بعضهم البعض ، ويشترون بخيانة أمتهم عروشاً صغيرة ذليلة ، وعبر هذه القوضى الغامرة كان من الطبيعي أن يكون هناك من بأسى لحال الإسلام في الأندلس ، يندب حاله وينعى أيامه ، لكن لم يصلنا من ذلك القليل ، أو على التحديد لم تصلنا إلى مرثية واحدة كانت بجهولة تماماً ، وسوف ندرسها في الفصل التالي .

موثية أندلسية مجهولة

○ مراثيات ضائعة :

البعد عن الوطن يثير الشجى دائماً ، ويهيج الذكريات ، وأمل المرء أن يعود يوماً إلى البلد الذى شب فيه ، وسط أشخاص أعزاء عليه ، وأشياء حبيبة إلى نفسه ، يخفف عادة من حشرات المهاجر وآلامه ، أو الراحل إلى آفاق بعيدة . وتصبح الحسرة أكثر إيلا ما كلما كان هذا الأمل أشد استحالة ، أو ضاع إلى الأبد .

وليس ثمة شك فى أن المصير الذى كان ينتظر مسلمى الأندلس حين وجدوا أنفسهم جماعات خارج بيوتهم وربوعهم ، وقد أكرهوا على ترك ديارهم ، قد أذرف دموع آلاف التعساء ، وأثار مشاعر الشعراء ، غير أن صدى الثبرات الخالدة لبعضهم ، وزفرات الآخرين ، لم يصلنا منها إلا القليل .

ضاعت مثلاً مراثية شعرية كتبها مورييسكى مجهول ، فى النصف الأول من القرن السادس عشر ، أرسلها إلى شمال أفريقيا ، وحملها من يدعى داود ، ومعها رسالة ، ويطلب فيها العون والمساعدة ، ولكن الإسبان اعتقلوا داود فى الطريق ، وأخذوا الأوراق التى معه ، ومنها المراثية والرسالة ، وأرسلها المركيز موندنجر Mondéjar إلى الملك ، النص العربى وترجمة له . ولا أدرى أين استقر النص العربى ، ولكن مرمول كرنخال Marmol Carvajal أورد ترجمتها فى كتابه : «ثورة المورييسكين Rebellion de los Moriscos» وعنه نقلها فون شاك فى كتابه «شعر العرب وفنهم فى إسبانيا وصقلية» ، وقد ترجمت الكتاب إلى اللغة العربية ، ونشرت المجلد الثالث منه وهو الخاص بالفن ، بعنوان : «فن العرب فى إسبانيا وصقلية»^(١) ، ووردت فيه المراثية كاملة هناك ، وترجمتها نثراً بدهاء وأحاول جاهداً أن أعثر على نصها العربى .

(١) صدر عن دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٠ .

ومنها هذه المراثية التي بين أيدينا ، وكانت مجهولة حتى وقت قريب ، وإليك تاريخها كاملا .

○ تاريخ المراثية :

كان الباحث الجزائري الدكتور محمد صوالح أول من وقعت عينه على مخطوطة هذه المراثية ، في مطلع هذا القرن . فنشرها في « المجلة الأفريقية Revue Africaine » عام ١٩١٤ ، ثم ترجمها إلى اللغة الفرنسية ، وقدم لها بترجمة فرنسية أيضا ، ولم يهتد إلى قائلها ، فحاول أن يُشرك معه بقية أدباء العالم العربي في شمال أفريقيا ، وبعضا من المستشرقين . فكتب إليهم في الجزائر وتلمسان وفاس والرباط وتونس وإسبانيا ، يطلب العون منهم في التعرف إلى قائلها . لكن أحدا منهم لم يقدم له جوابا شافيا ، ونشر أحد أصدقائه ، مجاملة له ، الأسئلة التي طرحها عليه ، ومعها أبيات من القصيدة . في مجلة الزهراء التي تصدر باللغة العربية في تونس . وطلب إلى العلماء والقراء أن يوافوه بكل ما يمكن أن يكون في حوزتهم من معلومات مفيدة ، غير أن نداءه بقي دون صدى . وما لبثت الحرب العالمية الأولى أن اندلعت . وأصاب كل الناس وبلائها ، وشغلهم عن العلم والثقافة ، وتمخضت نهايتها عن عالم جديد . مختلف تماما عما سبقها . وصمت الدكتور صوالح ، لسبب لا أعلمه ، ونسيت القضية تماما .

وبعد ذلك بثلاثة وعشرين عاما أرسل الأديب المغربي عبد الرحمن حجي القصيدة إلى مجلة الرسالة فنشرتها في عددها رقم ١٣١ . السنة الرابعة ، بتاريخ ١١ من شوال ١٣٥٤ ٦ من يناير ١٩٣٦ ، الصفحات ٢٢ - ٢٤ . وقدم لها بهذه الفقرة :
 « . . قصيدة بليغة من الأدب الأندلسي الرائع ، تصف أحسن وصف المأساة الأندلسية . لم نعر على قائلها . وقد طبعها لأول مرة على ما يظهر الأستاذ الدكتور صوالح محمد بالجزائر سنة ١٩١٤ مع ترجمة فرنسية ، وبعض تعليقات بالفرنسية ، ذكر فيها أن هذه القصيدة من جملة قصائد بعثت إلى السلطان بايزيد العثماني بقصد الاستغاثة ، وأشار إلى أن صحيفة الزهرة التونسية نشرت نتفا منها منذ سنوات ، وطلبت من الأدباء أن يعلنوا

عن صاحبها إذا عرفوه ، ولكن لم يجب الصحيفة أحد ، فبقى مجهولا ، وقد عرضتها على المؤرخ المغربي الكبير السيد محمد بن علي الدكالي السلوى ، فذكر لي أن صاحبها كما يفهم من القصيدة من مدينة المرية ، ولعله أبو جعفر بن خاتمة ، وقد تكون مذكورة في كتاب له يسمى مزية المرية الموجود منه نسخة خطية بمكتبة الإسكوريال . ولقد أحببت أن أرسل إليكم نصها لكي تنشروه في مجلتكم الحافلة ، إذا راقكم ، لعل بين المشتغلين بالأدب الأندلسي من له معرفة بقائلها .

ومن الواضح أن هذه المعلومات تجاوزها الزمن ، وتحتاج إلى إعادة تحرير ، ومن المؤكد أن الأستاذ حجى ، وكتبها في شبابه ، لو عاد إليها الآن لأصلح منها ، ولكتبها على نحو آخر . أول ما يقع في الخاطر تعقيا عليها ، أننا لا نعرف من المقدمة ما إذا كان النص الذى أرسله إلى الرسالة نقلا عما نشره الدكتور صوالح ، أم أنه عثر عليه في مخطوطة أخرى لم يشر إليها ، وإن كنت أرجح أنه حصل عليها من مخطوطة أخرى . لأن مخطوطة الجزائر ، وقد رأيتها عبث بها الإرضة أحيانا ، حتى ليستحيل ملء الفراغ الذى تركته وراءها . كذلك فإن بعض القضايا تحتاج إلى إعادة تحرير ، لأن عددا من الناشرين غير الباحثين يقعون على هذا النص ، فيأخذون كل ما ورد فيه على أنه قضية مسلمة . ينطلقون منها ، ويبنون عليها نتائج تحجى خاطئة بالضرورة ، فالدكتور صوالح لم ينشر القصيدة مستقلة وإنما نشرها في مجلة تصدر باللغة الفرنسية ، وصحيفة الزهرة لم تنشر ما نشرت بدافع ذاتي منها ، أو لأنها وقعت على القصيدة في كتاب أو مخطوطة ، وإنما كان نشرها بطلب من الدكتور صوالح نفسه . لعله يجد معينا يسهم معه في الوصول إلى صاحبها . ولم يذكر في نخته عن القصيدة أنها فيما أرسله الأندلسيون إلى السلطان العثماني يطلبون الإغاثة . وإنما تحدث عن قصائد رثاء أندلسية كثيرة مجهولة ، أو ضائعة . وأن من بينها واحدة بعث بها المسلمون الذين ظلوا في إسبانيا بعد سقوط غرناطة عام ١٤٩٢ م إلى السلطان العثماني بايزيد الثاني . يعرضون فيها وضعهم المخزن . وكانت هذه القصيدة موجودة في المكتبة الوطنية في الجزائر . تحت رقم ١٦٢٠ (781٠b) ولكنها مع الأسف الشديد ضاعت . أو سُرقت إن شئت . من المجموع . ورغم ذلك حاول الدكتور صوالح أن يحصل على نسخة منها .

وحصل عليها ناقصة . واكتفى بهذه الإشارة . فلم يقل أين حصل عليها . ولا من قالها . ولا ما هي طبيعتها ، ولم ينشرها ، ولعله وجد أنها نفس القصيدة التي أوردها ، المقرئ في كتابه أزهار الرياض . الجزء الأول ص ١٠٩ ، وتوجد أيضاً في مخطوط تكميل أزهار الرياض للقنطري ، أبي عبد الله محمد بن عبد الله ، ص ٤٧ ، ويوجد بالجزائفة العامة بالرباط . ضمن مجموع يحمل رقم ٢٨ ل . وهي ذات قيمة تاريخية فحسب . وتعكس المستوى الذي احدثت إليه اللغة العربية وأدبها بين الموريسكيين حين سقطت دولة الإسلام في الأندلس . وقد يكون من الخير أن نأتي على مطلعها ليقف القارئ على مستواها :

سلامٌ كريمٌ دائمٌ متجددٌ أخصَّ به مولاي خير الخليفة
سلامٌ على مولاي سلطان مكة وسultan دار المصطفى خير بقعة
سلام على مولاي من حاز ملكه قبور كرام الرسل في أرض أيلة
وحاز بلاد الشام والمسجد الذي به صخرة المعراج أفضل صخرة
سلام على من دار مصر مقيله ومسكنه ، أكرم بها من مدينة
كذلك قد يكون صاحب القصيدة من المرية ، على ما سنعرض له فيما بعد . ولكن
بعيد جداً أن يكون ابن خاتمة . لأن هذا كان شاعراً مشهوراً . ووصلنا ديوان شعره بخط
يده . وعرض له عدة من المؤرخين في عصره . ولا تتفق روح القصيدة مع مزاجه . وقبل
هذا كله فإن الرجل توفى عام ٧٧٠ هـ ١٣٦٩ م . أي قبل سقوط المرية في يد المسيحيين
بثمة وعشرين عاماً كاملة ، ومثلها في ذلك كل المدن التي وردت في القصيدة بلا استثناء .
وأما كتابه « مزية المرية » فضائع ، حتى يومنا . ولم يحدث أن كانت مخطوطته في
الإسكوريال . ولا أعرف أنه عُثر عليها في مكان آخر^(٢) . ولعل بين علماء المغرب من
يعطيها شيئاً من جهده . فقد يقف عليها في إحدى المكتبات الخاصة ، لأنها من الأهمية
تلكان .

(٢) في المخطوطات العربية ، دار خاتمة ، في هذا الكتاب ص ٩٧ وما بعدها

ومهما يكن من أمر فلم يستجب لدعوة العالم المغربي غير المؤرخ الجليل الأستاذ محمد عبد الله عنان ، فتناول القصيدة من الناحية التاريخية ، أحداثها ودلالاتها ، وحاول أن يحدد زمنها ، دون أن يمس الجانب الأدبي منها ، أو يضيف إليها جديدا يعين على تحقيق شخصية قائلها .

○ مخطوطة المراثية :

توجد هذه المخطوطة في مكتبة الجزائر الوطنية تحت رقم ١٦٢٧ . وتتألف من ثمانى ورقات طولها ٢٠ سم ، وعرضها ١٥ سم ، والصفحة الأولى منها بيضاء ، وبقية الصفحات مكتوبة ، وفي كل صفحة عشرة أبيات ، ما عدا الثانية فتضم تسعة ، والأخيرة وتحتوى على خمسة أبيات فحسب ، أى أن مجموع أبيات القصيدة مئة وأربعة وأربعون ، وكتبت بحبر أسمر اللون ، ويصنع من الصوف المحروق والماء ، وخطها مغربي ، وأسماء المدن ، واسم الله والنبي ، والألفاظ الدينية ، وصيغ التعجب مكتوبة بحروف أكبر ، وأضاف الناسخ بحبر أحمر بعض التعليقات المفيدة والمختصرة ، ولكن التعليقات تطول إلى حد ما في ما بين البيت ١٠١ والبيت ١٤٠ ، وجاءت في شكل سطور منحدرية على الهامش ، منظمة ودقيقة وبروق العين منظرها ، غير أن المعلق كان يتجاوز الفقرات المجملة ، أو التى تحتاج إلى تفسير ، فلا يعلق عليها بشيء .

والمخطوطة ليست أصلا ، ولكنها نُسخت عن أم لا نعرف عنها شيئا ، وتاريخ نسخها « يوم الأحد في العشر الثاني من شهر شعبان سنة ٨٩٧ - ١٠ يونية ١٤٩٢ م) . ورغم العناية التى بُذلت للمحافظة عليها ، بوضع ورق مشمع بين الصفحات . ووضعها في غلاف أخضر من الورق المقوى المغطى بالجلد ، فإنها تأثرت بالإرضة على نحو ملحوظ . فتفتتها في أكثر من مكان في الصفحة الواحدة ، ويتسع حجم البعض منها حتى يبلغ في الصفحة الأولى خمس ستمترات طولا . وخمس عشرة مليمتر عرضا . والتلف في بقية الصفحات أقل عددا وجساما ، ولكنه مزعج على أية حال ، لأن بعض فقرات القصيدة أو التعليقات اندثرت تماما ، مخلفة وراءها ثقوبا واسعة ، لا يمكن ملء ما ضاع معها

إلا تخميناً وافتراساً . وثمة أخطاء وهفوات ترجع إلى جهل الناسخ ، وهذه من السهل الوصول إلى حقيقتها .

○ أفكار القصيدة :

تدور القصيدة حول محاور خمسة ، تختلف فيما بينها أفكاراً ، ومستوى ، وعدد أبيات .

المحور الأول يدور حول بكاء رندة ، وجاء في ثلاثة وستين بيتاً ، وقد سقطت رندة في يد النصارى عام ٨٩٠ هـ - ١٤٨٥ م ، ويبدوها الشاعر متسائلاً مذهولاً : أحق أن مدينة رندة المنيرة سقطت في يد المسيحيين . وغربت عنها شمس الإسلام ، وأظلمت أرجاؤها ، وترلزت منازلها وقصورها ، وأزعج عنها أهلها ، وهذت مبانيها ، وثلت عروشها ؟ . ويقارن بين ما كان عليه أمرها . وما انتهى إليه حالها ، كانت عقاباً فهوت ، وعقداً فانتثرت ، ويعصف حالها مسلمة موحدة ، وأصبحت في قبضة النصارى وهى مثقلة . تعبد فيها التماثيل والصور من دون الله ، وارتفع فيها صوت النواقيس ، ودارت على أهلها صروف الليالى ، فتوزعتهم بين قتيل وأسير . وصور وقع المأساة على القلوب ، وحال الناس لحظة الهزيمة : عويل صارخ . وبكاء لا يجدى ، ورسم صورة مفصلة لما أجمله فيما سبق . أطال فيها الحديث وأطنب ، وفصل القول وأسهب ، فالمساجد التى حولت إلى كنائس صمت فيها نداء المؤذن وأخرس صوت المرتل ، ويشكو محرابها الجوى لمنورها ، والفتيان الذين قاتلوا فى بطولة ، وكان الموت أحب إليهم من الحياة ، والفتيات الجميلات اللاتى انتهى بهن المطاف جوارى ومحظيات فى بيوت الكافرين ، يستغثن ولا مغيث ، ويستحجن ولا مجير ، ونساء عجائز يكابدن الجوع والظماً ، وشيوخ شاب شبيهم . وسيدات شابات تمنين الموت قبل أن يشهدن الذل . وأطفال انتزعوا من حجور أمهاتهم . وأكروهوا على تبديل دينهم ، ويختم قصيدته بأنه كان يتمنى لو لم يولد فلا يلفحه حر مصابها . فلا خير فى عيش أعذب منه الموت ، ثم يتساءل : أتبعث رندة من جديد ؟ أتعود مسلمة كما كانت . ويسمع فيها صوت المؤذن عالياً ؟ . لقد أحدث سقوطها رجّة فى

بطاح الأندلس ومدنها وثغورها ، ولبس الجميع الحداد عليها ، وأحياؤها تبدى الأسى ، جمادها يبكي لفرط حزنه ، ولو كان الفراق يهلك لذابت جبالها ، وغاضت بخارها ، حزنا على فرقة دينها .

والخوارج الثانى يدور حول رثاء مالقة وما حولها ، وكانت أهم مدينة بقيت فى أيدي المسلمين ، فى جنوب الأندلس على البحر الأبيض ، والميناء التجارى والبحرى الأول لمملكة غرناطة . وسقطت فى يد النصارى عام ٨٩٢ - ١٤٨٧ م . أى بعد سقوط رندة بعامين ، وبسقوط هذه المدينة الحصينة توالى سقوط المدن والحصون حولها ، فسقطت الغرنية وبلش عام ٨٩٢ هـ - ١٤٨٧ م ، والمنكب وهى على البحر الأبيض . وكانت مصيف بنى نصر ملوك غرناطة ، وسقطت عام ٨٩٤ هـ - ١٤٨٩ م ، ووادى آش . وسقطت فى يناير ١٤٩٠ م ، وبسطة وسقطت عام ٨٩٥ هـ - ١٤٨٩ م . وغرناطة وسقطت فى ٢ من يناير عام ١٤٩٢ ، وهى آخر مدينة سقطت . ومعها سقطت دولة الإسلام فى الأندلس . ولو أن الشاعر سبق بها ذكرا كلاً من بسطة ووادى آش . ويبدأ الشاعر هذه القسم فجأة ، بعد أبيات سبقته تشي بأن القصيدة انتهت . وعدد أبياته اثنان وعشرون ، عرض فيه لسبع مدن . من مملكة غرناطة ، خص كل واحدة بيتين ، وذهبت غرناطة وحدها بعشرة أبيات ، وفى حديثه عن المدن السبع لم يتجاوز بأفكاره أن مغانيها أقفرت ، وعاد سكرها علقماً ، وأسكرها الهول ، أما غرناطة فهى دار العلى ، وقرار الملك ، والحضرة العليا ، ليس لها مثيل فى العراقين ، ولا فى بلاد الله أجمع ، غلبها الأسى ، فالأمام والمأموم ، والزائر والمقيم ، كلهم فى مأتم ، والناس فى صعب من الهول ، والبنات بواكى الأعين مذعورات .

والخوارج الثالث كان رثاء المريّة ، وسقطت كما قلنا قبل عام ٩٨٤ هـ - ١٤٨٩ م . أى قبل سقوط غرناطة بأزيد من عام تقريباً . والحديث فيها متصل بما قبله لا فجوة فيه . ولو أن الترتيب التاريخى غير مراعى ، ومن الصعب تحديد نهاية الأبيات بها مباشرة ، ويمكن القول أنها شغلت من القصيدة كلها ثمانية عشر بيتاً . وجعل منها خاتمة المطاف ، رغم أنها سقطت قبل مدن أخرى سلفت . وهو لا يريد أن ينساها لأنها موطن آبائه

الكرام ، وأول أرض غذاه خيرها ، ويطلب من أصدقائه أن يودعوها ، أو أن يكلوا أمرها لمن يحسن الدفاع عنها ، ثم يحمل الداهيين إليها تحيته ، وهنا يأخذ في بيان أسباب النكبة : لقد ضاعت الأمانة ، وأضاع الناس حقوق الرب ، وكان العصيان وراء استيلاء العدو على بلادهم ، فسلب منهم أوطانهم ونفوسهم ، وأصبحت أموالهم فيثا له . ويشير إلى أن استيلاء العدو عليها كان بلا ثمن ، لم يأخذها في حرب ، ولم يقدم لها تضحيات ، وإنما هبط عليهم في أعداد كثيرة ، كموج البحر لا تنتهى ، نذرت قتال المسلمين ووفت بنذرهما ، وأن ما وقع للمسلمين كان نتيجة لمقدمات وقعت ، ولن تتغير الأولى إلا إذا تغيرت الثانية .

والخبر الرابع يدور حول استنقار المسلمين في الأندلس وخارجها لإنقاذها ، وجاء في ستة وعشرين بيتا ، ويدعوها بدعوة أهل الدين أن يهبوا ، لأن الدين هُد من ركنه ، وزُرع من أكنافه ، ودبت الأفاعى إلى كل مؤمن ، وغصّت أكباد كل تقى ، وينادى المسلمين عربا وعجبا ، يستنفرهم للجهاد ، فهو فرض ، ويهيب بهم أن يرجعوا إلى الدين . وأن يتوبوا ويصدقوا ويصبروا ويردوا الظلمات ، وأن يطهروا نفوسهم ويستعدوا ليوم اللقاء ، أسودا على خيل ضامرة ، يربع الأعداء زئيرها ، شجعاناً يودون لقاء الله تحت ظلال السيوف ، وأن يضربوا كالهوام ، ويطعنوا في المهج ، ويؤكد على أن الله لن يخذل أمة تدين بالحق ، ثم يحذر : أما إذا لم تفعلوا فترقبوا سخط الله ، وأياما تفيض بالذلة والفرقة واهتضام الحقوق ، وحينئذ يأخذ المشركون كرائهم وخير أموالهم ، ومعها لا خير في العيش ، وقد مرأطيه ، وبقي أمره وأسوأه ، ويومها لا يبقى أمامهم إلا أن يمدوا أكف الذل خائفين ومرعوبين ، وإذا لم يُقل رب العباد عثارهم ، فهذا العدو الضخم سوف يأتى عليهم .

والخبر الخامس والأخير : دعاء . وجاء في خمسة عشر بيتاً ، توجه فيها إلى رب العالمين . يطلب غوثه . ويستشفع برسوله ، ويصلى على المختار من آل هاشم ، ويطلب عونه وعفوه وتأيبه ، وأن يرسل على العدو الرزايا ، وأن يشتت شمل الكفرة ، ويختمها بالصلاة على خير البرية وصحبه .

○ من صاحب القصيدة ؟

والبحث عنه هنا لا يعنى ذكر اسمه ، فذلك لا يتأتى إلا إذا ذكره التاريخ صراحة وهو ما لم يفعله ، أو أشار المؤرخون إلى ما يعين عليه وهو ما نفتقده ، لأن هذه القصيدة لم ترد ، فيما أعلم ، حتى هذه اللحظة فى غير مخطوطة الجزائر ، والفترة كلها لم تجد مؤرخا يدون أحداثها بعد وفاة لسان الدين بن الخطيب ، وسبقت الأحداث بمئة عام تقريبا ، إذا استثنينا فقرات نجى هنا أو هناك ، من كتب ضاعت ، أو وثائق سياسية لم تظهر ، وكلها تتصل بالتاريخ السياسى ، وما نهدف إليه هو تحديد هويته وموطنه عن طريق تحليل القصيدة ، وفى هدى من أبياتها .

أول ما يرد فى خاطر : هل القصيدة لشاعر واحد أو لجملة من الشعراء ؟ لا شئ يحول تاريخاً دون أن يكون واحداً ، لأن الفارق بين سقوط رندة أول مدينة ذكرها ، وغرناطة آخر مدينة استسلمت . لا يتجاوز سبعة أعوام . ولكن من جانب آخر يدرك المرء للوهلة الأولى أن القصيدة ليست بمستوى واحد فنيا وحرارة عاطفة ، فالقسم الأول الذى بكى فيه رندة جيد متسق ، وتعكس أبياته حزن مكثوم حقا . وجاء أطول أقسام القصيدة ، ويأتى بعده ودونه مرتبة وعدد أبيات ، القسم الذى رثا فيه مدينة المرية . وأما الأبيات التى بكى فيها مألقة وما حولها . وغرناطة وأقسامها فباردة فاترة . والشاعر فيها عجل يريد أن يخلص من واجب إلى غاية ، فهو يسجل سقوط هذه المدن عجلا لينتهى منها إلى غيرها . ولذلك جاءت رغم كثرة المدن التى تعرضت لسقوطها أقل الأقسام أبياتا . وفيما يبدو جاء بها ليصل ما بين شعره فى سقوط رندة وحديثه عن المرية ، وبكاء هذه الأخيرة أجود مما سبقه ، ولكنه دون الشعر الذى أشده فى رندة . ثم حاول أن يرتفع بإيقاعه شيئا وهو يستنفر المسلمين للجهاد ، ولكنه لم يبلغ من الجودة ما بلغه فى أول القصيدة وإن تجاوز الثانى وكان فى مستوى القسم الثالث . ومع الأخير منها يلوذ بدعوات عادية ليس فيها من الشعر إلا أنها جاءت فى أوزانه وقوافيه .

ورغم هذه التفاوت بين انفعال وآخر فى أجزاء القصيدة ، فإن قائلها واحد ، فيما

أرى ، وأرجح ظنا يقرب من اليقين أنه من المرية ، يذكر ذلك صراحة في القسم الذى أوقفه عليها :

فيا أصدقائي ودعوها كريمة أو استودعوها من إليه أمورها
منازل آبائي الكرام ومنشئ وأول أوطان غذائي خيرها
واقروا عليها من سلامي تحية يجدد لها آصالها وبكورها

نعم إن ناسخ القصيدة ، وكان معاصرا للشاعر ولأحداثها ، علق على هامش هذه الأبيات عند كلمة « أو استودعوها » قائلا إن الشاعر يشير إلى مدينة الغربية ، وهو لا يتأتى ، لأن الضمير نحويا يجب أن يعود على أقرب مذكور ، إلا لقريئة ملزمة ، وبين هذا الضمير والغربية أورد أسماء مدن أخرى مثل : المنكب ، والإقليم ، وغرناطة ، ووادي آش ، وبسطة ، ثم المرية أخيراً فلا يمكن أن نتجاوز به هذه الأخيرة ، ونرده إلى مدينة سبقتها بغير مبرر منطقي ، أو شاهد تاريخي ، وبخاصة أن لغة الشاعر سليمة ، وجريه على سنن الإعراب مستقيم .

فالشاعر من المرية إذن ، ولكنه قال القصيدة قبل سقوطها بأعوام ، قالها حين سقطت رندة ، وأثاره أن يستولى النصارى على هذا المعقل الحصين من معاقل الإسلام ، يقوم على قمة جبل الوصول إليه سلماً مشكلة وعسير ، وربما رأى في ضياعها ، رغم صفاتها هذه ، نذير شؤم ، وبداية هزائم لا تتوقف ، وكان هذا ما حدث فعلاً ، ولذلك جاء حديثه عنها حديث مذهول غير مصدق ، وربما كان من دوافعها صدى قصيدة أبي البقاء الرندى ، وهو من المدينة نفسها ، وقالها قبل ذلك بأكثر من مئة عام ، وجاءت قصيدته مثيرة ، وتعبر عن انفعال صادق ، وأخذت مكانها اللائق بها من ذواكر الناس ، وربما من حلقات الدرس ، غير أن هذا لا يمنع أن الشاعر تردد طلباً للعلم ، أو استجابة لدواعي العيش . على أكثر من مدينة في هذا الجانب من الأندلس ومدنه متقاربة ، وجعلت منها الأخطار الخيطة وحدة ، وأكدت المآسى صلات الود والقرى بين الناس فيها .

وقال الشاعر قصيدته ، فيما أرجح ، بعد سقوط رندة مباشرة ، وكانت وفقاً عليها في البدء . وجاءت متميزة في نطاق الكل الذى وصلنا ، وبحس المرء أن قائلها إنسان قهرته

المزينة ، لكنها لم تقض عليه لأنه خارج دائرة الخطر المباشر ، وغلبه التشاؤم ولكنه لم يذهب بإيمانه ولا أضاع أمله ، وأن فيه بقية من رمق ، ويعمل جاهدا على إثارة العزائم وإنهاض الهمم ، ولهذا سلمت هذه الأبيات بناء ولغة ، وارتقت تعبيرا وصورا ، وجاءت أصيلة في الجانب الأكبر من أفكارها . لا تقع فيها إلا على قليل من أفكار وأثر الذين سبقوه .

ولكن الهزائم توالى ، وسقطت مدن أخرى . وسقطت المرية نفسها ، سقط رأسه ، ومنازل آبائه على حد تعبيره ، سقطت بعد رندة بأربع سنين وخمسة شهور ، ويبدو أن الشاعر فارقها إلى العاصمة غرناطة فرارا ، تركها بعد أن سقطت فعلا ، وذلك يعنى أنه لم يكن نكرة في محال الحياة العامة ، لأن غمار الناس أشد التصاقا بمواطنهم ، ويواجهون الأحداث في أماكنهم عادة ، لا يفكرون في الهجرة اختيارا ، ولا يستطيعون لو أرادوا ، وليس لديهم ما يخشون ضياعه خارج حياتهم ، وهى مهددة على الدوام ، إن لم يكن بالموت قتلا في ساحة اللقاء ، فبالموت جوعا أو مرضا تحت ضغط الفقر والحاجة ، والحرب لا تحب وحدها ، وإنما تأتى معها ، وتخلفها ، على نطاق واسع شتى الأوبئة مادية ومعنوية على السواء .

متى قال الشاعر بقية القصيدة ؟ أظنه قالها في غرناطة ، بعد أن استقر فيها لاجئا ، ولكن غرناطة ما لبثت أن لحقت ببقية المدن التى حولها ، وبين سقوطها كلها وسقوط المرية عامان فحسب ، فعاد إلى قصيدته عن رندة يريد أن يكملها ببياء المرية مدينته ، ولكنه رأى مجاملة ، أو فنا ، أو احتراما للتاريخ ، أن يشير إلى بقية المدن الأخرى . وهكذا نفاجأ به يتحدث عن مألقة دون تمهيد . وبعد أبيات سبقتها توحى أنها نهاية قصيدة . ويستعرض فى الأبيات الجديدة موجزا أحوالها ، وأحوال المدن التى حولها . ثم يعرض لغرناطة وما يصاحبها فى أبيات قليلة ، باستثناء العاصمة وكان حظها من الأبيات أوفر . على نحو ما أشرنا . وحين بدأ يتحدث عن المرية مدينته . كان متعب الروح ، مستنفد القوى ، رغم كل دواعى الإثارة ، فارتفع بأبياتها عما سبق . ولكنه لم يبلغ بها أبياته الأولى

في رندة ، وسرعان ما تجاوزها داعيا إلى الجهاد ، ولم يصبر عليه ، فانحدر إلى الجانب السلبي يدعو ويصلى وينتظر قضاء الله .

يمكن إذن أن نقول إن الشاعر بدأ قصيدته بعد سقوط رندة ، وأنه أكملها عام ١٤٩٢ م ، في تاريخ يمكن تحديده بدقة ، لأن مخطوطة الجزائر تحمل تاريخ نسخها ، على ما أشرنا ، وهو يوم الأحد ، العشر الثاني من شعبان ٨٩٧ هـ (= ١٠ من يونيو ١٤٩٢ م) ، وغرناطة ، وعرض الشاعر لسقوطها ، وخصها بعشرة أبيات ، سقطت في اليوم الثاني من ربيع الأول ٨٩٧ = ٢ من يناير ١٤٩٢ ، وبين هذين التاريخين يكون الشاعر قد أكمل قصيدته ، ومع النص الصريح يصبح استنتاج الأستاذ محمد عبد الله عنان . وهو قريب من الدقة ، في أنها كتبت حول عام ٩٠٤ أو ٩٠٥ غير ذي أساس . ومع أن النسخ لم يشر إلى المكان الذي نسخ فيه القصيدة ، يبدو لي أنها نسخت في غرناطة نفسها ، وأن أحد الموريسكيين الذين طردوا من الأندلس كرها عام ١٦١٣ ، أو الذين هاجروا قبلهم اختيارا ، حملها معه إلى الجزائر ، وقد استقر هؤلاء الموريسكيون المطرودون على امتداد ساحل شمال أفريقيا كله ، في المغرب والجزائر وتونس ، ومن يدري فلعل آخرين حملوها معهم أيضا . ولعلنا بشيء من البحث في المخطوطات المسجدة في المكتبات العامة والخاصة تنتظر الباحث والدارس ، يمكن أن نجد منها صورة أخرى ، أو ما يليق على ما معنا شيئا من الضوء .

○ ملاحظات عامة :

يبدو الشاعر متمكنا من اللغة العربية ، وإذا كانت معاني بعض الأبيات غامضة ، فلأننا نعتمد في نشرها على مخطوطة وحيدة ، بعض ألفاظها غير واضح ، وعبثت الإرضة ببعضها الآخر . ونعتمد في الاهتمام إليها على التخمين ، واختيار اللفظ الأقرب إلى الصورة المكتوبة . دون أن نعطي أنفسنا حرية التغير والتبديل ، وهي تجيء في مستوى أرق الشعر الذي نعرفه عن هذه الفترة ، وما سبقها بقليل ، عند أبي البقاء الرندي ، وابن

خاتمة ، وابن الخطيب وابن زمرك ، ولا نعرف شاعراً أندلسياً آخر معاصراً له كان في مستواه .

وهو رجل مثقف ، ولا يبدو عليه أنه فقيه ، أى لم يتخذ هذا المجال حرفة له ، لأن الفقه كثافة عامة كان مشتركاً بين الناس جميعاً ، لأن الدين الحياة نفسها في تلك العصور ، فهو لا يقف طويلاً عند الصور المكرورة التي نألفها في قصائد الشعراء الفقهاء . وفي بكائه لرندة لا يرد هزيمتها إلى الفسق ومعصية الله ، رغم أنه أعطانا صورة مفصلة لما انتهى إليه حالها . ولم يحاول أن يبرر هذا السقوط على نحو ما فعل الآخرون ، ولم يردّه إلى القضاء والقدر أو تقلب الأيام ، ولم يتأس بما حدث للآخرين من قبل . لأن الناس قد يجدون في هذا مندوحة للتواكل والاستسلام .

وفي نهاية القصيدة حين استنفر المسلمين للجهاد رسم صورة دقيقة للعلاج ، وهو العودة عملياً وباخلاص للتعالم الإلهية ، فيحض أخوانه في الدين ينصحهم ويبصرهم بما يجب عليهم أن يقوموا به من التوبة ، وتطهير الأرواح ، والبعد عن المظالم ، وإصلاح الاقتصاد ، والقتال العنيد .

ويعرف داخل كنائس المسيحيين جيداً ، حيث تمثال القديسين ، وصورة العذراء ، ويلم بشيء من طقوسهم ، فأمام هذه التماثيل والصور يركعون ويسجدون ، ويدعون ويطلبون .

ونلاحظ أنه بدأ قصيدته مباشرة ، دون مقدمة من أى لون ، وهو في هذا نسيج وحده ، لأن القصائد التي سبقتها مهدت لموضوعها بأبيات تقصر أو تطول ، ولكن بعض الأفكار مشتركة بينها كلها ، لأنها حدثت في كل المدن التي وقعت في يد النصارى تقريباً ، كتحويل المساجد إلى كنائس ، واسترقاق الفتيات الجميلات ، والتفرقة بين الأمهات والولدان ، ولكن تناول الشاعر المجهول مختلف عن تناول سابقه .

نص المراثية

○ بكاء رندة :

أحقاً خبا من جو رندة نورها
وقد أظلمت أرجاؤها وتزلزلت
أحقاً خليلي أن رندة أقفرت
وهدت مبانيها وثلت عروشها
وكانت عقاباً لا ينال مطارها
هوت رندة الغراء ، ثم حصونها
وقد كن عقدا زين القطر نظمها
وفرق شمل المؤمنين لهيها
تسلمها حزب الصليب وقادها
وقد ذهبت أديانها ونفوسها
فباد بها الإسلام حتى تقطعت
وأصبحت الصلبان قد عبت بها
لقرع النواقيس اعتلى بمنارها
فيا ساكني تلك الديار كريمة
أحقاً أخلائي القضاء أبادكم
فقتل وأسّر لا يفادي وفرقة
لعمير الهدى مبالحشا لفراقكم
ولوعة ثكل ليس يذهب روعها
ونفس على هذا المصاب حزينة
وقلب صديق ماج فيه بلاؤه

وقد كسفت بعد الشمس بدورها
منازها ذات العلا وقصورها
وأزعج عنها أهلها وعشيرها
ودارت على قطب التفرق دورها
ومعقل عز زاحم السر صورها
وأنظارها شعاع ، عز نظيرها
فقد فتح الآن البلاد نثيرها
وقطع من أرحامهم زمهريرها
وكانت شرودا لا يقاد نفورها
وقد دثرت تحت السباء دثورها
مناسبها واستأصل الحق زورها
تمثيلها دون الإله وصورها
كرائه أصوات يروع صريرها
سقى عهدكم مزن يصبو نعيمها
ودارت عليكم بالصروف دهورها
لدى عوصات الحشر يأتي سفيرها
سوى حرق سخم تلظى سميرها
ولا تنقضي أشجانها وزفيرها
يذوب كما ذاب الرصاص صورها
سويداؤه سوداء جم ثورها

سأبكي وما يجدى على الفاتى البكى
شآبيبُ دمعٍ بالدماء مشوبة
عويلا يوافى المشرقين برىحه
فواحسرتا كم من مساجد حُولتْ
ووأسفا كم من صوامع أوحشت
فمحرأبها يشكو لمنبرها الجوى
وكم من لسانٍ كان فيها مرثلاً
وكم من فتى ثبت الجنان مهذبٍ
يصول على الأبطال صولة ضيغمٍ
له فى سبيل الله خير نقيبة
له فى جناب الكفر أجدى نكاية
يُراع له دينُ الصليب وحزبه
وكم أنفسي كانت لديه أسيرة
تحكم فى الشرك وهو موحدٌ
وكم طفلة حسناء فيها مصونة
تميل كغصن البان مالت به الصبا
فأضحى بأيدي الكافرين رهينة
وقد لطمت - واحر قلبي - ! خدودها
وإن تَسْتَعِثْ بالله والدين لا تُعْثُ
وقد حيل ما بين الشقيق وبينها
وكم من عجز يَحْرَمُ الماء ظمؤها
وشيع على الإسلام شابت شيوبه

بعبرة حزن ليس يرقا غيرها
يساجل قطر الغايات درورها
وثكلاً بأقارٍ قد اطفئ نورها
وكانت إلى البيت الحرام شطورها
وقد كان معتاد الأذان يزورها
وآياتها تشكو الفراق وسورها
وحفلٍ بختم الذكر تمضى شهورها
يود المنايا وهو كان يديرها
فيرهبه شبل الشرى وهصورها
تُزان له عين الجنان وحورها
وشعواء غارات يُثاب مغيرها
ويُجزى بها غنصالها ورَمِيرها^(٣)
فأضحى لعمُر الله وهو أسيرها
كما قد قضى جبارها ونذيرها
إذا سفرت يُسبى العقول سفورها
وقد زانها ديباجها وحريرها
وقد هتكت بالرغم منها ستورها
وقد أسبلت - وادمع عيني - شعورها
وإن تستجر ذا رحمة لا يُجيرها
وأسلمها آباؤها وعشيرها
على الذل يطوى لبثها ومسيرها
يمزق من بعد الوقار قديرها

(٣) رمير Ramero وغنصال Gonzalvo ، من الأسماء الأسبانية فى الصورة التى كان ينطقها العرب ، وبها كان يسمى عدد

من ملوكهم وقوادهم .

تود لو انضمت عليها قبورها
أساها ، وعين لا يكفُ هديرها
فأكبادُها حراء ، لفحُ هجيرها
وهل يتبع الشيطان إلا صغيرها
سيلا إلى العسرى يحيفُ كفورها
عواقبُها محذورة وشروها
ويا لعمى عين رآها بصيرها
ويا عثرة أنى يقال عثورها
بليت ولم يلفح فؤادى حرورها
ويغبط قل الأهل فيه كثيرها
أيرجى على رغم العداوة نشورها
لأرجائها يشفى الصدور صدورها
معالمها تعلو بذاك عقيرها
على الرغم ، أغنى من لديها فقيرها
وحق لديها محوها وذورها
مدائنها موتورة وثغورها
وأحجارها مصدوعة وثغورها
ملابس حُسنٍ كان يزهو جبورها
يكاد لفرط الحزن يبدو ضميرها
لذابت رواسبها وغاضت بحورها
بشير الأنام المصطفى ونذيرها

وكم فيهم من مُهجة ذات ضجة
لها روعة من وقعة البين ، دائم
وكم من صغير حيز من حجر أمه
وكم من صغير بدل الدهر دينه
وكم من شقي يَسرت هذه له
كروب وأحزان يابن لها الصفا
فيافرحه القلب الذى عاش بعدها
ويا غربة الإسلام بين خللاها
ويا ليت أمى لم تلدنى وليتى
وما خير عيش يعذب الموت دونه
فياليت شعرى بعد ماصح موتها
ويا لمة الإسلام هل لك عودة
وهل تسمع الأذان صوت الأذان فى
ويا لعزاء المؤمنين لفاقة
لأندلس ارتجت لها وتضعضت
منازلها مصدورة وبطاحها
تأتمها مفعوعة ونجودها
وقد لبست ثوب الحداد ومزقت
فأحياؤها تبدى الأسى وجأها
لو أن ذا إلف من البين هالك
على فرقة الدين الذى جاءها به

○ رثاء مألقة وما حولها :

فألقة الحسناء ثكلى أسيفة قد استفرغت ذبحا وقتلا حُجورها

وَجَزَّتْ نَوَاصِيهَا وَشَلَّتْ يَمِينُهَا
وَقَدْ كَانَتْ الْغَرِيْبَةُ الْجَنْزَنَ الَّتِي
وَبَلَّشُ قُطَّتْ رِجْلُهَا يَمِينُهَا
وَضَحَّتْ عَلَى تِلْكَ الثَّنِيَّاتِ حَجَرُهَا
وَبِاللّٰهِ إِنْ جِئْتَ الْمَنْكَبَ فَاعْتَبِرْ
وَسَكَّرْهَا قَدْ بَدَّلَ الْيَوْمَ عَلَقَمًا
وَعَرَجٌ عَلَى الْإِقْلِيمِ فَاْبَكَ رُبُوعَهَا
وَوَدَعَ بِهَا وَفَدَّ النَّعِيمَ فَلَانِهَا
وَبُدِّلَ بِالْوَيْلِ الْمَبِينِ سُرُورُهَا
تَقِيَهَا فَأَضْحَى جَنَّةَ الْحَرْبِ سُرُورُهَا
وَمِنْ سَرِيَانِ الدَّاءِ بَانَ قَطْوَرُهَا
فَأَقْفَرَ مَغْنَاهَا وَطَاشَتْ حَجُورُهَا
فَقَدْ خَفَّ نَادِيهَا وَجَفَّ نَضِيرُهَا
لَهَا رَجَّةٌ ، نَارُ الْهَيَامِ تَثِيرُهَا
يَسْحَبُ يَضَاهِي الْمَعْصِرَاتِ خَرِيرُهَا
لَهَا أَدْمَعٌ ، فَيُنُ الدَّمْعِ يَمِيرُهَا

○ بكاء غرناطة وما حولها :

أَلَا وَلِتَقْفُ رَكْبُ الْأَسَى بِمَعَالِمِ
بِدَارِ الْعَلَى حَيْثُ الصِّفَاتُ كَانَهَا
مَحَلُّ قَرَارِ الْمَلِكِ غَرْنَاطَةَ الَّتِي
فَمَا فِي الْعِرَاقَيْنِ الْعَتِيقَيْنِ مِثْلُهَا
تُرَى الْأَسَى أَعْلَامُهَا وَهِيَ خُشَعٌ
وَمَأْمُومَهَا سَاهِي الْحَجَى وَإِمَامُهَا
لَهَا حَالُ نَفْسٍ قَدْ أَصِيبَ قَوَادِمُهَا
فَأَنْفَسَهَا فِي الصَّغِيِّ دُونَ إِفَاقَةٍ
وَقَدْ ذُعِرَتْ تِلْكَ الْبَنِيَّاتُ حَوْلَهَا
وَقَدْ رَجَفَتْ وَادِي الْأَشْيِ فَبَقَاعُهَا
وَبَسْطَةُ ذَاتِ الْبَسْطِ مَا شَعَرَتْ لَهَا
عَلَى عَظْمِ بِلَوَاهَا وَطُولِ وَبَالِهَا
قَدْ ارْتَجَّ بِأَدْيَاهَا وَضَجَّ حَضُورُهَا
مِنْ الْخَلْدِ وَالْمَأْوَى غَدَتْ تَسْتَظِيرُهَا
هِيَ الْخَضِرَةُ الْعَلِيَا زَهْتَهَا زَهْرُهَا
وَلَا فِي بِلَادِ اللَّهِ طُرَا نَظِيرُهَا
وَمَنْبَرُهَا مُسْتَعْبِرٌ وَسَرِيرُهَا
وَزَائِرُهَا فِي مَاتَمٍ وَمَزُورُهَا
وَبَنَتْ لَهَا الْيَمْنَى وَحَمَّ تَبُورُهَا
كَنَفَسِ كَلِمِ اللَّهِ إِذْ ذُكَّ طَوْرُهَا
فَهَنْ بَوَاكِي الْأَعْيُنِ الرَّمْدِ مُورُهَا
سَكَارَى وَمَا اسْتَكَتْ بِخَمِيرِ ثَغُورُهَا
دَهَاها ، وَأَنَّى يَسْتَقِيمُ شُعُورُهَا
وَمَا كَابَدَتْ مِنْ ذَا الْمَصَابِ ثُغُورُهَا

○ رثاء ألمرية :

وما أنس أنس لا أنس ألمرية إنها
 فلو أحرق الثكلُ المصابين أصبحت
 فيا أصدقائي ودّعوها كريمةً
 منازلُ آبائي الكرام ومنشئ
 واقروا عليها من سلامي تحيةً
 أماناتها ضاعت فضاعت رقابها
 أضعنا حقوقَ الرب حتى أضاعنا
 وملّتنا لم نعرف الدهر عرفها
 بما قد كسينا نالنا ما أنالنا
 بشقوتنا الخذلانُ صاحب جمعنا
 بعصياننا استولى علينا عدونا
 نعم سلبوا أوطاننا ونفوسنا
 علوها بلا مهارٍ وما غمزت لهم
 وقد عوت الإفرنج من كل شاهقٍ
 وقد كشرت ذؤابانها وكلابها
 وجاءت إلى استئصال شأفة ديننا
 علاماتُ أخذٍ مالنا قيلُ بها
 فلا تنمحي إلا ببحر أصولها

قتيلةٌ أوجالي أزيل عذارها
 تأجج من حر الوجيف بجورها
 أو استودعوها من إليه أمورها
 وأول أوطانٍ غذاني خيرها
 تجددتها آصالها وبسكورها
 لقله عميت عينٌ تبدد نورها
 وفُضت عرى الإسلام إلا يسيرها
 من النكر فانظر كيف كان عريفها
 كذا السيرة السوأي لدى من يسيرها
 ويؤنا بأحوالٍ ذميمٍ حضورها
 وعاشت بنا أسدُ العدا ونمورها
 وأموائنا فيئاً أبيض وفورها
 قناةٌ ولا غارت عليهم ذكورها
 علينا فوقت للصليب نذورها
 وقد كسرت عقبانها ونسورها
 جيوشُ كموج البحر هبت دبورها
 جنياتُ أخذٍ قد جناها مثيرها
 ولا تنجلي حتى تخط أصولها

○ استنفار :

معاشر أهل الدين هبوا لصعقةٍ
 أصابت منار الدين فانهد ركنه

وصاعقةٍ وارى الجسمَ ظهورها
 وزعزع من أكنافه مستطيرها

أدارت على غربيّه الدهر أكّوسا
ودبت أفاعيها إلى كل مؤمن
أنادى لها عَجَمَ الرجالِ وعُربها
وأستنفر الأذى فالأذى فريضة
على كل محتاجٍ لفضلِ دفاعها
ألا وارجعوا يا آل دين محمد
أنبوا وتوبوا واصبروا وتصدقوا
ومن كل ما يُردى النفوس تطهروا
ألا واستعدوا للجهاد عزائمًا
بأسدٍ على جُرْدٍ من الخيلِ سَبَقِ
بأنفسِ صدقٍ موقناتٍ بأنّها
ترومُ إلى دار السلام عرائسًا
وضربِ كأن الهام تَحْتَ ظلالها
وطعنٍ يرى الخطي في مُهَجِ العدا
يمن هدىً إن تتقوا الله تُنصروا
فلا يَخْذِلُ الربُّ المهيمن أمةً
وإن أنتم لم تفعلوا فترقبوا
وأبام ذل واهتضام وفرقة
وأهدوا للدين الشرك كل خريدة
وكل نفيسٍ من نفوسٍ كريمة
وحق العظيم الشأن لا عيش بعدها
فترفع شكواها لعالم سرها
تمد أكف الذل في باب عزه
فإن لم يُقل رب العباد عثارتا

فظاعا بسُكْر الدهر تقضى خمورها
وعضّ بأكبادِ التّقاء عقورها
نداء سِراة القفر إذ ضل غيرُها
على زمير الإسلام جلت أجورها
فليس يؤدى الفرض إلا نفيها
إلى الله يغفر ما اجترحت غفورها
وردوا ظلمات يبيد نقيها
فليس يُزكى النفس إلا طهورها
يلوح على ليل الوغى مستيرها
يدعُ الأعادى سبقها وزئيرها
إلى الله من تحت السيوف مصيرها
على الله في ذاك النعيم مهوورها
حائلة نور الورد ذر ذورها
كأقلام ذات الخط خطت سطورها
وتعظوا بأمالٍ يشوق غيرُها
تدين بدين الحق وهو نصيرها
بوادٍ سُخط ليس يرجى فتورها
يطاول آناء الزمان قصيرها
خبثها على طول الليالي خدورها
وأعلاق أموالٍ خطير خطيرها
بلايا يمر الطيات مرورها
فليس لها في الخبر إلا خيرها
بأفئدة خوف الفراق يطيرها
فهذا العدو الضخم حتمًا يبيرها

○ دعاء :

إله الورى ، ندعوك ياخيرَ مرتجى
 وشقتْ جيوب المؤمنين وأسخت
 وليس لها ياكاشف الكرب ملجأ
 أغث دعوات المستغيثين إنهم
 وليس لهم إلا الرسولُ وسيلة
 أمأم الهدى ، بحر النداء ، قامعُ العدا
 محمدُ المختارُ من آل هاشم
 دعوناك ، أملناك ، جئناك خُشعا
 بجاه العظيم الجاه أدرك ذمنا
 وعفوَ وتأييد ونصر مؤزر
 ولطفٌ وتسديدٌ وجبرٌ لما مضى
 وأرسلُ على هذا العدو رزيةً
 يُشتت شملَ الكفر تشتتِ نعمة
 وصلُّ على خير البرية أحمد
 وأصعابه الشهب الهداة وآله

لكالحة هز الصليب سرورها
 عيونهم والكفر ظل قريها
 إذا لم يكن منك التلاقى ظهرها
 ببابك موقوفو الحشاشات بورها
 شفيع الورى ، يوم التنادى بشيرها
 وأول رسلِ الله فضلا أخيرها
 سراجُ السموات العلى ومبهرها
 بأنفس استولى عليها قصورها
 برحمى يُحلى المؤمنين شذورها
 وعزة سلطانِ يروق طريها
 يدلُّ به من كل عادٍ كسيرها
 يروح ويغدو بالبوار مبهرها
 وينظم شملَ المؤمنين حصيرها
 وأكرمُ من قد أجبته ظهرها
 صلاةً مع الآناء يزكو عيرها

○ زاهد من المرية :

أبو العباس بن العريف وكتابه محاسن المجالس

● نشر أسين بلافيوس هذه الدراسة في مجلة جامعة مدريد عام ١٩٣١ .
المجلد الثالث ، الصفحات ٤٤١ - ٤٥٨ ، وأعيد نشرها ثانية في أعماله
المختارة ، المجلد الأول ، الصفحات ٢١٧ - ٢٤٢ . مدريد ١٩٤٦ .
وترجم الدراسة نفسها إلى اللغة الفرنسية ف . كفليرا
F. Cavallera وجعل منها مقدمة لترجمته لكتاب محاسن
المجالس ، ونشر مع الترجمة النص العربي ، وكان الكتاب الثاني في سلسلة
« النصوص غير المنشورة المتصلة بالتصوف الإسلامي » . باريس ١٩٣٣ .

● حياته (١٠٨٨ - ١١٤١) (١) :

اسمه كاملا : أحمد بن محمد بن موسى بن عطاء الله ، يكنى أبا العباس ، ويعرف
بابن العريف ، من قبيلة صنهاجة ، بطن من حمير العربية في الغرب ، وأبوه محمد أصلا

(١) المصادر التي اعتمدنا عليها في هذه الدراسة هي :

- ابن بشكوال ، الصلة ، الترجمة رقم ١٧٥ (١٧٦ في طبعة القاهرة ١٩٦٦) .
- الضبي ، بغية الملتبس ، الترجمة رقم ٣٦٠
- المعجم لابن الأبار ، الترجمة رقم ١٤
- أحمد بابا ، نيل الإبهاج ، ص ٣٠
- ابن خلكان ، وفیات ، ٩٣/١ ، وترجمة دي ملان ١٥٠/١ ، والخطوط رقم ٧٦ ، الورقة ٣٧ وجه ، ورقم ٢٠٢ ، الورقة ١٤ ظهر ، من مجموعة جياجموس ، وتوجد في مجمع التاريخ في مدريد . وتوجد معلومات متفرقة عن علماء الحديث الذين تلقوا عن ابن العريف في :
- تكملة الصلة لابن الأبار ، ص ٥٦ - ٧٢ و ١٧٤ و ٢٠١ و ٢٠٣ و ٢١٠ و ٢١٩ و ٥٦٠ و ٥٧٠ و ٦٤٥ و ٦٦٣ و ٧٠٢ . وانظر طبعة ابن شنب ، الصفحات : ٧٤ و ١٠٣ و ١٣٤ و ١٨٥ و ١٩١ . وانظر أيضا : جامي ، النضجات ، طبعة ليس ، ص ٦١٥ و ٦١٦ .

من طنجة^(٢) ، وكان بقصبة المرية في رجال ابن صمادح ، عندما كانت المدينة عاصمة إحدى إمارات الطوائف تحت حكم أسرة معن بن صمادح ، وحكمت من ٤٣٣ هـ = ١٠٤١ هـ = ١٠٤١ م إلى ٤٨٤ هـ = ١٠٩١ م .

وقد صرف الوالد ابنه إلى مهنة يدوية تحت ضغط بعض الصعوبات المالية ، فدفعه في صغره إلى حائك يعلمه ، حتى يلتقط منه أصول المهنة ، ولكن الصبي كان ينفر من أى عمل إلا حفظ القرآن ودرسه ، والإقبال على الكتب بنهم . وبين التهديد والمنع أوشك الأب أن يضيع مواهب ابنه ، وأن يذهب بكل جهده في الدرس والتحصيل ، وأخيراً تركه حراً يمارس ما يريد تبعاً لرغبته ، وأصبح الفتى « نسيج وحده »^(١) ، وفيما بعد ، مع الزمان وبعد مرور أعوام ، اعترف الوالد بخطئه ، وتعود أن يقول للمعجبين بابنه ، بعد أن يشير إلى خطاه الأولى في طريق التعليم : « رأى ابني كان أرشد من رأيي ، إني لأعلم أني به أكرم » . وفي المرية قرأ ابن العريف القرآن ، ودرس التفسير . وسمع الحديث ، على يد أساتذة ثقة ، وتكون ذوقه الأدبي ومعارفه اللغوية في كتاب الفصوص لصاعد البغدادي^(٤) ، وسرعان ما تأهل وتصدى لتدريس هذه المواد ، فاقراً في المرية ثم في سرقسطة ، وبلنسية ، وشغل في هذه الأخيرة وظيفة محتسب بعضاً من الوقت ، واشتهر بمهارته في الكتابة ، وجودة الخط فكان يكتب سبعة خطوط لا يشبه بعضها بعضاً . ولكن شهرته لا تعود إلى هذه المهارات الفنية ، ولا إلى سعة ثقافته في العلوم الدينية ، ولكن لأن « عنده مشاركة في أشياء من العلم وعناية بالقراءات وجمع الروايات ، واهتمام بطرقها وحملتها » ، فهو فقيه ومحدث ، وعارف بطرق الإسناد

(٢) المخطوطة رقم ٧٦ من مجموعة جيانجوس ، الورقة ٣٧ وجه ، نقول : وإنما سمي والده بالعريف لأنه كان بطنجة صاحب حرس الليل ، وعريف القوم القيم بأمره .

(٣) استخدم ابن الأبار هذه الكلمة في معجمه ، الترجمة رقم ١٤ ، وفيها تورية ، فهي تشير إلى مهنة النسيج التي أرادها والده على تعلقها ، وإلى أنه تميز في حياته ، دون مثيل .

(٤) ألف صاعد هذا الكتاب للمنصور بن أبي عامر ، وعاش في بلاطه ، وحظي برعايته ، ويضم نصوصاً عربية من الشعر والنثر ، علق عليها لغويًا ونحويًا ، في محاولة منه لتقليد كتاب النوادر لأبي علي الفارسي . انظر : ياقوت ، معجم الأدباء ، طبعة مرحوليوت ، في ذكرى حب ، ٦ ، ج ٤ ، ص ٢٦٦ .

والرواية . وإلى جانب ذلك هو شاعر مرتجل ، « وشعره في طريقة الزهد كثير » . وفوق هذا كله ، يقول الذين ترجموا له : إنه « إمام في الزهد ، عارف محقق » ، ويستهدون بولايته وفضائله المختارة ، وكافأه الله عليها بجائله وكراماته .

وكانت مدينة المرية^(٥) في ذلك العصر البؤرة الأولى للصوفية والزهاد في الأندلس ، ولم تتلاش المبادئ الصوفية لمذهب ابن مسرة ، وظلت قائمة دينيا خلال القرون التي تلت وفاة مؤسسه في عدة مراكز ثقافية في جنوب إسبانيا . وفي قرطبة بخاصة ، وفي بجانة أيضا ، وهي قرية صغيرة قرب المرية ، على الشاطئ الأيمن من النهر الذي يحمل اسم المدينة . وظهر في المرية ، قبل ابن العريف بسنوات ، زاهد آخر ، هو محمد بن عيسى . ونال شهرة واسعة ، وكان يبشر في الشوارع والميادين بفكرة صوفية قوامها الوحدة الصوفية بين الله والروح ، في دعوة صريحة إلى تأليه الكون . ومع بداية القرن السادس الهجري ، وفي أوج حكم المرابطين ، أصبحت المرية العاصمة الروحية لكل الصوفية الإسبان ، ومنها خرجت الصرخة الأولى والوحيدة في احتجاج جماعي على إدانة الغزالي وإحراق كتبه . وقد حرّمها فقهاء قرطبة التقليديين ، واعتبروها مؤلفات زنديقة ، وكانت هذه الكتب قد دخلت إسبانيا في حياة مؤلفها ، غير أنها أسلمت إلى النيران بقرار رسمي من سلطان المرابطين يوسف بن تاشفين . ولكن علماء الكلام في المرية بزعامة البرجي أصدروا فتوى أدانوا فيها موقف ابن حمدين قاضي قرطبة ، لأنه أمر بإحراق كتب الغزالي . ولم يحدث أن بلغ احتجاج الصوفية من أتباع الغزالي وأنصاره ، في أية مدينة أخرى ، القدر من الجراءة الذي أظهره علماء المرية ، لا في مراكش ولا فاس . ولا قلعة بني حماد^(٦) ، واكتفى صوفية هذه المدن بالاحتجاج فرادى ، وجماعة همسا في مجالسهم الخاصة .

(٥) انظر : أسين بلايوس : ابن مسرة وملتعبه ، مدريد ١٩١٤ ، ص ١٠٨ ، وص ٢٤٢ في المجلد الأول من أعماله المختارة ، مدريد ١٩٤٦ . وجولد تسيهر : ابن البرجان ، في ZDMG المجلد ٦٨ ، عام ١٩١٤ ، ص ٥٤٤ .
(٦) قلعة بني حماد في الجزائر المعاصرة ، وكانت عاصمة الدولة الحمادية في العصور الوسطى ، وفيها حرر ابن خلدون تاريخه الشهير .

في هذا الجو من الحماسة الدينية تكونت روح ابن العريف ، ولو أننا لسوء الحظ لا نعرف أسماء شيوخه في مجال التصوف ، لأن الذين ترجموا له من رجال الحديث والفقه بخاصة اهتموا بإيراد الأخبار التي تتصل بتكوينه في المواد التي تهتمهم هم أنفسهم فحسب ، تاركين جانبا كل ما يتصل بالمذهب الصوفي لابن العريف ، والمصادر التي استعملها . والشئ الوحيد الذي أشاروا إليه أنه أنشأ طريقة ، انخرط فيها سريعا عدد كبير من الأتباع ، وكانوا يتدفقون على المرية من مختلف بلاد الأندلس ليضعوا أنفسهم تحت إمرة شيخها .

لا يمكن القطع بأنه كان بين هذه المجموعة من التلاميذ المباشرين والمريدين الصوفيان اللذان سوف يُضطهدان فيما بعد ، مع ابن العريف ، لأفكارهما الصوفية ، ولكن المؤرخين وكتاب التراجم يصرحون نصا بأنها كليهما كانا يمارسان الطريقة نفسها ، وأن الثلاثة خضعوا جميعا للخطر المشترك الذي أصابهم . وكان أحد الاثنين يقيم في غرناطة ، ويدعى أبو بكر محمد بن الحسين الميورقي ، وهي نسبة مردها أن أصله من جزيرة ميورقة ، وهو فقيه ظاهري ومحدث ، وأقام في كل من مكة والإسكندرية عدة سنوات ، ليوسع معارفه هناك ، ولكنه في ذلك الوقت سلك طريق ابن العريف : أوقف نفسه على الزهد ، وأدار نفسه للدنيا .

والثاني أبو الحكم ابن بروجان ، وكان يقيم في إشبيلية ، وهو أصلا من شمال أفريقيا ، وإلى جانب أنه محدث ، كان مثل زميله صوفيا ومن علماء الكلام ، وصرف حياته أيضا إلى التقشف والتقوى ، ومن بين الكتب الكثيرة التي ألفها يشير الذين ترجموا له إلى عدد منها جدير بالذكر والتقدير ، مثل : شرح أسماء الله الحسنى ، وتفسير القرآن الكريم ، وهذا الكتاب الأخير لم يتمه ، ولكن ما كتبه منه وصلنا كاملا ، ولما يزل مخطوطا .

ويتميز ما عُرف من أفكاره الباطنية بالميل إلى حساب حروف الآيات القرآنية بطريق الجمل ، وإخضاع قيمتها العددية لعمليات حسابية مختلفة ، يستخدمها قاعدة للتنبؤ بأحداث المستقبل ، مبهجة أو مخزنة ، وبخاصة الغزوات والانتصارات الحربية ، ويقال إن ابن البرجان تنبأ في تفسيره باستيلاء صلاح الدين على بيت المقدس من الصليبيين .

وبالعام الذى حدث فيه الاستيلاء فعلا . هذه الإشارات هى الوحيدة التى أثارت الشك لدى فى أن ابن العريف كان يقوم أيضا بهذه التنبؤات القائمة على حساب الجمل ، لأن الذين ترجموا له ، على نحو ما أشرنا ، ينسبون إليه طريقة صوفية شبيهة بتلك التى اتخذها ابن البرجآن ، ومع ذلك فإن كتابه محاسن المجالس لا يعكس أى أثر لمثل هذه التكهنات على نحو ما سنرى .

وقد أثارت كثرة تلاميذ ابن العريف وتعصبهم لشيخهم الخوف - ربما - فى نفس السلطان المرابطى على بن يوسف بن تاشفين من ثورة يمكن أن يقوموا بها لصالح شيخهم بهدف توليته الإمارة ، نقول « ربما » لأننا لا نعتمد على وثائق قاطعة ، كالتى اعتمدنا عليها فيما يتصل بابن البرجآن ، والحق أن الشعراى يؤكد فى طبقاته (ج ١ ص ١٥) أن السلطان حكم على ابن البرجآن بالموت لأن ما يقرب من مئة وثلاثين قرية اعترفت به إماما . والمعروف أن كثيرا من الثورات السياسية فى الإسلام تأخذ صورة حركة دينية متعصبة مسالمة ، وهى شكوك تبررها الثورة التى قام بها « المريدون » ضد المرابطين بعد قليل من وفاة ابن العريف . وفى العام التالى لموت ابن العريف كَوّن الشيخ الصوفى أبو القاسم بن قاسى فى كورة الغرب ، جنوب البرتغال الآن ، فرقا من كتائب دينية من مريديه ، وكانوا يحتذون فى السر طريقة ابن العريف ، وبويع إماما فى الرباط الذى أقامه فى مدينة شلب على شاطئ الإطلنطى ، وحقق انتصارات عسكرية ضد المرابطين . وفيما بعد ضد الموحدين أيضا ، وحكم طوال عشر سنين كعاهل لكل الإقليم .

يمكن أن نفهم إذن ، دون مشقة ، المخاوف الشديدة التى أهتم السلطان على ابن يوسف بن تاشفين قبل ذلك باثنى عشر عاما ، من الثقة غير العادية التى بلغتها مواعظ ابن العريف بين سكان مدينة المرية ، والقرى المجاورة لها ، ولكننا لا نعتمد على نصوص حين نقول إن هذه المخاوف السياسية كانت الدافع وراء ملاحقة ابن العريف . ويؤكد الذين ترجموا له أن المبادأة فى هذا جاءت من قاضى المرية ابن الأسود ، حسداً للنجاح الشعبى الذى بلغه ابن العريف ، ومع ذلك فمن الواضح أن القاضى وهو المسئول الطبيعى عن الجرائم التى ترتكب ضد العقيدة السنية كان عليه أن يرفع أمرها إلى السلطان .

ووصلت رسالة ابن الأسود . ورفع الأمر كتابة إلى بلاط مراکش . وأصدر السلطان أمره إلى حاكم المرية بأن يرسل إليه ابن العريف ، وفي الوقت نفسه أصدر أمرين شبيهين ضد تلميذه ، أو رفيقه ، اللذين أشرنا إليهما من قبل ، وهما أبو بكر الميورقي وأبو الحكم بن برجان ، وحُملا على أن يغادرا محل إقامتهما ، الأول في غرناطة ، والثاني في إشبيلية .

أورد لنا مؤرخو ابن العريف قصة سجنه وإشخاصه إلى مراکش في تفصيلات وافية تماما ، وصُغت ، كما هو طبيعي ، بتوابل من ألوان المعجزات والأساطير ، وقد أنفذ حاكم المرية أوامر السلطان فوضع ابن العريف في سفينة اتجهت به إلى مدينة سبتة . ولكن القاضي ابن الأسود أقنع الحاكم بأن من الأوفق ألا يذهب المتهم مطلق السراح ، وإنما يجب وضع القيد في قدميه ، وحيث أنه أسرع الحاكم فأرسل أحد وزرائه ليلبغ السفينة في عرض البحر ، فصعد إليها ، ووضع القيود في قدمي ابن العريف . وكانت هذه الطريقة مفاجأة مؤلمة له ، واكتفى بأن صاح : « فليرحبه الله كما أرحبنا » . ويضيف مترجموه : إن رسول الحاكم عندما ألقع عائدا إلى ميناء المرية ، بعد أن قيد ابن العريف بالسلاسل ، اعترضته سفينة معادية ، مسيحية على التأكيذ ، وحاصرتة ، وأخذته أسيرا . وعندما هبط ابن العريف في ميناء سبتة بلغه في الوقت نفسه رسول من السلطان يحمل أوامر صريحة بإطلاق سراحه في الحال ، وعندما وجد زاهد المرية نفسه حرا ، طليقا من القيود ، أدرك أن السلطان لا يريد أن يتحمل اثم المظالم العنيفة التي أوقعها عليه إلى ما لا نهاية .

لقد أسرف حكام المرية على أنفسهم دون شك ، وغيرتهم الواضحة أدت بهم إلى كراهية ابن العريف ، وقد انتزع منها السلطان حين عرف المزيد من الكرامات والفضائل التي يزدان بها ابن العريف ، ويقولون إن زاهد المرية صاح لحظتها : « أنا لا أريد من السلطان أن يعرفني ، أما وقد عرفني فعلا ، فمن الضروري أن أراه » . وفي الحال أخذ طريقه إلى بلاط المرابطين في مراکش ، واستقبله السلطان بكل مظاهر الحفاوة والإجلال ، وأفعمه بآيات التوقير والتكريم ، وعندما سأل ابن العريف ما إذا كان يرغب في شيء كى يحققه له ، أجابه : « لا أريد شيئا ، فقط دعوني أذهب حرا حيث أشاء » ، وسارع السلطان فأمر بأن يترك حرا كما يريد ، ولكن كل شيء فيما يبدو كان عبثا ، فبعد أيام

من وصوله ، أصابه المرض ، وتوفى في مراكش نفسها ، ويقدم لنا المؤرخون تفسيرين لموته : بعضهم يراه موتا طبيعيا ، وآخرون يرون أنه مات مسموماً .

لقد رأى قاضى المرية ، ابن الأسود ، فشل غاياته الحاقدة ضد ابن العريف . فالسلطان أحسن إليه ، وأغدق عليه ، ففكر أن يحتال في أمره ، وأن يقدم له في الطعام بذئجانا مسموما ، فمات منه في مراكش عام ٥٣٦ هـ = ١١٤١ م . ولكن أحد تلاميذه المخلصين ، أبا عبد الله الغزال المرتضى ، يرى أن التفسير الأول هو الأصح والأدق ، وأن شيخه رحل عن دنيانا في ظروف طبيعية ، وأن وفاته كانت في مدينة سبتة نفسها ، قبل أن يُقَادَ إلى مراكش ، ولو أن كل الذين ترجموا له يجمعون على أنه دُفِنَ في هذه المدينة الأخيرة ، وأن قبره كان إلى جوار قبر ابن البرجان ، والذي توفى في مدينة مراكش أيضا ، بعد أيام قليلة من دعوة السلطان له ، مثله في ذلك مثل ابن العريف^(٧) .

أحدثت شهرة ابن العريف وليا ، والظروف الغامضة التي توفى فيها ، أثرا عميقا في نفس السلطان ، وبخاصة عندما دفن زاهد المرية ، فقد حزن عليه الناس حزنا عميقا . وتدفقوا في أعداد هائلة يريدون أن يصحبوا النعش إلى مقره الأخير ، وتندم على أنه أعار سمعه لاتهامات قاضى المرية ضد ابن العريف ، وشك في أمر القاضى ، وأمر بإجراء تحقيق حول ما حدث وأسبابه . وجاءت التقارير تؤكد كلها اضطهاد قاضى المرية لابن العريف ، وتردد ذلك إلى غيرته وسوء دخليته ، وأنه افتعل التهمة بهدف إخراجه من المدينة وقتله ، وحين فشل في تحقيق غايته دس له السم . وحلف السلطان حينئذ أن يطبق على ابن الأسود حكم القصاص ، وأصدر فعلا أوامره المناسبة بأن يقيد وأن ينفي إلى السوس الأقصى . حيث مات مسموما ، بنفس الطريقة التي قتل بها ابن العريف .

(٧) نضيف المخطوطة رقم ٧٦ من مجموعة جيانجوس ، الورقة رقم ٣٨ وجه ، أن ابن العريف دفن قريبا من المسجد الجامع العتيق ، الذى فى وسط مراكش ، فى روضة القاضى موسى بن حمه الصهاجى ويحدد ابن شكوال تاريخ وفاته الدقيق وأنه وقع ه ليلة الجمعة ، صدر الليل ، ودفن يوم الجمعة الثالث والعشرين من صفر ، سنة ست وثلاثين وخمسمائة هـ أى فى ٢٧ سبتمبر ١١٤١ م . أما تاريخ مولده فأشار إليه ابن خلكان ، وهو عام ٤٨١ هـ . يوم الاثنين ٢ من جادى الأولى أى فى ٢٤ يولية ١٠٨٨ م . وطبقا له أيضا ، توفى ابن العريف وله من العمر ثلاثة وخمسون عاما .

○ مؤلفات ابن العريف :

لم يشر أحد من الذين ترجموا لابن العريف ، إسبانا أو أفارقة أو من المشاركة ، إلى مؤلفاته . وكل ما هنالك أن ابن خلكان ذكر بصفة عامة ومبهمة أن له مؤلفات في التصوف ، دون أن يذكر العناوين ، باستثناء عنوان واحد يشير في اقتضاب إلى كتابه « المحاسن » ، ويمكن أن نرد صمت المؤرخين المغاربة إلى أنهم جميعا سنية محافظون أكثر منهم صوفية ، وبالطبع كانوا يهتمون بالكتب التي تتصل بدراساتهم بخاصة مهملين ما عداها . وعلى النقيض من ذلك كان ابن خلكان ، فقد أورد في كتابه تراجم لحياة العلماء والأدباء والساسة وكبار الأولياء في العالم الإسلامي ، وهو يهتم بكل فروع المعرفة دون تفرقة ، ولا يقف باهتمامه عند واحد معين منها . ومع ذلك فإن محيي ابن خلكان وحده في هذا المجال يثير في النفس شبهة أن مؤلفات ابن العريف . إن كانت له مؤلفات أخرى كتبها غير المحاسن ، كانت قليلة الذبوع والانتشار بين الصوفية من مشاركة ومغاربة على السواء . ويمكن أنؤكد أنه خلال قراءاتي الواسعة على امتداد أعوام طويلة لم أجد أحدا يذكر كتاب ابن العريف إلا محيي الدين بن عربي المرسى ، وفي كتابه الفتوحات فحسب ، أما الكتب الأخرى لصوفي المرية فلم أجد لها ذكرا على الإطلاق . وليس مرد ذلك أن الظلام والنسيان ألغيا عليه ستارا حاجبا بعد موته . لأننا نجد في الكتب التي ترجمت له ، مثل كتاب روض الرياحين للبياضى^(٨) وهو من القرن الرابع عشر الميلادي . تشير إلى حالات من كرامات مثالية لابن العريف . ولكن دون أن تشير إلى مؤلفاته ولا مرة واحدة ، حتى ولا إلى كتاب المحاسن . إذن يجب أن نقف عند هذا الكتاب فضلا عن أنه الوحيد الذي وصلنا .

(٨) انظر : كتاب روض الرياحين للبياضى ، طبعة القاهرة ١٣١٥ هـ ، ص ١٥٥ و ٢٠٥ و ٢٠٦ و ٢١٩ . ويذكر القرى في نفع العليب ، طبعة القاهرة ، ص ٣٦١ بعض أشعار ابن العريف .

○ محاسن المجالس ومخطوطاته :

أربع مخطوطات وصلتنا من كتاب « محاسن المجالس » ، الأولى ضمن المجموع رقم ٧٣٢ في مكتبة الإسكوريال ، الأوراق من ٤٢ إلى ٥٤ ، وهى مغربية الخط ، وتحمل تاريخ عام ٧٥٠ هـ = ١٣٤٩ م . والثانية توجد ضمن المجموع رقم ٨٧٢ في مكتبة برلين ، وتشغل الأوراق من رقم ١٤٨ إلى ١٧٣ ، وخطها مشرقى ، وتحمل تاريخ عام ٨٥٩ هـ = ١٤٥٤ م ، ونسخت في الجامع الأزهر بالقاهرة (على يد محمد العجمى بن محمد ابن أحمد الفقاعى) . والثالثة ضمن المجموع رقم ٣٧ في « فهرسة المواعظ » الورقة رقم ٨٢٦ ، في مكتبة بلدية الإسكندرية . والرابعة ضمن مجموع في المخطوطة رقم ١٧٣ ، الورقة ٣٨٧٦ في فهرسة الفنون في المكتبة نفسها . ولم أستطع الوصول إلى المخطوطة الثالثة والرابعة ، أما المخطوطتان الأولى والثانية ، وأشير إليهما بحرفى E و B ، فهما يختلفان بينهما قليلا ، وقد اتخذت من المخطوطة F ، أو إن شئت مخطوطة الإسكوريال . النسخة الأم في الإعداد لطبع الكتاب ، لأنها ذات خط مغربى ، وأقرب تاريخا إلى وفاة المؤلف ، ولكنها على النقيض من الأخرى تقدم نصا مختصرا لكتاب المحاسن فيما يبدو . وأما مخطوطة B ، أو مخطوطة برلين إن شئت ، فتحوى على إضافات وتكملات لنص الإسكوريال ، وعلى الرغم من أنها متأخرة ، وجاءت بعد هذه بقرن من الزمان تقريبا ، وتمثل بخطها المشرقى نسخة بعيدة عن الأصل الأندلسى ، ولكننا فى الحقيقة لسنا بصدد حواش أو هوامش زيدت على النص ، لأننا فى كل الحالات التى تختلف فيها مخطوطة برلين عن مخطوطة الإسكوريال بما أضافته ، نجد الزيادة ليست جملا أو أفكارا مستقلة يمكن عزلها عن محتوى مخطوطة الإسكوريال بل إنها تعطى انطبعا عاما بأنها جمل معترضة ضرورية لفهم المعنى الكلى للفقرة^(٩) .

(٩) احترام كلتا المخطوطتين ، مخطوطة الاسكوريال ومخطوطة برلين ، له أصول تاريخية ، فى زمن ابن عربى المرسى كانوا يتداولون نص الكتاب فى مخطوطتين أيضا ، انظر الملحق فيما بعد ، الفقرة التى نقلناها من الفتوحات ، ج ١ ص ١١٩ .

والخلاف الجوهري بين مخطوطتي الإسكوريال وبرلين يتصل بنهاية الكتاب ، فمنذ الورقة ١٦٦ ظهر إلى الورقة ١٧٣ ظهر ، تقدم مخطوطة برلين خاتمة طويلة لا نجد لها في مخطوطة الإسكوريال ، ونجد في هذه بدلا منها فقرة موجزة للغاية في الورقة ٥٢ ظهر ، ولو أنها توأمت النص السابق عليها ، لكن ليست لها صلة على الإطلاق بالخاتمة التي توجد في مخطوطة برلين . وأجرؤ على الظن بأن هذه الخاتمة وبخاصة الورقة ١٦٦ وجه ، تكلمة من ناسخ مخطوطة برلين ، لأنها لا تعدو كلها أن تكون تعدادا طويلا للكرامات التي خص الله بها الصوفي في حياته وفي الآخرة (الورقة ١٦٠ وجه إلى الورقة ١٧٠ وجه) وأضاف إليها أربع صفات جوهرية لمن يريد أن يبلغ حد الكمال : العلم بذات الله ، والعمل المتقن ، والإخلاص ، وخوف الله (الأوراق من ١٧٠ وجه إلى ١٧٣ وجه) .

ومن الواضح إذن أن مادة هذا التعليق ، وحتى أسلوب الكاتب ، ليس فيها أى شئ خفى ، وإنما هي مجرد تعليق لمن كتبها ، بعيدة عن منهج كتاب المحاسن ولغته .

○ ترجمة الكتاب إلى الإسبانية :

حاولت في ترجمتي الإسبانية لكتاب محاسن المجالس أن أعكس فكر المؤلف في أصالته ، وأن أنقل مذهبه بكل أمانة ، وهو أمر صعب للغاية فيما يتصل بنص صوفي عربى تكثر فيه المصطلحات ، وليس لها دائما مقابل في اللغة الإسبانية ، وكلمة عربية واحدة أترجمها أحيانا في جملة طويلة إلى حد ما ، وقد آثرت هذه الطريقة على أخرى تكتفى بكتابة اللفظ العربى فحسب دون ترجمته ، وهذه الطريقة وهى شائعة وعامة بين المستشرقين الأوربيين تستهدف الدقة في تحديد المصطلح ، وهى غاية محمودة بالتأكيد ، ولكنها تخيب أمل القارئ العلمانى ، فيما أرى ، لأنه يجهل اللغة العربية ، وتقنية الصوفية الباطنية ، وله الحق فى أن يأمل وينظر من المستشرقين أن يقدموا له انعاكاسا لحتوى النص تقريبا على الأقل ، وليست ترجمة رياضية دقيقة للنص العربى . لأن مجرد كتابة اللفظ العربى فى أحرف لاتينية بدع القارئ العلمانى ، أى غير المتخصص ، فى غموض كامل ، وهو فى الوقت نفسه غير مفيد دائما للمتخصص ، الذى يستطيع فى كل الحالات أن يعود

إلى الأصل العربى ، وفضلا عن ذلك فإن الفقرات الغامضة والموجزة ، والتي تحتاج إلى توضيح علقت عليها أو فسرتها فى الهامش . والنصوص القرآنية التى ذكرها المؤلف دون أن يشير إلى السورة ورقم الآية وضعها بين علامتى تنصيص ، وتكثر الهوامش التى أتيت بها لتساعد أيضا على التعريف بالشخصيات وعصور مؤلفى الصوفية ، ويفيض النص بالكثير من أخبارهم وحكمهم . والزيادة التى فى مخطوطة برلين على مخطوطة الإسكوريال رأيناها مفيدة ، وترجمناها فى المكان الذى وردت فيه ، ووضعناها بين خاصرتين ، ومثلها فى ذلك أية كلمة أخرى وُجدت فى الأول ولم توجد فى الثانى .

○ تحليل كتاب محاسن المجالس .

○ أهميته ، وأسلوبه الأدبى :

الموضوع الرئيسى لهذه الرسالة دراسة منازل طريق التصوف على النحو التالى : المعرفة ، والإرادة ، والزهد ، والتوكل ، والصبر ، والحزن ، والخوف ، والرجاء ، والشكر ، والمحبة ، والشوق . وفى الفصل الثالث عشر أوجز ابن العريف كل مذهبه ، وأضاف إلى هذه المنازل العشرة منزلتين أخريين لا يوجدان فى الفصول السابقة ، وهما : التوبة والأنس .

وإذا صرفنا النظر عن العدد ، وهو يختلف فى مؤلفات الصوفية من كتاب إلى آخر ، فإن المنازل التى يدرسها ابن العريف لا تقدم بأسمائها التقنية الخاصة ، ولا بمعانيها الجوهرية ، أى جديد يتصل بالمذهب التقليدى فى التصوف الإسلامى ، جدير بأن يلفت النظر إليه ، منذ ذى النون المصرى ، وهو الذى أبدع وأدخل الفكرة قبل ابن العريف بثلاثة قرون . وإنما تعود أصالة « محاسن المجالس » إلى التوجيه الباطنى لتطورها ، أكثر من عودتها إلى المذهب نفسه . والفصول الأول ، والثانى عشر ، والثالث عشر . ذات فائدة قصوى فيما يتصل بهذا الأمر ، ويجب أن تدرس قبل بقية الكتاب .

نستنتج ، مع قراءة آية ، أن ابن العريف لم يؤلف كتابه « محاسن المجالس » لعامة الذين يأملون بلوغ الكمال الصوفى ، حتى ولا لأولئك الذين لا يزالون يسلكون طريق

الكاملين ، وإنما للذين بلغوا غاية الاتحاد فحسب ، ويتمتعون بالحدس ، أو المعرفة الروحية ، ومن هنا ، فإن المنازل كلها ، فيما يرى ابن العريف ، ما عدا هذا الأخير ، ومنزل الحب ، درجات غير كاملة ، من خواص عامة العلانيين . وهذا الموقف الأرستقراطي له سوابق في التصوف المشرق ، ولكن لم يحدث أبداً ، فيما أعلم ، أن اتخذوه معياراً وحيداً عند دراسة الموضوع . وفي الحقيقة لا تنقصنا إشارات متناثرة تتصل بهذا الرأي بين الدارسين السابقين ، فأبو نصر السراج في كتابه « **اللمع** » ، والقشيري في رسائله ، يشيرون إلى آراء الصوفية الذين يفسرون بعض المنازل بهذا المعنى ، ولكننا نعتقد أنه لا توجد دراسة منهجية تطبق ذلك المعيار في تصنيف كل المنازل ، وبطريقة منظمة .

وطبقاً لابن العريف ، فإن العارف الذين يبلغ الاتحاد المحوّل ، ويصل فيه إلى القناعة بأن الله وحده يوجد حقاً ، ومن ثم فلا شيء مما نفكر فيه عنه ، أو نشعر به ، أو نريده ، أو نعلمه ، له وإنما منه . والمنازل ، وهي حالات فاضلة ممن يطمح في الاتحاد ، تفقد في نظره كل قيمتها ، ويراها أبعد ما تكون وسيلة صالحة لتحقيق الغاية ، وأنها عوائق وحواجز تمنع الاتحاد ، لأنها ليست الله قط . والمسافة اللانهائية التي تفصل الكائن الخالد ، عن الكائن الفاني ، والخالق عن المخلوق ، تضطرنا إلى أن نرفض أي شبه بين الطبقتين من الكائنات ، وتحول دون أية محاولة فعالة للوصول إلى الله بوسيلة ليست الله . وعظمة الكائن الخالد واللا نهائي هي كذلك ، حتى أنه وحده الكائن ، على حين أن المخلوقات عدم في ذاتها ، ونفهم إذن ، فيما يرى ابن العريف ، أن أفعال التقي وأحوال أو منازل الصوفي ، ليست عبثاً فحسب ، وإنما هي مؤذية ، عندما يأمل معها تحقيق الاتحاد ، والتي تمتنع لعظمة الله على أي مخلوق . وفضلاً عن ذلك ، فمن وصل إلى الله لا يمكن أن تكون له إرادة ، ولا أمل ولا رغبة ، في أن يحصل على ما يملكه فعلاً .

وإذا تأملناها كلها تحت هذا الموشور ، وفي الضوء النافذ لهذا المبدأ ، فإن كل المنازل تكتسي لوناً من الغموض والتناقض الظاهري في نظر العارف .

ويفقد الزهد معناه عند العوام في أنه مجرد « حبس النفس عن الملهذات ، وإمسакها بعد تفريق المجموع ، وترك طلب المفقود ، وعن فضول الشهوات ، ومخالفة دواعي

الهوى ، وترك ما لا يعنى من كل شئ» ، ليأخذ في طريق الخواص معنى دقيقاً وممتازاً ، يتمثل على الحقيقة في « صرف رغبة القلب إليه ، وتعلق الهمة به ، والاشتغال به عن كل شئ » . **والتوكل** ، وهو ترك الإرادة ، والثقة في الله ، ينتهى بتلاشى فضيلة الرضى السامية في الإرادة الإلهية ، والروح خالية من أية رغبة شخصية فيما يتصل بأفعالها ، لا تحتاج إلى أن تنخلى في الله إرادة لا تملكها . وليس **للصبر** معنى أيضاً فيما يتصل بالعارف ، لأنه مقتنع بأن القوانين الإلهية تستهدف في النهاية خير البشر ، وحتى المصائب إذا نظرنا إليها كامتحان تنتهى إلى صالحهم ، ومن ثم فهي أخيراً ليست مادة صالحة للصبر .

ولا يجد العقل الكامل أيضاً سبباً واضحاً للحزن ، لأن البهجة في الاتحاد تبتدئ كل كآبة ، فمن كان مع الله لا يمكن أن يشاق إلى أى شئ يفتقده أو يتمناه ، وفضلاً عن ذلك ، فإن حزن العارف يمكن أن يعبر عن نفسه في لحظات معدودة ، حين يشعر فيها بالعبودية التي لا يزال يخضع لها تحت نير الروح الحساس ، والشئ نفسه يقال عن الخوف ، فلا المصائب الحاضرة ، ولا العقاب المتوقع ، تؤثر فيه ، لأنه يتأمل فيها الله الذى أوقعها ، وذلك التأمل يبدد في الروح كل الخوف ، ويحيله إلى بهجة حلوة ، وزد على هذا أن العارف يستشعر خوفاً وقوراً أمام جلال الله ، يظهر له خلال التأمل ، ولكنه ليس الخوف الدليل ، وهو من خصائص العبيد لا العاشقين . **والرجاء** والشوق أيضاً لا تجدان لها طريقاً إلى روح الكامل ، لأنه متحد ، ليس عليه أن يأمل أو يرغب في أن يحصل على ما يملك ، ولا أن يشاق إليه ، كما لو كان يفتقده ، وأمله --- إذا كان لديه شئ منه --- عطش لا يرتوى إلى الوحدة التي تسكره .

وبقى **الشكر** ، ولا يزال أقل تفسيراً بالنسبة إلى الصوفى المتأمل ، غارقاً في التفكير في الله ، لا يمكن أن يرى في الأشياء المخلوقة فائدة ولا نقيضها ، لأنها كلها من عند الله ، لأن جود المعطى وجماله المطلق يمنعه أن يميز فيها بين « المنحة والمحنة ، والنعمة والشدة ، ومن جانب آخر فإن الشكر يمثل محاولة غير وقورة لتعويض الله عن خيره ، ويراها الخواص « قياماً بمكافأة المعطى ، وهرباً من رق المنة ، واستراحة من حق الجود ، وأداء لحق

النعمة » ، « مع أن الشكر لا طريق إلى القيام به ، ولا سبيل إلى الخروج عن عهدته واجبه ، فإنه يتناهى ولا ينتهى ، إذ شكرك الله تعالى على النعمة نعمةً مستجدة ، يجب له عنك فيها الشكر ، فالشكر يفتقر إلى الشكر ، فتنى تقوم بحقه » .

والحجة وحدها هى المنزل الجدير بالأصفياء ، ولكن يجب أن تُستلهم لا فى الفوائد العائدة ، لأن هذا هو حب العامة ، وإنما فى جلال الله وجماله المطلق نفسه ، متأملاً فى الاتحاد منزهلاً ، وهذا الحب لا نهاية له ، ويحل عن الوصف « والحجة الصادقة لا تظهر على الحب بلفظه ، وإنما تظهر بشمائله ولحظه ، ولا يفهم حقيقتها من الحب سوى المحبوب ، لموضع امتزاج الأسرار والقلوب » ، « وإنما عين الحقيقة عند القوم أن يكون قائماً بإقامة الحق له ، محباً بمحبته له ، ناظراً بنظره له ، من غير أن يبقى منه بقية تقف على رسم ، أو تناط باسم أو تتعلق بأثر ، أو توصف بنعت ، أو تنسب إلى وقت » . وبما أن هذا التجلى ، ولذة الحب التى تقع من المختارين فى الحياة الأخرى ، ليست ممكنة حتى يُفنى الموت فى التركيب الإنسانى العنصر الجسمانى ، وهو فان وهالك ، لكى يترك الروح باقية فحسب ، وهى خالدة ، فكذلك الأمر فى الحياة الدنيا ، لا يمكن تحصيل الاتحاد بالحب حتى تتلاشى الروح وتنفى ، وتقضى فى مجال الإحساس على كل ما هو متغير وفان ، سواء أكان إحساساً أو جسدياً أو روحياً لكى يترك باقياً فحسب ما هو خالد من الروح ، أى الفكر وحب الله .

وهذا الموقف البطولى فى ترك كل ما هو غير الله ، بما فى ذلك الأحوال الصوفية ، والمنازل ، والألطف ، والمواهب ، والكرامات ، التى تتلقاها الروح من عند الله ، جدير بأن نبرزه لأهميته الفريدة فى تاريخ الروحانيات الإسلامية .

لقد قلنا إنها لا تنقصها السوابق فى مذهب الصوفيين المشاركة ، الذين جاءوا قبل ابن العريف ، ولكن إليه يعود الفضل فى أنه أعطاها طابعاً منهجياً ، وطبقها بقوة على كل منزل على حدة ، وعليها كلها مجتمعة ، من منازل الحياة الروحية . ودون شك فإن التصوف الأندلسى ، وورث فكر ابن العريف ، وتراث مدرسة المرية ، حافظ بقوة على هذا الموقف الزهدى نفسه ، عبر القرون ، وأورثه المدرسة الشاذلية ، وكان ابن عباد

الوندى ، من القرن الرابع عشر الميلادى واحداً من أواخر ممثليها . وجعل منه جوهر كل الحياة الروحية الإسلامية ، وسبق بها بقرن كامل من الزمان سان خوان دى لا كروث ، قبل أن يجعل منها الشئ نفسه فى الحياة المسيحية .

ودون رغبة فى أن نأتى على المصادر البعيدة لهذا الزهد فى كل ما هو غير الله للوصول إلى الله ، وهى إنجيلية ، لا يمكن أيضاً أن نتوقف لنشير إلى الخطر البالغ من أن ذلك الموقف الذى عرضنا له ، من السهل إذا بالغنا فيه أن يتحول إلى « طمأنينة » . والواقع أنه فى الإسلام ، كما فى المسيحية ، تكثر الأمثلة لهذا الانحراف المؤسف . والحدود التى تفصل بين الطمأنينة وبين ترك الإرادة ، أو إسقاط التدبير ، فى المسيحية غير دقيقة ولا واضحة المعالم ، وليس من الغريب أبداً أو غير المفهوم ، بين مثل هذه الآمال الروحية . فالروح مقتنع بالعدم ، ويفهم وجودها ذاته أمام الحقيقة اللانهائية والكلية لفعالية الكينونة الإلهية ، وهى السبب الوحيد لكل ما هو موجود ، ومن السهل إذن أن يتكس ذلك الشعور بالتواضع المسيحى ، وأن يفنى فى يقين عملى بالألا فائدة ولا فعالية فى أى عمل مخلوق . وخدمة الله ، كما لو أن أعمالنا لا تساوى شيئاً ، تلخص التفانى المسيحى ، على حين تلخص كل خدمة الله بالنسبة إلى المطمئن فى « الترك » و « الفاقة » ، لأن أعماله الذاتية كلها لا تساوى شيئاً ، ما دامت نتيجة حتمية ، ولا مناص منها ، للسبب الإلهى وحده . ولهذا ثمة إبهام كامن فى كثير من الحكم الصوفية ، مسيحية كانت أو إسلامية ، التى تشير إلى هذا الموضوع الصعب ، ويقول ابن العريف : « إنما عين الحقيقة عند القوم أن يكون قائماً بإقامة الحق له ، محسباً بمحبته له ، ناظراً بنظره له ، من غير أن يبقى منه بقية تقف على رسم ، أو تناط باسم ، أو تتعلق بأثر ، أو توصف بنعت ، أو تنسب إلى وقت » . الإبهام فى هذه ، وفى جمل أخرى كثيرة فى كتاب المحاسن ، حبل بايناءات الطمأنينة ووحدة الوجود ، تفسر محاباة الصوفى المرسى ابن عرى لأستاذه ابن العريف صوفى المربة ، وأشرنا إليها من قبل ، وفى كتابه « الفتوحات المكية » بخاصة يشير إلى كتاب « محاسن المجالس » لابن العريف أكثر من مرة ، ليوثق ، أو يعطى قيمة ، أشد نظرياته جرأة عن فكرته فى وحدة الوجود الحضورية . وهو سبب آخر يجعلنا نعطى ابن العريف ورسائله أهمية

أكبر في نطاق تاريخ التصوف ، فلا أحد يجهل التأثير الخصب الذي أحدثه ابن عربي في تطور نظرية وحدة الوجود الإسلامية في العالمين العربي والفارسي على السواء .

لقد أشرنا في إيجاز خالص إلى الخطوط الرئيسية في كتاب محاسن المجالس ، وأهميته لتأريخ التصوف الإسلامي ، وبقي القليل فيما يتصل بأسلوب ابن العريف الأدبي في تحرير الكتاب ، لقد سار على الخطة التي فرضها على نفسه في المقدمة ، فنبى فكرة كل « منزل » بالوان من الوثائق المختلفة ، كآيات من القرآن الكريم ، أو أحاديث نبوية ، أو حكم من أعلام الصوفية ، وحكايات وأحوال الأنبياء ، والأولياء ، وقصائد غزلية استخدمها في مواطن صوفية ، وجمل شخصية مقنعة كخيطة رئيسي يربط بين الوثائق البعيدة .

وغنى عن القول أن الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، التي كان يستشهد بها في كل خطوة ، كان يعطيها دائماً تفسيراً مجازياً ، أو موافقاً لفكرته . والمؤلفون وأصحاب الحكم والأمثلة التي استشهد بها ، أو أشار إليها ، هم من الأنبياء : موسى ، ويوسف ، ويعقوب ، وداود ، وعيسى ، أو من الصوفية المشاركة أمثال : أبو يزيد البسطامي ، ورابعة العدوية ، وعتبة الغلام ، والشبلي ، والدقاق . آيات الشعر ، وهي كثيرة على نحو ملحوظ بالنسبة لحجم الرسالة ، مجهولة القائل غالباً ، ولأن بعضها قصير ، وفي غيبة العون الذي يقدمه محتواها ، تقوم صعوبات كثيرة دون تفسيرها ، ولست متأكداً أنني تغلبت على كل الصعوبات . وأخيراً فإن الجمل الموجزة التي أضافها ابن العريف لترتيب الشواهد البعيدة تنسم أيضاً بالغموض ، وهو غموض لا يعود إلى إيجازها فحسب ، وإنما إلى تقنيته الخفية ، وقد حاولت تفسيرها موضحاً في هوامش جاءت أسفل صفحات ترجمة الكتاب .

○ ملحقات :

ألقى العلامة أسين بلاثيوس بدراسته هذه النصوص التي أشار فيها ابن عري في كتابه « الفتوحات المكية » إلى ابن العريف ، وهي : ج ١ ، ص ١١٩ و ٢٢٧ و ٢٩٧ و ٣٦٣ . وج ٢ ص ١٢٨ و ٤٢١ و ٨١١ . وج ٣ ، ص ٥٢٠ وج ٤ ، ص ١٠٥ و ١١٧ و ٧١٤ ، طبعة بولاق ، القاهرة عام ١٢٩٣ هـ . ولم نرفائدة ملحقة في نقلها هنا ، ويمكن للقارئ أن يعود إليها إذا أراد في هذه الطبعة ، وأصبحت الآن نادرة تماماً ، أو إلى الطبعة الجديدة الرائعة التي أصدرتها الهيئة العامة للكتاب في مصر ، بتحقيق الدكتور عثمان يحيى ومراجعة أستاذنا الجليل الدكتور إبراهيم مذكور رئيس المجمع اللغوي ، وهي متوفرة ، وجبت ما قبلها من طبغات ، وتضم فهرس وافية ، ومن السهل الرجوع إليها دون صعاب .

(المترجم)

الفهرس

صفحة

- إهداء ٣
- كلمة ٥
- الأندلس ، تاريخ اسم وتطوره : ٩ - ٢٥
- المسلمون أول من أطلق اسم الأندلس على إسبانيا ٩ - اريبيريا
- وإسبانيا لفظان أطلقهما الإغريق ٩ - رأى الجغرافيين العرب القدامى
- ١٠ - كلمة هيسبيريا ومدلولها ١٢ - رأى دوزى فى أصل كلمة
- الأندلس ١٢ - اضطراب الروايات القديمة ١٤ - اختفاء لفظ إسبانيا
- تماماً طوال العصر الإسلامى ١٨ - متى أطلق اسم الأندلس على إسبانيا
- ١٩ - كيف تطور لفظ « وندال » ليصبح أندلس ٢٢ - انتقال اللفظ
- إلى العربية عن طريق البربرية ٢٤
- تعليق من الأستاذ محمود شاكر ورد عليه ٢٦
- تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية وأخبار مجموعة لمجهول ٣١ - ٤٩
- [دراسة موازنة للمستشرق الأسباني خوليان ريبيرا]
- تعريف بابن القوطية ٣١ - رأى دوزى فى مؤلف كتاب أخبار
- بجموعة وخطأ هذا رأى ٣٤ - تحليل الكتاب وتحديد هوية المؤلف
- ٣٥ - تحليل كتاب ابن القوطية ٤٤ - الاختلاف بين الكتابين ٤٧ .
- القصيدة التى فجرت ثورة ٥٠ - ٧٦

صفحة

بداية الوهن بسقوط الخلافة وقيام دول الطوائف ٥٠ -
 الصنهاجيون في الأندلس وقيام إمارة غرناطة ٥٢ - يهودى يدعى
 صمويل بن النغلة في بلاط الأمير ٥٤ - سياسة صمويل مع الأمير
 والرعية ٥٥ - حماية اليهود وبعث الدراسات العبرية ٥٧ - وفاة الأمير
 حبوس وتولي ابنه باديس ٥٨ - باديس يقع أسير إرادة صمويل ٥٩ -
 وفاة صمويل وقيام ابنه يوسف من بعده ٦٠ - سياسة يوسف وأخطاؤه
 ٦٢ - الحياة الأدبية في غرناطة على عهد بنى زيرى ٦٤ - موقف
 الشعراء من سيطرة اليهود : المنفلت شاعر يمدح اليهود ٦٤ - السيسير
 شاعر رافض ٦٥ . أبو إسحاق الإلبيري : مصادر دراسته ٦٦ - شيوخه
 ٦٧ - وظائفه ٦٨ - إثارته الشباب ضد اليهود ونفيه خارج غرناطة
 ٦٩ - عودته إلى غرناطة وإنشاده القصيدة التي فجرت الثورة ٧٠ -
 العوامل الفنية التي اعتمد عليها ليلغ بقصيدته قلوب مواطنيه ٧٣ -
 قيام الثورة والقضاء على النفوذ اليهودى ٧٤ -

● شاعرة عاشقة . حفصة بنت الحاج ٧٧ ٩٦

المرأة في الأندلس ٧٧ - حياتها ٨٠ - ارتباطها عاطفيا بالشاعر
 أنى جعفر بن سعيد ٨٢ - أمير غرناطة المرابطى ينافس أبا جعفر ٨٥ -
 حفصة شاعرة ٨٧ - ديوانها ٨٩ -

● ابن خاتمة ٩٧ ١٤٧

شاعر أندلسى من القرن الرابع عشر الميلادى
 [للمستشرق الأسبانية سوليداد خيرت]
 حياته ٩٧ - شيوخه ١٠١ - البيئة السياسية والثقافية ١٠٩

مؤلفاته : المؤلفات التاريخية ١١٧ - المؤلفات الأدبية ١١٨ -
مؤلفات لغوية ١١٩ - مخططات الديوان ١١٩ - محتوى الديوان
١٢٣ .

● الأصول العربية لفلسفة رايغونديو لوليو ١٤٨ - ١٧١
[للمستشرق الأسباني خوليان ريبيرا]

الفلسفة العربية مفتاح لمعرفة أصول فلسفة رايغونديو لوليو ١٤٨ -
صلة لوليو بالمسلمين ١٥١ - توثيق الصلة من مؤلفاته ١٥٣ - كبار
الصوفية المسلمين الذين سبقوه : ابن سبين ، وابن هود ،
وابن الفارض ، وابن العفيف التلمساني ، وأبو مدين ١٥٦ - ابن
عربي : حياته وفلسفته ورحلاته ١٥٧ - أوجه التشابه بين عربي
ورايغونديو لوليو ١٦١ .

● الشعر الأندلسي وتأثيره في الشعر الأوربي ١٧٢ - ٢٠٠
[للمستشرق الأسباني أنخل جونثالث بالثيا]

التراث الأندلسي إسهام إسباني في مجال الحضارة ١٧٢ - شعراء
الأندلس ودورهم في الأدب العربي ونماذج من شعرهم في الغزل
والخمرات والوصف ١٧٦ - الزجل والموشحات ١٨٦ - كاهن هيتا
يستخدم شكل الموشحة في كتابه « الحب المحمود » ١٨٩ - تأثير
الموشحات في شعراء التروبادو ١٩٢ - في الشعر القطلوني ١٩٤ - في
البرتغالي ١٩٥ في الإيطالي ١٩٥ في الشعر الإسباني ١٩٦ .

● رثاء المدن والممالك في الشعر الأندلسي ٢٠١ - ٢٢٤
أصول مشرقية : عمرو بن عبد الملك الوراق وأبو يعقوب الخرمي

صفحة

يرثيان بغداد في فتنة الأمين والمأمون ٢٠١ - ابن الرومي يرثي البصرة
بعد خرابها على يد الزنج ٢٠٣ - الوجدان الأندلسي ٢٠٥ - شعر
الحنين ٢٠٧ - ابن حزم يبكي قرطبة بعد خرابها على يد البربر
٢١٢ - رثاء ابن شهيد لها ٢١٥ - رثاء شعراء آخرين ٢١٧ -
خصائص هذا الشعر ٢١٩ - ابن رشيق يبكي مدينة القيروان بعد
تخريب الهلالية لها ٢٢٠ - بكاء ابن شرف لها ٢٢١ .

● رثاء المدن والممالك : في عصر الطوائف ٢٢٥ - ٢٤٩

طابع عصر ٢٢٥ - سقوط طليطلة ٢٢٦ - شاعر مجهول يرثي
طليطلة ٢٢٩ - تحليل القصيدة ٢٣٣ - المعتمد يرثي دولته ٢٣٥ -
ابن اللبانة يبكي دولة العباددة ٢٤١ - ابن عبدون يرثي بني الأفطس
٢٤٥ .

● مرثية بلنسية ضائعة ٢٥٠ - ٢٦٤

سقوط بلنسية في يد السيد ٢٥٠ - دوزي يكتشف المرثية مترجمة
إلى القشتالية ٢٥١ - العثور على ترجمة الترجمة العامية الأندلسية
٢٥٣ - ريبيرا يهتدى إلى صاحب المرثية ويقوم نص الترجمة العامية
٢٥٥ - نص المرثية باللغة العامية الأندلسية ٢٥٧ - ترجمة نصها
الإسباني بالعربية الفصحى ٢٥٩ - نص المرثية باللغة الإسبانية في
الأغاني الشعبية وترجمته ٢٦١ - موازنة بين النصوص المختلفة ٢٦٢ .

● شعر الاستصراخ والاستغاثة ٢٦٥ - ٢٧٥

تداعى دولة الموحدين ٢٦٥ - النصارى يحاصرون بلنسية ٢٦٦ -
ابن الأبار ينشد أمير أفريقية قصيدة بطلب فيها العون ٢٦٧ - تحليل

٣٦٥

صفحة

القصيدة ٢٦٨ - قصيدة أخرى لابن الأبار ٢٧٠ - تحليل هذه القصيدة وتعليق عليها ٢٧٣ .

● أبو البقاء الرندي ونونيته في رثاء الأندلس ٢٧٦ - ٣٢٣

عصر وشاعر ٢٧٦ - مصادر دراسته ٢٨١ - حياته ٢٨٣ -
شيوخه ٢٨٧ - مؤلفاته ٢٩٣ - ديوانه ٣٣٠ - مدائحه ٢٩٨ - تغزله
٣٠١ - شعر الوصف ٣٠٤ - همومه إنساناً ٣٠٧ - فنه الشعري
٣٠٨ - نونيته ٣١٢ - نص القصيدة ٣١٥ - تعليق عليها ٣١٧ - بين
التأثير والتأثر ٣٢٠ .

● مراثية أندلسية مجهولة ٣٢٤ - ٣٤٣

مراثيات ضائعة ٣٢٤ - تاريخ المراثية ٣٢٥ - مخطوطات المراثية
٣٢٨ - أفكار القصيدة ٣٢٩ - من صاحب القصيدة ٣٣٢ -
ملاحظات عامة ٣٣٥ - نص المراثية ٣٣٧ .

● زاهد من المرية ٣٤٤ - ٣٦٠

أبو العباس بن العريف وكتابه محاسن المجالس

[للمستشرق الأسباني ميغيل أسين بلاثيوس]

حياته ٣٤٤ - مؤلفاته ٣٥١ - محاسن المجالس ومخطوطاته ٣٥٢ -
ترجمة الكتاب إلى الإسبانية ٣٥٣ - تحليل الكتاب وأسلوبه ٣٥٤ -
ملحقات ٣٦٠ .

كتب أخرى للمؤلف

- امرؤ القيس، حياته وشعره
الطبعة الخامسة، دار المعارف، ١٩٨٤ م
- دراسة في مصادر الأدب
الطبعة السادسة، دار المعارف، ١٩٨٤ م
- ملحمة السيد، دراسة مقارنة
الطبعة الثالثة، دار المعارف، ١٩٨٣ م
- مع شعراء الأندلس والمتنبي
ترجمة لكتاب المستشرق الإسباني إميليو غرسية غومث، الطبعة الرابعة،
دار المعارف، ١٩٨٥ م
- بابلو نيرودا، شاعر الحب والنضال
دار روز اليوسف، ١٩٧٤ م. [نقد وتعاد طباعته الآن]
- طوق الحمامة لابن حزم، تحقيق
الطبعة الرابعة، دار المعارف، ١٩٨٥ م
- دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة
الطبعة الثالثة، دار المعارف، ١٩٨٢ م
- القصة القصيرة، دراسة ومختارات
الطبعة الرابعة، دار المعارف، ١٩٨٥ م
- الشعر العربي المعاصر، روائعه ومدخل لقراءته
الطبعة الثالثة، دار المعارف، ١٩٨٥ م
- الحضارة العربية في إسبانيا
ترجمة لكتاب المستشرق الإسباني ليفي بروفنسال، الطبعة الثانية، دار
المعارف، ١٩٨٤ م

- الفن العربي في إسبانيا وصقلية
ترجمة لكتاب المستشرق الألماني فون شاك، الطبعة الثانية، دار المعارف،
١٩٨٤ م
- التربية الإسلامية في الأندلس، أصولها المشرقية، وتأثيراتها
الغربية
ترجمة لكتاب المستشرق الإسباني خوليان ريبيرا، دار المعارف، ١٩٨٠ م
- الأخلاق والسير في مداواة النفوس لابن حزم (تحقيق)
دار المعارف، ١٩٨٢ م
- الأدب المقارن، أصوله وتطوره ومناهجه
دار المعارف.

١٩٨٧ / ٤٩٠٣	رثم الإيداع
ISBN ٩٧٧-٠٢-٢١١٣-٩	الترقيم الدولى

٣ / ٨٧ / ١١

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

